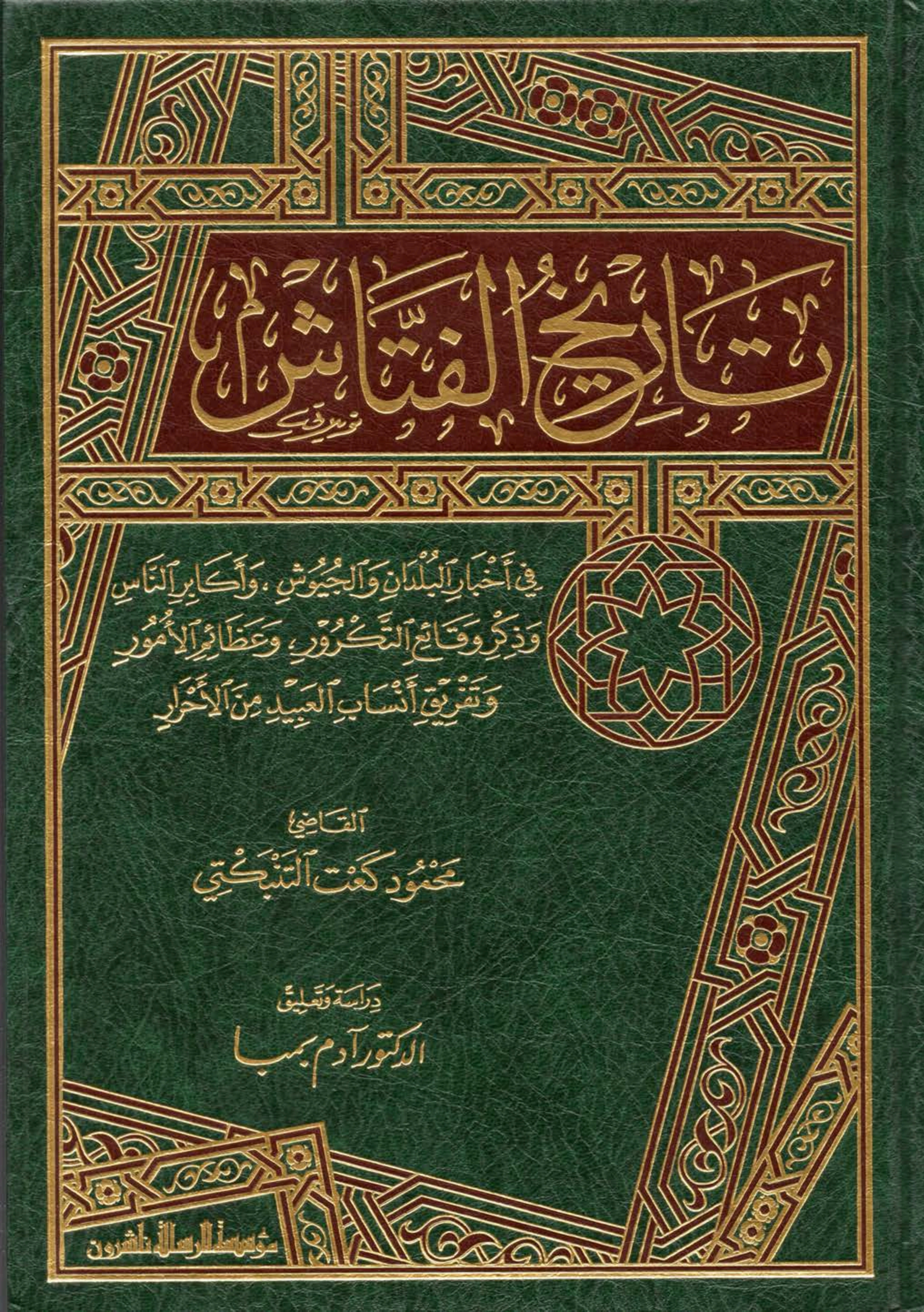

تاريخ الفتاش
في أخبار البلدان والجيوش، وأكابر الناس
وذكر وقائع التكرور، وعظائم الأمور
وتفريق أنساب العبيد من الأحرار
القاضي
محمود كعت التنبكتي
دراسة وتعليق
الدكتور آدم بمبا
مؤسسة الرسالة ناشرون

تاريخ الفتاش

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الرسالة ناشرون

انتشار بألوان الطيف



هاتف: ٢٣٢١٢٧٥ ١١ (٩٦٣)

فاكس: ٢٣١١٨٣٨ ١١ (٩٦٣)

ص.ب : 30597

بيروت - لبنان

هاتف : ٥٤٦٧٢٠ - ٥٤٦٧٢١

فاكس: ٥٤٦٧٢٢ ١ (٩٦١)

ص.ب : ١١٧٤٦٠

Resalah Publishers

Damascus - Syria

Tel:(963) 11 2321275

Fax:(963) 11 2311838

P.O.Box: 30597

Tel: 546720 - 546721

Fax: (961) 1 546722

P.O.Box: 117460

Beirut - Lebanon

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

Http://www.resalah.com

E-mail: resalah@resalah.com

facebook.com/ResalahPublishers

twitter.com/resalah1970

①

ISBN 978-9933-23-207-8





في أخبار البلدان والجيوش، وأكابر الناس
وذكر وقائع التكرور، وعظائم الأمور
وتفريق أنساب العبيد من الأحرار

القاضي
محمود كعت التنبكتي

دراسة وتعليق
الدكتور آدم بمبا

مؤسسة الرسالة ناشرون


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى والديَّ العزيزَيْن..

اللَّذَين علَّماني أنَّ الحياة جدٌّ وكفاح، وحبٌّ وعطاء...

اللَّهم اغفر لهما وارحمهما كما ربَّياني صغيرًا!

إلى شيخي..

الإمام الحاج أبوبكر بالو

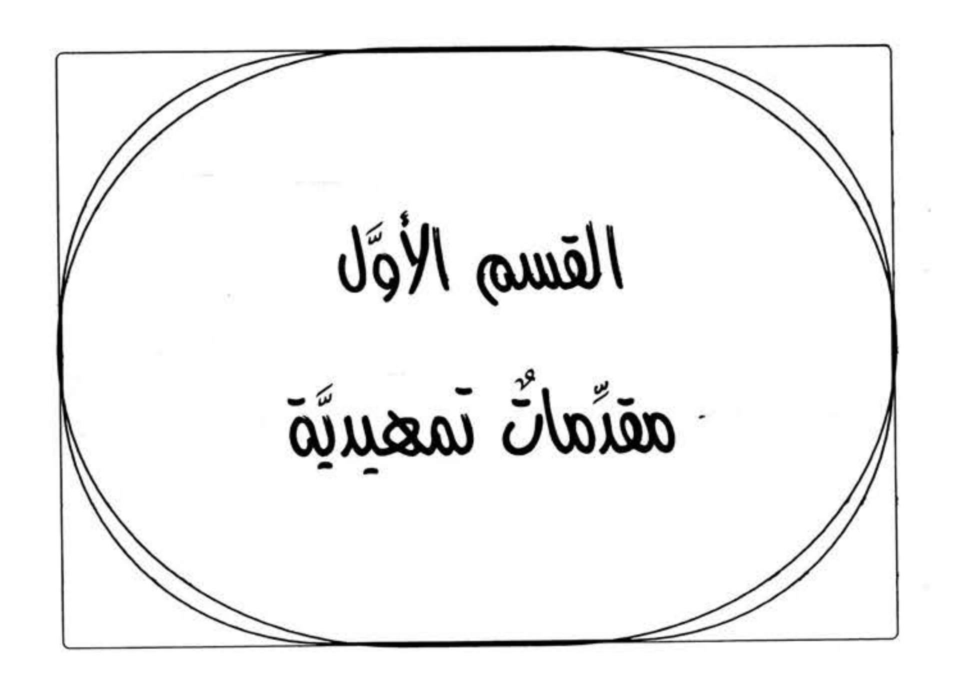
ببلدة كاتانْرا (Katanra-Boundiali) ساحل العاج

لرعايته إيَّاي، صغيرًا وكبيرًا، في طريق العلم؛

فجزاه الله من مُحبٍّ للعلْم وللقرآن، وراعٍ لأهله.

وأمدَّ في عُمْرِهِ بالخَيْر سليمًا مُعافى..

وبارك في عقبه.. آمين!



القسم الأوَّل

مقدِّماتٌ تمهيديَّة

مقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّه المبعوث رحمةً للعالمين.

أما بعد..

فقد كان العزم في إعداد هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن منذ أواخر عام (٢٠١٠م) إثر زيارةٍ علميَّة لنا بالخرطوم - السُّودان؛ للمشاركة في مؤتمر دوليٍّ لتضامن الشُّعوب الإفريقيَّة والعربية، حيث منَّ الله علينا بالعثور على نسخةٍ قديمة مصوَّرة لكتاب الفتاش، وهي الطَّبعة التي حقَّقها المستشرقان الفرنسيَّان: هوداس ودولافوس عام (١٩١٣م). ونظرًا لقِدَم هذه النُّسخة، وكونها مرقونة بالآلة الكاتبة، وخلوِّ المكتبة العربيَّة من طبعة حديثة لهذا الكتاب الذي لا يُستغنى عنه البتَّة في دراسة التَّاريخ الإفريقي الإسلاميِّ، تأكَّد عزمنا في العمل على هذه النُّسخة، وإخراجها بصورة جديدة، مع العناية بوضع تعليقاتٍ موضِّحة لكثير من مفرداته وفقراته. هذا، وقد كنَّا قبلُ في دراساتنا نرجع إلى نصٍّ إلكترونيٍّ لهذا الكتاب في موقع المستشرق جوزيف كيني،[١] وهو موقع يحوي مجموعةً من المصادر التَّاريخيَّة العربية عن إفريقيا، ولكنَّ ذلك النَّص فيه الكثير من الأخطاء الطِّباعيَّة، ولا يطابق ترقيمه ترقيم النُّسخة الأصل. إنَّ كلَّ ذلك لممَّا شجَّعنا على المضيِّ قدمًا في العمل على هذا الكتاب.

بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ مضمون هذا الكتاب حافلٌ بالكثير من الإشكالات والقضايا والأسئلة التي لم توجد لها أجوبة مقنعة حتى الآن على الرغم من مرور

---

(١) http//www.josephkenny.joyeurs.com/NWIndex.htm

قرنٍ كاملٍ على نشر الطَّبعة الأولى لهذا الكتاب المهمِّ، ويرجع ذلك إلى شحِّ المصادر الدَّاعمة في هذا المجال. وتلك قضايا وأسئلة حاولنا - بقدر الإمكان - التَّصدِّي لها هنا على الرُّغم من عدم توفُّر معطياتٍ مصدريَّة تاريخيَّة جديدة بين أيدينا.

في هذا المقام، تجدر الإشارة إلى طبعة حديثة لتاريخ الفتاش بعنوان «المختار من تاريخ الفتاش»،[1] وهو عنوانٌ مثير للغاية، إذا ما عُلم أنَّ كتاب الفتاش لا يجاوز المائة صفحة بكثير، وأنَّ مضمونه قد صيغ بأسلوب تتابُعيٍّ يصعُب اختيار بعضه وترك بعض. فماذا اختار المؤلِّف وماذا ترك؟ وما الدَّاعي إلى هذا الاختيار؟ وقد جهدنا في العثور على هذا الكتاب من المكتبات، ومن النَّاشر نفسه، من لدُن «السَّماسرة الأشباح» لبيع الكتب على شبكة الإنترنت، دون جدوى. والله المستعان!

هذا، وبينما نحن في وضع النُّقاط الأخيرة لكتابنا هذا، علمنا أنَّ دار الكتب العلميَّة ببيروت قد أصدرت طبعة جديدة له؛[2] فأسرعنا إلى اقتناء نسخة وكلُّنا ثقة بأنَّنا سوف نجد فيها إجاباتٍ لبعض الأسئلة والقضايا العالقة بهذا الكتاب تحملنا على النَّظر في عملنا هذا نظرةً جذريَّة، ولكن كم كانت خيبة أملنا كبيرة؛ إذْ فوجئنا بتجنِّي محرِّره الدكتور/ حماه الله ولد السَّالم، على هذا الكتاب، وزيادته الطِّين بلَّة

(١) كتاب: «المختار من تاريخ الفتاش في أخبار الجيوش والبلدان وأكابر الناس»، تقديم ودراسة وتعليق: عبد النعيم ضيفي عثمان، (القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م)، عدد الصفحات: ٩٦، مقاس: ٢٤x١٧.

(٢) عنوانه: تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، للقاضي محمود كعت المتوفى سنة ١٠٠٢هـ/١٥٩٣، وتكملته: «تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان» لابن المختار، تحرير وتقديم: الدكتور حماه الله ولد السالم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، لبنان، ٢٠١٢م/١٤٣٣)، عدد الصفحات: ٣٥٢، مقاس: ٢٤x١٧.

في التَّعتيم على الإشكالات المصاحبة لكتاب الفتاش، وذلك ما سنقف عنده وشيكا.[١]

على كلٍّ، فإنَّنا نأمل أن تكون هذه الطَّبعة من كتاب «الفتاش» إسهامًا متواضعًا في سدٍّ بعض الفراغ في المكتبة العربيَّة، وفي مجموعات المصادر التَّاريخيَّة بإفريقيا، ندلي بها بدلْونا في التَّعرُّض للإشكالات المحفوفة بشخصيَّة مؤلِّف أو مؤلِّفي الفتاش، وما وقع من تحريفٍ محتملٍ لبعض فقراته. كما نأمل أن نسهم بهذه الطَّبعة في تقريب بعض مغاليق هذا الكتاب على القرَّاء من خارج البيئة والثَّقافة الإفريقيَّة، وذلك في مستوى مفردات وتعبيرات ومظاهر ثقافيَّة محليَّة كثيرة يتضمَّنها هذا الكتاب، ويصعُب على مَنْ ليس من ثقافة كاتبه فهمُهما أو تتبُّعها من مصادر خارجيَّة. كلُّ ذلك مع توخِّي عدم التَّدخُّل بين القارئ الكريم وبين ما لا ينبغي التَّدخُّل فيه من النُّصوص في هذا الكتاب.

عملنا في هذه الطَّبعة

• التَّمهيد للنَّص بدراسة نقديَّة تعرَّضتْ لشخصيَّة القاضي محمود كعت، وحفيده ابن المختار، وما أثير حول هذا الكتاب من جدلٍ في نسبته إلى هذا أو ذاك، وما أثاره الباحثون من تشكيكٍ في أصالة النُّسخ الثَّلاث التي اعتمدها المحقِّقان هوداس ودولافوس[٢] لإخراج النُّسخة الحالية للكتاب.

---

(١) ينظر فقرة: «خامسا: وقفة عند مغالطات حديثة حول «الفتاش» و«تذكرة النسيان»، في آخر المبحث الحالي.

(٢) دولافوس (Maurice Delafosse, 1870-1916)، حاكم فرنسي وعسكري بغرب إفريقيا، له كتابات كثيرة في التاريخ وعلم السلالات الإفريقية، أشهر كتبه: Haute Senegal Niger, 1912 درس العربية بباريس وعمل في عدد من دول غرب إفريقيا. أما زميله هوداس (Octave V. Houdas, 1840-1916) فهو عالم سلالات، درس العربية وعلَّمها بمدرسة =

• مراجعة متن الكتاب، وتصحيح ما فيه من أخطاء إملائيَّة أو نحويَّة (في الغالب) مع الإشارة إلى ذلك في مواضعها.[١] أمَّا على مستوى بعض الجُمل والتَّراكيب والأساليب التي قد توصف بالانحراف عن المعياريَّة الآجروميَّة، فقد تركناها؛ نظرًا لصعوبة تصحيحها دون المساس بالصِّياغة الأصليَّة للنَّص.

• ضبط معظم الكلمات بالشَّكل، وخاصَّة أسماء الأماكن والأعلام غير العربيَّة، والمصطلحات المحليَّة.

• وضع هوامش لشرح بعض المصطلحات والتَّعبيرات المحليَّة، والتَّعريف ببعض المواضع الجغرافيَّة، والأحداث التَّاريخيَّة.

• مناقشة بعض الأخبار والمعلومات الواردة في متن الكتاب، بتحليلها ونقدها ومقارنتها بمعطياتٍ داخليَّة في الفتاش نفسه، أو بمعطياتٍ خارجيَّة؛ للوصول إلى فهمٍ أمثَل للنَّص، ووضعه في إطاره الصَّحيح.

• المحافظة على ترقيم الورقات لمخطوط «الفتاش» الأصليَّة كما وردت عند المحقِّقين هوداس ودولافوس، وهي موضوعة بين قوسين معقوفَين في ثنايا النَّص، والمحافظة على هذا التَّرقيم ضروريٌّ؛ لأنَّها هي التي تتمُّ الإحالة عليها في الدِّراسات المتداولة، فأينما ورد [ص...] فالمراد به ورقات المخطوط الأصل، وليس صفحات هذه النُّسخة المطبوعة بين أيدينا الآن.

= اللغات الشرقية، عاش في الجزائر وتونس، ترجم الكثير من المخطوطات التراثية العربية والإسلامية وحقَّقها. (ينظر: Mark R. Lipschutz, Dictionary of African Historical Biography, p53).

(١) الشكر موصول للسيد جوزيف كيني صاحب الموقع الإلكتروني الذي نقلنا منه نصوص هذا الكتاب، مع إجراء الكثير من التصحيحات على النصوص.

• وضع السِّنين الميلاديَّة المقابلة للتَّواريخ الهجريَّة الواردة في هذا الكتاب، وهي تقريبيَّة؛ لما هو معروف من اختلاف رؤوس السِّنين بين النِّظامَين التَّقويميَّين، فقد يكون التَّاريخ المعطى متقدِّما بسنةٍ أو متأخِّرا بها، خاصَّة في المواضع التي يُشار فيها إلى السَّنة دون تحديدٍ ليوم أو لشهرٍ معيَّن فيها.

• وضع ملاحق آخر الكتاب تحوي جدولاً زمنيًّا لأهم الأحداث بصونغاي، وتخطيطًا هيكليًّا لشجرة عائلة سلاطين أسكيا، وسردًا لفترات حُكمهم، وجدولا آخر ببعض الأئمَّة والخطباء والقضاة بصونغاي، ومسردًا أخيرا بأهم المناصب الإداريَّة والعسكريَّة بها.

• وضع كشاف آخر الكتاب يحوي الأعلام والأماكن والمصطلحات المحليَّة الواردة بالكتاب، سواء في متنه أم في الهوامش التي وضعناها، وقد بلغت مفردات الكشاف (٤٦٠) تقريبًا.

• ترجمة بعض المفردات المهمَّة الواردة في «الكشاف» ترجمة صوتيَّة، أو هجاؤها بحسب الهجاء الدَّارج في الدِّراسات غير العربية.

غنيٌّ عن القول إنَّ هذا التَّناول لنص «الفتاش» ليس تحقيقًا له البتَّة؛ إذ لم تتوفَّر بين أيدينا أية نسخة مخطوطةٍ للكتاب، وإنْ كنَّا قد خضنا في معظم الأحيان في إجراءات هي داخلة في حدود النَّشاط التَّحقيقي، مثل تصحيح بعض الأخطاء، وشرح بعض المفردات، واقتراح حلولٍ لبعض الإشكالات.

هذا، ولله الحمد أوَّلاً وآخرًا على نعمة الصِّحة والعافية والفراغ والهداية لهذا العمل. نسأله تعالى أن ينفع به ويجعله خالصة لوجهه الكريم، وأن يغفر لنا ما فيه من هفواتٍ وأخطاء، وألاَّ يحرمنا أجر من اجتهد فأصاب أو أخطأ. إنَّه وليُّ ذلك!

كما نسدي بالشُّكر الجزيل لكلِّ من أعان وساهم في هذا العمل، ممَّن أمدُّونا بالمراجع، وممَّن تفضَّلوا بمراجعة تبيضات هذا الكتاب. نسأل الله تعالى أن يعوِّضهم في أوقاتهم وجهودهم بأفضل وأبقى في الدَّارين... وصلى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.



المبحث الأوَّل:

تاريخ الفتاش: الكتاب الملغز وإشكالاته

على الرُّغم من الأهميَّة التي يحتلُّها كتاب «الفتاش» في تاريخ غرب أفريقيا بوصفه أوَّل سجلٍّ تاريخيٍّ عن بلاد السُّودان الغربيِّ وصل إلينا، فإنَّه لم يرِدْ له ذكرٌ في المدوَّنات المتأخِّرة بالمنطقة، خاصَّة في أعمال الثَّالوث الفوديِّ الذين كان لهم اطِّلاعٌ واسعٌ بالمدوَّنات الإسلاميَّة السَّائرة ببلاد السُّودان الغربيِّ،[1] وكان من المنتظَر أن تظهر لديهم إشارةٌ - ولو عابرةٌ - إلى هذه المدوَّنة التَّاريخيَّة المهمَّة التي حوَتْ جملةً من المباحث التي احتدَّ النِّقاشُ حولها في السِّياق الصُّكتي مثل قضيَّة التَّكفير، والمهديَّة، وقضايا الأموال التي طرأتْ على الدَّولة الإسلاميَّة بعد سقوط الممالك الطَّاغية، وقضيَّة الرِّق... وقد أدلى كلٌّ من الثَّالوث الفوديِّ في هذه القضايا وأمثالها، وأسهبوا في الأخذ والإحالة على ما أمكنَهُم الإحالة عليه من المرجعيَّات المحليَّة ببلاد السُّودان الغربي من كُتب، ورسائل، ووثائق، وأحداث، ولكنَّهم لم يشيروا إلى «الفتاش» قطّ؛ ممَّا يدلُّ على عدم اطِّلاعهم على هذا الكتاب. فما السِّر في ذلك؟ وما الأسباب المباشرة لعدم شيوع أمر هذا الكتاب في الوسط السُّوداني آنذاك؟ تلك أسئلة نؤجِّل النَّظر فيها؛ حتى تتبَلْوَر أفكارٌ ومواقف واضحة عن هذا الكتاب في دراستنا هذه.[2]

---

(١) المراد بالثالوث الفودي: الشيخ عثمان دان فوديو (ت١٨١٧م) وأخوه عبد الله بن فودي (ت١٨٢٩م)، وابنه السلطان محمد بللو (ت١٨٣٧م)، مؤسِّسو دولة الخلافة بصكوتو.

(٢) ينظر فقرة: «ألفا نوح بن الطاهر الفولاني وتهمة تحريف الفتاش».

أوَّلا: عن نُسخ الفتاش ودعوى التَّحريف فيها

كان التَّعريف الأوَّل بتاريخ الفتاش على يد المؤرِّخ إدوارد دُوبُوَا الذي زار تمبكتو عام (١٨٩٦م) وأشار إلى تاريخ الفتاش وسمَّاه «fatassi» حسب النُّطق المحليِّ الدَّارج، وأنَّ مؤلِّفه هو (Mohaman Koti)، وأنَّه قد عرض فيه لتاريخ (Ganata) غانة وصنغي، وتمبكتو منذ نشأتها حتى سقوطها. وعلى الرُّغم من ذيوع صيت هذا الكتاب بتمبكتو، ووصف دُوبُوا إيَّاه بأنَّه: «إنجيل بلاد السُّودان» (bible of the Sudan)،[1] فإنَّه لم يفلح في التَّوصُّل إلى اقتناء مخطوطةٍ كاملةٍ منه، وإنَّما قصاصات متفرِّقةً متماثلة تقريبًا؛ لذلك أطلق دُوبُوَا على هذا الكتاب لقب «the phantom book of the Sudan» أي: كتاب السُّودان الشَّبح. وقد حاز «تاريخ الفتاش» حقًّا هذا اللَّقب؛ إذ ظلَّ المخطوط الذي يُعتقد أنَّه هو المكتمل مستعصيًا على الباحثين والمستكشفين حتى نهاية القرن التَّاسع عشَر الميلاديِّ. وكان علماء تمبكتو وجيني يؤكِّدون أنَّ النُّسخة الأصل من الكتاب قد اختفت في بدايات القرن التَّاسع عشَرَ، مشيرين بأصابع الاتِّهام إلى الشَّيخ أحمد لوبو أمير ماسِنَة في اختفاء هذا الكتاب وعطب نُسخه الأصليَّة.

هكذا، مضى العقد الأوَّل من القرن العشرين، وفي عام (١٩١١م)، وُفِّق الباحث ألْبيرْ بونيلْ دي ميزيرْ (Albert Bonnel de Miziere) في العثور على نسخةٍ من تاريخ الفتاش، رُمز لها بالمخطوط (A)، ومنها قام بوضع نسخة أخرى أطلِقَ عليها نسخة (B)، وفي العام التَّالي، اكتشف الباحث (Jules Brevie) بمدينة كايْ نسخة أخرى من مخطوط الكتاب أطلِقَ عليها نسخة (C)، ومن هذه

---

(١) W. Edward Dubois, The world and Africa: An Inquiry into the part which, p223.

النُّسخة الأخيرة والنُّسختَين الأولَيين (A & B) حقَّق الباحثان الفرنسيَّان هوداسْ ودولافوس النُّسخة الحاليَّة لتاريخ الفتاش عام (١٩١٣م).

ومن أجل استجلاء بعض تداعيات هذا الإشكال الجوهريِّ حول هذاالكتاب، أي الشَّك في أصالة النُّسخة الموجودة بين أيدينا، فلا بدَّ من استعراضٍ لخصائص النُّسخ الثَّلاث، ومن ثَمَّ تناول الإشكالات النَّاجمة عن الجمع بينها في التَّحقيق.

أ- نسخة (A)

هي النُّسخة التي حصل عليها دي ميزييرْ (Bonnel de Meziere, 1870-1926)، بحوزة الشَّيخ سيدي محمد الإمام ابن السُّيوطي عام (١٩١١م)، وكانت تمثِّل - يومذاك - النُّسخة الوحيدة الموجودة بتمبكتو كلِّها، وتدلُّ نوعيَّة الورق، وحالتها ولون الحبر المكتوب به هذه المخطوطة بأنَّها قديمة جدًّا، ولكنَّها لا تحمل اسم مؤلِّف أو غيره من المعلومات الإضافيَّة؛ لضياع عدَّة صفحاتٍ من أوَّل الكتاب، وهذه النُّسخة - وإنْ لم تكن الأصل الذي وضعه المؤلِّف فإنَّها - تُعدُّ أقدَمَ نسخةٍ مكتشفة حتى الآن، وتحوي كثيرًا من الحواشي المهمَّة، وتفسير بعض المصطلحات المحليَّة، وضبط الأسامي.

ب- نسخة (B)

هي النُّسخة التي كُتبت لدِي ميزييرْ انطلاقًا من المخطوطة (A)، وأُودِعَتْ بمكتبة مدرسة اللُّغات الشَّرقيَّة بباريس، ووصَفَها مُتَرجما «الفتاش» بأنَّها كتاب «مهمٌّ من الدَّرجة الأولى في تاريخ بلاد السُّودان».(١) وعلى الرُّغم من أنَّها قد روجعتْ من قِبَل الشَّيخ سيدي محمد صاحب المخطوطة الأولى، فإنَّها تنطوي على اختلافاتٍ كثيرةٍ بينها وبين المخطوطة الأصل. من ذلك:

(١) Hudas, Tarikh Fettach, Introduction, ix.

- غياب بعض الحواشي المهمَّة مثل: توضيح مصطلحاتٍ محليَّة، وضبط هجاء بعض الأسامي، وتعليقاتٍ مختصرة على أخبار.

- خلوُّها من ثلاث ورقات منعزلة، إحداها ورقة من كتاب «تاريخ السُّودان»، والأخريان يُحتمل كثيرًا أنَّهما من الكتاب، ولكنَّ صَعُب على المترجمَين ربطهما بسياقٍ معيَّنٍ في الكتاب. هذا بالإضافة إلى الاختلافات الطَّفيفة بين المخطوطين بزيادة كلمة أو حذفها، أو تبديل كلمةٍ بأخرى.

ج- نسخة (C)

هي المخطوطة التي اكتشفها الحاكم الفرنسيُّ بريفييهْ (Brevie) في مايو عام (١٩١٢م)، بحَوْزَة الشَّيخ عبد الله والي باهْ بمنطقة كايْ في أقصى غرب مالي، وكانت نسخةً قديمةً جدًّا، وبحالةٍ رديئة، ورُمز لهذه النُّسخة بنسخة (C)، وهي النُّسخة التي غيَّرت المعادلة في دراسة «الفتاش» وأكَّدت لدى الباحثين ما سبقت الإشارةُ إليه من عمليَّة تحريفٍ للكتاب، وضياع النُّسخة الأصليَّة منه، وتميَّزت هذه النُّسخة بخصائص هي:

- احتواؤها مقدِّمة، واسم المؤلِّف محمود كعت، وعنوانًا بـ«تاريخ الفتاش في أخبار البُلدان والجيوش وأخبار النَّاس».

- احتواؤها فصلاً أوَّل غير موجودٍ في نسخة الشَّيخ سيدي ابن السُّيوطي نسخة (A).

- احتواؤها فصلاً كاملاً عن صن علي مماثلا - حرفًا بحرفٍ - لما ورد في «تاريخ السُّودان»، ولكون «الفتاش» سابقًا على ذاك من حيث التَّأليف، وتأخُّره عنه - أي تاريخ السُّودان - في الظُّهور والاكتشاف، فإنَّه لم يتبيَّن لدى المترجمَين هوداس ودولافوس المصدر الحقيقيُّ للفصل المشار إليه، فما كان منهما إلا إلغاؤه من «الفتاش».

والفصل الأوَّل المشار إليه في هذه النُّسخة، يتناول بإسهابٍ حجَّة أسكيا الحاج محمد، وتقلُّد أمير مكَّة الشَّريف العباسي إيَّاه السَّيف، وتعيينه خليفةً على أرض التَّكرور، وتأكيده بأنَّ أسكيا هو الخليفة الحادي عشَرَ بين الخلفاء الإثنيْ عشَرَ الذين بشَّر بهم النَّبي ﷺ، وأنَّ الخليفة الثَّاني عشَرَ الأخير اسمُه أحمد بأرض التَّكرور أيضًا[١].

باكتشاف هذه النُّسخة الأخيرة، اتَّضحت - نوعًا مَّا - بعض الإشكالات التي كانت تُؤرِّق الباحثين حول كتاب «الفتاش»، ولكنَّها قد جرَّت إلى الحقل البحثيِّ إشكالاتٍ أخرى خاصَّة بها. ومن أهمِّ الاستنتاجات حول هذه النُّسخة، وما أضافته من إضاءةٍ حول الإشكالات التي كانت محفوفةً بالنُّسخة الأولى:

- إنَّ هذا الفصل الأوَّل ليس أصيلاً في الكتاب، وإنَّما هو من إضافة الشَّيخ نوح بن الطَّاهر؛ ترويجًا لدعوى الخلافة المهديَّة التي ادَّعاها الشَّيخ أحمد لوبو زعيم الخلافة الإماميَّة في ماسنة.

- إنَّ فقدان الفصل الأوَّل من المخطوطة (A) يؤكِّد ما شاع في الوسط التُّمبكتي من اتِّهام الشَّيخ ألفا نوح بالتَّلاعب بأصل «الفتاش»، ومن ثَمَّ عطب النُّسخ الأصيلة للكتاب وتغييبها.

- إنَّ النُّسخة (C) نسخةٌ متأخِّرةٌ بعد عمليَّة التَّحريف التي قام بها الشَّيخ نوح بن الطَّاهر على أصل الكتاب.

- إنَّ النُّسخة الأصيلة الحقيقيَّة هي نسخة (A) وأنَّ نسخة (C) المحرَّفة مجتزأة من تلك النُّسخة الأصيلة، ولكنْ بإضافة فصولٍ وفقراتٍ وجملٍ ومفردات، وذلك في عهد الشَّيخ أحمد لوبو (ت١٨٢٥م) في الرُّبع الأوَّل من القرن التَّاسع عشَر الميلاديِّ.

---

(١) ينظر فقرة: المواضع التي انفردت بها نسخة (C) في الصفحات القادمة.

وعلى الرُّغم من تلك الاستنتاجات والإضاءات الجديدة حول نُسخ «الفتاش»، فإنَّ مُترجِمَيْ هذا الكتاب ومحقِّقَيه هوداس ودولافوس قد اعتمدا هذه النُّسخة باعتبارها أكملَ النُّسخ آنذاك. هذا، وقبل التَّعرُّض - بإسهابٍ - لقضيَّة التّحريف في هذا الكتاب، يجدر التَّوقُّف لعرض قضيَّة أخرى هي مقدِّمة للقضايا الأخرى العالقة بالفتاش، ألا وهي: البحث عن المؤلِّف الحقيقي للفتاش، فمَن الذي ألَّف «الفتاش» بالتَّحديد؟ أهو القاضي محمود أم سبطه ابن المختار أم هما مجتمعَيْن؟ وليس هذ السُّؤال اعتباطيًا، وإنَّما تثيره نصوص الكتاب نفسها، وإنَّ الوقوف على إجاباتٍ شافيةٍ عن هذه الأسئلة، يحلُّ بعضًا من الإشكال الذي تثيره قضيَّة التَّحريف وغيرها من القضايا.

للإجابة عن هذا، فقد ذهب محقِّقا «الفتاش» إلى أنَّ هذا الكتاب هو خلاصة جُهُود ثلاثة أجيالٍ تقريبًا من أفراد أسرة كعت؛ إذ قد بدأ محمود كعت كتابة «الفتاش» ولكنه لم يُكمِله، فقد وافته المنيَّة عام (١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م)، بينما تغطِّي أحداث الكتاب أحداثًا حتَّى عام (١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م) بستَّة أعوامٍ بعد موته. بل إنَّ فيه إشاراتٍ إلى تواريخ تمتدُّ حتى عام (١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م)، وإشاراتٍ أخرى تؤكِّد أن الرَّاوي ليس هو محمود كعت. عليه، يذهب المحقِّقان إلى استنتاجاتٍ منها: (١)

- إنَّ محمود كعت هو واضعُ الأبواب الأولى التي تتناول سيرة حياة أسكيا الحاج محمَّد، وتاريخ إمبراطوريَّة غانة القديمة، ومملكة مالي. بالإضافة إلى الممالك والدُّويلات التي نشأت بمنطقة بلاد السُّودان الغربيِّ بعد سقوط إمبراطوريَّة غانة. من أوَّل الكتاب حتى [ص٨٢].

---

(١) Houdas, Tarikh, introduction, xviii-xix.

- إنَّ سِبط محمود كعت - الذي لم يُعرف عنه شيءٌ سوى اسمه: ابن المختار- قام أخيرًا بجمع ما تركه جدُّه وثلاثةٌ من أخواله أبناء كعت، كانوا علماء اشتغلوا بالعلم والقضاء مثل أبيهم، وإلى ابن المختار ذاك يرجع إكمال تأليف «الفتاش».

بالإجمال، يؤكِّد المحقِّقان أنَّ القسم الأوَّل من الكتاب (الأبواب السِّتة الأولى)(١) من وَضْع كعت الجدِّ، والجزء الأخير من وضع حفيده ابن المختار، حرَّره بالاستعانة بأخواله أبناء كعت الجدِّ، وبالرُّجوع إلى مصادر كثيرة شفاهيَّة ومكتوبة، وقد استغرق تأليف الكتاب بين الجدِّ والحفيد أكثر من قرن.

على خلاف مذهب هوداس ودولافوس، يذهب المؤرِّخ نحيميا ليفتصيون (Nehemia Levtzion) إلى القول بانتفاء نسبة «الفتاش» بجملته إلى محمود كعت، وإنَّما هو - بكامله - من تحرير حفيده ابن المختار. فبعد أنْ أكَّد تحريف نسخة (C) من مخطوطات «الفتاش»، قال: «والأهمُّ من ذلك كلِّه، إنَّ محمود كعت ليس هو مؤلِّف التَّاريخ، بما في ذلك الباب الأوَّل. كما هو مقبولٌ في الوسَط

---

(١) يتكون تاريخ الفتاش من ستة عشر بابا، كل باب مخصص لمملكة أو لسطان من سلاطين أسكيا، ويمثل اسم السلطان عنوان الباب، وهذا من عمل المحقِّقين، وقد أفاد ذلك في تنظيم الكتاب، والمأخذ الوحيد على هذا العمل أن العنْوَنة بـ«باب»، توحي بأن مضمونه واسع وأنه يتفرع إلى فصول، وليس كذلك. بل إنَّ بعض الأبواب لا تتجاوز الصفحة والصفحتين. كان الأجدر -إذن- أن يقسم الكتاب أوَّلا إلى ثلاثة أبواب مع المقدمة، يضم الباب الأول خمسة فصول، وهي التي تتحدث عن الممالك والدويلات ببلاد السودان، ثم الباب الثاني، وتوضع تحته ستة فصول تشمل تواريخ الجيل الأول من سلاطين صونغاي، وينتهي هذا القسم بأسكيا داود، ثم الباب الثالث الأخير ويتفرع إلى خمسة فصول وفيها تواريخ السلاطين من الجيل الثاني حتى سقوط الإمبراطورية. هذا التقسيم أوضح في بيان محتوى الكتاب.

العلميِّ».[١] هذا، وتتلخَّص حُججُ نحيميا في تشكيكه في نسبة الكتاب إلى محمود كعت في ثلاث ملحوظات، هي:

- إنَّ الجزء الذي يُعتقد أنَّه من تأليف محمود كعت، إنَّما هو في نسخة (C) وحدها التي يتَّفق الجميع على أنَّها محرَّفة. وقد أشير في هذا الجزء في موضعَين بقول الرَّاوي: «قال محمود كعت» وذلك للتَّرشيح لدعوى الخلافة المهديَّة؛ ممَّا يزيد من الشَّك في أصالة هذا الجزء.

- إنَّ الإشارة الوحيدة إلى محمود كعت (في الأبواب السِّتة الأولى من الكتاب) الموجودة في نسخة (A) التي تُعدُّ أصيلة، قد وردت هكذا: «ونَقَلتُ هذا كلَّه من كتاب الجدِّ ألْفَعْ محمود بن الحاج المُتَوَكِّل، بخطِّ بَعْضِ طَلَبَتِه مِنْ قَوْلِه» [ص٤٨]، وهو في الخبر المطنَب عن صن علي وغزواته. يذهب نحيميا - بهذا الصَّدد - إلى القول: «إنَّ هذه الإشارة تؤكِّد بجلاءٍ أنَّ محمود كعت قد خلَّف نصوصًا مكتوبة (ولكنَّها) ليست هي «تاريخ الفتاش» كما هو متداوَل».[٢] وإنَّما هي مذكراتٌ متناثرةٌ قام حفيده - فيما بعد - بتحريرها والاستفادة منها في كتاباته الخاصَّة.

- إنَّ الحفيد (ابن المختار)، على الرُّغم من رجوعه إلى كتابات جدِّه، فإنَّ لديه تحفُّظاتٍ واستدراكاتٍ عدَّة على تلك الكتابات عند مقارنتها بنُصوصٍ أخرى من المراجع التي استفاد منها.[٣] ويعني ذلك أنَّه قد وضع عملاً جديدًا استفاد فيه من مدوَّنات جدِّه مثلما استفاد من غيره.

---

(١) Levtzion, Nehemia. "A Seventeeth-Century Cronicle by ibn al-Mukhtar: A Critical Study of "Tarikh al-Fattash", Bulletin of the School of Oriental and Africa Studies, University of London, Vol.34, No.(3), 1971, p571-593.

(٢) Ibid, p577.

(٣) ينظر مثلا، أول [ص١٥٢]، قوله: «ورأيتُ بخط الفقيه...».

يخلُص نحيميا بعد ذلك إلى القول إنَّه: «من الصَّعب التَّكهُّن بأنَّ ما تركه محمود كعت من كتاباتٍ كان على شكل كتابٍ مُدوَّنٍ أم إنَّه كان مجرَّد مذكَّراتٍ وتسجيلات، ولكنْ يغلبُ الظَّن بأنَّ ما تركه كعت الجدُّ كان مذكَّرات متفرِّقة بدليل قلَّة أخذ ابن المختار الحفيد منه، وبدليل بلوغ تلك الأحداث عام (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م) أو سنتَين مباشرةً قبل وفاة كعت».(١) ممَّا يعني أنَّ محمود كعت لم يمهله أجلُه لتبييض تسجيلاته تلك في شكل كتابٍ مدوَّنٍ.

أخيرًا، يدعو نحيميا إلى إعادة النَّظر في صياغة هذا الكتاب من أجل الخروج من الكثير من الإشكالات الكامنة فيه؛ بفعل الدَّمج غير الموفَّق بين مخطوطة أصليَّة وأخرى محرَّفة. يقول: «إنَّ كثيرًا من أوجُه التَّعارض مُقْلقٌ في الطَّبعة المنشورة من «الفتاش»، وهذا لم يكن منه بدٌّ؛ لأنَّها تضمُّ نصَّين منفصلَين: النَّص المكتوب في القرن السَّابع عشَر (الميلادي) والنَّص المحرَّف الموضوع في القرن التَّاسع عشَر. وسوف يتَّضح كثيرٌ من أوجُه الغموض إذا ما تمَّ الفصل بين هذين النَّصَّين: المخطوطة (A) والمخطوطة (C)».(٢)

بالإضافة إلى محقِّقي «الفتاش» ونحيميا، تصدَّى باحثون آخرون لهذا السُّؤال، ولكنَّهم لم يخرجوا عن نطاق ما تمَّ عرضه من مقارباتٍ وآراءٍ حول نسبة الكتاب إلى محمود كعت الجدِّ، أو حفيده ابن المختار.(٣)

---

(١) A Seventeenth Century, Op. Cit. p577.

(٢) A Seventeenth Century, p579.

(٣) من الدراسات الأولى التي تعرضت لدراسة الفتاش: Brun, J. P. "Notes sur Tarikh el Fattach", Anthropos, ix (1914), 590-596; D. T. Niane, "Mythes, Legends et sources orles dans l'oeuvre de Mahmoud Kati", Recherches Africaines, i/4, (1964), 36-42; J. O. Hunwick. "Studies in = the Ta'rikh al-Fattash: Its Author and Textual history", RBCAD, V,

هذا، وقبل التَّعرُّض لدعوى التَّحريف في «تاريخ الفتاش» يجدر بنا التَّوقُّف لاستعراض سيرة ألفع محمود كعت وما أثير من جدلٍ حول شخصيَّته. بعد ذلك تكون محاولة لمناقشة قضيَّة التَّحريف والتَّلاعب بأصل «الفتاش» على يد الشَّيخ ألفا نوح بن الطَّاهر وأحمد لوبو، وذلك من خلال استعراض الظَّرف التَّاريخيِّ الذي تمَّ فيه هذا التَّحريف المحتمل لنصوص الفتاش، ومن ثمَّ مناقشة بعض فقرات الكتاب وتحليلها من أجل الخروج بموقفٍ محدَّد حيال هذه القضيَّة.

ثانيًا: عن حقيقة شخصيَّة محمود كعت

قضيَّة أخرى تنبثق عن القضيَّة السَّابقة وتكمن في محاولة الباحثين عن الكشف عن حقيقة شخص محمود كعت، فمن هو محمود كعت تحديدًا؟ متى ولد؟ ومتى توفي؟ وما أثر معرفة تلك الحقائق في تبديد بعض الغموض المحفوف حول الفتاش؟ إنَّ محاولات الباحثين للإجابة عن هذا السُّؤال لا زالت متواضعةً وعرضة للأخذ والرَّد؛ بوصفها اجتهاداتٍ مبنيَّةً على نُتَفٍ من معطيات تاريخيَّة غير شافية وغير مجمع على صحَّة بعضها.

ففي المقدِّمة التَّمهيدية لترجمة «الفتاش» ذهب المترجمان إلى أنَّه هو: محمود كعت بن الحاج المتوكِّل كعت، وأنَّه قد ولد عام (١٤٦٨م)، وبدأ تأليف كتابه هذا في سنِّ الخمسين، أي عام (١٥١٩م)، طبقًا لإشارته هو. وقد كان صديقًا مقرَّبًا لأسكيا الحاج محمَّد، صحِبَه إلى الحج. كما كان مستشارًا أمينًا لمن جاءوا بعد أسكيا الحاج في الحكم. عُمِّر طويلاً، وشهد الغزو المغربي لصونغاي، وتوفي عام (١٥٩٣م) حسب رواية «تاريخ السودان» وله من العمر مائة وخمسة وعشرون عامًا.[1]

(1969), 57-65; Madina, Ly. "Quelques Remarques sur le Tarikh el- = Fettach", BIFAN, xxxiv, (1972), 471-93. (see: ALA, v4, p39).

(١) Tarikh Fettach, Introduction to the Translation xvii.

إنَّ التَّعريف السَّابق - على بساطته - يكتنف الكثير من نُقاط الأخذ والرَّدِّ؛ لكونه قائمًا على مجموعةٍ من المعلومات المتنافرة التي حاول المترجمان عقد تصالُح بينها للخروج بهذا التَّعريف الذي يبدو في ظاهره مقبولاً منسجمًا، وهو ليس كذلك.

على سبيل المثال، فإنَّ الموضع اليتيم الذي أشير فيه إلى مولد كعت، لا يُصرِّح بشيْء كثير. بل يحمل في نفسه قدرًا من الغموض والإشكال.. قيل فيه: «ووُلِدَ في أيَّام أسكيَ محمَّد: محمد بن سعيد حفيد الفقيه محمود بن عمر بن محمَّد أقيت (...) والفقيه القاضي محمود بن الحاج المتوكِّل كعت».[1] فالغموض كبيرٌ هنا إذا عُلم أنَّ أسكيا الحاج محمَّد قد «مكث في السُّلطة أربعين سنة غير واحد(ة)، وقيل ثلاثةً وأربعين سنة على الصَّحيح».[2] فكيف يمكن في البحث التَّاريخيِّ ترك معلومةٍ مفتوحة على مدى أربعين سنة بلا تحديد؟ خاصَّةً أنَّ هذا الخبر يتضاربُ - جملةً وتفصيلاً - بآخر ذُكِرَ فيه أنَّ سنَّ ألْفَع كعت يوم تولَّى أسكيا الحاج السُّلطة كانت خمسًا وعشرين. بينما كان أسكيا في الخمسين من عمره،[3] وهذا الأخير ما أخذ به المترجمان في التَّعريف السَّابق بمحمود كعت؛ متجاهلَين الخبر الأوَّل الذي يزعم أنَّ كعت قد ولد في أيَّام أسكيا.

كما أنَّه لا وجْهَ للتَّوفيق بين هذا الخبر السَّابق وما ورد من أنَّ الأسكيا حين حجَّ.. «كان معه من العلماء الأعيان: الشَّيخ محمد تُلِ، وألفا صالح جَوَر (...) والمبْتَلى بالتَّأليف أنا محمود كعت».[4] ومعلومٌ أنَّ أسكيا قد حجَّ في العام الثَّاني

(١) الفتاش، [ص٨١].
(٢) الفتاش، [ص٧٨].
(٣) الفتاش، [ص٥٨].
(٤) تاريخ الفتاش، [ص١٦].

من ولايته (٩٠٢هـ/ ١٤٩٢م)، ولا ينفع انسجامُ هذا الخبر بإشارةٍ أخرى إلى كعت، ذُكر فيها أنَّه كان من أهل مشورة أسكيا ومن المقرَّبين لديه من العلماء، وأنَّه كان آخر الرُّسل الثَّلاثة الذين بعثهم أسكيا إلى أبي بكر بارُو بن صُن عليّ قبل نشوب القتال بينهما؛ حرصًا على حقن الدِّماء: «فَأرسَلَني إليه، أي أنا الفقيرُ المحتاجُ ألْفَعْ كعت، وذهبتُ إليه؛ فوجدْتُه بِبَلد أنْفَعُ، وهي بقرب كاغُ».[1] لأنَّ ذلك كلَّه لا يزيد الباحث عن محمود كعت إلاَّ بُعدًا عن مبتغاه، وحَيرةً من أمره. فإذا لم نستبعدْ أن يكون عِلْم محمود كعت قد قرَّبه عند أسكيا الحاج محمَّد على الرُّغم من حداثة سنِّه (سبقت الإشارة إلى أنَّه كان في الخامسة والعشرين من عمره)، وإذا لم نستبعد ذلك مطلقًا، فإنَّ من الصَّعب قبول الزَّعم بأنَّ أسكيا قد أوفدَه إلى منافسه بعد إخفاق شَيْخَين جليلَين في هذا المسعى للتَّوفيق بينهما. عليه، لا يزال السُّؤال عالقًا: تُرى هل كان محمود كعت حقًّا في سنِّ الخامسة والعشرين حين تولَّى أسكيا محمد السُّلطة، أو - بالأحرى - هل كان مولودًا حقًّا آنذاك؟

في خبرٍ آخر، ورد على لسان ابن المختار، ذكر فيه أنَّ ألفع كعت قصد أسكيا داود في بعض السِّنين بكاغ؛ فتلقَّاه أسكيا بالتَّرحيب، وأضافه وأنزله وأكْرَمَه، وفي تلك المناسبة الْتَمَسَ كعت من أسكيا العَوْن في عدَّة أشياء منها تجهيز أربع بناتٍ له إلى أزواجهنَّ.[2] وهذا الخبر أيضًا محلُّ نظرٍ إذا ما أريد جمعُه إلى الأخبار السَّابقة؛ وحتى إذا اعتُمِد قولُ الرَّاوي «في بعض السِّنين» وحُمل على عمومه، وأُجْرِيَ على السِّنين الأولى لولاية أسكيا داود، فإنَّ سنَّ ألفع كعت يوم تولَّى أسكيا داود السُّلطة كانت على الأقلِّ ستًّا وثمانين (اعتمادًا على الرِّواية السِّابقة التي زعمت أنَّه كان في الخامسة والعشرين في عام ٩٠٢هـ)، ومن غير المألوف أن

(١) تاريخ الفتاش، [ص٥٤].

(٢) تاريخ الفتاش، [ص١٠٨].

تكون له في مثل هذه السِّن المتقدِّمة أربعُ بناتٍ، وخمسة ذكور أحداث في سنِّ الزَّواج.

بالإضافة إلى هذه العقبة في قبول هذا الخبر، تبرز عقبةٌ أخرى بعد عدَّة صفحات من «الفتاش» آخرَ ترجمة أسكيا داود حين أتى المؤرِّخُ على ذكر أبنائه وبناته، ذكر أنَّ منهم «عائشة كِيَمَر زوجة القاضي محمود، أرْحَلَها إلى تُنْبكت وماتَتْ في عصْمَته».[1] فالإشكال هنا كامنٌ في زواج شيخ تسعينيٍّ من ابنة أسكيا على الرُّغم من احتمال وجود أولاد له كبارٍ، كان من الممكن أن يتزوَّجوا ابنة أسكيا؛ إذا كان الغرض من الزَّواج مصاهرة بيت علمٍ ببيت مُلك. هذا، ويمكن قبول هذا الخبر بجمعه إلى الخبر الأوَّل الوارد في مستهلِّ هذا المبحث أي الذي يفيد بأنَّ كعت قد وُلد في أيَّام أسكيا الحاج محمَّد، ولكن بإقصاء الأخبار الأخرى المعارضة لهما.

ثمَّ إنَّ هاهنا لإشكالاً آخر يكمن في محاولتنا الجمع بين زواجه من ابنة أسكيا داود وطلبه المعونة منه.. فأيُّ الخبَرَين أسبق: أ زواجُه أم التماسُه العون منه في تزويج بناته؟ ولا شكَّ أنَّ الإجابة عن هذا السُّؤال بأيِّ احتمالٍ تفضي إلى مغالطةٍ واضحة. ولدينا ها هنا احتمالان لا غير:

أ- إذا احتُمِل أنَّه قد تزوَّج بابنة أسكيا داود في فترة مُبكِّرة قبل تقلُّد داود للسُّلطة (فرارًا من معضلة السِّن المتقدِّمة جدًّا)، فمن المستبعد أن يَفِدَ عليه، ويلتَمِس منه العونَ في تزويج بناته، ويُوسِّط في هذا المسعى بينه وبين صهره شَخصًا آخر هو ألْفَع بُكر لَنْبار، وحتى على افتراض أن تكون البناتُ من زوجةٍ أخرى له غير ابنة أسكيا داود، فإنَّ هذا الاحتمال لا يزال بعيدًا.

---

(١) تاريخ الفتاش، [ص١١٨-١١٩].

ب- وإذا احتُمل أنَّ التماسه العونَ من أسكيا داود مُتقدِّمٌ على زواجه بابنة داود، فإنَّ الفترة الزَّمنيَّة المتوسِّطة لبلوغ بناتٍ أو أولادٍ من تلك الزِّيجة سنَّ الزَّواج تتجاوزُ حياةَ أسكيا داود، (مكث في الحكم ثلاثًا وثلاثين سنة).

آخرُ تلك الإشارات إلى القاضي محمود كعت، وردت بعد حوالي عقدٍ من الزَّمن من وفاة أسكيا داود، وذلك في ظرف غارة الجيش المغربيِّ على صونغاي (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م)؛ إذ جمع أسكيا إسحاق الثَّاني أعيانَ جيشه، وعلماءَ تُمبكتو، واستشارهم فيما يفعل، وقد أشير إلى ألفغْ كعت في هذا الموضع بقول الرَّاوي: «إنَّ هذا الفقيه المشار إليه الذي أمَرَ بنقل أهل كاع إلى وراء البحر، هو ألْفَغْ كعت».[1] علمًا بأنَّ سنَّه كانت يومذاك (١٢٣عامًا)، إذا ثبت أنَّه قد وُلد عام (٨٧٥/ ١٤٦٨م)، بناءً على الخبر الذي زعم أنَّه كان في سنّ الخامسة والعشرين يوم تولَّى أسكيا الحكم (٩٠٠هـ).

ولعلَّ مساحة النَّقد والتَّشكيك في هذا الخبر الأخير ضيِّقة باحتمال تمتُّعه بكامل قُواه العقليَّة والجسديَّة في مثل هذه السِّن المتأخِّرة كما هو مستفادٌ في سياق القصَّة؛ إذ قيل فيها: «فلمَّا أعرضَ القومُ عن استعمال رأيه، بكَّرَ في غده قافلاً إلى بَلده».[2]

فالحاصل من كلِّ ما مضيى، أنَّ الغموض في تحديد مولد محمود كعت، قد ألقى بظلاله على كثيرٍ من فقرات «الفتاش»، ولا يجد الباحثُ في ظلِّ المعطيات التَّاريخيَّة المتوفرة الآن إلاَّ التَّسليم بهذا الغموض.

بالمثل، فإنَّ تاريخ وفاة محمود كعت لم يسلم من الأخذ والرَّدِّ؛ إذ أشير إلى وفاته عند السَّعدي في غرَّة محرَّم (عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م). بينما ورد في كتاب

---

(١) الفتاش، [ص١٥٠-١٥١].

(٢) الفتاش، [ص١٥١].

«السَّعادة الأبديَّة»،[١] أنَّه قد توفي عام (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م)، وتكفي الفجوة الزَّمنيَّة الواسعة بين هذا التَّاريخ وبين التَّواريخ المحتملة لوفاة محمود كعت؛ لاستبعاد هذا المصدر المتأخِّر، ثم إنَّه لو عاش كعت حتى هذه الفترة؛ للَقيَه حفيده ابن المختار ولَنَقَل عنه أخبارًا مباشرة.

والمثير للدَّهشة بهذا الصَّدد، عدم إشارة ابن المختار في «الفتاش» إلى تاريخ وفاة جدِّه على الرُّغم من أنَّه قد أرَّخ لأحداث تجاوزت الفترة الزَّمنيَّة التي ذكر السَّعدي أنَّ كعت قد توفي فيها. فلماذا أغفل ابن المختار هذه المعلومة التَّاريخيَّة المهمَّة؟

أمَّا عن أصله، فقد ورد في مقدِّمة «الفتاش» أنَّه هو «سيدي محمود كعت الكُرْمنيُّ دارًا، التُّمبكتي مسكنًا، الوَعْكُريُّ أصلاً».[٢] فالكُرمني نسبةٌ إلى إقليم كُورْمينا الواقع جنوبيَّ عاصمة صونغاي غَاوْ، وكانت بمثابة العاصمة الثَّانية للإمبراطوريَّة، ومقرَّ وليِّ العهد (كَنْفَارِي/ كُورْمينافاري)، وبها تولَّى محمود كعت القضاء. ويُفهَمُ من هذه النِّسبة أنَّه من هذا الإقليم، وهذا مُنسجمٌ مع نسبته إلى «وَعْكُر/ وَنْكَر» قبيلة سونِنْكيَّة. أمَّا الاسم «كعت» فغير واضح المعنى، وقد رجَّح المؤرِّخ جونْ هونْويكْ (John Hunwick) أن تكون محرَّفةً من «القوطي» نسبةً إلى «قوط» الأندلسيَّة، واستند في ذلك إلى نصٍّ مخطوطٍ قديم لوثيقة شراء نُسخةٍ من كتاب الشِّفا للقاضي عياض، ورد فيها.. «ووافق هذا شهرَين بعد وصولنا إلى

---

(١) كتاب السَّعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهيَّة، لمولاي أحمد بن بابير الأرواني، (ت١٩٩٧م)، مخطوط بمركز (CEDRAB) برقم: ٢٧٥٢، ص٤٢؛ ينظر: John O. Hunwick, Arabic Literature of Africa ALA, vol.4, The Writings of Sudanic Africa, p38.

(٢) تاريخ الفتاش، ص٩.

تُوات من بلادنا طُلَيْطلة عاصمة القوط، ونحن الآن في طريقنا إلى بلاد السُّودان طالبِين من الله سبحانه وتعالى أن يرزُقَنا الاستقرار هناك، وبه كتبت. عبد ربِّه علي بن زياد القوطي شهر المحرَّم ٨٧٢هـ».[١] بناءً على هذه الوثيقة، لا يستبعد هونْويك أن يكون هذا الشَّخصُ قد استَوْطَن تمبكتو، وبها تزوَّج امرأة وعكُريَّة؛ فكان والدُ محمود كعت من نسله. لكن، من الصَّعب قبول هذا الاستنتاج؛ لأنَّه يُقصي الخبر القائل بأنَّ محمود كعت - وليس والده - قد وُلد في العام نفسه الذي كُتبت فيه هذه الوثيقة، أو بعده بثلاث سنوات.

هذا، ويكاد هونْويك ينقض نفسه - وقد فعل - حين نفى في موضعٍ آخر صحبة محمود كعت لأسكيا الحاج محمد إلى الحجِّ، ورجَّح أن يكون هناك أكثر من شخصٍ بهذا الاسم، وأنَّ القول بصحبة كعت لأسكيا الحاج قد يكون من قبيل الخلط بينه وبين جدٍّ سميٍّ له.[٢] إنَّ هذا الاحتمال الأخير الذي ذهب إليه هونْويك لا يمكن قبوله بإزاء طرحه الأخير المذكور آنفًا إلاَّ إذا زعم لنا أنَّ كلاً من جدِّ محمود كعت ووالده قد وفدا معًا إلى بلاد السُّودان. كما أنَّ من المستَبْعَد ألا ترد إشارةٌ من لدُن محمود كعت إلى أصله القوطي، أو ألاَّ يكون لديه علمٌ به، أو أن يسكُتَ هو عن ذلك، ويسكت عنه أبناؤه وأحفادُه، خاصَّة أنَّ مثل هذا الانتماء - أي إلى أصلٍ عربيٍّ أو مشرقيٍّ - كان ممَّا يحرص الأفارقة عليه، ويدَّعيه بعضُهم دون أدنى دليل.

إذن، من الصَّعب على المحقِّق عن شخصيَّة القاضي محمود كعت، وعن مولده وعن الفترة الزَّمنيَّة التي عاش فيها، الإمساك بطرف الخيط الموصِلِ إلى

---

(١) Hunwick, John O., Studies in Ta'rikh al-Fattash, III., Sudanic Africa, II, 2001, 111-114.

(٢) ALA, p38-39.

حقيقةٍ في هذا النَّسيج المتشابِك من المعلومات التَّاريخيَّة غير المنسجمة، وهو في هذا الموقف الذي لا يُحسدُ عليه، لا يملك إلاَّ خيارَين:

أ- أن يُعطي لنفسه حقَّ حَجْب بعض تلك النُّصوص وإقصائها بحجَّة عدم صحَّتها، وأن يأخذ فحسب بالنُّصوص التي يمكن الجمعُ بينها في هذا الموضوع.

ب- أن يأخذ بتلك النُّصوص جميعها ويدَّعي تعدُّد شخصيَّة كعت. أي وجود أكثر من شخصٍ باسم محمود كعت، عاشوا في فترةٍ زمنيَّة متقاربة بتمبكتو.

على هذين المنحَيَين يتوزَّع جلُّ الباحثين الذين نظروا في هذا الإشكال الخاصِّ بشخصيَّة محمود كعت أبرزُهم نحيميا ليفتصيون (Nehemia Leftzion)، الذي يأخذ بالمنحى الأوَّل، وجونْ هونْويكْ الذي ذهب إلى المنحى الآخر. أمَّا ما ورد عند محقِّقَي «الفتاش» من اعتماد النُّصوص المتنافرة كلِّها في هذا الشَّأن دون تعرُّضٍ حقيقيٍّ لما تثيره من إشكالات ولما بينها من تنافُرٍ وتناقُض، فهو موقفٌ يثير من الإشكال والعقبات أكثر ممَّا يعطي من الحلول.

ثالثًا: عن حقيقة شخصيَّة ابن المختار

إنَّ طابع الغموض المحفوف بكتاب «الفتاش» وبمحمود كعت، قد تلبَّس أيضًا بشخصيَّة حفيده مؤلِّف الكتاب أو محرِّره. بل إنَّ الغموض حوله أوسَعُ وأعمق؛ إذ لم يُعرف عنه حتَّى اسمُه الصَّريح، وإنَّما عُرِف بـ«ابن المختار» فحسب، وذلك في موضعٍ يتيم في «الفتاش» قال فيه: «سمعتُه من والدي المختار قنبل رحمَهُ الله يتحدَّث بها».[1] ونخالُ أنْ لو توفَّرت بين أيدي الباحثين معلوماتٌ كافيةٌ عن شخصيَّة ابن المختار، لأعطتْ مفاتيح للوُلوج إلى كثيرٍ من مغاليق هذا الكتاب، ولكنَّ عدمَ وجودِ أيَّة معلومة عنه في «الفتاش» أو في غيره، قد أسْهَمَ مباشرةً في تعقيد إشكالات هذا الكتاب.

---

(١) الفتاش، [ص٧٠].

على كلِّ حالٍ، فإنَّ جملةً عابرةً في «الفتاش» نخال أنَّها تضيءُ قليلاً من الغموض حول ابن المختار، وردت في قوله: «وحكى لي سِبْطي محمد بانَ بن يوسف كعت رحمه الله»،[1] والسُّؤال الملحُّ في هذا الموقف: كيف سوَّغَ ابن المختار لنفسه الإشارة إلى ابن خاله بـ«سبط»؟ هذا لاعتقادنا أنَّ ابن المختار يعي جيِّدًا معنى هذه الكلمة ويُحسِنُ استخدامها؛ حيث إنَّه قد استخدمها في تسعة مواضع في هذا الكتاب استخدامًا جيِّدًا.[2] عليه، فإنَّ إشارَةَ ابن المختار إلى ابن خاله بـ«سبطي» لا يمكن حملُه على مجرَّد السَّهو أو الخطأ في الاستعمال؛ لذلك نلجأ إلى فهم هذه الكلمة في هذا الموضع بطريقةٍ أخرى، ألا وهي التَّفسير الاجتماعيُّ لهذا الاستعمال.

ملخَّص ذلك أنَّ من الشَّائع في الأوساط الأفريقيَّة إطلاق الولد اسم والده (أو والدته) على أحد أولاده، وخاصَّة البكر منهم، وقد تصل هذه العادة في بعض المجتمعات إلى لازمةٍ اجتماعيَّة لا بدَّ منها، وإلاَّ اعتُبِر الولدُ عاقًّا لوالدَيه. ولدينا في «الفتَّاش» نفسه نماذجُ كثيرة من هذا التَّقليد في أسرة أسكيا، وفي أُسَر الفقهاء والعلماء المذكورين. ومن مُستلزمات هذا الإطلاق أن يناديَ الوالدُ ابنَه ويشير إليه بـ«والدي» أو بما كان يدعو به والده من الألقاب المبجِّلة، والإخوة كذلك يدعون أخاهم (أو أختَهُم) سميَّ جدّهم بـ«جدِّنا»، وفي تلك المجتمعات تكون مناداة سميِّ الجدِّ أو الجدَّة باسمه الصَّريح خروجًا عن الأدب والاحترام.

في ضوء هذا التَّقليد بالذَّات، نحسب أنَّ إطلاق ابن المختار «سبط» على ابن

(١) الفتاش، [ص١٧٥].

(٢) استخدمها بالجمع (أسباط) معطوفة على (الأحفاد) في سبعة مواضع، وهي: [ص٢٠؛ ٢٩؛ ٧٥؛ ١٠٣؛ ١٠٦؛ ١٣٣؛ ١٧٨]. كما استعملها بالإفراد في هذا الموضع، وفي موضعين آخرين استعمالا دقيقا؛ للدلالة على الأحفاد من قبَل البنت، وهما: [ص٥٩؛ ١١٣].

خاله يُفسَّر من هذا المنطلَق، ونُقرِّرُ أنَّ ابن المختار كان اسمُه الصَّريح «محمود» سميًّا لجدِّه القاضي محمود كعت، وبناءً على العلاقة الوُدِّيَّة الخاصَّة دائمًا بين أبناء الأخوال في الثَّقافة الأفريقيَّة، فإنَّه كان يُخاطبُ ابن خاله محمد بان بـ«سبطي». بالمقابل، كان يخاطبه ذاك بـ«جدِّي». إنَّ هذا التَّفسير الذي ذهبنا إليه نحسبه أقربَ التَّفسيرات إلى الصِّحة في هذا الموضع. أمَّا ما ذهب إليه مُترجِمَا «الفتاش» في هذا الموضع، فلا يزيدُ النَّصَّ إلاَّ غموضًا؛ إذْ ترجما «السِّبط» في قول ابن المختار السَّابق، بقولهما (l'un de mes parents par les femmes) ص٣٨٠)، أي: أحدُ أقاربي من جهَّة الإناث.

كذلك، فإنَّنا اعتمدنا هذه الظَّاهرة في المجتمع الأفريقي لحلِّ الإشكالات والتَّعارضات الواقعة بين النُّصوص حول شخصيَّة محمود كعت؛ فوجدنا أنَّها معادلةٌ دقيقة ومفتاحٌ فعَّالٌ في تقديم تفسيرٍ مقبولٍ لجميع تلك التَّعارضات، وعلاج الإشكالات حول شخصيَّة محمود كعت. هذا، دون استبعاد نصٍّ لصالح نصٍّ آخر كما هو ديدنُ بعض من تعرَّض لهذا الإشكال. وقد انطلقنا في ذلك من الفرضيَّة الآتية: إنَّ بين أيدينا شخصين باسم القاضي محمود كعت، أحدهما نطلق عليه محمود الجدّ، والآخر: محمود كعت (الحفيد/ الأوسط).

بتتبُّع النُّصوص في اختبار هذا الافتراض، تبيَّن لنا: أنَّ الاسم «محمود بن الحاج المتوكل كعت» قد ورد في ثلاثة مواضع في الفتاش [ص٥٣؛ ٨٢؛ ١٥٢]، ومرَّة في تاريخ السُّودان (ص٢١١)، وبدون نسبته إلى «الحاج المتوكِّل» في بقيَّة المواضع.

بناءً على هذا التَّحليل، فقد توصَّلنا إلى الاستنتاجات الآتية:

• ولد محمود كعت الجدُّ في فترة بحوالي خمس وعشرين قبل مفتتح القرن الهجريِّ العاشر؛ وبلغ شأوًا من العلم في المجتمع التُّمبكتي ولمَّا يتجاوز الثَّلاثين

من عمره، وغدا مقرَّبا للسُّلطان أسكيا الحاج محمد، حجَّ معه عام (٩٠٢هـ). شرع محمود الجد في كتابة «الفتاش» بعد الخمسين من عمره، وتوفي في فترة في أواسط حكم أسكيا الحاج محمد (٨٩٨-٩٣٤هـ).

• أمَّا ابنه المتوكل على الله، فقد كان آنذاك قد بلغ الأربعين، ورُزق بولدٍ سمَّاه باسم والده، أي: محمود، وهو المشار إليه بأنَّه قد ولد في أيَّام أسكيا الحاج محمد [ص٨٢]. وهذا الحفيد هو والد القاضي: إسماعيل، ويوسف، ومحمد الأمين بالإضافة إلى ابنة أخرى هي أمُّ ابن المختار بن قنبل. وقد كان محمود الحفيد مقرَّبًا لأسكيا داود، وتزوَّج بابنته عائشة كِيَمَر، وشغل منصب القضاء بتندرم، وشهد الغزو المغربيَّ، وتوفي عام (١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م). وفي الجدول الآتي مزيدُ بيان لما مضى:

جدول (١): عرض كرونولوجي لحياة محمود كعت (الجد والحفيد).

حوالي ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	: مولد محمود كعت (الجد).
٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م	: بعثه أسكيا محمد توري مفاوضًا بينه وبين صن بارو.
قبل ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م	: مولد الحاج المتوكل بن محمود كعت
٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م	: حج محمود كعت الجدُّ مع أسكيا الحاج محمد بيت الله.
حوالي ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م	: مولد محمود كعت (الحفيد) بن الحاج المتوكل كعت.
٩٢٥هـ	: شروع محمود كعت (الجد) في كتابة تاريخ الفتاش.
بعد ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م	: زواج كعت الحفيد بابنة أسكيا داود (عائشة كِيَمَر).
٩٩٩هـ/ ١٥٩١م	: شهود محمود كعت (الحفيد) الغزو المغربي لصونغاي
١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م	: وفاة محمود كعت (الحفيد).

إنَّ هذه الاستنتاجات مبنيَّة على استقراء لجميع السِّياقات التي وردت فيها

الإشارة إلى محمود كعت، وهي اثنان وعشرون موضعًا في كتابَي: الفتاش وتاريخ السُّودان،[١] ومن ثمَّ تفسير تلك السِّياقات تفسيرًا موضعيًّا موضوعيًّا، أي النَّظر إليها في موضعها التي وردت فيه، ثم النَّظر إليها بمقارنتها بالسِّياقات الأخرى والمعطيات التَّاريخية في أيِّ موضع آخر. هذا، ولم نجد أيَّ تعارُض أو نشازٍ بين النُّصوص بعد هذا الاستقراء والمقارنة، وتفكيك النُّصوص ثم تركيبها.

هذا، وإنَّ الموضع الوحيد الذي لا يمكن عقد مصالحة بينه وبين الاستنتاجات السَّابقة، هو ما ورد عند السَّعدي في قوله: «وفي ليلة الثلاثاء السابع عشر من شوال (يعني في العام ١٠٥٩هـ)، توفي الأخ العزيز، والصَّاحب المحبُّ، الحنين من عهد الطفولية، الفاضل الدِّين، الفقيه محمود كعت بن علي بن زياد» (ص٣٠١). وقد رجَّح هونْويكْ في أحدث مناقشة له لهذا الموضوع، أن يكون هذا الشَّخص المعنيُّ به هو محمود كعت الجد، ولكنَّنا هنا لا نحسب أنَّه داخلٌ البتَّة في معادلة الغموض حول شخصيَّة كعت؛ إذ قد نصَّ السَّعدي هنا على أنَّه كان تِرْبًا للمتوفَّى، ومن غير المتوقَّع أن يُعطي السَّعدي تاريخًا خاطئًا لوفاة شخص عايشه منذ الطُّفولة. ثم إنَّ النَّص قد صرَّح بأنَّ محمودًا كعت الأخير هو ابن علي بن زياد، وليس ابن «المتوكل على الله». وفوق ذلك، فإنَّنا لا نطمئنُّ إلى أنَّ «علي بن زياد» المذكور هنا هو عين زياد بن علي القوطي المذكور في وثيقة شراء نسخة كتاب الشِّفا، على ما تقدَّم بيانه في فقرةٍ سابقة.

تجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الاستنتاجات التي توصَّلنا إليها، قد سبق بها

---

(١) عشرة من تلك المواضع في كتاب الفتاش، في نسخة (C) وهن متواليات في بداية الكتاب، [ص: ٩؛ ١٥؛ ١٦؛ ٢٤؛ ٢٩؛ ٥٣؛ ٥٤؛ ٥٨؛ ٦٥]؛ والعاشرة في [ص١١٦]، والبقية في نسخة (A) من الفتاش، وهي، [ص: ٧٢؛ ٨٢؛ ١٠٨؛ ١١١؛ ١١٨؛ ١٤٢؛ ١٥١؛ ١٥٢]. ووردت بقيَّة المواضع في كتاب «تاريخ السودان»، ص: ٣٥؛ ١٣١؛ ٢١١؛ ٣٠١.

المؤرِّخ هونْويك حين نفى خبر حجِّ محمود كعت مع أسكيا، ورجَّح أن يكون هذا الخبر من قبيل الخلط بينه وبين جدٍّ سميٍّ له. فهو - بهذا الرَّأي - له قصب السَّبق في هذا المجال، ولكنَّه لم يدعم رأيه بدليلٍ مقنع ملموس من النُّصوص المتوفرة بين أيدينا.

الخلاصة، أنَّ محمود كعب الجد (الأوَّل)، هو الذي عاصر أسكيا الحاج محمد وحجَّ معه، وحفيده محمود بن الحاج المتوكِّل، هو الذي عاصر أسكيا داود، وعاش حتى سقوط مملكة صونغاي، وهو جدُّ ابن المختار المحرِّر الأخير للفتاش.

رابعًا: مراجع الفتاش بوصفها مفاتيح لبعض الإشكالات

بالإضافة إلى ما يمكن أن تضيفه مصادر «الفتاش» من قيمةٍ تاريخيَّة عليه، فإنَّها تضطلع - في بعض مواضعها - بإمداد الباحث بإشاراتٍ ومفاتيح لما يعترضه من ألغازٍ ورموزٍ حول نصوص هذا الكتاب، خاصَّةً فيما يتعلَّق بربط فقرات الكتاب بكاتبها الحقيقيِّ. وبطبيعة الحال، فإنَّ مصادر «الفتاش» قليلة، خاصَّة المصادر المكتوبة؛ لأن رصد الوقائع وتسجيل التَّواريخ لم يكن ظاهرةً شائعةً في الوسط العلمي السوداني آنذاك في خضمِّ انشغال العلماء بالمدوَّنات الفقهيَّة والدِّينيَّة. غير أنَّ مصادر «الفتاش» سواءٌ أكانت شفاهيَّة أم مكتوبةً، تحوي معلوماتٍ وإشاراتٍ جديرةً بالاهتمام في الكشف عن بعض مغاليق الكتاب، وعن بعض الجوانب في شخصيَّة محمود كعت، وابن المختار.

أ- مصادر مكتوبة

من أهمِّ المراجع المكتوبة التي نقل منها ابن المختار، ما تركه جدُّه محمود كعت، وأخواله الثَّلاثة: القاضي محمد الأمين، والفقيه يوسف كعت، والقاضي

إسماعيل أبناء القاضي محمود كعت.[١] وقد نقل ابن المختار عن هؤلاء إمَّا حكايةً ومشافهةً، وإمَّا كتابة من بعض المذكِّرات التَّاريخيَّة التي تركوها، ونصَّ على ذلك في مواضع من «الفتاش» منها خبر وثيقة الحرمة التي كتبها أسكيا الحاج محمد لأحفاد الفقيه مور هَوكار، قال: «ووقَفْتُ أنا على ذلك الكتاب، أوْقَفَني عليه خَالي القَاضِي إسماعيل بن الفَقِيه القَاضِي محمود كَعْتِ» [ص٧٢]، ومنها قوله: «ونقَلْتُ هذا كُلَّهُ مِنْ كِتَابِ الجدِّ أَلْفَعْ محمود بن الحاج المُتَوَكِّل، بخطِّ بَعْضِ طَلَبَتِهِ مِنْ قَوْلِه» وقد وردت هذه الإشارة في معرض حديث المؤرِّخ عن صُن علي وغزواته.

هذا، وإنَّ أهمَّ ما تتميَّز به نقولات «الفتاش» المكتوبة، دلالتها - بقوَّة - على أنَّ ابن المختار هو محرِّر الكتاب؛ لأنَّ جلَّ المواضع التي أشار فيها إلى نقله من مصادر مكتوبة إنَّما هي مواضع مبثوثةٌ في ثنايا الكتاب، فلو كان ابن المختار قد عمد إلى نسخةٍ مكتوبة من قبَل جدِّه فأكلمها؛ لكانت نقولاته كلُّها في ذلك الجزء المكمِّل. لكن ذلك ليس بواردٍ في الفتاش. ويدلُّ ذلك على أنَّ ابن المختار قد قام بعمليَّة تحريريَّة موسَّعة، أكبر من الجمع والإضافة، وهذا ما أكَّده المؤرِّخ نحيميا ليفتصيون في تعليقه على النَّص السَّابق المنقول؛ إذ ذهب إلى أنَّه يدلُّ على أنَّ الحفيد ابن المختار لم يعتمد كتاب جدِّه محمود كعت ليضيف عليه فقرات وفصولاً، كما هو شائعٌ بين الباحثين، وإنَّما أخذ منه معلوماتٍ، ووضع كتابًا آخر بجملته، وهو كتاب «الفتاش» الموجود بين أيدينا الآن.

من الإشارات أيضًا الدَّالة على أنَّ تحرير «الفتاش» بصورته النِّهائيَّة من عمل ابن المختار، إحالاته المتكرِّرة على كتاب «الدُّرر الحسان في أخبار ملوك

---

(١) ينظر مثلا، [ص٨٩؛ ١٠٨؛ ١٢٩].

السُّودان» لمؤلِّفه بابَ غُور،[١] وقد ورد أنَّ الحاج الأمين كانو والد بابَ غُور، كان من العلماء الذين نَجوا - في اللَّحظة الأخيرة - من مذبحة العلماء بتمبكتو على يد الجيش المغربي عام (١٥٩٣م).[٢] ممَّا يدلُّ على أنَّه كان معاصرًا لمحمود كعت (الأوسط). أمَّا ابنه بابَ غُور صاحب «الدُّرر الحسان»، فيُحتَمَلُ كثيرًا أنَّه قد ألَّف كتابه بعد وفاة محمود كعت، ثم إنَّ آخر تاريخ مُقتَبَسٍ من هذا الكتاب هو عام (١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م) أي عامان بعد وفاة محمود كعت ممَّا يرجِّح عدم اطِّلاعه على هذا الكتاب.

كذلك، من مراجع ابن المختار كتاب «كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الدِّيباج»،[٣] للشيخ القاضي أحمد بابا التمبكتي، وظاهر كلام ابن المختار أنَّه قد التقى به بتمبكتو بعد عودته من منفاه بمراكش عام (١٠٢٠هـ/ ١٦١١م).[٤] ونقولات ابن المختار عن القاضي أحمد بابا، إنَّما هي تواريخ لوفيات بعض المشايخ السَّابقين بتمبكتو. وهذا يقوِّي الظنَّ لدينا أنَّ ابن المختار - وإنْ كان قد عقَلَ رجوع القاضي إلى تمبكتو- فإنَّه لم يكن راشدًا في ذلك الوقت؛ لذلك لم نجد له رواية شفاهيَّة رواها عن القاضي على الرُّغم من استجماع الدَّواعي الموجبة لذلك؛ حيث كان القاضي بعد عودته من المنفى المراكشي في قمَّة الشُّهرة والمعرفة والاطِّلاع على البيئات الأخرى، وعاش عشرين سنة بعد عودته، ومع ذلك كلِّه فإنَّنا لا نجد ابن المختار يروي عنه شيئًا. بناءً على هذه الاعتبارات، يمكننا تحديد فترةٍ مقاربة لولادة ابن المختار بحدود عام (١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م) وما بعده.

---

(١) ينظر مثلا: [ص: ٤٤؛ ٥٢؛ ٨٥؛ ٩٢؛ ١٢٦؛ ١٤٦؛ ١٥٥؛ ١٨٢].

(٢) تاريخ السودان، [ص١٧٠].

(٣) ينظر [ص: ٥٢؛ ٨٥؛ ٩٣؛ ١١٥؛ ١٢١؛ ١٧٨].

(٤) ينظر [ص٩١] من الفتاش.

أيضًا، تقوِّي نقولات ابن المختار من كتاب «كفاية المحتاج» رأينا القائل بأنَّ ابن المختار هو المحرِّر الحقيقيُّ لكتاب «الفتاش» بأكمله؛ لأنَّ إحالاته على العلامة بابا التُّمبكتي مبثوثةٌ على امتداد الكتاب،[١] فلو كان شيءٌ من تلك المواضع من تحرير محمود كعت الجد؛ لما احتاج إلى العودة إلى القاضي بابا التُّمبكتي، وهو - أي كعت الجد - متقدِّم عليه بكثير، وشهد من الأحداث ما لم يشهده القاضي.

ب - مصادر شفاهيَّة

تمثِّل المصادر الشفاهيَّة غالبية مصادر «الفتاش»؛ إذ قد رجع ابن المختار إلى كثيرٍ من علماء عصره ومشايخه؛ فنقل عنهم، ونصَّ على أسمائهم، وخاصَّة في الفقرات التي وردتْ عن الممالك السَّابقة، مثل مملكة غانة، وأخبار مانْسا موسى.[٢] وقد يروي بعض الأخبار عن معاصرٍ له من ذوي الاطِّلاع المباشر على الحدَث المعنيِّ، من أولئك كِسِرْدُنكِ بُكر، وهو المدَّاح الشَّعبيُّ الذي كان يُلازم كلَّ أسكيا؛ إذ نقل عنه أخبارًا خاصَّة بأسكيا داود، وعن أسكيا إسحاق الثَّاني.[٣] والمصادر الشفاهية أقوى دلالة منه في المصادر الكتابيَّة في ربط فقرات «الفتاش» بابن المختار، وفي إمداد القارئ بومضاتٍ عن شخصيَّته. فمن تلك المصادر الشفاهيَّة التي تدلُّ دلالةً قويَّةً على أنَّ ابن المختار هو محرِّر الكتاب، خبرٌ عن بلدة كِوَيْ القريبة من بَمْبَ؛ إذ ذكر الرَّاوي أنَّه قد نقله مِنْ في موسى [ص٢٣]، وهذا الخبر واردٌ ضمن الفقرات التي انفردت بها النُّسخة .(C) فبحضور هذه الإشارة إلى هذا المصدر يتبادر إلى الذِّهن سؤالٌ وجيهٌ عن جدوى رجوع المؤرِّخ إلى مُخبِرٍ؛

(١) ينظر [ص: ٥٢؛ ٨٥؛ ٩٣؛ ١١٥؛ ١٢١؛ ١٧٨].

(٢) ينظر مثلا، [ص٣٦؛ ٤١].

(٣) ينظر: [ص٩٤؛ ١٥٥].

ليعرف منه عن موقع مدينةٍ قريبةٍ من تمبكتو معاصرة له، فلو كان الكاتب حقًّا محمود كعت الجدّ؛ لما كان بحاجةٍ إلى مخبرٍ في هذا الأمر. فالظَّاهر أنَّ البلدة كانت مُنْدَرِسَةً في زمن كتابة هذا النَّص، وهو منتصف القرن السَّابع عشر الميلادي.

أيضًا، من أمثلة تلك المواضع ما ورد في قوله: «ثم أخبرني بعض العارفين بسِيَرهم» [ص٤٠]، وهذا الخبر أيضًا فيه دلالةٌ على أنَّ ابن المختار هو كاتبه؛ لأنَّه في معرض الحديث عن عمر كمزاع أخي أسكيا الحاج محمد وعن حربه للزَّعيم تَنْبِضَ، فمن المستبعد أن يخفى شيءٌ من ذلك عن محمود كعت، وهو - حسب زعم «الفتاش» نفسه - نديم السُّلطان، المطَّلع على أخبار السلطنة قبل غيره. كما أنَّ في قوله «بعض العارفين بسِيَرهم» إيحاءً قويًّا بتقادُم العهد في هذا المجال، وأنَّ هذا الجزء قد كُتب في فترة متأخِّرة، حتَّى جاز أن توجد «سِيَر» للمُتحدَّث عنهم، ومن الصَّعب أن يعبِّر مؤرِّخٌ عن شخصٍ معاصرٍ له بمثل هذا الأسلوب.

موضعٌ آخر من إشاراته إلى المخبرين تعطي دلالةً قويَّة في دعم موقفنا السَّابق بوجود شخصين باسم «محمود كعت»: كعت الجد وكعت (الحفيد/ الأوسط). ذلك الموضع هو إشارة «الفتاش» إلى بعض أحفاد الشَّيخ مور هوكار. قال: «وحدَّثنا بعض أعلام عصرنا من أهل مورْ كُيْرَ، هو مور صادق بن الفقيه مور....» [ص٦٢]. وهنا إشكالٌ في معاد الضَّمير «نا».. آ المرادُ به محمود كعت (الجد) أم غيره؟ ومصدر الإشكال أنَّ مور الصَّادق المذكور قد ذُكر أنَّه كان معاصرًا لأسكيا الحاج محمد [ص٧١]، وإذا ثبت ذلك فإنَّ المتكلِّم هنا في (حدثنا، عصرنا) هو محمود كعت (الجد) على أكبر احتمال، ولكنَّ هذا الاحتمال لا يلبثُ أنْ يتبدَّد بعد ثلاث صفحات [ص٦٥] حين يذكر الرَّاوي أنَّه بعد تفتيشٍ عن الأحوال والأعوام، وجد أنَّ ابتناء مدينة تِنْدِرْمة كان في العام (٩٠٢هـ). هذه الفقرة تقوِّي مذهبنا بوجود كعتَين اثنين؛ لأنَّه لا يمكن القول إن محمود كعت المعاصر لأسكيا هو المتحدِّث

هنا، وإلاَّ كان من الطَّريف التَّفتيش عن الأحوال والأعوام من لدُن مؤرِّخ عن أحداثٍ زعم أنَّه كان من أكبر القائمين بتوجيهها والتَّأثير فيها. هذا، ومن شبه المحال أن يكون المتكلِّم في الفقرة أعلاه هو ابن المختار الحفيد؛ لأنَّه لم يكن معاصرًا لمور الصَّادق الذي - وإنْ لم تسعفنا الرِّوايات التَّاريخيَّة بتاريخ وفاته، فإنَّه- يُرجَّح أنَّه كان راشدًا منذ عصر صُن عليٍّ الذي سجنه وأخاه واضطهدَهما، فلو افترضنا أنَّه قد عاش حتى يلقاه ابن المختار الحفيد؛ لكانت سنُّه آنذاك لا تقلُّ عن (١٤٠) سنة. إذنْ، لا يبقى لدينا خيارٌ آخر إلاَّ التَّسليم بوجود محمُودٍ كعت بين محمود الجدِّ الكبير، وبين ابن المختار، وهو محمود كعت بن الحاج المتوكِّل، (الأوسط). هذا، وقد كانت الإشارة إلى المصدر الشفاهي هي المفتاح الذي أسعفنا في التَّوصُّل إلى هذا الاستنتاج والتَّفسير المقبول هنا.

من مخبري ابن المختار الشَّيخ محمد بن الحاج مختار (وُلْد كُرتُم)، والشَّيخ وُلد وَعْدَ بن أيَدِ المختار، وكلاهما من مشايخ تمبكتو، وقد روَّى عنهما ابن المختار بعض الأحداث المتأخِّرة، خاصَّة عن الغارة المغربيَّة على صونغاي [ص١٧٤]، ومقتل علماء سَنْكُرَيْ على يد الرُّماة المغاربة. ويدلُّ نقل ابن المختار تلك الأخبار عن أولئك على أنَّه لم يشهدها، أو - على الأقلِّ - لم يعقلها. بل بالأحرى لم يكن مولودًا آنذاك؛ لكون محمَّد الأمين خالِ ابن المختار مولودًا في فترةٍ مقاربةٍ لهذا التَّاريخ،[1] وتدلُّ سياقات الكتاب كلِّها على أنَّ الخال كان أكبرَ سنًّا من ابن المختار. هذا، وعلى الرُّغم من كلِّ تلك المعلومات والمواقف التي يمكن أن نُبَلْوِرها انطلاقًا من مصادر «الفتاش» الشفاهيَّة، فإنَّها - في الحقيقة - لا توفِّر معطياتٍ قاطعة حول القضايا الجوهريَّة العالقة بهذا الكتاب.

---

(١) ذكر السعدي وفاة محمد الأمين وأشار إلى أنه كان رفيق صباه، وقد عُرف أنَّ السعدي ولد سنة (١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م).

خامسًا: وقفة عند مغالطات حديثة حول «الفتاش» و«تذكرة النسيان».

لعلَّه قد اتَّضح في الوقفات السَّابقة عمق الإشكال المحفوف بكتاب «الفتاش» وبمؤلِّفيه محمود كعت الجد، وابن المختار، وأنَّ إطلاق القول في هذا الموضوع قد يكون من قبيل المجازفة؛ لذلك ما زال الباحثون يحومون حول الحمى في شأن هذا الكتاب، والمؤلِّفين المرتبطين به. وبوجود هذا التَّحوُّط من لدُن الباحثين، فإنَّ الطَّبعة الجديدة التي نُشرت لتاريخ «الفتاش»، لا بدَّ من الوقوف حولها؛ للنَّظر فيما قدَّمته هذه الطَّبعة من إسهامٍ في حلٍّ بعض الإشكالات المحفوفة بهذا الكتاب، والطَّبعة المعنية هنا هي التي سبقت الإشارة إليها في المقدِّمة، أعدَّها الدكتور/ ولد السَّالم، وقد أشرنا إلى أنَّه قد جنى بتلك الطَّبعة على الكتاب؛ ذلك أنَّ أوَّل ما يصدم به قارئ هذا الكتاب، تقريره - على غلاف الكتاب - بأنَّ كتاب «تذكرة النسيان» هو تكملةٌ للفتاش، وفوق ذلك نسبته لهذا الكتاب الأخير إلى ابن المختار، وهذا محالٌ بكلِّ المقاييس! وقد أتبع ولد السالم هذا الادِّعاء بجملةٍ من التَّصرُّفات في هذا الإصدار لكتاب «الفتاش»، ممَّا لا يعطي للباحث خيارًا إلاَّ الوقوف وقفة نقديَّة حول هذه الطَّبعة.

إنَّ المأخذ الأوَّل على ما ذهب إليه الباحث ولد السالم، ضربُه بجميع النُّصوص الواضحة - بين يديه في كتاب الفتاش عُرْض الحائط، وهي نصوصٌ لا يمكن أن يتطرَّق إلى خلد قارئها التَّفكير بأنَّ ابن المختار هو مؤلِّف «تذكرة النسيان»، ومن أقرب تلك النُّصوص، تصريح ابن المختار بأنَّ والده هو «المختار بن قنبل» [ص٧٠]، وفي مواضع كثيرة بأنَّ جدَّه هو «القاضي محمود كعت». أمَّا مؤلِّف «التذكرة»، فقد صرَّح باسم جدِّه الأوَّل والثاني، فالأوَّل هو: «ألفع الأمين بن محمد صود (ت١٠٦٧هـ)، والثاني هو «ألفع محمد بن الأمين صود»، وجدُّه لأمِّه هو «الفقيه محمد بن محمد بن أبي بكر صادق (ت١٠٦٧هـ). فلو قرأ ولد

السالم ساعةً في هذا الكتاب الذي نشره باسمه، لما تطرَّق إلى ذهنه الجمع بين هاتين الشَّخصيَّتين: ابن المختار، ومؤلِّف «تذكرة النسيان» المجهول.

وأغرب من ذلك، أن يناقض ولد السالم نفسه نقضًا بيِّنًا في الصَّفحة نفسها حين ترجم لابن المختار، ونصَّ بقوله: «وقد تابع ابن المختار عمل أسلافه بطلبٍ من الأمير أسكيا داود بن هارون الذي حكم تنبكتو (١٦٥٧-١٦٦٩م)». وبعد فقرتين من ذلك قال: «ولد ابن المختار سنة ١١١٢هـ/ ١٨/ ٦/ ١٧٠٠م». فهاهنا تاريخان متناقضان متباعدان جدًّا، والسُّؤال: كيف أمكن لابن المختار أن يحيا في منتصف القرن السَّابع عشر الميلادي في عهد أسكيا داود بن هارون، ثم يموت وينشئه الله مرَّة أخرى بشرًا سويًّا في نهاية القرن نفسه؟! هذا ولا يمكن حمل ما قرَّره ولد السَّالم هنا على محمل السَّهو المحض؛ لأنَّه دعَّم زعمه هذا بنقل نصوص من الكتاب.

وهمٌ فاحشٌ آخر وقع فيه حين زعم أنَّ ابن المختار.. «قد عاصر حملة المنصور السَّعدي، وحكم الرُّماة، وسجل الوقائع، وكان شاهدًا على بعضها مباشرة»،[1] هكذا في جملٍ تقريريَّة إنشائيَّة غير مستندة إلى معطياتٍ تاريخيَّة. عليه، يصعب أن نقبل أنَّه قد سها حين جمع بين حدثين بينهما قرنٌ كاملٌ من الزَّمان؛ إذ أنَّ الغزو المغربي لصونغاي كان عام (١٥٩١م)، وولادة ابن المختار في زعمه كانت عام (١٧٠٠م).

وبصرف النَّظر عن تلك المغالطات، فإنَّ ولد السالم قد انتهك حرمة البحث والأمانة العلميَّة، وجنى جنايةً نكراء على كتاب «الفتاش»، وذلك من عدَّة جوانب، منها:

---

(١) ولد السالم، مرجع سابق، ص٦.

• تصرُّفه في عنوان الكتاب الأصليِّ بالحذف والزِّيادة والتَّقديم والتأخير دون مبرِّر؛ إذ العنوان الأصلي كما هو منصوصٌ عليه في المقدمة، هكذا: «تاريخ الفتَّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التَّكرور، وعظائم الأمور، وتفريق أنساب العبيد من الأحرار». أمَّا ما أثبته ولد السالم، فهو: «تاريخ الفتاش في **ذكر الملوك** وأخبار الجيوش وأكابر الناس»، فأضاف قوله: «في ذكر الملوك»، وحذف «أخبار البلدان» كما حذف الجزء الأخير من العنوان برمَّته! كلُّ ذلك دون أن يشير إليه لو كان في هذا التَّصرُّف سببٌ يُبرِّره.

• ادِّعاؤه أنَّه قد اعتمد نسخة المحقِّق هوداس لكتاب «الفتاش»، وأنَّ هوداس لم يشرح بعض الإشارات التَّاريخيَّة، أو الألفاظ الصَّعبة، وأنَّه هو قد علَّق على بعض تلك الإشارات الغامضة، ونبَّه على بعض مواضع الخلل والاضطراب.[1] والظَّاهر أنَّه لم يطَّلع على النُّسخة المحقَّقة مع التَّرجمة الفرنسيَّة؛ إذ هي مشحونة بالشُّروحات والتَّعليقات. كما أنَّه لم يعتمد نسخة هوداس - كما ادَّعى - وإنَّما نقل نصَّ هذا الكتاب من الإنترنت برمَّته،[2] ثمَّ إنَّه لم يُعنَ بمراجعته وإنَّما نقل النَّص بقضِّه وقضيضه وبأخطائه الطباعيَّة المزعجة جدًّا، وزاد السَّوأة بتصرُّفه فيه بتغيير جميع موارد «تنبكت/ تمبكت» إلى «تُنْبُكتو»، وهو بذلك يصادر هجاءات هذا الاسم الأصليَّة لصالح هجائه الخاصِّ، وهجاؤه - بالمناسبة - نطقٌ غير نموذجي.

• أمَّا ادِّعاؤه بأنَّه قد شرح بعض الألفاظ، ونبَّه على بعض مواضع الخلل في التَّواريخ والأسماء، فمجرَّد ادِّعاء! إنَّ قصارى ما قام به تصرُّفه في أسماء الأعلام والألقاب التي بدتْ غريبةً عليه، فحرَّفها. ووضع تعليقات إنشائيَّة مختصرة لبعض

(١) المرجع السابق، ص٨-٩.

(٢) نسخ نص الكتاب بفقراته وكلماته وتنسيقه من موقع جوزيف كيني الإلكتروني الذي أشرنا إليه في مستهل هذه الدراسة.

المواضع، وهو في معظمها مجانبٌ للصَّواب، واقعٌ في أوهام، ففي تعليقه الأوَّل الذي لم ينقله نقلاً حرفيًّا من غيره، قال: «كُرْمِنَ فار: حاكم كُرم»؛ فخلط بين (كُرمن) وبين (كُرْمَ Gurma).(١)

• انتهاجه أسلوبًا غريبًا في التَّعليق على النُّصوص، فهو يضخِّم هوامشه بالنُّصوص المطوَّلة التي ينقلها من أصحابها نقلاً حرفيًّا. فتخريجه لحديث «عليكم بسنَّتي...» مثلاً، وتعليقه عليه في مقدِّمة الفتاش استغرق ثماني عشرة صفحة كاملة بحجم الخطِّ المصغَّر.(٢) علمًا بأنَّ هذا الحديث لا علاقة له بتقرير حكم أو ببَلْوَرَة موقفٍ في هذا النَّص، وإنَّما ورد عرضًا في خطبة الكتاب. بعد ذلك مباشرةً، أتى ليشرح كلمة «سُنْغي»؛ فنقل بحثًا منشورًا في مجلة استغرق اثنتَي عشرة صفحة، واستغرق تعليقه على كلمة «مالي» ثلاثَ عشرة صفحة نقل فيها من مصادر شتَّى قصصًا كثيرة بعيدة عن مالي، وكرَّر مثل ذلك في مواضع عدَّة.(٣)

• الانتقائيَّة في تعليقاته ونقولاته في الهوامش، حيث يتخيَّر من المواضع للتَّعليق عليها ما يتَّصل بموريتانيا أو بالطَّوارق، فيطوِّل في النَّقل العشوائيِّ، وإن لم يكن للمنقول أدنى علاقة بموضوع الخبر الوارد في متن «الفتاش».(٤) بالمقابل، فإنَّه لم يتعرَّض لمواضع كثيرة جدًّا ممَّا هي بحاجة حقيقيَّة إلى إيضاح وبيان.(٥) أمَّا

---

(١) ولد السالم، مصدر سابق، ص٤٧. ومن مواضع أغلاطه وأوهامه الكثيرة مثلا، هامش: ٧٤؛ ١٢٩؛ ١٧١؛ ١٧٣؛ ١٧٤.

(٢) ولد السالم، مصدر سابق، ص١٥ حتى ٣٣). وهذه النصوص منقولة بحذافيرها.

(٣) ينظر مثلا، الهوامش في الصفحات الآتية: ٤٨؛ ٥٧؛ ٦٠؛ ٦٥؛ ٧٥؛ ٨٦.

(٤) ينظر مثلا الهوامش في: ص١١٤؛ ١٢٥؛ ١٩٢.

(٥) ظهر ذلك بوضوح في الفصول الأخيرة من الكتاب؛ حيث يترك الباحث عشرات الصفحات دون تعليق واحد في الهامش، مثلا: (١٤٧-١٧٠، أي ٢٤ صفحة، ومن ص١٧٧ حتى ١٩٢، ومن ص١٩٦ حتى ٢٢٣ ثماني وعشرون صفحة).

في كتاب «تذكرة النسيان» الذي لم ينشره هنا إلا لتضخيم حجم الكتاب، فالمفارقة في هوامش هذا الجزء النَّادرة جدًّا، أنَّ أيَّ هامش منها لم يتجاوز نصف السَّطر أو السَّطر الواحد. اللَّهم إلاَّ هامش واحد في ثلاثة أسطر تقريبًا.[١] والسَّبب واضحٌ، وهو أنَّه لم يجد هنا ما ينقله نقلاً حرفيًّا من النُّصوص لتضخيم الحواشي كما فعل في «الفتاش»؛ فتجاهل التَّعليق على الكتاب، ولم يورد إلاَّ إحدى وثلاثين تعليقة عقيمة لا تزيد في إيضاح النَّص شيئًا.

هذا، وقد اضطررنا إلى هذه الوقفة النَّقديَّة حول هذا الكتاب لعدَّة أسبابٍ، منها: كون صاحبه من أهل الاختصاص في علم التَّاريخ،[٢] وكونه من القريبين إلى تاريخ غرب إفريقيا؛ فالمتوقَّع من مثله أن يكون ذا حساسيَّة - لا بأس أن تكون مفرطة - حيال النُّصوص التَّاريخيَّة، وأن يكون ما يقدِّمه في هذا المجال عامَّة، وفي مجال المنطقة التي هو منها، ذا وزنٍ معتبر في الوسط العلمي. أمَّا أن يلقي الكَلِم على عواهنها، ويكون ظلمه لعلم التَّاريخ ولتاريخ بلاد السُّودان الغربيِّ، أشدَّ مضاضة مِنْ ظلم مَن ليس من أهله، فلا نملك إلاَّ أن نسترجع!

سببٌ آخر في وقفتنا هذه، هو استهتاره الواضح بهذا النَّص، فلو أنَّه كان قد اجتهد فأخطأ؛ لكان معذورًا مأجورًا إن شاء الله. غير أنَّ المؤكَّد لدينا أنَّه لم يجهد نفسه للنَّظر في النَّص الموجود بين يديه، ولم يعبأ بأن يستعين بمن يراجع له هذا النَّص - ولو بأحد طلبته المبتدئين- قبل النَّشر؛ فوقع في أشدَّ ممَّا نعى على غيره من الباحثين المصريِّين والمشارقة الذين يقول عنهم: «... بل وقع بعضهم في

(١) ينظر: ولد السالم، ص٣١٥، وقد بلغت صفحات هذا الكتاب (١٢٧)، ولكن هوامشه (٣١) فحسب.

(٢) هو أستاذ التاريخ في كلية الآداب بجامعة نواكشوط (موريتانيا).

أغلاط تاريخيَّة بينة شوهت معرفتهم بالسودان الغربي وهي ملاحظة تشمل كثيرا من الدراسات المصرية والمشرقية، ولعلها موجودة أيضا لدى الباحثين المغاربيين في أعمالهم حول إفريقيا الشرقية».[1] فهل نقول لولد السالم: «أحَشَفًا وسوء كيلة»؟ وهل لنا من يوصيه بالعناية بالجذع المثبت في عينيه قبل العناية بالقشة في عيون الآخرين؟!



(١) ولد السالم، مصدر سابق، ص٨.

المبحث الثَّاني:

خلفيَّة تاريخيَّة لدعوى الخلافة المهديَّة للشَّيخ لوبو

يتعرَّض هذا المبحث للخلفية التاريخيَّة التي رشَّحت للتَّحريف المحتمل في كتاب الفتاش، وذلك عبر استعراض سيرة حياة الرَّجلَين المتَّهَمين بهذا التَّحريف، وكذلك استعراض نظام الحكم والسياسة بإمارة «دينا» التي أسَّسها الرَّجلان الشَّيخ أحمدو لوبو، والهدف من هذا الاستعراض هو تقديم رؤية عن قضيَّة التَّحريف المحتمل من جوانبه المتعدِّدة.

أوَّلا: الشيخ أحمد لُوبو وتأسيسه للخلافة الإسلاميَّة «دينا»

هو الشَّيخ أحمد بن محمد بوبو بن أبي بكر بن سعيد الماسنِّي الفولاني، ويُعرف بالشَّيخ لوبو، أو أحمدو بُوبو، أو أحمد باري.[1] ولد حوالي (١٧٧٦م)، ببلدة مالانْغالْ .(Malangal) كان تعليمُه وثقافتُه الإسلاميَّة متوسِّطًا مثل سائر أبناء جيله من الفولاني، وفي حوالي الثَّانية والعشرين من عمره تفرَّغ للعلم؛ فدرس على أيدي بعض المتصوِّفة القادريين بمدينة جيني.[2] ويبدو أنَّ حركة الجهاد الفُوديِّ ببلاد الهوسا قد استَهْوَتْهُ منذ تلك الفترة؛ فالتحق بالشَّيخ عثمان دان فوديو

---

(١) من هجاءات هذا الاسم باللاتينيَّة: Ahmadu Lobbo/Lobo/Lubbu, Shehu/Seku Ahmadu, Hamad Bari, Ahmadu Hamadi Bubu ويقع أحيانًا خلط بين هذه الشخصية وغيرها في تاريخ الإسلام ببلاد السودان الغربي، مثل ابنه وحفيده فهما يُدعيان: أحمدو لوبو، وكذلك شيخو أحمدو بن عمر بن سعيد تال Seku/Shehu Ahmadu وقد عاش أولئك معاصرين مما يزيد في فُرص الخلط بين أسمائهم وتواريخهم.

(٢) J. F., Ade Ajayi. Africa in the 19th Century, p601.

وبجماعته، ولا شكَّ أنَّ لوبو استزاد علمًا في هذه المرحلة، وتصقَّلت عنده الرُّؤية الإصلاحيَّة؛ فعزم على العودة إلى مسقط رأسه بماسنة؛ لتحقيق المبادئ الإصلاحيَّة التي تشرَّبها فكرًا وتطبيقًا في الوسط الصُّكتي، ولا شكَّ أنَّ الشَّيخ دان فوديو قد استَبْشَر بهذا الفتى أيَّما استبشار، ورأى من عزمه امتدادًا حقيقيًّا لرقعة دعوته هو وجهاده التَّجديديِّ ببلاد السُّودان الغربي. عليه، أجاز الشَّيخُ مريدَه للعمل الدّعويِّ والجهادي، وزوَّده بالكتب خاصَّة ما ألَّفه هو من الكتب في سياسة الحكم الإسلامي، وإدارة الدَّولة، وقبل خوض المعركة الأولى، أرسل لوبو إلى شيخه مبعوثَيْن يستفتيه في مشروعيَّة جهاده ببلاد ماسنة؛ فأكَّد له الشَّيخُ أنَّ جهادَهُ في الظُّروف الخاصَّة التي ذكرَها مشروعٌ. بل بادر الشَّيخُ بإعطاء المبعوثين لواءً من الألْوية التي كان يعقدها في ميادين القتال؛ دلالةً قويَّة على تأييده المطلق لمريده في جهاده ضدَّ الوثنيِّين المتحالفين ضدَّه. وهكذا عُدَّت حركة الشَّيخ لوبو - منذ مرحلتها الجنينيَّة - امتدادًا لحركة الجهاد والخلافة الإسلاميَّة بصكوتو، بمباركة الشَّيخ عثمان دان فوديو له، وإمداده إيَّاه بالدَّعم الرُّوحيِّ والماديِّ.

والجدير بالذِّكر، أنَّ ذلك المشروع الإصلاحيَّ الذي أزْمَع عليه لوبو كان مطلوبًا آنذاك في منطقة ماسينا روحيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا؛ إذ هي الفترة التي يُشار إليها في الأدبيَّات الماسنَويَّة بعصر «dyahilaaku» (الجاهليَّة)، وكان من مظاهرها طغيان الممارسات والطُّقوس الوثنيَّة على المجتمع الرَّعويِّ الفولاني، اعتقادًا منهم أنَّها تحمي مواشيهم من الأوبئة والتَّلف،[1] ومن مظاهرها أيضًا سقوط الزِّعامات الفولانيَّة في براثن الممالك والدُّويلات الوثنيَّة بالمنطقة، خاصَّة مملكة البَمْبارا في سيغو، وفي ظلِّ تلك التَّبعيَّة من لدُنْ سلاطين الفولاني المسلمين

---

(١) J. D. Fage and Roland Anthony Oliver. The Cambridge History of Africa, p198.

لأسيادهم البَمْبارا في سيغو، وحرصهم في حماية عروشهم المهَلْهَلة، انقلبت الآية فكانت الغلبة للوثنيَّة على الإسلام، وهكذا كان مشروع لوبو الإصلاحيُّ محاولةً لإعادة الميزان إلى المنطقة، والخروج بالمسلمين من حال الجهل والضَّعف إلى القوَّة. كذلك، كانت هذه الحركة في فترةٍ من الفوضى والاضطراب من جراء ما أحدثهُ الغزو المغربيُّ لصونغاي من سقوطٍ وغياب قوَّة سياسية مُهيمنة بالمنطقة تحافظ على الأمن والاستقرار.

إذن، بدأ لوبو حركته الإصلاحيَّة، بمشروعٍ دعويٍّ تعليميٍّ في ماسنة، سار فيه على خُطى شيخه دان فوديو بالدَّعوة بالحسنى، وتكثيف التَّعليم الواعي، والتَّثقيف الاجتماعيِّ الإسلامي، وتبصير العامَّة بحقوقها وواجباتها؛ فما لبث أن استقطبتْ دعوتُه الإصلاحيَّة تلك جمعًا غفيرًا من الطَّلبة والمريدين، والتفَّت حوله عامَّة قبائل الفولاني التي وجدت فيه مخلِّصًا حقيقيًّا لهم مما كان فيه الفولاني من هوانٍ وضعفٍ وظلم على أيدي ملوك البَمْبارا بالمنطقة.

بطبيعة الحال، فإنَّ الشَّيخ لوبو سرعان ما اصطدم بالزُّعماء الفولاني المحلِّيِّين (ardo'en)، الخاضعين لتبعيَّة ملوك البمبارا الوثنيِّين، وعلى الرُّغم من سلميَّة دعوته وابتعاده عن التَّعرُّض المباشر لأولئك، فإنَّهم ما لبثوا أن تحالفوا ضدَّه، وبادأوه بالحرب المسلَّح. هكذا، حذْوًا بحذْوٍ، كانت سيناريو حركة الشَّيخ لوبو مماثلة لحركة شيخه دان فوديو؛ إذ طارده وجماعتَهُ سلطانُ ماسنة، وهاجمه ببلدة (Runde Siru)، فهاجر إلى بلدة «حمد الله» عام (١٨١٨م)، الواقعة في الشَّمال الشَّرقي من مدينة جيني، وبها أعلنَ الخروج على سلاطين الفولاني، كما أعلن شيخُه دان فوديو الخروج على ملوك الهوسا المخلطين إثر مطاردة ملك غُوبِرْ له ببلدة ديغيلْ وهجرته مع طلبته ومريديه إلى غُودو .(Gudu) وهكذا أيضًا اصطدم الشَّيخ لوبو بملوك البَمْبارا الذين أزعجتْهُم دعوتُه الثَّوريَّة، ونشاطُه التَّوعَويُّ

التَّثقيفي لجماهير الفولاني الخاضعين لسلطة البَمْبارا؛ فتحالفوا ضدَّه، ونشبت بينه وبينهم حروبٌ طاحنةٌ كان من أشدِّها وأكثرها ضَراوةً حروبه مع الزَّعيم دَا مُونْزونْ (Da Monzon)، وحروبه مع الملك دَا كابا (Da Kaba) في سيغو التي دامتْ لأكثر منَ عشر سنواتٍ. لكنَّ لوبو هزمهم جميعًا وقهرهم.(١) وأسَّس دولة إسلاميَّة سمَّاها «دينا» (دين)، عام (١٢٣٣هـ/١٨١٨م) التي أصبحت - فيما بعدُ - تُعرف بعاصمتها «حمد الله».

كذلك، اصطدم الشَّيخ لوبو بالنُّخبة العلميَّة في تمبكتو وجيني؛ إذ لم تَرَ منه النُّخبة إلا مريدًا قليل البضاعة في العلم، ولا يستند في زعامته الرُّوحيَّة - كما الحال بالمنطقة - إلى عشيرة ذات غَلَبة وعصبيَّة في المجال الرُّوحي أو الاجتماعيِّ. وكان لوبو أيضًا ينعى على النُّخبة العلميَّة مهادنتها للواقع الإسلاميِّ والاجتماعيِّ المتردِّي، وتواطؤها مع الزُّعماء والسَّلاطين الفاسدين.

إضافةً إلى أولئك المناوئين لحركة الشَّيخ لوبو، برز تحدٌّ قويٌّ وتهديدٌ حقيقيٌّ آخر في وجهه من قِبَل فولاني فِتُوغا (Fittuga) بزعيمها الشَّيخ الحسين كُويْتا (Koita)، الذي كان يُلوِّح أيضًا بحركةٍ جهاديَّة في منطقة حوض النِّيجر الدَّاخليَّة، وكانت تلك المدينة واقعةً على الطَّريق التِّجاريِّ بين تمبكتو وغُوانْدو، وتمثِّل أهمَّ شريانٍ حَيَويٍّ لحركة التِّجارة بين دولة الخلافة الإسلاميَّة بصكوتو وبين عشائر كُونْتا بتمبكتو. وزاد الطِّين بلَّة في هذا الصِّراع بين الشَّيخَين بانحياز السُّلطان محمد بِللو بن الشَّيخ عثمان دان فوديو إلى الشَّيخ الحسين ضدَّ لوبو؛ ولا يُفسَّر هذا الانحياز إلاَّ في ظلِّ سخط السُّلطان بِللو على الشَّيخ لوبو بسبب استقلاله عن دولة صكوتو بعد وفاة الشَّيخ دان فوديو؛ في فترة نشوب خلافاتٍ داخليَّة بين بِللو وعمِّه

(١) Wilk, Ivor. Asante in the Nineteeth Century, p314.

عبد الله على السُّلطة. لكن لوبو انتصر أخيرًا على الشَّيخ الحسين كُويْتا (عام١٨٢٣م)، فقُتل، وخضعت تمبكتو لسيطرة لوبو (١٨٢٧م)، وامتدَّت أطراف خلافة «دِينا» آنذاك من نابالا (Napala) حتى بلاد الدُّغون (Dogon) شمالاً.[١] ودام حكم لوبو سبعًا وعشرين عامًا، بوفاته في الثَّاني عشرَ من ربيع الأوَّل عام (١١٢٦هـ/ ٢٠ أبريل ١٨٤٥م)، وعمره حوالي تسعًا وستِّين عامًا.

أمَّا عن نظام حكم لوبو، فقد كان الطَّابع الإسلاميُّ واضحًا عليه بجلاء، منذ أن أطلق على هذه الإمارة اسم «دينا» (دين)، أي إسلام، مؤكِّدًا بذلك النِّظام الثيوقراطيَّ الإسلاميَّ لمملكته في أنظمتها التَّشريعيَّة والقضائيَّة كافَّة. وبرْهَنَ نظامُ إمارة «دينا» ذلك عمليًّا بسياسة إنمائيَّة إسلاميَّة لم يَكَدْ يتكرَّر في بلاد السُّودان الغربيِّ قاطبةً. والسَّبب المباشر لهذا النَّجاح والتَّميُّز السِّياسي كامنٌ في التَّجارب السَّابقة الحيَّة بالمنطقة خاصَّة: تجربة الشَّيخ دان فوديو، وقبلها تجربة إمبراطوريَّة صونغاي في عهد الأساكي. فما كان يُعوز إمارة «دينا» في مجال الخبرة النَّظريَّة شيءٌ كثير.

أما من حيث التَّنظيم الإداريِّ، فإنَّ إمارة «دينا» كانت مقسَّمة إلى خمسة أقاليم، عُيِّن على كلِّ واحد منها أمير عسكريٌّ وفقيه، وكان يتمُّ التَّعيين في وظائف الإمارة بناءً على المؤهِّلات العلميَّة الدِّينية للمرشَّح. وفي قمَّة الحكم بالدَّولة كان يوجد مجلس «الأربعين» الذي كان بمثابة مجلس شورى، وأعضاؤه من أعيان فقهاء ماسنة، وكادت قوَّة هذا المجلس وسلطته - بل كانت - تفوق سلطة الخليفة الإمام في اتِّخاذ القرارات وحسم الأمور، ومن مهامها الإشراف على الشُّؤون العسكريَّة، والدِّبلوماسيَّة، والعلاقات مع الزِّعامات التَّابعة للإمارة، والشُّؤون

(١) J. F. Ade Ajayi. Africa in the 19th Century until the 1880s, p602-603.

الاقتصاديَّة من جمع ضرائب وزكوات، والإشراف على السِّياسة التَّعليميَّة، ومراقبة مدى التزام الأفراد والمجموعات بالأخلاق وحدود الشَّريعة الإسلاميَّة في مختلف مناشط الحياة، ولشدَّة التزام إمارة «دينا» بتطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة، فإنَّها توصف عادةً في الأدبيَّاتِ التَّاريخيَّة بـ«أشدِّ الأنظمة السِّياسيَّة ثيوقراطيَّة»؛ حيث وُجدت شرطة خاصَّة تحت مسمَّى «الحسبة» لمراقبة المكاييل والموازين بالأسواق، وبملاحقة مهرِّبي الخمور والمسكرات بما في ذلك التِّبغ، حتى إنَّ عددًا من مناصري لوبو انشقُّوا عنه؛ لشدَّة صرامته في تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة في أقصى مظاهر الالتزام، ومن أمثلة هذه الصَّرامة التي أوردها الرَّحالة الألماني هنريث بارت (Heinrich Barth, 1821-1865)، محاولة أحمدو لوبو الابن تغريم كلِّ مَن يتخلَّف عن صلاة الجمعة بمسجد جينْغَرْبير بتمبكتو.(١)

ومهما يكن من أمر، فإنَّ إمارة «دينا» قد نجحت نجاحًا ملموسًا في المجال الإداريِّ، وفي مجال الرِّعاية والتَّكافل الاجتماعيِّ، وحماية الحقوق والممتلكات، وفي تحقيق الرَّخاء والرَّفاه في ماسنة.(٢) من صُوَر ذلك إخراج الفولاني الرُّعاة الرُّحل من حياة الرَّعي إلى التَّمدُّن، وبناء القرى لهم، وتوفير التَّعليم المجانيِّ لهم، والعناية بالمراعي والمياه، وحسن توزيع فترات الاستفادة منها بين الرُّعاة والفلاحين.(٣) كما يُذكر أنَّ الإمارة قد أنشأت مساكن للأيتام والأرامل والفقراء، وبَنَتْ الكتاتيب، وعيَّنت بها معلِّمين، وجعلت بها التَّعليم إلزاميًّا، وكانت الجهَّة الغربيَّة من الدَّارة الأميريَّة مخصَّصة لأبناء السبيل والأيتام

---

(١) Elias Saad. Social History of Timbuktu, p114.

(٢) Mark R. Lipschutz, and R. Kent Rasmussen. Dictionary of African Historical Biography, p81.

(٣) John E. Flint. The Cambridge History of Africa, p151.

وكبار السِّن، يُعنى بهم الإمام نفسُه.[١] وبتعبير الباحث جونْسون، فإنَّ «الدَّولة الثيوقراطيَّة الجديدة كانت حريصةً في تطبيق مبادئها القرآنيَّة من بناء مساجد ومدارس، وعناية بالأرامل والأيتام وكبار السِّن، والمدينين، والحجَّاج وغيرهم من المسافرين، وإنَّ ما حاول أحمدو لوبو تحقيقه في الواقع هو مضمون آية (٩ : ٦٠) الخاصَّة بتوزيع الزَّكاة».[٢] أي آية الصَّدقات في سورة التَّوبة.

هذا، وقد ساعد في تشكيل معالم هذه الرُّؤية التَّصحيحيَّة عند الشَّيخ لوبو وترجمتها إلى واقعٍ ناجحٍ، طبعُه وشخصيَّته المتبرِّمة من الواقع المتردِّي؛ ظهر ذلك في الكتاب الوحيد الذي تركه، فهو - وإنْ بدا فيه جدَّ متأثِّر بشيخه عثمان دان فوديو،[٣] فإنَّ الكتاب يكشف عن شخصيَّته المندفعة نحو تغيير الواقع، يظهر ذلك منذ السَّطر الأوَّل من مقدِّمة الكتاب، إذْ قال بعد التَّحميدة والصَّلاة والسَّلام على النَّبي ﷺ: «وبعد، لما رأيتُ بعض البدع الشَّيطانيَّة أو النَّفسيَّة اشتُهر في أكثر السُّودان، بدْوِهِمْ وحضَرِهِم، حتى اتُّخِذَ عبادةً؛ ضاق ذرعي بها لما علمتُم - أيَّها الإخوان - من شؤم البدع».[٤]

أخيرًا، نستخلص من استعراض نظام الحكم بإمارة «دينا» واستعراض شخصيَّة

(١) John Llifee. The African Poors: A History, (Cambridge University Press, 1986), p46.

(٢) Johnson Marion, "The Economic Foundations of an Islamic Theocracy, The Case of Masina", Journal of African History, xvii, 4, 1976, p481-495.

(٣) الكتاب بعنوان «كتاب الاضطرار إلى الله في إخماد بعض ما توقَّد من البدع، وإحياء بعض ما اندرس من السنة» (Timbuktu, MMTH, 183) وهو مشابهٌ لكتاب الشيخ دان فوديو: «إحياء السنة وإخماد البدعة»، ويعدُّ هذا الكتاب أهمَّ مؤلَّف في إبراز الفكر التَّصحيحي لدى حركة الشيخ دان فوديو، والحركات الإسلاميَّة المنبثقة عنها في غرب أفريقيا.

(٤) In: Africa in the Nineteenth Century untul the 1880s, p601.

الشَّيخ لوبو، أنَّ الصِّبغة الدِّينيَّة لهذه الإمارة ولمؤسِّسها فكرًا وتطبيقًا، لم يكن محلَّ شكٍّ ونزاع؛ فقد أجمعت المصادر التَّاريخيَّة على أنَّ لوبو قد «اشتهر بالتَّديُّن والصَّلاح، والتَّواضع، وبجميع الصِّفات التي جعلتْ منه قائدًا من الطِّراز الأوَّل (First-rate leader)».[1] عليه، فإنَّ دعوى المهديَّة المحتملة قد نشأت عن ظرفٍ سياسيٍّ بحت، ولم يكن لوبو بحاجةٍ إلى إضفاء هالة روحيَّة على نفسه بالتَّحريف في الفتاش أو غيره.

ثانيًا: ألفا نوح بن الطَّاهر الفولاني وتهمة تحريف الفتاش

ينتمي الشَّيخ ألفا نوح إلى الفولاني الماسْنَويِّين التي تُدعى (Yirlabe)، وتُدعى عشيرته بـ(Dibinabe) كان في شبابه مريدًا ومحاربًا في الكتائب الجهاديَّة التي قامت بالمنطقة آنذاك، وفي سنّ الأربعين تفرَّغ للعلم؛ فدرس بأَرَوان على يد الشَّيخ سيدي عليّ النَّجيب الأرَواني، وعلى يد تلميذه الشَّيخ المختار الكنتي (ت١٢٢٦هـ/ ١٨١١م). بعد فترة من ذلك، قصد الشَّيخَ عثمان دان فوديو، ويبدو أنَّ مكثه عند الشَّيخ لم يطُلْ؛ إذ سرعان ما التحق بالشَّيخ أحمدو لوبو، عام (١٨٢١م)، وأبدى حماسًا شديدًا بماسنة في الدَّعوة إلى حركته، واستقطاب المريدين للانضواء تحت لوائه، وسرعان ما أصبح ذا حظْوة عند لوبو، مقدَّمًا في حركته؛ فعُيِّن رئيسًا لمجلس «الأربعين فقيهًا». توفي عام (١٨٦٠م) في سنٍّ متقدِّمة.

هذا، وتدور التُّهمة كلُّها حول الشَّيخ ألفا نوح في دعوى كون الشَّيخ أحمد لوبو خليفةً مبشَّرًا به، وذلك في رسالته المسمَّاة «رسالة في ظهور الخليفة الثَّاني عشَر»[2] أكَّد فيها ظهور الخليفة المجدِّد في القرن الثَّالث عشَر الهجريِّ، وادَّعى

---

(١) J. F., Ade Ajayi. Africa in the 19th Century, p601.

(٢) Hunwick John. Arabic Literature of Africa, vol. 4, p213. Manuscript at: Timbuktu: CEDRAB, 812.

بأنَّ لوبو هو آخرُ أولئك الخلفاء الإثني عشَرَ الذين بشَّر بهم النَّبي ﷺ قبل ظهور المهديِّ، وأنَّه وارثُ أسكيا الحاج محمَّد الشَّرعيُّ في مملكته، وأنَّه أحقُّ بامتلاك القبائل المملوكة لأسكيا، واستشهد في ذلك بنصوصٍ ضافية من متن «الفتاش» لدعم هذا الزَّعم بأنَّ لوبو خليفةٌ راشد، وهي النُّصوص التي يُعتقَد أنَّه هو نفسُه واضعُها. وقد لا تَبرز أهميَّة هذا الادِّعاء من لدُن الشَّيخ ألْفا نوح إلاَّ إذا عُلِمَت منْزلتُه الرُّوحيَّة (الصُّوفيَّة) بالمنطقة؛ إذ هو شيخ الكثيرين من أرباب القادريَّة ببلاد السُّودان الغربيِّ، منهم الشَّيخ سالم جابي غَساما (Salim Jabi Gasama) المعروف بـ«كرامغُو با» أي: المعلِّم الأكبر، (ت. حوالي ١٨٢٤-١٨٢٩م)، شيخ عشائر الجاخانْخي في المناطق الغربيَّة ببلاد السُّودان المعروفة الآن بغينيا وسيراليون، ومؤسِّس مدينة طوبا - كوتو (Tuba-Koto) أي: طوبى القديمة قريبًا من مدينة لابي (Labe) الحديثة بغينيا كوناكري؛ فالدَّعوى - إن كانت قد صدرت عن الشَّيخ ألفا نوح - لها قوَّة كبيرة ببلاد السُّودان الغربي قاطبةً؛ لما اجتمع فيه من مرجعيَّات روحيَّة قويَّة لدى مسلمي بلاد السُّودان.

بهذا الاستعراض لسيرة الشَّيخ لوبو وحركته، ولسيرة ألفا نوح وتحريفه المحتمل لكتاب الفتاش، يتبيَّن أنَّ الدَّاعي الحقيقيَّ إلى هذا الفعل، داعٍ سياسيٌّ بحت؛ وذلك أنَّ لوبو قد واجه - في أوَّل دعوته - كثيرًا من المناوئين له من زعماء الفولاني والبَمْبارا الوثنيِّين والأرْما المغاربة بتمبكتو، ولكن تلك المناوئات كانت سياسيَّة، ولم يكن الشَّيخ يتوقَّع غير ذلك؛ طالما أنَّ مشروعه التَّصحيحيَّ يعرِّي أولئك الزُّعماء، ويثير الشَّعب الماسنَويَّ ضدَّهم.

إذن، فإنَّ التَّهديد الجادَّ لحركة الشَّيخ لوبو لم يكن في التَّهديد المسلَّح، وإنَّما في التَّهديد الفكريِّ الذي مثَّلته الأرستقراطيَّة العلميَّة بالمنطقة، خاصَّة في جيني وتمبكتو، وزاد الشَّيخ الحسين كُويْتا بالتَّلويح بالسِّلاح، وكاد لوبو أن يُصاب في

مقتل محتوم بانحياز مركزه الرُّوحيِّ (صكوتو) إلى مناوئه. في تلك الحال، لم يكن أمام لوبو خيارٌ إلا اللُّجوء إلى مثل سلاح منافسيه؛ ليفُلَّ الحديد بالحديد، وليُدافع عن نفسه بجدارة. وفي وجه هذا التَّهديد، فإنَّ لوبو لم يرَ وسيلةً للتَّغلُّب على منافسيه الذين كانوا يطعنون في أحقِّيته في القيام بمثل هذا المشروع الجهاديِّ التَّصحيحيِّ؛ بحجَّة أنَّه لا ينتمي إلى تاريخ عشائريٍّ يوازي مكانة الأسر السُّلطانيَّة بالمنطقة، لم يَر هو إلا ادِّعاء الانتساب إلى أسكيا الحاج محمَّد، لا في الدَّم والعِرْق، ولكنْ في الميراث الرُّوحي الإسلاميِّ، بوصف أسكيا أبا التَّجديد الإسلاميِّ السِّياسيِّ ببلاد السُّودان باتِّفاق الجميع، وتلخَّص ادِّعاء لوبو في هذا المقام - بحسب تحليل الباحثين المتَّهمين له - في ثلاثة محاور أساسيَّة متدرِّجة هي:

أ- التَّأكيد على استخلاف أمير مكَّة لأسكيا الحاج محمَّد على بلاد التَّكرور.

ب- الارتقاء بأسكيا الحاج من خليفة عاديٍّ، وعدُّه ضمن الخلفاء الإثني عشر المبشَّر بهم في الأثر النَّبويِّ.

ج- إلحاق الشَّيخ لوبو بأسكيا الحاج بوصفه الإمام الثَّاني عشَر، وهذا الإلحاق - بالطَّبع - يعطي الشَّيخ لوبو حقًّا مشاعًا في تركة أسكيا الحاج من أرضٍ وعبيدٍ ومكانة روحيَّة.

هذا، وقد سهَّل مهمَّةَ الشَّيخ أحمدو لوبو وألفا نوح في هذا الادِّعاء المحتمل وجودُ أدبيَّاتٍ إسلاميَّة وافرة عن الخلفاء الإثني عشر، وهي حافلة بالخلافات والآراء حول هؤلاء الخلفاء. ولعلَّ أقربَ تلك الأدبيَّات إلى لوبو كتابات القاضي عياض والإمام السيوطي خاصَّة كتابه «تاريخ الملوك»، وقد أسهب فيه السيوطي في ذكر الآراء عن المراد بالخلفاء الإثني عشر وتعدادهم، ومن الآراء التي أوردها السيوطي أنَّ المراد بالخلفاء الإثني عشر قد يكون وجودهم على امتداد التَّاريخ

الإسلاميِّ إلى قيام السَّاعة، وبعد أنْ عدَّد عشرةً منهم قال: «وبقي الاثنان المنتظران أحدهما المهديُّ؛ لأنَّه من آل بيت محمَّد ﷺ».[١] فلا شكَّ أنَّ كثرة الخلاف في هذا الموضوع قد شجَّعت الشَّيخ لوبو وغيره في ادِّعاء الخلافة - أو حتى اعتقاد - نفسه من زمرة الخلفاء المبشَّر بهم.

وإذا كان من الصَّعب قبول تهمة تحريف «الفتاش» من لدن الشَّيخ ألفا نوح، أو تبرئته منها، فإنَّ من المؤكَّد أنَّه - في حال قيامه بهذا الأمر - لم يتناول إلاَّ فقراتٍ معدودة في الفتاش لا تمسُّ بالبناء الحدَثيِّ في الكتاب. على أنَّ لاعبين كثيرين في السَّاحة السُّودانيَّة لا يسلمون من تهمة التَّلاعُب بمضمون هذا الكتاب كما أكَّد ذلك المؤرِّخ هونْويكْ، خاصَّة العشائر المملوكة التي ارتقت اجتماعيًّا بعد الغزو المغربيِّ، ووصل بعض أفرادها إلى مواقع القيادة والنُّفوذ بمنطقة حوض النِّيجر، ولا شكَّ أنَّ فقرات في «الفتاش» كانت مزعجة لأولئك ومحرجة لهم للغاية، بتنصيصها على توريث عشائر معيَّنة بين الزُّعماء، وعُرف أولئك بـ«عبيد السَّلطنة»، وورد ذكرهم في السُّؤال السَّادس ضمن الأسئلة التي وجَّهها أسكيا الحاج إلى الشَّيخ المغيلي.[٢] عليه، فإنَّ مطالبة الشَّيخ أحمدو لوبو بأولئك كانت متناغمةً مع هذه الحالة القديمة ببلاد السُّودان. غير أنَّ تدخُّل أمثال هؤلاء في صياغة كتاب «الفتاش»، لم يتعدَّ الحذف لبعض الفقرات، وتغييب بعض النُّسخ.

أيضًا، من المحرِّفين المحتملين الدَّولة السَّعدية؛ بوصف «الفتاش» قد حرِّر في

---

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م)، ١/ ١٦.

(٢) Hunwick John O. "some notes on the term "zanj" and its Derivatives in a West African Chronicle", RBCAD, 4, (1968), p43. In: Bruce S. Hall. A History of Race in Muslim West Africa, p73.

نسخته الأخيرة في ظلِّ الاحتلال المغربي. حتى إنَّ اختفاء كتب مثيلة للفتاش، مثل كتاب «الدرر الحسان»، يقوِّي توجُّس الباحث في تدخُّل خفيٍّ من لدُن الاحتلال المغربي في وأد تلك الكتب؛ خاصَّة إذا استجمع إلى ذلك تعرُّض مؤلِّف «الدرر» للاضطهاد، ونجاته - بقدرة قادرٍ - من الإعدام على يد الجيش المغربي عام (١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م)؛ فلا شكَّ أنَّ كتابه قد تضمَّن بعضًا من هذه الوقائع التي تُحرج روايتُها الدَّولة السَّعديَّة، والسَّلاطين الدُّمى من آل آسكيا الذين حكموا تحت الوصاية المغربيَّة بتمبكتو.

أمرٌ آخر يجعلنا أكثر حذرًا في توسيع التُّهمة ضدَّ الشَّيخ ألفا نوح، وهو يكمن في السُّؤال الذي طرحناه أوَّل هذه الدِّراسة عن السِّر في عدم ورود الإشارة إلى كتاب «الفتاش» في المدوَّنات العلميَّة ببلاد السُّودان، خاصَّة عند الشَّيخ عثمان دان فوديو وابنه السُّلطان بِللو.(١)

إنَّ السَّبب المباشر لهذه الظَّاهرة - في رأينا - يكمن في أنَّ كتاب «الفتاش» لم يكتسب أهميته إلا في فترة متأخِّرةٍ في القرن التَّاسع عشر بعد ارتباطه بالبُعد السياسي، وهذا طبيعيٌّ في أمر هذا الكتاب وغيره؛ إذ إنَّ فنَّ الكتابة التَّاريخيَّة - بشهادة مؤرِّخي بلاد السودان أنفسهم - لم يكن يحظى بعناية من لدن العلماء؛ لأنَّه نصٌّ ضعيف الارتباط بالدِّيني وبالمقدَّس. وآية ذلك أنَّنا لا نكاد نجد ذكرًا لكتابٍ تاريخيٍّ في المرجعيَّات العلمية المتداولة قديمًا في المحاضر العلميَّة ببلاد السُّودان الغربي. لا ضمن الإجازات، ولا ضمن الشُّروحات أو المنظومات، أو تلخيص المطوَّلات، أو غير ذلك من صوَر العناية بالكتب. وحتى في حالة كتب التَّراجم ببلاد السُّودان، ككتاب «نيل الابتهاج»، وكتاب «فتح الشكور»، فإنَّها لم تقم إلا

(١) ينظر في الفقرة الأولى من مبحث: تاريخ الفتاش: الكتاب الملغز.

على التَّأريخ للعلماء والمتصوِّفة والصَّالحين. ويقوِّي هذا الاستنتاج خلو الإشارة إلى «الفتاش» في كتاب «تذكرة النسيان» وكتاب «الكشف والبيان لمجلوب السودان» لأحمد بابا التمبكتي،[1] وفيه عالج مسألة الرِّق ببلاد السُّودان الغربي، وأشار إلى كثير من القبائل الوثنيَّة، وكان الأحرى أن يشير إلى «الفتاش» في هذا المقام.

مثالٌ آخر، هو كتاب «تاريخ غَنْجا» الذي وضعه مؤرخان بمدينة (Buipe) على مشارف الغابة الاستوائية، في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي (١١٦٥هـ/ ١٧٥١م)، ورصدا فيه بعض الأحداث بمملكة أشانْتي، وبوندوكو، وداغومْبا، ومَمْبروسي، وكبونْغ، وبونا... وهو كتابٌ لا ذكر له في كتابات الشيخ دان فوديو وغيره من الفوديِّين.

في ضوء هذه الاعتبارات؛ نستنتج أنَّ كتاب «الفتاش» و«تاريخ السودان»، لم يكتسبا ما اكتسبا من شهرةٍ واهتمام إلاَّ في وقت متأخِّرٍ جدًّا بعد ظهورهما الأوَّل، وذلك بعد منتصف القرن التَّاسع عشر الميلادي. إنَّ هذا الاستنتاج لممَّا يفسِّر عمليَّة التَّحريف نفسها - إذا ثبتت - إذ إنَّ بين تأليف الفتاش، وبين وفاة ألفا نوح، قرنان كاملان؛ فلو كان هذا الكتاب قد اشتهر قبل عهد ألفا نوح، وانتشرت نُسخُه في ربوع بلاد السُّودان، لما تأتَّى له أو لغيره تحريفه بهذه السُّهولة المذكورة. كذلك فإنَّ سكوت خصوم الشَّيخ أحمدو لوبو عن الاعتراض عليه، وعن تفنيد مزاعمه فيما استشهد به من نصوصٍ في «الفتاش»، لممَّا لا يفسح مجالاً رحبًا لتوسيع التُّهمة حوله.

---

(١) أكمل تأليفه في العاشر من محرم، عام (١٠١٤هـ/ ١٦١٥م).

المبحث الثَّالث:

مراجعاتٌ مضمونيَّة وإشكالات الكتاب

لقد سبقت الإشارة إلى موقِفَين أساسَيْن في قضية التَّحريف في كتاب «الفتاش»، أوَّلهما: موقف مَترجمَي «الفتاش» هوداس ودولافوس، وقد ذهبا إلى أنَّ الفصول السِّتَّة الأولى من الكتاب هي التي خضعت فحسب للتَّحريف، وهي كذلك الجزء الذي كتبه محمود كعت من الكتاب. ولم يكد معظم الباحثين يخرجون عن هذا الرَّأي. والآخر: موقف نحيميا ليفتْصيونْ، وهو يوافق هوداس ودولافوس في القول بأنَّ الفصول الأولى هي التي حُرِّفت، ولكنَّه يخالفهما بالقول إنَّ الكتاب بكامله من وضع ابن المختار، وإنْ كان قد أخذ فقراتٍ من النُّصوص التي تركها جدُّه محمود كعت.

هذا، وقد وُفِّق نحيميا في بيان الكثير من المضامين المتضاربة في الكتاب ممَّا يدلُّ على أنَّ ثمة تحريفات كثيرة قد وقعت في الفصول الأولى منه. عليه، فإنَّ غايتنا وهدفنا في الفقرات الآتية، محاولة إضافة لبنةٍ متواضعةٍ إلى الصَّرح الكبير الذي شيَّده نحيميا في هذا المجال، وينصبُّ اهتمامُنا هنا في تحليل المضمون الأسلوبي والتَّركيبيِّ للجزء الذي نوافق فيه الباحثين أنَّه قد امتدَّت إليه يد التَّحريف (الأبواب السِّتَّة الأولى بحسب تقسيم المترجمَين لمضمون الكتاب). ويتناول تحليلنا مقدِّمة الكتاب، ثم الأبواب السِّتة اللاَّحقة لها.

أوَّلاً: المقدِّمة

يغلب الظَّنُّ لدينا أنَّ مقدمة «الفتاش» الحاليَّة، فيها بعض الوضع، وعلى أكبر

احتمالٍ، من لدن ألفا نوح، وليس منها لابن المختار إلاَّ عنوان الكتاب.[١] ومن المؤسف أنَّ هوداس ودولافوس قد ترجما فقرةً من مقدِّمةٍ أخرى للفتاش في ملحق الكتاب، ولكنَّهما لم يوردا النَّص العربيَّ لتلك المقدِّمة الذي لم يَعُد - على أهمِّيته - في متناول الباحثين. وقد أشار المؤلِّف في تلك المقدِّمة المترجمة إلى أنَّه قد وضع هذا الكتاب بطلبٍ من أسكيا داود بن هارون الذي حكم تحت الوصاية المغربيَّة (عام١٦٥٧-١٦٦٨)، وأنَّه كان قد أحجَمَ عن هذه المهمَّة؛ لصعوبتها، ولوُعورة طريقها، ولعدم وجود عملٍ تاريخيٍّ سابقٍ عن سلاطين صونغايْ يحتذيه ويستنير به في هذا العمل.[٢]

وسواءٌ أكان وضعُ كتاب «الفتاش» بأمْرٍ من أسكيا داود بن هارون حقيقةً، أمْ أنَّ كاتبَه اتَّبعَ في هذا المقام الأسلوبَ التَّقليديَ المعروف في مقدِّمات بعض الكتب، فإنَّ ههنا دلالةً واضحةً على أنَّ تلك المقدِّمة هي المقدمة الحقيقيَّة للفتاش، وأنَّ المحرِّف قد تلقَّفها؛ فنسج على منوالها.

يعضُد هذا الموقفَ ما سبق تقريرُه بأنَّ مؤلِّف «الفتاش» الحقيقيَّ هو ابن المختار الذي عاش في تلك الفترة. كما يعضده كَونُ تأخير التَّسجيل التَّاريخي لإمبراطوريَّة صونغايْ حتى حوالَي قرنٍ كاملٍ بعد قيام حكم الأساكي، أمرًا معقولاً منطقيًّا، خاصَّة أنَّ حالة الاستقرار والغلَبة التي كانت عليها المملكة طوال قرن من حكم الأساكي لم تكن كفيلةً بإيقاظ وعيٍ تاريخيٍّ في الوسَط الصُّونغائي حتَّى يُبادر العلماء أو السَّلاطين إلى تدوين تاريخ المملكة. لكنْ بسقوط صونغاي المفاجئ،

(١) هذا الرَّأي مخالفٌ لما ذهب إليه الباحث إلياس سعد بأنَّ الصفحات الاثنتي عشرة الأولى من الكتاب هي أصلية، وأنَّ ما يليها أقرب إلى الوضع. ولا ندري علا مَ بنى موقفه هذاElias .
Saad, Social History of Timbuktu, p261 (footnote131)

(٢) Tarikh Fettach, p332.

سرعان ما شَعر أهلُها بحاجَّة ملحَّة إلى جمع ما أمكَنَهُم جمعُه من تاريخ مملكتهم وسلاطينهم.

هذا، ومن الخصائص الأسلوبيَّة في المقدِّمة الدَّالة على أنَّها من وضع شخصٍ غير ابن المختار، بعض ما يأتي:

(١) أنَّ التَّحميدة والصَّلاة والأحاديث الثَّلاثة الواردةَ في المقدِّمة تجتمع كلُّها في وحدةٍ موضوعيَّة لا غير، هي: أنَّ لله خلفاء في الأرض طاعتُهم فلاحٌ، والخروج عنهم هلاك! وإخال أنَّ التَّشكيك في خلافة أسكيا الحاج محمَّد بوصفه خليفةً عادلاً لم يكن واردًا، أي أنَّ الكلَّ كان يعتقد أنَّ أسكيا خليفةٌ للمسلمين مثل سائر الخلفاء المسلمين في كلِّ مكانٍ، وأنَّ الذي تصدَّى لتأليف هذا الكتاب، لم يكن هذا الأمر بِمُشْغِلِه لو أنَّه كتبه في أيّام أسكيا كما يدَّعي نصُّ المقدِّمة الحاليَّة، ولا نملك إزاء إقحام هذا الجدل في مقدمة «الفتاش» إلاَّ الإقرار بأنَّه موضوعٌ دخيلٌ عليه.

(٢) أنَّ أسلوب المقدِّمة البديعيَّ منسجمٌ مع أسلوب الفصول الأولى من الكتاب، من حيث احتفال الكاتب بالسَّجع، وبالجمل المتناسبة الطُّول، وبالإيقاع الجميل المنساب. وحين نتجاوزُ هذه المقدِّمة والفصولَ الأولى، فإنَّنا نصادفُ تفاوُتًا ملحوظًا بين الأسلوبَين. صحيحٌ أنَّ طبيعة المقدِّمة تنسجم مع الأسلوب البديعيِّ، ولكنَّ تكرار هذا الأسلوب في الفصول اللاَّحقة دليلٌ على أنَّ المقدمة وتلك الفصول من وضع كاتبٍ واحدٍ. ليس هو ابن المختار، وإنَّما يحتمل أن تكون لمحمود كعت بن الحاج المتوكل (الأوسط)، أو من تولَّى التَّحريف.

ثانيًا: ملامح أسلوبيَّة وموضوعيَّة في الباب الأوَّل من «الفتاش»

لا شكَّ أنَّ الباب الأوَّل من «الفتاش» هو أكثرُ الأبواب إثارةً للجدَل بين

الباحثين؛ لما يكتَنِفُه من فقرات في ادِّعاء الخلافة المهديَّة لأحمد لوبو، وما فيه من معلوماتٍ متضاربةٍ يصعُب لَمُّها ووضعُها في سياقٍ منطقيٍّ مقبول. ومن الملامح البارزة في هذا الباب ما يأتي:

(أ) التكرار غير المبرِّر

إنَّ أوَّل ما يصدم القارئ في هذا القسم الأوَّل من الكتاب، تكرار عدَّة أخبارٍ، مثل خبر حجَّة أسكيا الحاج محمَّد،[١] ومسائله مع الشَّيخ السيوطي، وتكرار ذكر القبائل المملوكة، وسؤال أسكيا الحاج الإمامَ السُّيوطيَّ والمغيليَّ عن الحكم الشَّرعيِّ في تملُّكه لتلك القبائل.[٢] ويتأكَّد من التَّأمُّل في هذا المقام أنَّ بداية الباب الأوَّل من الكتاب حتى قوله: «فقد خالَف الله ورسوله».[٣] من وضْع ابن المختار. أمَّا ما بعد ذلك من قوله: «ثمَّ تَهيَّأ أسكي الحاج محمد للرُّجوع...» إلى قوله: «ومن العبيد الخدَّام ثمانمائة عبدٍ، ورئيسُهم فرج مَيْبُنُنْ»،[٤] فهذا كلُّه مُقحَمٌ في هذا الباب. وللتَّدليل على هذه الزِّيادة، نلجأ إلى حذفها؛ للنَّظر في سياق الكلام، وهو أنَّ شريف مكَّة ألبس أسكيا الحاج محمد العمامة البيضاء، وقلَّده سيفًا، وأشْهَد أهل مكَّة أنَّ أسكيا هو خليفتُه ببلاد التَّكرور، و«أنَّ من خالَفَهُ فقد خالَف اللهَ ورسوله» (نحذف الصَّفحات المدسوسة هنا، فيكون الكلام بعد قوله: «ورسوله... وحجَّ البيتَ في ذلك العام، وتصدَّقَ على فقراء الحرَمَين...»).[٥] فالسِّياقُ هنا مستقيمٌ تركيبًا ومعنى بين الجملَتَين السَّابقتَين. أمَّا إذا حُشِر بالصَّفحات التي

(١) الفتاش، [ص١٢-٢٠]؛ و[ص١٦؛ وص٦٥؛ وص٦٨].

(٢) الفتاش، [ص١٨، وص٥٦].

(٣) آخر [ص١٢].

(٤) الفقرة ما قبل الأخيرة في [ص١٦].

(٥) الصفحات المحذوفة هي (من آخر [ص١٢] حتى آخر [ص١٦]).

حذفناها الآن بين الجملَتَين، فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى الكثير من الغموض، والتَّخبُّط في عرض الأحداث.

إضافةً إلى ذلك، فإنَّ من الخصائص التي تؤكِّد لنا القول بالزِّيادة في هذا القسم من الكتاب، ما يأتي:

(ب) **سلامة التَّعبير**: يتميَّز هذا الجزء بسلامة الأسلوب؛ إذ لا نكاد نعثُر فيه على أخطاء نحويَّة أو على أسلوبٍ ركيكٍ. كما في بعض مواضع الكتاب، ويدلُّ ذلك على أنَّ أسلوب كاتب هذا الفصل كان فوق أسلوب ابن المختار، فلو كان الكتابُ كلُّه على هذا المنْوال من السَّلامة اللُّغويَّة، والأسلوب السَّلس الجزل، لما وُجد على كاتبه مأخذٌ في الأسلوب.

(ج) **تكرار عزْو الكلام إلى محمود كعت**: من الخصائص الأسلوبيَّة التي تُميِّز هذا الجزء أيضًا تكرار قوله: «قال الشَّيخ محمد كعت، أو: قال الفقيه محمود...» [ص١٥، ١٦]. ويوحي هذا الأسلوب بأنَّ الكاتب ليس هو محمود كعت الجد، وإنَّما هناك ساردٌ آخر يتحدَّث على لسانه. وهذا الأسلوب أكثر وضوحًا منذ الجملة الأولى في الكتاب؛ إذ وصف السَّارد محمود كعت بأوصافٍ مبجِّلة يندر أن يصف بها عالمٌ نفسه؛ لما فيها من خروج عن أدب التَّواضع.

(د) **الأسلوب الجزل المائل إلى السَّجع**، يظهر في هذا القسم تفاوُت أسلوبيٌّ بيِّنٌ بينه وبين سائر مواضع الكتاب، من ذلك: الميل إلى السَّجع، مثل قوله: «ثم تنفَّس الصُّعداء، وزفَر زفيرةَ الثَّكلاء» [ص١٣]، وقوله: «إعلامُك وتبشيرُك بأنَّك آخرُ الخلفاء، وقاهرُ الأعداء، وهادي السُّعداء، باتِّفاق العلماء» [ص١٥]، وقوله: «فيَقْمَع الله بهما كلَّ جاهل جَحُود، وكلَّ عالم حسود» [ص١٦]. والكتاب بمجمله لا يوجد به أسلوبٌ مسجَّع. اللهمَّ إلاَّ في المواضع التي نجزم أنَّها من وضع طرفٍ آخر غير ابن المختار.

(هـ) **الإكثار من الإطراء على الخليفة المنتظر**: ممَّا يقوِّي الشَّك في أصالة هذا الجزء كثرة إطراء الكاتب - على لسان السُّيوطي - للخليفة الثَّاني عشَرَ، بأنَّه مُتبحِّرٌ في العلوم، وأنَّه «الوارثُ المسدَّد، والمؤيَّد بالمؤمنين» وأنَّه حين يأتي: «يجد الدِّين خامدًا؛ فيكون كشرارة جمْرٍ وقعتْ في يابس الحشيش» [ص١٣]، وأنَّه هو «آخرُ الخلفاء، وقاهر الأعداء، وهادي السُّعداء، باتِّفاق العلماء» [ص١٥]. ويقول في حقِّ أسكيا: «أنتَ مُريدٌ منصورٌ عادلٌ، كثيرُ الفَرح والعطاء والصَّدقة»، ثمَّ يعود ليرصَّ الصِّفات المبجِّلة رصًّا في حقِّ الخليفة الثاني عشَر، فيقول: «ولكنْ يأتي رجلٌ صالحٌ عالم عاملٌ، تابعٌ للسُّنة اسمه أحمد (...) وهو الذي يَرثُك في الخلافة والعدالة والصَّلاح والجود والتُّقى والزُّهد والنُّصرة» [ص١٣]. فها هنا حرصٌ واضحٌ في إضفاء الصِّفات البرَّاقة على الخليفة الثاني عشَر. وإيغالاً في إطراء الخليفة الأخير، فإنَّ الكاتب جعل «سابقَه» أسكيا الحاج محمَّد يطلبُ منه الدُّعاء بأمرٍ من الشَّيخ المغيلي، ويكتب وثيقة براءة إليه، وقد نقل الكاتب نصَّ هذه الوثيقة دون أن يشير إلى مرجعه في هذا المقام مخالفًا لما هو دَيدَنه في المواضع التي ينقُل فيها نصوصًا مهمَّة بعينها (كتاب الحرمة لأحفاد الفقيه مورْ هوكارُ مثلاً).

(و) **الإكثار من التَّعريض بالخصوم والمعارضين**: بالإضافة إلى الإطراء على الخليفة المنتظر، فإنَّ ممَّا يدعو للتَّشكيك في أصالة هذا الجزء، كثرة تعريض الكاتب بمناوئي الخليفة المنصور «من الكفَّار والمخالفين والحسَّاد والجهَّال، والغدَّار الفُساق» [ص١٦]، وتأكيده بأنَّ مخالفة هذا الخليفة المنتظر مخالفةٌ لله ولرسوله. أمَّا ما زعم من أمر الخليفَتَين أنَّهما «يُنكرُهما أهلُ عصرهما أشدَّ التَّنكير، وينسبون أفعالَهُما إلى الظُّلم والأباطيل» [ص١٦]، فإنَّ ذلك إنْ صدُق في حقِّ أحمد لوبو، فإنَّ أسكيا - وإنْ كان قد انتقل من مُلك إلى خلافة - لم تتعدَّ منزلته

المفهوم المعتاد للخلافة إلى خليفة مهديٍّ، ولم نجد له مناوئين بناءً على صفة الخلافة، أو منكرين لأفعاله كما يدَّعيه النَّصُ في هذا المقام.

(ز) رحلة أسكيا الحاج محمد الحجيَّة وادِّعاء الخلافة المهديَّة: المعوَّل كلُّه في ادِّعاء كون أسكيا الحاج محمَّد خليفةً عادلاً وكذلك الشَّيخ أحمد لوبو، هو قصَّة حجَّته إلى الدِّيار المقدَّسة، وهي قصَّة واردةٌ في نسخة (A) من مخطوط «الفتاش»، وكذلك في «تاريخ السُّودان»، وفي بعض المرويَّات الشَّعبيَّة بمنطقة السُّودان الغربيِّ. وعلى الرُّغم من الاختلافات الطَّفيفة بين تلك المصادر المذكورة، فإنَّها تُجمع على أنَّ أسكيا الحاج محمَّد قد عُيِّن خليفةً على أرض تكرور من لدُن أمير مكَّة أو الخليفة العبَّاسي بمصر، هذا لا غير. أمَّا الادِّعاءُ بكونه هو وأحمد لوبو الخليفتَين الأخيرَين الخاتمَين للخلفاء المهديِّين بعد رسول الله ﷺ، فروايةٌ انفردتْ بها النُّسخة (C) وحدها.

على سبيل المثال، إنَّ سياق رواية السَّعدي لحجَّة أسكيا الحاج محمَّد يؤكِّد أنَّه لم يكن إلاَّ خليفةً لشريف مكَّة بأرض السُّودان.. قال: «ولقي في ذلك الأرض المبارك الشَّريف العبَّاسي؛ فطلب منه أن يجعله خليفتَه في أرض سنغي، فرضي له بذلك (...) وجعله خليفَتَهُ، وجعل على رأسه قَلَنْسُوَةً وعمامة من عنده، فكان خليفةً صحيحًا في الإسلام».[1]

كذلك، تؤكِّد الرِّوايات والأحداث في «الفتاش» نفسه أنَّ مبلغَ ما كان أسكيا الحاج محمَّد يصف به نفسه، أنَّه «أميرُ المؤمنين، وخليفة المسلمين، السُّلطان العادل، القائم بأمر الله».[2] ولم يتعدَّ وصفُ غيره له هذا الإطار؛ إذْ وُصف بأنَّه:

(١) تاريخ السودان، ص٧٣.
(٢) الفتاش، [ص٧٣].

«الإمام العادل، أبي اليتامى والأرامل والمساكين والضُّعفاء، وملجأ العلماء».(١)

ويومَ تولَّى أسكيا إسماعيل السَّلطنة، بعد أخيه أسكيا موسى وابن عمِّه محمَّد بنكن الغاصبَين للسُّلطنة من أبيهما أسكيا الحاج... في تلك المناسبة حين ألْبَسَ أسكيا الحاج محمَّد ابنه ثوب السُّلطة وعمَّمه، أشْهَد النَّاس بشرعيَّة حُكْم ابنه، وبرضاه التَّام عنه، وأنَّه قد ردَّ إليه الحكمَ الذي أسندَهُ إليه شريف مكَّة؛ فذكر أنَّ شريفَ مكَّة قال له من قَبلُ: «أنت أميري ونائبي وخليفتي في إقليمكَ وأنتَ أمير المؤمنين»، وأكَّد أسكيا هذا الاعتبار في الموقف ذاته وقال لابنه البارِّ: «وأنا خليفتُهُ وأميرُه ونائبُه (...) وقد ولَّيتُكَ أنا ورددتُ الخلافة التي قلَّدني بها الشَّريفُ لك، وأنت خليفةُ خليفةِ الشَّريف الذي هو خليفة السُّلطان الأعظم العثماني».(٢) فالسِّياقات كلُّها لا تزيد على أنَّ أسكيا الحاج محمَّد قد خرج من نظام الملكيَّة إلى الخلافة بأرض تكرور بتعيينٍ من أمير مكَّة أو الخليفة العباسي.

وبعدُ، فإنَّ الرِّواية الحجِّية تلك تكتنف جملة من الإشكالات المزعجة، من ذلك ما أورده الرَّاوي عن أجلَّة العلماء الذين رافقوا أسكيا الحاج محمَّد في رحلته الحجَّية، فقد اتَّفقت المصادر بأنَّهم كانوا سبعة، واتَّفق السَّعدي ونسخة (A) في ذكر اثنين منهم، وهما: ألْفا محمد تُل، وألفا صالح جَوَر. بينما انفردتْ نسخة (C) بذكرهم جميعًا،(٣) وبمقارنة النُّصوص، يتَّضح أنَّ الفقيه مورْ هوكارُ كان مُتوفَّى قبل هذه الحادثة بفترةٍ طويلة.(٤)

---

(١) الفتاش، [ص٧٧].

(٢) الفتاش، [ص٨٦].

(٣) الفتاش، [ص١٦].

(٤) في معرض الحديث عن كتاب «الحرمة» التي كتبها أسكيا الحاج محمد لبعض أحفاد الفقيه مور هوكار، تبيَّن أن المعنيِّين هم أسباطه، أي أولاد حفيده، أبوهم هو الفقيه مورْ مَعْمَعْ بن مور =

إشكالٌ آخر، هو زعم نسخة (C) بأنَّ شريف مكَّة جعل على رأس أسكيا قَلَنْسوةً خضراء، وعمامة بيضاء، وهذا يتعارضُ مع ما ورَدَ في نسخة (A) بأنَّ القلنسوة والعمامةَ كانتا صَفْراوَين.[1] ولعلَّ ذلك محض اختلافٍ، ولكنْ يُضاف إلى ذلك زعم نسخة (C) أنَّ اسم شريف مكة هو «الشريف الحسني مولاي العباس». لكن استعراض سلسلة أسماء شرفاء مكَّة يؤكِّد للباحثين أنَّ شريف مكَّة في الفترة التي حجَّ فيها أسكيا الحاج محمَّد هو الشَّريف محمد بن بركات (٨٥٩-٩٠٣هـ) وليس للاسم الذي ذكَرته نسخة (C) وجودٌ بين شرفاء مكَّة الحاكمين. فكيف اختلطت تلك المعلومات المهمَّة على محمود كعت الذي ادَّعى النَّص أنَّه كان من أعيان العلماء الذين رافقوا أسكيا الحاج محمد في سفره للحج؟

بعيدًا عن ذلك، فإنَّ القراءة الدَّاخليَّة لادِّعاء الخلافة المهديَّة لأسكيا وللشَّيخ أحمد لوبو، تضع أناملنا على جملة من النشازات التي يكتنفُها هذا الادِّعاء.

أوَّل ذلك، ادِّعاء الرَّاوي أنَّ الشَّريف العباسي هو الذي بشَّر أسكيا الحاج بأنَّه هو الخليفة الحادي عَشَر، وفي الصَّفحة الموالية زعمه أنَّ أسكيا لقي الإمام السُّيوطي عند رجوعه من الحجِّ بمصر؛ فسأله عن الخلفاء الإثْنَي عشر، فأخبره عنهم وبشَّره بمثل بشارة الشَّريف العباسي. وحتى إذا جاز الجمع بين هاتَين واعتبار بشارة السُّيوطيِّ تأكيدًا لسابقتها، فإنَّ الإشكال لا يزال قائمًا. وسبب ذلك زعمُ الرَّاوي في السِّياق نفسه أنَّ البشارة كانت على لسان ملك الجنِّ شَمْهَروس بصحراء

= معمك بن الفقيه مور هوكار، الفتاش [ص٧٢]، فلا يُعقل أن يكون أولئك وجدُّهم الثاني معاصرين لأسكيا، خاصَّة أنَّ أسكيا كان آنذاك في الثَّالثة والسِّتين من عمره (العام الثَّالث عشر من ولايته، اعتمادًا على كون عمره خمسين سنة يوم تولى الحكم). فمن شبه المستحيل أن يكون الجدُّ الثَّاني وحفيده معاصرَين، وأن يقوى الجدُّ في تلك الفترة على سفر الحجِّ من أقصى غرب إفريقيا.

(١) تاريخ السودان، ص٧٢؛ والفتاش، ص٣٢٩ (ترجمة فرنسية).

بين الإسكندريَّة ومصر، عند ذهابهم إلى الحجِّ، فهاهنا ثلاث بشاراتٍ أولاها على لسان شَمْهروس، والثانية على لسان الشَّريف الحسني، والثَّالثة الأخيرة على لسان الإمام السُّيوطي. وبوصف بشارة شمهروس الأولى فمِنَ المتوقَّع أن تكون هذه البشارة قد طرقت مسامع أسكيا محمد في حينها، وعليه لا يُعقَل أن يسعى أسكيا إلى ما دون مرتبة «الخلافة المهديَّة»؛ فيطلب من شريف مكَّة أن ينصبه نائبًا له ببلاد السُّودان الغربي، ثمَّ إنَّ خلوَّ آثار الإمام السُّيوطي من إشارة صريحة إلى هذا الحدَث العظيم، لا يخدم الاستشهاد به في هذا المقام.

إضافةً إلى ذلك، فإنَّ الحديث المستشهَد به في هذا الموضع يُصرِّح بأنَّ الخلفاء اثنا عشَرَ و«كلُّهم من قُرَيش»، وأنَّه قد مضى منهم عشرةٌ، وبقي اثنان ببلاد التَّكرور. لكنَّ «الفتاش» لم يدَّع أو يُثبت في أيِّ موضعٍ منه رفع نسب أسكيا الحاج محمد أو الشَّيخ أحمد لوبو إلى قريش، وإنْ كان قد أوْرَد رواية بأنَّ بعضهم يرفعون نسب أمِّ أسكيا إلى الصَّحابيِّ جابر بن عبد الله الأنصاريِّ، ولكنَّه قلَّل من وزن هذا الادِّعاء حيث علَّق على هذه الرِّواية بأنَّ استقصاءها غير مهمٍّ،[(١)] وقصارى ما ادَّعاه راوي «الفتاش» في نسب أسكيا الحاج، قوله إنَّ أجداده من اليمن.[(٢)]

ثالثًا: خصائصُ أسلوبيَّة في سائر فصول الكتاب

مسايرةً لمقولة «إنَّ الأسلوب هو الرَّجل»،[(٣)] يدلُّ عليه كما تدلُّ عليه بصمتُه، نلجأ هنا إلى استعراض بعض الخصائص الأسلوبيَّة في كتاب «الفتاش» عامَّة، ومن

---

(١) تاريخ الفتاش، [ص٥٩].

(٢) تاريخ الفتاش، [ص١٣].

(٣) هذه عبارة اشتهرت عن الكاتب الفرنسي جرج لويس لوكلير (George-Louise Leclerc, 1707-1788) المعروف بـ(Comte Buffon) قال: "Le style c'est l'homme meme".

ثمَّ إعادة النَّظر في الكتاب؛ لمعرفة مدى تحقُّق تلك الخصائص في جميع فقرات الكتاب أم لا. فإذا ثبت وجودها في الكتاب جملةً وتفصيلاً، سقط بذلك الكثير من التُّهم والمواقف المبَلْوَرة عن التَّحريف والتَّدخُّل في نصوص هذا الكتاب، وإلاَّ تأكَّد مرَّة أخرى ما ذهبنا إليه من وجود تحريفٍ في هذا الكتاب. ومن أهمِّ تلك الخصائص:

(١) ردُّ علامات التَّأنيث على المذكَّر أو العكس

يكثر عند ابن المختار ردُّ العناصر النَّحويَّة الدَّالة على التَّأنيث للإشارة بها إلى المذكَّر، من ضمائر، وأسماء إشارة، وعدم تطابُق بين العُنصرَين في الجنس والعدد، وعدم تخالُفٍ بين العدد ومعدوده في الجنس، وغير ذلك من صُوَر عدم التزامه بالمطابقة بين عناصر الجملة.

من أمثلة ذلك:

- «وفي ذلك إتلافُ الأموال الجسيم» [ص٦٣].
- «أمُّهم عربيٌّ» [ص٧١].
- «خبرًا يطول سردُها» [ص٩١].
- «وعليه علامةٌ يُعرف به» [ص٩٢].

ومنه في الأعداد:

- «ولَبثَ في كَسْيَة ثلاثة عشر سنة» [ص١١٦].
- «ومكث القاضي عمر في القضاء ثمان سنين» [ص١٢٥].

هذا، وقد يُردُّ كلُّ ما سبق إلى مَحْض عدم مبالاة من لدُن النُّساخ، وكون بعض أولئك من الطَّلبة متوسِّطي المعرفة والكفاءة في اللُّغة العربيَّة. لكن كثرة تلك المواضع توحي بأنَّ لها حظًّا في أصل الكتاب.

(٢) استخدام لغة «أكلوني البراغيث»

ورد في بعض المواضع استعمالُ لغة «أكلوني البراغيثُ»، وذلك بإلحاق الفعل الذي تقدَّم على فاعله ضميرًا مناسبًا للفاعل. ومن أمثلة ذلك:

- «وتَبِعُوه في ذلك أولادُه» [ص١١٦].
- «وجعلوه كافَّةُ أهل سنغي سُلطانًا» [ص١٣٥].
- «وولُّوا القومُ مدبرين» [ص١٣٦].
- «وكانوا هؤلاء الزَّناجيَّة وديعةً» [ص١٤٣].
- «فحملوهُ إخوانُه وأركبوه» [ص١٦٨].

وغير ذلك من المواضع التي وردت الأفعال فيها على هذا النَّمط من الاستعمال.[١]

(٣) تعدية بعض الأفعال التي ليست متعدِّية بنفسها

يميل «الفتاش» إلى تعدية بعض الأفعال تعديةً مباشرةً، وهي في الأصل ليست أفعالاً متعدِّيةً بنفسها. ومن أمثلة ذلك:

- «فلمَّا اشتدَّ عليهم الضَّررُ احتالوه» [ص٢٦] فالأصل أن يُعدِّي الفعلَ بحرف الجرِّ (على).

ويُلحق بذلك استعمالُه الفعل المجرَّد في موضع المتعدِّي، أو استخدام صيغةٍ مزيدةٍ في غير محلِّها، وممَّا وردَ من ذلك عنده:

- «ولَحَّ عليهما في ذلك» [ص١١٣]، أي: ألَحَّ. من الإلحاح في المسألة، أي أقبل عليه بشدَّة.[٢] هذا، وقد تعدَّد هذا الفعل في الكتاب..

---

(١) ينظر: [ص١٣٦؛ ١٤٠؛ ١٥٨؛ ١٦٤].

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ٥/ ٢٠٢، مادة (لح).

- «وكَبَّ على رأسهما يُقبِّلهما» [ص١١٥]، أي: أكبَّ. لكنَّه استعمل (كبَّ)، وغَرضُه معنى (أفعَلَ)؛ لأنَّه يقال: كبَّه الله على وجهه، أي صَرعَه، وكبَّ الإناء: قَلَّبه. وأكبَّ فلانٌ على الأمر وانْكبَّ عليه، أي: أقبَلَ عليه يفعَلُه.(١)

ومن ذلك أيضًا استعمال صيغةٍ صرفيَّة في موضع صيغةٍ أخرى، وتكون الصِّيغة المستخدمة غير لائقة بما استعملت فيه، ومن أمثلة ذلك:

- «فتهاجر الأبناءُ من اليمن» [ص٢٥]، أراد أنَّهم هاجَروا؛ فاستعمل صيغة (تفاعَل) الدَّالة على المشاركة في موضع صيغة (فاعَل) الدَّالة على المعنى المجرَّد. إلاَّ أن تكون التَّاء هنا من هفوات النُّساخ.

- «في سوق تُنْبُكت يُباعُونهم» [ص٧٥]، استعمل صيغة البناء للمجهول وألحق بها ضمير (هم) فظهر أنَّه كان يريد التَّعبير عن البناء للمعلوم (يبيعونهم)؛ فجمع بين ضميرين (مستتر وبارز) في الفعل الواحد.

- «فأمْلأتْها روزًا» [ص٩٠]، أي: ملأَ، يمْلأُ، ومَلأَّ (بتضعيف العين)(٢)

- «حتَّى أسكنوه» [ص٩٧] ومُراده أن يقول: حتَّى سكَّنوه وخفَّفوا من حدَّة غضبه. فهو من الفعل (سكَّن، تَسكينًا وسُكونًا). أمَّا الصِّيغة التي استعملَها هنا فهي: (أسْكنَ، إسكانًا وسَكَنا)، بمعنى: آواه.

- «ثمَّ دخل في ذلك المسجد وأطاف فيه» [ص١١٠]، والظَّاهر أنَّه يريد الفعل (طاف، يطوفُ، ويطيف، طوافًا). أمَّا أطاف فبمعنى استدار به؛ ومنه: أطاف السُّور بالمدينة، ويتعدَّى هذا الفعل بالباء، وليس بالفاء.(٣)

---

(١) الصحاح في اللغة للجوهري، مادة (كبب).

(٢) تاج العروس للزبيدي، ١/ ٢٢٣، مادة (م ل أ).

(٣) لسان العرب لابن منظور، ٩/ ٢٢٨، مادة (طيف).

- «وسقَّطه على الأرض... وسقَّطَهُ مَيْتًا» [ص١٢٧]، حيث عدَّى الفعل «سقط» بالتَّضعيف ومراده التَّعدية بالهمزة، أي: أسقطَهُ.

(٤) استعمال بعض الأسماء الموصولة أو الإشارة في غير مواضعها

تكرَّر في عدَّة مواضع من «الفتاش» وضعُ الاسم الموصول (الذين) لجماعة الذُّكور العاقلين في موضع (التي) لجمع غير العاقل، وغير ذلك من صُوَر استبدال اسم موصولٍ بآخر، من الأمثلة:

- «من المساجد الذين بَنى» [ص٣٤]، بوضع اسم الموصول للعاقلين محلَّ الموصول لغير العقلاء.

- «ثم أمر بالمياه اللَّواتي في قِرَبِهم» [ص٣٦]؛ باستعمال اسم الموصول لجمع الإناث للمياه.

- «أو زيدَ في مسافة تلك المكان» [ص٣٨]. بوضع اسم الإشارة المؤنَّث في موضع المذكَّر.

وشبيهٌ بذلك إسناد ضمير الذُّكور العقلاء إلى غير العاقل، من أمثلة ذلك:

- «وخيول أصحاب بلمع في المرعى يأكلون الحشيش» [ص١٣٩].

- «لأنَّهم أقوى الخيول وأمْتنهم وأصبَرهم» [ص١٨٣].

(٥) استعمال «متى» بمعنى «حين»

المعروف أنَّ «متى» ظرفٌ للزَّمان تأتي اسم استفهامٍ أو شرطًا، لكنَّ «الفتاش» قد أكثر من استعمال هذا الظَّرف بمعنى «حين»، ومن ذلك: [1]

---

(١) أحصينا أحد عشر موضعا من استخدام «متى» بهذا المعنى في الصفحات الآتية: [ص٤٢؛ ٥١؛ ١٤٢؛ ١٥٩؛ ١٦٣؛ ١٦٨؛ ١٧١؛ ١٧١؛ ١٧٢؛ ١٨٢]، وموضعين بمعنى الشرط، وهما: [ص٩٤؛ ١٦٣].

- «فمتى تمَّ الأكلُ يقوم ويدخل...» [ص٤٢].
- «ومتى اشتدَّ ضررُ شي عليٍّ على المسلمين...» [ص٥١].
- «وأما أسكي إسحاق متى انصرف من قتال بَلْمع...» [ص١٤٢].
- «ومتى وصلا إليه لقيَهُما بالتَّرحيب» [ص١٥٩].
- «ومتى قدِمَ وجد نوحًا قد ذهب» [ص١٦٨].
- «ومتى وصل القارئُ قول ابن دريد...» [ص١٨٢].

على أنَّه قد استخدم «حين» في محلِّها في مواضع كثيرة أيضًا، وقد أحصينا منها عنده ثلاثةً وخمسين موضعًا.[1] هذا، وإنَّ الذي يستوقفُ المتأمِّل في هذا الاستعمال، خلوُّ المواضع التي انفردت بها نسخة (C) من هذا الاستعمال، فلا وجود بتاتًا للظَّرف «متى» بمعنى «حين» في تلك المواضع. ويحملنا ذلك على الاستنتاج أنَّه أسلوبٌ لكاتب «الفتاش» ابن المختار؛ وأن القسم الأوَّل من الكتاب، وإن كان من تأليف ابن المختار، فإنَّه قد نقل بعض النُّصوص نقلاً حرفيًّا من كتابات جدِّه محمود كعت.

(٦) التَّسبيح أو الاستعاذة أو الاسترجاع عند إيراد بعض الأخبار

- من عادة «الفتاش» أن يختم بعض الفقرات بألفاظ التَّسبيح لله، أو الاستعاذة أو الاسترجاع على حسب وقْعِ الخبر الوارد. ومن موارد ذلك في الكتاب: «فسُبحان مَن يفعلُ ما يشاء»، و«فسبحان مَنْ بايَنَ بين خَلقه خَلْقا وخُلُقا» [ص٣٨]. ومنها: «فسُبحانَ مَن فرَّق بين قومٍ لله درُّهما» [ص٦١]، ورد الاسترجاع في [ص٧٥؛ ١١٥؛ ١٥٧].

---

(١) منها في الصفحات الآتية: [ص٥٧؛ ٥٩؛ ٦٤؛ ٦٥؛ ٦٩؛ ٧١؛ ٧٦؛ ٧٨؛ ٨٦؛ ٨٧؛ ٩٠؛ ١١٣؛ ١١٧].

(٧) تعريب مفردات محليَّة

يعطي كاتب «الفتاش» نفسَه حريَّةً واسعةً في تعريب المفردات المحليَّة من لغة الونْغارا أو الصُّونغايْ، وإخضاع تلك المفردات للقوالب الصَّرفيَّة العربيَّة المختلفة، خاصَّة جموع التَّكسير والمصادر. من أمثلة ذلك:

- «البُلْنَغات» [ص٣٥] جمعًا لبُلْنَغَة، وهي زيتٌ مستخلص من شجر الزَّيت بلغة الوَنْغارا.

- «أسْكَويَّة، كَنْفارِيَّة» [ص٨٧]، نسبة إلى أسكيا وكنْفاري.

- «بُعُوات» [ص١٠٢]، وهي خزينة الحبوب والزُّروع.

- «كَرامِنَ فُوري» [ص١٨٦]، جمعًا لكُرمنَ فاري، وهو الحاكم بتِنْدِرْمة.

(٨) تعبيراتٌ محليَّة

ترد في «الفتاش» تعبيراتٌ محليَّة تنمُّ عن تأثير لغة الونْغارا على الكاتب عند كتابته بالعربيَّة، من ذلك:

- «وأدخل القميص في عنق أسكي إسماعيل» [ص٨٦]، وهو تعبيرٌ ما زال مستعملاً عند المادينغ؛ حيث يُعبَّر عن لبس القمصان بـ«الإدخال في العنق». (k'a do a kana).

- «وليس في إقليم تكرور من ملٍّ إلى لُعْلُع من يرفع يده» [ص٩٣]، أي حين تولَّى أسكيا داود السَّلطنة، لم يكن يوجد من يقارعه، ويطيق مخالفته. فعبَّر عن القدرة على المنافسة والتَّحدي برفع اليد.

- «ولا نطيع لأحدٍ إلا أنتَ، وحَبْلُك في أعناقنا» [ص١٣٤]، وهو تعبيرٌ عن الطَّاعة والخنوع البالغ للشَّخص. وأصله تشبيههم العبد المملوك بيد مالكه بالبهيمة التي يُجعل في عنقها حبل وتساق.

بعد استعراض الملامح الأسلوبيَّة السَّابقة لكتاب «الفتاش»، تجدر الإشارةُ - أوَّلا - إلى أنَّ كثيرًا منها يمكن ردُّها إلى محْض العامل الكتابيِّ وتداوُل رسم الكلمات على أيدي النُّساخ المختلفين، ومن المألوف أنَّ صُوَر الكلمات وإملاءها تتعرَّضُ أحيانًا للتَّحوير والمسخ على أيدي النُّساخ بإسقاط حروف أو زيادتها، وقد تكون تلك الحروف السَّاقطة أو الزَّائدة فصائل نحويَّة كتاء التَّأنيث، وهمزة التَّعدية، وإلى هذا العامل قد يُحمل بعضُ ما ورد في الأمثلة السَّابقة، وهذا من باب التَّحفُّظ والاحتياط حتى لا يتمَّ تحميل ابن المختار أمرًا قد يكون منه بريئًا. أمَّا غير ذلك من الملامح الأسلوبيَّة مثل استخدامه لغة «أكلوني البراغيث»، واستبدال بعض الموصولات وأسماء الإشارة ببعض، فتلك مما يمكن عدُّه من صميم أسلوبه، وإنْ كان - في الواقع - لا ينفرد بتلك الاستخدامات عن غيره من كُتَّاب الوسط السُّودانيِّ الغربي.

بناءً على هذا المعطى، وتحقُّق وقوع هذه الملامح الأسلوبيَّة في كتاب «الفتاش»، نستنتج أنَّ الكتاب هو من تأليف ابن المختار في مجمله، ولكنْ يحتمل أنَّه قد نقل نصوصًا متفرِّقة من كتابات جدِّه محمود كعت، ومن كتابات أخواله أو غيرهم. ولكنْ من الصَّعب تحديد تلك المواضع تحديدًا دقيقًا. اللَّهم إلاَّ ما ورد التَّصريح فيه بأنَّه منقول.

المبحث الرَّابع

النُّصوص التي انفردتْ بها نسخة (C) من مخطوط الفتاش

بما أنَّ بُؤرة الإشكال في كتاب «الفتاش» تعود إلى نسخة (C) التي يرى الباحثون أنَّ دمجها مع نسخة (A) قد أحدث كثيرًا من الخلط والاضطراب في نصِّ الكتاب، فإنَّ استعراض المواضع والأخبار التي انفردت بها تلك النُّسخة وتمييزها عمَّا سواها - لاشكَّ - يساعد الباحثين في استنتاج بعض المواقف، وتشكيل بعض الرُّؤى عن مختلف فقرات هذا الكتاب الذي يُمثِّل - في الحقيقة - مشكلةً كأداء أمام الباحثين. وفيما يأتي سردٌ لتلك المواضع بالإشارة إلى صفحاتها في أصل الكتاب مع ذكر رؤوس الموضوعات المضمَّنة تحت كلِّ صفحة أو مجموعةٍ من الصَّفحات المتَّصلة.(١)

• [ص٩-١١]: مقدِّمة الكتاب، وذكر سبب تأليفه وعنوانه واسم المؤلِّف وألقابه، وذكر بعض القواعد والرَّسميَّات التي كانت متَّبعةً بقصر أسكيا الحاج محمَّد، وأنَّه أبطلها جميعًا بعد أن استقامت له السَّلطنة.

• [ص١٢-٢٩]: ذكر مراسم تعيين أمير مكَّة لأسكيا الحاج محمد خليفةً له على تكرور، وإخباره أنَّ أسكيا من الخلفاء الاثني عشر المذكورين في الحديث النَّبويِّ.

- لقاء أسكيا بالإمام السيوطي بمصر، وتأكيده خبر كون أسكيا الخليفة الحادي عشَر، وأنَّ الخليفة الثَّاني عشَر اسمه أحمد. [ص١٣].

---

(١) لقد سبق المؤرخ نحيميا إلى رصد تلك المواضع، ولا نختلف عنه هنا إلا في بعض التفاصيل.

- سؤال أسكيا الإمامَ السيوطي عن الحكم الشَّرعي في استرقاقه لأربع وعشرين قبيلةً، وإفتاء السُّيوطي إيَّاه بجواز استرقاق نصفهم. [ص١٣-١٤].

- استفتاء أسكيا الشَّيخ عبد الكريم المغيلي في حكم القبائل المملوكة له، واتِّفاق رأيه مع رأي الإمام السيوطي، وتجديد المغيلي بشارة أسكيا بأنَّه خليفة. [ص١٤].

- كتاب البراءة الذي أمر المغيلي أسكيا الحاج بكتابته إلى الخيلفة بعده يطلب فيه الدُّعاء له. [ص١٥].

- ذكر خروج أسكيا الحاج محمد للحجِّ مع طائفةٍ من أعيان العلماء. [ص١٦].

- حجَّة أسكيا وتصدُّقه على فقراء الحرمين، وطلبه من أمير مكَّة أن يُرسل معه واحدًا من الشُّرفاء إلى بلاد السُّودان؛ ليتبرَّكوا به هناك. [ص١٦-١٧].

- وصول الشَّريف مولاي الصقلي، وأوصافه مطابقة لما وصفه به النَّبيُّ ﷺ في رؤيا رآها إمام تمبكتو. [ص١٧-١٨].

- سردٌ عجائبيٌّ مسهبٌ للشَّريف الصقلي عن قصَّته قبل مجيئه إلى بلاد السُّودان، وما مرَّ به من مدنٍ إسلاميَّة عبر رحلته من مكَّة إلى بلاد السُّودان. [ص١٩-٢٣].

- إهداء أسكيا مجموعةً من القرى المملوكة له إلى الشَّريف الصقلي. [ص٢٣].

- ذكر خلوة أسكيا الحاج محمَّد مع الشَّريف الصقلي واستحضار الشَّريف للجنيِّ دَمير تلميذ شمهروس ملك الجنِّ، وذكره أخبارًا مسهبة أسطوريَّة عن أصل صونغاي، وأصل البربر. [ص٢٤-٢٦].

- خبر عن العملاق عوج[1] الذي لم تغرقه الطُّوفان في عهد نوح (عليه السَّلام)، وأنَّه أصل مجموعة من القبائل ذكرها المؤلِّف. [ص٢٦-٢٩].

• [ص٣١-٣٢]: ذكر ذريَّة الشَّريف الصقلي ورحيلهم من تمبكتو.

- إهداء أسكيا الحاج بعض القبائل المملوكة له إلى الشَّيخين: محمد تُل، وألفا صالح جَوَر.

[ص٣٥-٥٨]: بعث أسكيا محمد ثلاثةً من العلماء تباعًا إلى شي بارُ؛ للتَّفاوُض معه على الإسلام قبل أن يُعلن الجهاد ضدَّه. [ص٥٣-٥٤].

- نشوب الحرب بينهما وهزيمة شي بار، وتملُّك أسكيا محمد لصونغاي كلِّها. [ص٥٥].

- تمليك أسكيا محمد أربعًا وعشرين قبيلةً كانت مملوكةً لشي بار ولمن قبله من آبائه الملوك. ذكر المؤلِّف منهم اثنَتي عشرة، ووعد بذكر النِّصف الآخر في ترجمة أسكيا محمد. [ص٥٦-٥٨].

- ذكر أعمار المشايخ الثَّلاثة الذين بعث بهم أسكيا محمد إلى شي بارُ بالإضافة إلى الفقيه القاضي محمود بن عمر آقيت، وذلك بربطها بعام تَسَلطُن أسكيا (٨٩٩هـ). [ص٥٨].

• [ص٥٩]: تعيين أسكيا الحاج محمد قضاةً في تمبكتو وجيني وفي كلِّ بلدةٍ تستحقُّ تعيين قاضٍ بها.

- (في الهامش): سلسلة نسب أمِّ أسكيا الحاج محمد، وهو مرفوعٌ إلى

---

(١) هو عُوج بن عناق أو عُنُق أو عُوق. قصة إسرائيلية وردت في بعض كتب الأساطير والأخبار، ونقلها بعض المفسرين. وقد أوردها ابن كثير في تفسيره، وفندها بالتفصيل. ينظر: تفسير القرآن العظيم بتحقيق سامي سلامة، ٣/ ٧٦.

الصَّحابيِّ جابر بن عبد الله الأنصاريِّ (رض). وقد ورد في المتن أنَّ في تتبُّع ذلك خروجًا عن الغرض.

• [ص٦١-٦٢]: أسر أسكيا الحاج محمَّد لخمسمائة بَنَّاء في غارةٍ له على زاغَ.

- استحداث أسكيا محمد منصب كنْفاري (ولي العهد)، وتعيينه أخاه عمر كمزاع في هذا المنصب.

• [ص٦٢-٦٣]: حديثٌ مسهبٌ عن بناء مدينة تِنْدِرْمة مقرِّ وليِّ العهد، وخبر الرَّجل العجوز الذي كان يقطن هناك بذريَّته، وخبر المستوطنة اليهوديَّة التي كانت بها.

• [ص٦٤-٦٨]: ذكر أهل تِمْبو وأنَّهم عبيدٌ للشَّريف مولاي أحمد بمراكش. [ص٦٤].

- بناء مدينة تِنْدِرْمة عام (٩٠٢هـ). [ص٦٥].

- استعداد أسكيا محمد للحجِّ وذكر خروجه للسَّفر مع جنده ومجموعةٍ من الفقهاء. [ص٦٥].

- لقاء الفقيهَين ألفا صالح جوَر، وألفا محمد تُل لشَمْهروس ملك الجنِّ بصحراء الإسكندريَّة، وإخباره إيَّاهما بكون أسكيا من الخلفاء الإثنيْ عشَر. [ص٦٦-٦٧].

- ذكر كرامةٍ لوليِّ الله ألفا صالح جوَر حين استسقى للعسكر وهم بالصَّحراء مشرفين على الهلاك. [ص٦٧-٦٨].

- ذكر كرامة أخرى لوليِّ الله ألفا محمد تُل حين نسِيَه أسكيا محمد عند توزيع الزَّاد على المسافرين؛ فجاءه بعيرٌ من الصَّحراء محمَّل بالتَّمر. [ص٦٨].

- إهداء أسكيا الحاج محمد قبائل مملوكة للفقيهَين ألفا صالح جوَرَ، وألفا محمد تُل.

• [ص١١٦-١١٧]: قتل أسكيا داود الشَّريف محمد بن مزاور خطأ، وأداؤه الدِّية في ذلك ثلاث قبائل مملوكة.

- غارة أسكيا الحاج محمد (الحفيد) بن أسكيا داود على واغادُو، وسبيه ذراريهم وجميع أموالهم.

• [ص١٢٣]: خطاب من الشريف المراكشي الحسني إلى قاضي تمبكتو يؤكِّد فيه ملكيَّته لعبيد تِندرمة، ويستنكر ما بلغه من دخول بعضهم تحت طاعة أسكيا الحاج الثَّاني.

• [ص١٤٠-١٤١]: غارة شي عليٍّ على بلدة أنْكَند، وأسْره لمجموعة من الزَّناجية وزعيمتهم جَتَ.

• [ص١٤٣-١٤٤]: ذكر اضطهاد أسكيا إسحاق للشَّعب، واستثنائه زنج أنْكَنْد من ذلك؛ لكونهم من أملاك الشَّريف المغربي، وردِّه مجموعةً منهم إلى الشَّريف.

• [ص١٤٩]: وصول مبعوثٍ من قبَل أحمد الذهبي إلى الشَّريف محمد بن القاسم بتمبكتو يأمره بالرَّحيل عنها قبل غارته على صونغاي.

تلك هي المواضع التي انفردت بها نسخة (C) من «الفتاش»، ويُلاحظ أنَّ بعض تلك المواضع لا تتجاوز فقرةً مكوَّنة من بضعة أسطُرٍ، وبعضها تتجاوز عدَّة صفحات في الطُّول.

أمَّا موضوعيًّا، فإنَّ هذا الجزء ينحصر في محورَين أساسين هما: حجُّ أسكيا الحاج محمد لبيت الله الحرام، وأخبار تملُّكه لمجموعاتٍ من العبيد. والمحور الآخر: قضيَّة الاسترقاق ببلاد السُّودان الغربي.

أ- حجَّة أسكيا الحاج: يمثِّل هذا الموضوع المحورَ الذي يدور حوله «الفتاش» والمثير للاهتمام في هذا الجانب تكرار هذا الخبر (في الباب الأول والسَّادس)، ويتأكَّد للنَّاظر في هذا التِّكرار وجود روايتين مستقلَّتين للحدث الواحد، والنَّفَس السَّرديُّ بينهما متفاوت، فبينما هو في الرِّواية الأولى مفعمٌ بالحماس والعاطفة الجيَّاشة في التَّأكيد على أنَّ أسكيا الحاج خليفةٌ مهديٌّ، ولا يحفل بعرض الجانب التَّاريخيِّ للحدَث، إذا هو في الرِّواية الأخرى [ص٦٥] وما بعدها، معتدل المزاج، يحفل بتقديم المعلومات التَّاريخيَّة الدَّقيقة - نسبيًّا - لخبر حجَّة أسكيا، حتى إنَّ رواية كون أسكيا خليفة مهديًّا في هذا الجزء، جاءت على استحياء بأسلوب الظَّن على لسان ملك الجنِّ بقوله: «وأظنُّه منهم»، و«فلعلَّه الحادي عشر» [ص٦٦]. وهذا بخلاف التَّأكيد الجازم في الباب الأوَّل للخبر نفسه؛ إذ صرَّح شريف مكَّة لأسكيا قائلاً: «يا هذا أنت الحادي عشر من الخلفاء الذين ذكر رسول الله ﷺ». [ص١٢].

ب - قضيَّة الاسترقاق: تُعدُّ قضيَّة الاسترقاق و«تفريق أنساب العبيد من الأحرار» موضوعًا محوريًّا في الفقرات التي تفرَّدت بها نسخة (C)، حتى لتكاد هذه النُّسخة تستقلُّ بكلِّ إشارة إلى العبيد في كتاب «الفتاش». ويبرز في مجمل المواضع التي ذُكر فيها العبيدُ حرصُ الكاتب في تأكيد عبوديَّتهم لأسكيا الحاج محمَّد، وقد دعَّم هذا الادِّعاء بدعامَتَين قوِّيتَين إحداهما للسُّيوطي والأخرى للمغيلي اللَّذين اتَّفقت أقوالهما في حُكم استرقاق العبيد «حذْوًا بحذْو»، ولعلَّ لحاجةٍ في نفس يعقوب أغفل الكاتبُ ذكْر القبائل الإثنتي عشرةَ التي زعم أنَّ الإمامَين لم يُجيزا لأسكيا الحاج محمَّد تملُّكها. هذا، ولا يخفى ما في هذا الحرص في تأكيد عبوديَّة القبائل المذكورة، وما جاء في الفقرات من وصف أحمد

لوبو بـ«الوارث المسدَّد» لتركة أسكيا الحاج محمَّد، من ربطٍ دقيقٍ بين الرَّجلين، ومشروعيَّة وراثة آخرهما لأوَّلهما.

بالإضافة إلى هذين المحوَرين الأساسين في هذه الفقرات من الكتاب، فإنَّها تصطبغ بالطَّابع العجائبيِّ الأسطوريِّ في السَّرد، ويظهر ذلك في معظم الأخبار الواردة في هذا الجزء، وقد بدأ كاتبُه بقصَّة ضافية لرحلة الشَّريف مولاي الصقلي من بغداد، فالحرمَين الشَّريفين، حتى وصوله تمبكتو، وأحاط مَقْدَمَه إلى تمبكتو بشيءٍ من الخوارق والكرامات الصُّوفيَّة. وكذلك حديثه عن شمهروس ملِكِ الجنِّ، وتلميذه دَمير الذي أورد الكاتب على لسانه قصصًا أسطوريَّةً عن أصل صونغاي، وأصل البربر، وعن العملاق الأسطوريِّ عُوج بن عُنق... وحين كرَّر الكاتبُ قصَّة حجِّ أسكيا محمد أضفى عليها طابعًا عجائبيًّا؛ فأوْرد قصَّة الكرامة التي حدثت للشَّيخين ألفا صالح ومحمَّد تُل. ولا يخفى أنَّ هذه النَّكهة الأسطوريَّة لا تخدم الطَّابع العلميَّ الذي ينبغي أن يبرز في مثل هذا الكتاب، وهو بالمقابل يقوِّي موقف الذين ذهبوا إلى أنَّ بهذا الكتاب تحريفًا قلَّ ذلك أم كثُر.





القسم الثاني

نصوص كتاب الفتاش



مقدِّمة الفتاش

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم صلَّى الله على سيِّدِنَا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

قال الشَّيْخُ العَالم الفَقِيهُ الأدِيبُ القَاضِي العَادِلُ الزَّاهدُ الوَرِعُ الوليُّ المكاشِفُ التَّقيُّ العابدُ سيِّدِي محمود كَعْتِ الكُرْمِنيُّ دارًا، التُّنْبُكْتِيُّ مَسْكنًا، الوَعْكُرُيْ أصلاً، (رَحِمَهُ الله) تعالى ونفعَنا به أمين.

الحمْدُ لله المنْفَرِدِ بالمُلْكِ والملَكُوتِ، والعِزَّةِ والجبَرُوتِ، والقَهْرِ والغَلَبُوت، والرَّأفَة والرَّحمُوت، الملكِ الدَّيَّانِ، القادرِ المنَّانِ، الَّذِي خلَقَ الأرضَ والسَّماءَ، وعلَّم آدمَ الأسماءَ، وأخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ الملُوكَ والرِّعَاءَ؛ فمنهُمْ مُتَكَبِّرونَ قاسِطُون، ومنهم مُقْتَصِدُونَ صَالحونَ، فابْتَلاهُمْ بِظُهُور الأنْبَاء والأخْبَارِ، وأعْذَرَ إليهِمْ على ألْسِنَةِ المرسَلين الأخْيَارِ، فأهْلَكَ مَنْ أبَاهُم، وَصَيَّرَهُم عِبرةً للمُعْتَبرينَ، ومَوعظَةً للمُتَّقين، ثُمَّ أوْرَثَ العُلَماءَ عَمَلَهُم، وأخْلَف الخلفَاءَ على أمْرِهِمْ؛ فإلَيْهم يأوِي الطَّريدُ وبهم يُقْمَعُ الخصمُ المُلِدُّ، ولذلك جَعَلَهُم ظلالَهُ في الأرض،[1] وزيَّنَهم لا زينةَ النُّور في الحوْضِ، فمَنْ أطاعَهُمْ، فقد هَدَى وفازَ، ومنْ حادَّ عنْهُم فقدْ خَسِرَ وخابَ.

نحمَدُهُ على مَا أوْلانَا مِنْ سَوابِغِ النِّعَم والآلاء، حيثُ جعَلَنا مِنْ عبَادِهِ الكُرَماء، وأزاحَ عنَّا شرَّ الأعداءِ بأدْعِيَة العُلَماء، ووصَايَا الحكمَاءِ، وصَوارِمِ

---

(١) إشارة إلى الحديث المعزوِّ إلى أنس بن مالك (رضي الله عنه)، قال: «السُّلطانُ ظلُّ الله في الأرض، فمَنْ أكرَمَهُ؛ أكرَمَه الله، ومَن أهانَهُ؛ أهانَهُ الله». قال العلاَّمة الألباني: «ضعيف»، في السلسلة الضعيفة والموضوعة: ٤/ ١٦٠، وفيه أقوالٌ كثيرة تنظر في كتب التخريج.

السَّلاطين والخلفَاء؛ فَوَجَبَ لهُ علينا الشُّكرُ والثَّناءُ والسُّجودُ والانحنَاء؛ إذْ هو المولى الأعْلَى، فَمَنْ يُطِعْهُ فقد هدَى واسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَة الوُثقى، ومَنْ يَعْصِهِ فقدْ غَوَى وبَاءَ بالخُسْر وغَوى.

ونشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ شهَادةَ مَنْ أفْرغَ قَلبَهُ وهواهُ لامْتِثالِ أمرِ مولاهُ، ونُعِدُّ تِلْكَ الشَّهَادة إنْ شاء الله إلى يوم لُقْيَاهُ، يومَ لا يَنفعُ مالٌ ولا

[ص١٠]

بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سليم. ونَشْهدُ أنَّ سيِّدَنا مُحَمَّدًا عبدُه الكريمُ، ورسُولُهُ الرَّحيمُ، وصَفيُّه الحليمُ، ونجيُّه الأمينُ، ذو الآياتِ الصَّادقَاتِ، والمعجِزَاتِ الباهِرَاتِ، والبراهينِ القَاطِعَاتِ، أرسَلَهُ مُوَطِّدًا للإسلام، ومُسَدِّدًا للأنام، ومُكَسِّرًا للأصْنَام، ومبيِّنًا للشَّرائعِ والأحكام. القائل: «**بَدَأَ هَذَا الأمْرُ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً، ثُمَّ يكون خلافةً ورَحْمَةً**» الحديث.[1] والقائل: «**لا تَزَالُ طائِفَةٌ منْ أمَّتِي عَلَى الحَقِّ حتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».[2] والقائل: «**عَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّة الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينِ**

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، عن الحسن بن حكيم المروزي: ثنا أحمد بن إبراهيم الشذوري، ثنا سعيد بن هبيرة، ثنا إسماعيل بن عياش، ثنا عبد العزيز بن عبد الله بن حمزة بن صهيب، قال: سمعت سالم بن عبد الله بن عمر يحدِّث عن أبيه أنَّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان يقول: «إن الله بدأ هذا الأمرَ حين بدأ بنبوَّة ورحمة، ثم يعُودُ إلى خلافةٍ ثم يعود إلى سلطان ورحمة، ثم يعود مُلْكًا ورحمة، ثم يعود جبرية تَكَادَمُونَ تَكَادُمَ الحمير». (المستدرك، ٤/ ٥٢٠، ٨٤٥٩)، وفيه سعيد بن هبيرة المروزي، اتَّهمه ابن حبان وابن عدي. وقد أورد العلامة الألباني هذا الحديث وصحَّحه، سلسلة الأحاديث الصَّحيحة، (ح: ٣٢٧٠)، ومعنى: تكادَمُون: تقبضون عليها، وتعضُّون عليها كما يعضُّ الحمار بأدنى فمه، من كَدَم الحمار كدمًا.

(٢) روي هذا الحديث بطرقٍ كثيرة، وأصله في الصحيحين عن المغيرة: البُخَاريّ (ح: ٣٦٤٠)؛ ومسلم (ح١٩٢١). كما أخرجاه عن معاوية، قال: «لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ» الحديث. البُخَاريّ (ح: ٣٦٤١)؛ ومسلم (ح: ١٠٣٧).

مِنْ بَعْدِي عَضُّوا عليها بالنَّوَاجِذِ».[١] ﷺ وعلى آلِهِ البَرَرَة الكِرَام، وصَحَابتِهِ لِيُوثِ الضِّرْغَام، وعلى سائر إخوانه وذريَّتِهِ السَّاداتِ الأعلام. مَنْ إلى ناصع نَسَبِهِمْ يَنْتَسِبُ كلُّ شريفٍ ظريفٍ، ومنهُمْ ينْتَخبُ كلُّ أديبٍ عَفيفٍ، وبِصَمِيم أفْعَالهم يَقْتَدِي كلُّ تَقِيٍّ حَيٍّ، وبِكَرِيم أقْوالهم يَقْتَدِي كُلُّ مُقْتَصِدٍ مُنيب، وبِقَويم مَنْهَجِهِمْ يَسْلُكُ كلُّ مُرْشدٍ عَريفٍ، وإلى نارِ هَدْيِهم بِسِراجِهِ كلُّ مُنْفَرِدٍ محبٍّ،[٢] وإلى ذِرْوَةِ عِلْمِهم يَسْمُو كُلُّ مَقْصُودٍ بخير. فجزاهُم الرَّبُّ عنَّا أفضلَ الجزاء، وأثابهم يومَ التَّنادي أجزلَ الثَّوابِ، وجَعَلَنا بِكَرَمِهِ منَ المهتَدِينَ، وفي زُمْرَتهِمْ منَ المنْخَرِطِينَ، وبإحسَانهِمْ منَ المتَّبِعِينَ، بجاهِ خيرِ الورَى، وأفضلِ مَنْ أعْطِيَ الهدَى، وأكرَمِ مَنْ وطِئَ الثَّرى.

وبعدُ، فَلَمَّا كان ذكرُ قصصِ الأنبياءِ والسَّلاطين والملوكِ، وأكابرِ البُلْدانِ منْ عادةِ الحُكَمَاء والعُلَماء الأعيان؛ اتِّخاذًا بسُنَّة القُرآن، وتذكيرًا لما غَبَرَ مِنَ الزَّمان، وردًّا للغَبيِّ عن الحَيْفِ والهوان، وعونًا للتَّقيِّ على مُسَاعَدَةِ الإخوَان، ومَنَّ الله علَيْنَا بأنْ أظْهَرَ لنا في زمَاننَا هذا الإمامَ الصَّالِحَ، الخليفةَ العادلَ والسُّلْطَان الغالبَ والمنصورَ، القائمَ أسْكِيَا الحاج مُحَمَّد بن أبي بكر التُّوردي أصلاً والكَوْكَوْيَّ دارًا ومسكنًا؛ فأنَارَ لنا الهدى بعد ظُلَم الدُّجى، وأمَاط عنَّا الهَدى بعد الجُبْن والرَّدى؛ فانْفَسَحَ له - بحمْدِ الله - البُلدانُ شرقًا وغربًا، وتداعتْ له الوفودُ فردًا وجمعًا، فأذعنَتْ له الملوكُ كَرْهًا وطَوْعًا، فصِرْنا من بركاتِهِ بخيرٍ ونُعْمَى، بعد ما كنَّا في

---

(١) جزء من حديث مطوَّل عن العرباض بن سارية (رضي الله عنه)، أخرجه ابن ماجه في سننه (ح: ٤٢)؛ والمروزي في السنة (ح: ٢٧)؛ والبزار في مسنده (ق/ ٢١٩)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣١/ ٢٧-٢٨؛ والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٦٢٢)؛ والأوسط (ح: ٦٦)؛ والحاكم في المستدرك، ١/ ٩٧). وفي صحَّته أقوالٌ مطوَّلة، يرجع إليها في مواردها.

(٢) الظاهر أنَّ ثمة كلمة ساقطة هنا بعد قوله: بسراجه...، ويمكن أن تكون: يَهتدي، أو يستنير.

[ص١١]

ضِيقٍ وبؤسًا، فبدَّل الله تعالى ذلك بِفَضْلِهِ كما قال لأكْرَمِ خَلْقِهِ: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾. (الشرح: ٦)

أردتُ أن نجمع من أحْوالِهِ الحلْوَانِ، مع ذِكْرِ شِي عَالِ الملعونِ، ما سهُلَ على اليدِ واللِّسان، وإلى الله سبحانه التُّكلان.

وسمَّيتُه «تاريخ الفتَّاش في أخبَار البُلدَان والجُيُوش وأكَابِرِ النَّاسِ، وذِكْر وقَائِع التَّكرُور، وعَظائِمِ الأمُورِ وتفْريقِ أنسَابِ العَبِيدِ مِنَ الأحْرار».(١)

---

(١) لا يريد ابن المختار من إطلاق تكرور هنا في العنوان المعنى الدَّقيق لهذا الاسم؛ إذ أنَّ تكرور اسم بلدةٍ ومملكة مبكِّرة من ممالك أفريقيا الغربيَّة التي قامت في الضَّفة السُّفلى من نهر السِّنغال. ويُعتقد أنَّها المملكة الإسلاميَّة الأولى في غرب أفريقيا بزعامة ورجبي بن رابح، وحين كتب ابن المختار كتابه هذا، فقد كانت مملكة تكرور قد سقطتْ. وإطلاقُ تكرور هنا مجاراةٌ لما كان شائعًا آنذاك من إطلاق تكرور على مجمل بلاد السُّودان، وهو استخدامٌ نشأ في بلاد المشرق في مصر والحجاز خاصَّة حين أُطْلِق هذا الاسم على جميع الأفارقة القادمين إلى الحجِّ، فقيل: تكارير، وتَكارِرَة، وتكارِين، وتكارِنَة، والنِّسبة إلى المفرد: تكروريّ. ومن أوائل من أشار إلى هذا التَّوسُّع الاستعماليِّ البكريُّ (أبو عبيدة، ت٤٨٧) قال: «وتكرور اسمٌ للأرض التي هم فيها، وسُمي جنسُهم باسم أرضهم». (الاستقصاء لأخبار دول المغرب، ٢/ ٤٦٢)، وإلى مثل هذا التَّحديد ذهب ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، قال في معجم البلدان: «تكرور: براءَيْن مُهمَلتين، بلادٌ تُنسب إلى قبيلٍ من السُّودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه النَّاس بالزُّنوج». (معجم البلدان، ٢/ ٣٨). وقد أبان المؤرِّخ السُّلطان محمد بللو (ت١٨٣٧م) عن نشأة مصطلح تكرور ببلاد الشَّرق بقوله: «واعلم أنَّ هذا الاسم الَّذِي هو التكرور، عَلَم على الإقليم الغربيِّ من الجنوب السوداني، على ما فهمنا من تعبيرهم في التَّواريخ والنُّقول. وهذا الاسم شائعٌ في الحرمين ومصر والحبشة، ومُنْدَرِسٌ في محلِّه، حتى لا يعرفه أهل هذه البلاد أصلاً، وإنَّما يتلقَّونه من الحجَّاج الذين سموه بالحرمين ومصر».(إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، الفصل الأول: في تحقيق اسم التكرور. وعلى الرُّغم من الرُّؤية الواضحة لهذه المسألة عند بللو، فإنَّه لم يجد بُدًّا من الانسياق وراء الاستعمال الشَّائع؛ =

الباب الأوّل

أسْكِيَا الحاج مُحَمَّد

اعلَمْ، رحمنا الله وإياك، أنَّ الإمامَ العادِلَ والسُّلْطَانَ الفَاضلَ أسْكِيَا الحاج مُحَمَّد لما تَوَلَّى السَّلْطَنَة أقام طريقة سُنْغُيْ وجعل فيها قَوَاعِدَ، وذلك أن ليس له أحدٌ في جُنْدِهِ يُفْرَشُ له في مجلسه إلاَّ جِنِّكُيْ، وكلُّهم يحملُونَ له التُّراب إلاَّ جِنِّكُيْ، فَإِنَّهُ لا يحملُ إلاَّ دقيقَ الطَّعام. وكلُّهم يقلعُون الطَّاقِيَةَ عند حمل التُّراب إلاَّ كُرْمِنَ فَارِ، وليس فيهم من يتعدَّى عليه يقولُ الصِّدق إلاَّ دَنْدِ فارِ، ولا فيهم من ينْهَاهُ عن أمرٍ ويَتَّبِعُهُ أحَبَّ أم كرِهَ إلاَّ بَرَ كُيْ.(١) ولا فيهم من يدْخُلُ دارَهُ راكبًا إلاَّ دِرْمَكُيْ، ولا في أرضه من يُنادِي عَبْدَهُ ويُرْسِلُهُ بِأَمْرٍ ولا يَقْدِرُ أن يأبى ويفعل له في

= فَعَنْوَن لتاريخه بتكرور مع أنَّه لم يؤرِّخ للمنطقة المحدَّدة بالتكرور، وإنَّما شمل جميع مناطق بلاد السُّودان، وخصَّ جلَّ الكتاب لما يُعرف بالسُّودان الأوسط، أي شماليَّ نيجيريا الحاليَّة، وما يُتاخِمُها من بلاد تشاد. في [ص٢٥] من هذا الكتاب بين أيدينا، زعم ابن المختار أن «تكرور» مأخوذ من اسم جِنيٍّ (تُكْ+رورْ)، لكن هذا الخبر يصعب الأخذ به في البحث التاريخي الصَّارم.

(١) تعني اللاحقة (كُيْ) في لغة صونغاي: الأمير، أو السَّيد، أو الزَّعيم، وتضاف عادةً إلى اسم منطقة أو بلدة؛ للإشارة إلى أميرها. كما الحال في بَرَ كُيْ، وجنِّكُي، ودِرْمَكُي. ويدلُّ استثناء الشَّخصيات بالامتيازات المذكورة على أهميَّة أولئك في الدولة. أما ما اختصَّ به بَركي مَنْس كور، فهو عن عهدٍ أخذها أسكيا لمنس كور أثناء حجهما بيت الله، ودخولهما الشبكة النبويَّة الشَّريفة، [ص٦٩] بالإضافة إلى كون برَكُي القائد الوحيد الَّذِي ساند أسكيا ضدَّ شي بارو. وأمَّا دخول درمكي الدَّارة السُّلطانية راكبًا فمن الامتيازات التي وضعها له صن علي؛ فأقرَّها أسكيا الحاج.

الأمر ما يفعل في أمر أسْكِيَ إلاَّ القَاضِي، ولا مَنْ يُنَادِيهِ باسْمِهِ في مَجْلِسِهِ إلاَّ كِسِرْدُنْكِ.[(١)] ولا مَنْ يجلسُ مَعَهُ على سَرِيرِهِ إلاَّ الشُّرَفَاء. وجَعَلَ للقُضَاة إذا جاؤوه يأمرُ لهم ببَسْطِ حَصِيرِ الصَّلاة لهم. وجَعَلَ للمَزَامِينِ أن يجلسُوا عَنْ يَسَارِه، ولا يقُومُ لأحدٍ إلاَّ للعَالم والحُجَّاج إذا قدِمُوا من مكَّة، ولا يأكلُ معه إلاَّ العُلَماءُ والشُّرَفَاءُ وأولادُهُمْ وسَنْ[(٢)] ولو كان صغيرًا، (رَحِمَهُ الله).

وهذا كلُّه في أوَّل أمره لتَأليفِ قُلُوبِ قَوْمِهِ. فَلَمَّا ثبتَتْ له السَّلْطَنَة

[ص١٢]

واستَقَامَت المملَكةُ؛ خرَجَ منْ ذلك كُلِّه، وَجَعَلَ يَسْألُ العُلَمَاءَ العَامِلِينَ عنْ سُنَّةِ رَسُول اللهِ ﷺ ويمشي على أقْوَالِهِمْ، (رَحِمَهُ الله)، حتَّى اتَّفَقَ جَمِيعُ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ على أنَّهُ خَليفَة. ومِمَّنْ صرَّحَ له بذلك الشَّيْخُ عبدُ الرَّحْمَن السُّيُوطي، والشَّيْخ مُحَمَّد بن عبد الكريم المغيلي،[(٣)] والشَّيْخُ شَمْهَرُوش الجنيُّ، والشَّرِيفُ الحسني مولاي العَبَّاس أميرُ مَكَّة، رَحِمَ اللهُ الجمِيع.[(٤)]

---

(١) كِسِرْدُنْكِ: .(gesere-dunke) أي المداح الشعبي، ولعل مناداته للأسكيا باسمه الصَّريح، فيها اعتبارٌ فنيٌّ، وهو أن طبيعة المدح تستلزم في الرُّؤية الجماليّة الفنيَّة في أفريقيا التَّنصيص على اسم الممدوح واسم أمِّه وأبيه وقبيلته، قبل إضفاء الألقاب الممكنة على الممدوح.

(٢) سَن: طبقة العلماء، وكان مقرُّهم حيُّ المسجد الجامع الذي نُسبَ - فيما بعدُ - إليهم، فقيل: سَنْ كُرَيْ، أي حيُّ سَنْ. ينظر بعض مناقبهم في [ص١٧٩] من هذا الكتاب.

(٣) زار الشَّيخ عبد الكريم المغيلي مدينة غاو عاصمة صونغاي في أواسط عام (١٤٩٨م)

(٤) لم ينص في هذا الموضع على اسم أمير مكَّة، ولكن ورد في فقرة لاحقة في الباب الحالي أنَّه: مولاي جيدان، ولكن هذا الاسم غير واردٍ في سلاسل أسماء أمراء مكَّة، وباستعراض أمراء مكَّة في الفترة التي حجَّ فيها أسكيا محمـد، أي عام (٩٠٢هـ/ ١٤٩٣م) يظهر أنَّه حجَّ في أيام الأمير محمد بن بركات (حكم ٨٥٩-٩٠٣هـ/ ١٤٥٥-١٤٩٧م)، أو في أيَّام ابنه بركات بن محمد (٩٠٣-٩٣١هـ/ ١٤٩٧-١٥٢٥م)، وهما من سلالة أمراء بني قتادة. أمَّا الشُّرفاء، فقد بدأ حكمهم بمحمد أبي نمي الثاني بن بركات (حكم ١٥٢٥م-١٥٦٦م). بهذا يقوى قول =

وأقامَ للمُسْلمين حُقُوقًا وَحُرْمَةً عَلى نَفْسِهِ. وأَمَرَ لأهْلِ مُورْ كُيْرَ[١] أنْ يتزَوَّجُوا ما شاءوا، فيَتْبَعُهُمْ أَوْلادُهُمْ، وهُوَ مَوْجُودٌ إلى الآن، لم يَتَبدَّل بِبَرَكَتِهِ، (رَحِمَهُ الله).

وأعْطَى للشَّريف أحمد الصِّقْلِي ناحيَةَ القُرَى والجزائر. وأمَّا الشَّرِيفُ الحسني مولاي العَبَّاس فكانَ مع أمير المُؤمِنِينَ وخَلِيفَة المسْلِمِينَ أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد جالسًا بحذَاءِ الكَعْبَة يتَحَادَثَان، فقال لهُ الشَّرِيفُ مَوْلاَيَ العَبَّاس: يا هذا أنتَ الحادِي عَشَرَ مِنَ الخُلَفَاء الذِينَ ذَكَرَ رَسُول اللهِ ﷺ، ولكِنَّكَ جئتَنَا مَلِكًا، والمُلكُ والخلافةُ لا يتَّفِقَانِ، فقال له: كيف ذلك يا سيِّدِي؟ فقال لهُ مولاي العَبَّاس: لا سَبيلَ إلى ذلك إلاَّ أنْ تخرُجَ عمَّا أنتَ فيه؛ فأذْعَنَ لهُ أسْكِيَ طَوْعًا، وطرَدَ جميعَ الوُزَرَاءِ عَنْهُ، وجَمَعَ جمِيعَ آلاتِ السَّلْطَنَة وأمْوَالَهَا، وجعَلَ ذلك كلَّهُ بِيَد العَبَّاس، وقعَدَ عازلاً لنَفْسِه. ودَخَلَ مولاي العَبَّاس في الخَلْوَة ثلاثَةَ أيَّام، ثُمَّ خَرجَ يوْمَ الجُمْعَة ونَادَى أسْكِيَ الحاجَ مُحَمَّد وأجْلَسَهُ بمسْجِدِ البَلْدَة الشَّرِيفَة مَكَّة، وجَعَلَ عَلَى رَأسِهِ قَلَنْسُوَةً خَضْرَاء وَعِمَامَةً بَيْضَاء، وأعْطَاهُ سَيْفًا،[٢] وأشْهَدَ الجَمَاعَةَ الحَاضِرِينَ أنَّهُ خليفةٌ بأرْضِ التَّكرُور، وأنَّ كُلَّ مَنْ خَالَفَهُ في تِلْكَ الأرْضِ فقَدْ خَالَفَ الله تَعَالى وَرَسُولَه.

= لفتصهيون، أنَّ تعيين أسكيا الحاج كان على يد الخليفة العباسي بمصر، وهو الخليفة أبو العز عبد العزيز المتوكل على الله (حكم١٤٧٩-١٤٩٨م). بمصر.

(١) مُورْ كُيْرَ: (مُور) كلمة مقترضة من كلمة (مُقرئ) العربيَّة، وتعني الشيخ والفقيه والعالم، و(كُيْر): تعني المَحَلَّة أو القرية، والكلمة بجزءيْها تعني: أهالي قرية مُورْ، نسبة إلى ذريَّة العالم الفقيه المتصوف مور هَوْكارُ، وهو أحد الأعلام بصونغاي. وكلمة مورْ أيضًا شكلٌ من كلمة (مُودِ/ مُودِبُ) وهي بدورها محرَّفة من الكلمة العربية (مُؤدِّب)، وتحملان المعنى العلمي نفسه الدّال على الاتِّصاف بالعلم والانقطاع للتَّدريس.

(٢) وردت فقرات في [ص٧٨، و١٥٤] عن هذا السيف.

ثُمَّ تهيَّأ أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد للرُّجُوع. فَلَمَّا وصلَ مصر وَجَدَ هناك الشَّيْخَ عبد الرَّحْمَن

[ص١٣]

السُّيوطي، فسَأَلَهُ أسْكِيَ عن الخُلَفَاء الذِينَ ذَكَرَ رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُمْ سَيَأْتُونَ بَعْدَه. فقَالَ الشَّيْخُ: هُم اثنا عَشَرَ: خمسَةٌ مِنْهُم بِالمدِينَة، واثْنَانِ بمصر، ووَاحدٌ بالشَّام، واثْنَانِ بالعِرَاق، وَقَدْ مَضَى هَؤُلاَءِ كُلُّهُمْ، وَبَقِيَ اثْنَانِ بِأَرْضِ التَّكرُور، أنْتَ أحدُهُما، ويأتي بَعْدَكَ الثَّاني، قَبِيلتُكَ مَنْسُوبَةٌ بطُورُدُ[١] مِنْ أهْلِ اليَمَنِ ومَسْكَنُك

(١) طورودُ: (Torodbe) جمع مأخوذ من (طورو (Torode وتعني «المسألة/ التَّسوُّل». تطلق طورودبي على مجموع قبائل متعددة في غرب أفريقيا من الفولبي، والولوف، والماندي، والهوسا وغيرها. إلاَّ أنَّ الغالب على تلك المجموعات كونها من الفولبي، وقد تكونت مجموعات طورودبي جراء الحركة العلمية والدعوية الإسلاميَّة التي قامت في بلاد السودان الغربي، وكان الطلبة يتجمعون في المحاضر العلمية والدَّارات الصُّوفية حول المشايخ؛ لتلقي العلم والقيام بالمهام الدَّعوية والأعمال الحرفيَّة التي كانت تنتظم حياة أولئك، وكانوا يتميَّزون بحياة التقشف، ومن طرق التَّربية لديهم أن الطلبة كانوا يتجوَّلون في القرى ويتسوَّلون، ويطلق عَلَيْهِمْ «طُورودُو» بالفلفُلديَّة لغة الفولاني، أو «طُورونْكاوَا» بالهوسا: أي متسوِّلون، وما برح هذا الوصف أن أصبح وصفًا عَلَيْهِمْ، وعرفوا في الأدبيَّات الإسلاميَّة في غرب أفريقيا بـ«الطُّوروديَّة»، أو «طورودْبي»، وهذا الوصف في الواقع ليس اسمًا لقبيلة معيَّنة، وإن كان الغالب إطلاقه على الفولاني، وعلى عشائر علميَّة دَعويَّة معيَّنة منها: عشائر باري المنتسبة للشيخ أحمدو، وعشائر تالْ المنتسبة للشيخ عمر تالْ، وعشائر سِي المنتسبة للشيخ مالك سي، فهؤلاء وأمثالهم من المشائخ العلماء، أصحاب حركات جهادية، تكوَّنت حولهم أتباعٌ وحركة علميَّة. ينظر: John Ralph Willis, Studies in West African Islamic History, p21. وزعـــم المؤرِّخ موسى كمارا بأنَّ لفظة «طرودبي» تعني (صَنَم) بلغة صونغاي، وأنَّ كلَّ من كان يُسلم ويخلص دينه كان يطلق عليه «طرودبي»، وأن تسمية أسكيا بأنه طرودي جاءت من هذا المنطلق، وهنا إشكال هو أنَّ مصطلح «طرودي» ظهر بعد أسكيا، فكيف جاز أن يُطلق عليه هذا اللَّقب أو أن تكون قبيلته من الطرودبي؟ ينظر: John Ralph Willis, In the Path of Allah, p74, footnote 12.

بكَوْكَوْ،[١] أنتَ مُرِيدٌ مَنْصُورٌ، عَادِلٌ كثيرُ الفَرَح والعَطَاءِ والصَّدَقَة، لا يُعْجِزُكَ مَوْضِعٌ مِنْ مَمْلَكَتِكَ إلاَّ موضعٌ واحدٌ يُقَالُ له بُرْكُ، (بباء مَضْمُومةٍ ممالة فراء ساكِنَة بعده كاف مَضْمُومةٍ ممالة)،[٢] ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ ذَلكَ الموضِعَ بِيَدِ الخَلِيفَةِ الثَّاني بَعْدَكَ، تَنَامُ أوَّلَ اللَّيْلَ، ثُمَّ تُصَلِّي آخِرَهُ، ويُصيبُكَ عَمًى في آخِرِ عُمْرِكَ ويَعْزِلُكَ وَاحِدٌ مِنْ أبْنَائِكَ وَيَرْمِيكَ في بَعْضِ الجَزَائِرِ، ثُمَّ يُخْرِجُكَ ابنُكَ آخَر، ومِصْدَاقُ جميعِ مَا قُلتُ؛ عَلاَمَةٌ في فَخْذِكَ اليُسْرَى، كانَ مِنْ بَرَصٍ فَأَبْرَأَهُ اللهُ بِغَيْرِ عِلْم أحدٍ. فقال أسْكِيَ: صدَقْتَ يا سيِّدِي وَقُرَّةَ عَيْني، وقالَ لهُ الشَّيْخُ: وَلَكَ أبناءٌ كَثيرٌ نَحْوَ مِائَةِ رجُلٍ، كلُّهُم يَتْبَعُون أمْرَكَ في دَوْلَتِكَ، ثُمَّ يَعْكِسُونَ الأمْرَ بَعْدَكَ، والعِيَاذُ بِاللهِ! حتَّى يَصيرَ الأمرُ مُلكًا عَضُوضًا، وحَزِنَ لذَلِكَ وسَكَتَ مَليًّا، ثُمَّ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاء، وَزَفَرَ زَفِيرَةَ الثَّكْلاءَ.

ثُمَّ سأل الشَّيْخُ أيضًا: هل يخرُجُ من صُلْبِه مَنْ يُقِيم الدِّين ويُصْلحُ أمرَهُ؟ فقال له الشَّيْخ: لا. ولكنْ يأتي رجُلٌ صَالحٌ عَالِمٌ عامِلٌ تابعُ السُّنَة اسْمُهُ أحمد، يَظْهَرُ أمْرُه في بَعْضِ جزَائِرِ سِبرَ مَاسِنَة، ولكنْ مِنْ قَبيلةِ عُلَمَاء سَنْقَرِ، وهُوَ الَّذِي يَرِثُك في الخلافَة والعَدَالة والصَّلاحِ والجود والتُّقى والزُّهد والنُّصرة، ويكونُ كثيرَ التَّبسُّم والسُّنة، دائمَ التَّحرُّك في جُلُوسه، ويَسْبِقُكَ بكَوْنِه مُتَبَحِّرًا في العُلُوم، وأنْتَ لا تَعْلَمُ إلاَّ أحكامَ الصَّلاةِ والزَّكَاة والاعتقَادَات، وهُوَ آخرُ الخلفَاءِ المذكُورين.

ثُمَّ سألَ أسْكِيَ الشَّيْخ: هل هذا الخليفَةُ يجدُ الدِّين فَيُجدِّده أو يجدُهُ خامدًا فيُوقِدُهُ؟[٣] فقال له الشَّيْخ: بل يجدُ الدِّين خامدًا فيكونُ كَشَرَارةِ جمرٍ وَقَعَتْ في

---

(١) كوكو: يحتمل أن يكون هذا الاسم (kaw-kaw) يقصد به عاصمة صونغاي القديمة (كُوكِيَ) أو عاصمتها الجديدة (غاوْ). تقع عند الثنية الثانية لنهر النيجر، وتبعد عن النهر بحوالي ستة كيلومترات.

(٢) إقليم بُرْكُ :(Borgu) منطقة في شمالي نيجيريا الحالية، تعرف الآن ببُوسا (Busa)،

(٣) كأنَّ ها هنا كلمة ساقطة بعد قوله: يجد الدِّين.... ويمكن أن تكون: يجد الدِّين هامدًا.

يابِسِ الحشِيشِ، فيَنْصُرُه الله على جَمِيع الكُفَّار والمخَالِفِينَ

[ص١٤]

حتَّى تَعُمَّ بَرَكتُهُ البلادَ والأقْطار، فمَنْ رآهُ وتَبِعَه كان كمَا تَبع النَّبي ﷺ، ومَنْ خالَفَهُ فكأنَّمَا خالفَ النَّبيَّ ﷺ. فتَوَسَّطَ الأولادُ في زمانِهِ، لكنَّهم لا يزالونَ على الجهَاد إلى فَنَائِهِم.

قال الرَّاوي عن شَيْخِه القَاضِي حبيب: فبِسَبَبِ هذا الرَّجُلِ المذْكُورِ والخليفَةِ المنْصُور تغلَّظَ شِي عَالِ الملعُونُ في قَتْل قبيلةِ سَنْقَرِ، وكان يَسْمَعُ خَبَرَهُ كثيرًا مِنْ أفْوَاه الكُهَّان، وأنَّهُ يخرجُ من قَبِيلَة سَنْقَرِ؛ فَقَتَلَهُم حتَّى لم يبقَ مِنْهُم إلاَّ طائِفَةٌ قَلِيلة.[1]

---

(١) المهدية: وقد ورد عند القرطبي في «التذكرة ١/ ٧٠٢» رواية عن ظهور المهدي جديرة بالتَّأمل؛ حيث روى من حديث ابن مسعود وغيره عن الصحابة أنَّه يخرج في آخر الزمان من المغرب الأقصى، من ساحل البحر بموضوع يُقالُ له «ماسنة» من قبَل المغرب. وإن كان بعض العلماء يرون أن الموضع المعني هو «تامسنة» الواقعة جنوبي المغرب في السوس الأقصى شمالي أغادير، وقد ظهر هناك - بالفعل - المتنبئ صالح بن طريف البرغواطي، وقضى المرابطون على هذه الفتنة. وكان لرسالة السُّيوطي «العرف الوردي في أحوال الإمام المهدي»، الأثر الكبير في تشكيل رؤية المهدية، والاعتقاد بظهوره ببلاد التكرور، وقوَّى ذلك ظهور عددٍ من المصلحين، وقادة الجهاد بغرب أفريقيا، وحدَا ذلك ببعضهم أو بأتباعهم إلى إلصاق صفة المهديَّة عَلَيْهِمْ. كما حدث للشَّيخ عثمان دان فوديو حين زعم أتباعه أنَّ صفات المهديِّ تنطبق عليه بحذافيرها، لكن الشَّيخ المجاهد أنكر ذلك ونفاه عن نفسه في عدَّة رسائل منها: «النَّبأ الهادي إلى أحوال الإمام المهدي»، و«تحذير الإخوان من ادِّعاء المهديَّة الموعود آخر الزَّمان»، بيَّن فيها أحوال المهديِّ المنتظر وصفاته وعلامات ظهوره، ومن أقواله: «واعلموا أيضًا يا إخواني أنِّي لست بالإمام المهدي، ولا ادَّعيتُ المهديَّة قط، وإنَّما يُسمع ذلك من أفواه النَّاس، وقد بالغتُ في تحذيرهم من ذلك، وقد صرَّحت بردِّ ذلك في تواليفي العربيَّة والعجميَّة... كيف أدَّعي المهدية، وقد ولدتُ في بلاد السُّودان في مكان يسمَّى مَردَّ، وقد عرف في الأحاديث النَّبويَّة أنَّ المهديَّ سيولد بالمدينة... وكيف أدَّعي المهديَّة ولم يواطئ اسمي اسم النَّبيِّ محمَّد ﷺ؛ إذ =

ثُمَّ سأل الشَّيْخ أيضًا عن أمْرِ أرض التَّكرُور ما يَؤُولُ إليه آخرُهُ. فقال الشَّيْخُ: أمَّا أرضُ التَّكرُور فَهِي أوَّلُ أرْضٍ تَخْرِبُ لأجْلِ إبَايَتِهِمْ الملُوك. وسَألَهُ عَنْ أمر كَاو (كاغ) وما سببُ خرابها، فأخبره بما أخْبَر. وسَألَه أيضًا عن تُنْبُكْتُ وجِنِّ، وأخْبَرهُ عن أمْرِهِمَا بما سَيَجِيءُ إنْ شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ سَألَهُ أيضًا عَنْ أمْر أرْبَعَةٍ وَعشْرِينَ قَبيلَةً الذِينَ وَجَدَهُم بِيَدِ شِي بارُ مملوكةً لهُ وَرِثَهُمْ عن آبائه. فقَال الشَّيْخُ: صِفْهُمْ لي، فَوَصَفَهُم له. فقالَ له الشَّيْخُ: أمَّا نصفُهُم فَمِلْكُهُ لك سائغٌ، وأمَّا النِّصفُ الآخرُ فَتَرْكُهُمْ أفضلُ؛ لأنَّ فيهم شُبْهَةً. فقَالَ للشَّيْخُ: فَما الذينَ مِلْكُهُمْ لي سائِغٌ؟ فقال الشَّيْخ: الأُولى قبيلةُ جِنْدِكَتَ، (بجيم ودالٍ المكسورَتَيْن بَيْنهُما نونٌ ساكِنَة وكافٌ وتاءٌ مَفْتُوحَتَيْن)،[1] والثَّانِيَة قبيلةُ جَمْ وَلِ، (بجيمٍ مَفْتُوحة وميمٍ ساكِنَة فواوٍ مَفْتُوحة ولامٍ ممالة مكسورة)،[2] والثَّالثَة جَمْ تِنِ والرَّابِعَة كُمِ،[3] والخامسة سُرُبَنَى،[4] والسَّادِسة من كفَّار بَمْبَرَ تُنْسبُ بجِرَكُرِ

= اسمي عثمان، ولم يواطئ اسم أبي اسم أبيه؛ إذ اسم أبي محمَّد، وقد عُرف في الأحاديث النَّبويَّة أن المهدي يواطئ اسمه اسم النَّبي ﷺ، ويواطئ اسمُ أبيه اسمَ أبيه...» (كاني أحمد محمد، الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، ص١٠١-١٠٢). وقد كان تيار ادِّعاء المهديَّة قويًّا في بلاد السُّودان؛ لدرجة وضع بعض الأتباع رسائل وشهاداتٍ زعموها واردةً من شرفاء مكَّة، تقرُّ بالمهديَّة لبعض القادة المسلمين أمثال الشَّيخ المجاهد عمر بن سعيد تال. ينظر: B.G. Martin, Muslim Brotherhood in Nineteenth Century Africa, p97.

(١) جندكت: قبيلة تختص بالعناية بالخيل ورعايتها وعلَفها، والمعنى الحرفي لجندكَت: قُطَّاع العُشب.

(٢) جم ول: قبيلة تحترف الحدادة، وصنع السِّلاح والآلات، وما إلى ذلك.

(٣) عشائر من قبائل «نْياماكالا»، وهم الرُّواة الشعبيُّون والوسطاء بين الأفراد والمجموعات، والمعنيُّون بكل ما يحيط بفنِّ القول من إنشاد أشعار، ورواية قصص، وسرد سلاسل أنساب، وتواريخ زعماء، وسفارة بين الملوك، وترجمة، وتبليغ أخبار للعامَّة، وغيرها.

(٤) سُرُبَنَى: هي العشائر التي تحترف بناء البيوت.

بُكَر،[١] والسَّابِعَة تُنسَبُ بِنْكَرَتِبِ، والثَّامِنة تُنسبُ بكَسَمْبَرَ، والتَّاسِعة تُنْسَبُ بسَمَسِيكُ، والعاشِرة تسمَّى بسُرْكُ،[٢] والحادِيَة عشَرَ تُسمَّى بكُرُنْكُيْ،[٣] والثَّانِيَة عَشَرَ تُسَمَّى بأرْبي.[٤]

ثُمَّ قال أسْكِيَ للشَّيْخ المذكور: فما حالُ مَنِ ادَّعى مِنْ هذه القبائلِ أنَّهُ ابن حُرٍّ أو حُرَّة؟ فقال الشَّيْخُ: أمَّا من ثَبَتَ أنَّ أباه حُرٌّ وأُمُّهُ من هذه القَبَائِلِ، فَمِلْكُهُ لكَ سَائغٌ، وأمَّا مَنْ ثَبَتَ أنَّ أمَّهُ حُرَّةٌ وأبَاه منْ هذه القَبَائِلِ، فإنْ كان أقَامَ في دارِ أبيه وَعَمِلَ بِعَمَلِهِ؛ فَلَكَ أيضًا ملكُهُ، وإنْ كانَ خرج

[ص١٥]

من دَارِ الأبِّ إلى دارِ الأمِّ فَلَيْسَ لكَ مِلْكُهُ، لأنَّ هذه القبَائلَ لم يَزَل المُلُوكُ والسَّلاطِينُ منذُ زمَنِ مَلِّكُيْ إلى شِي بارُ يحذِّرُونَ النَّاسَ عنْ مُنَاكَحَتِهِمْ؛ فوافَقَ قَولُ الشَّيْخِ أقوالَ العُلَمَاءِ الذِينَ سَألهم أسْكِيَ قبلَ ذهَابِهِ إلى الحجِّ، رَحِمَ اللهُ الجمِيعَ.

---

(١) بَمْبر: هي فصيلٌ من المادينغ، يطلقون على أنفسهم (بامانا، .(Bamana أما (Bambara) فهي إطلاق عليهم من لدُن غيرهم، وفيه إشارة إلى الصِّبغة الوثنيَّة في البامانا، وتعني حرفيًّا: الجاحد سيِّده، ويُقالُ إن سبب التسمية ناشئٌ عن كون هذه القبائل شاذة بين المادينغ المسلمة؛ بكفرها وبقائها في الوثنيَّة، فقيل بَانْ-مانَا/ بامَنا، أي: الذين كفروا بالله مولاهم. وقد قويت للبامانا مملكتان في أواسط القرن الثَّامن عشر الميلادي، هما: مملكة سيغو التي تأسَّست حوالي (١٧٤٠م)، ومملكة كارْتا (Kaarta) التي قامت عام (١٧٥٤م). يقطن معظم البامانا حاليا في مناطق سيغو (الواقعة جنوبي جمهوريَّة مالي الحاليَّة على نهر النيجر)، ولغة البامبارا هي اللغة المشتركة في جمهوريَّة مالي الحاليَّة.

(٢) سُرك: من كُبريات قبائل صونغاي، وتحترف الملاحة وصيد السَّمك، وصنع السفن، وهي قبيلة واسعة الانتشار على امتداد نهر النيجر.

(٣) تعني (كُرنكي) حرفيًّا: سيِّد الجِلد، وهي القبيلة التي كانت تحترف الدباغة، وصنع التُّروس والجراب والنِّعال والحبال، وكلٍّ ما يتَّصل بصناعة الجلود.

(٤) أربي: من القبائل القديمة التي قطنت منطقة حوض النيجر، وتحترف في الغالب الفلاحة.

ثُمَّ بعد رُجُوعِ السُّلْطَانِ العادِلِ أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد (رَحِمَهُ الله) جَدَّدَ هو أيضًا على تحذِيرِهِمْ عن مُناكَحَةِ هذه القَبَائِل. فكُلُّ من نَكَح فيهم امرأةً مِمَّنْ ليس مِنْ أهْلِ مُورْ كُيْرَ فَوَلَدُهُ مِلْكِي، فكُلُّ امْرَأَةٍ نَكَحَهَا رَجُلٌ منهم فوَلَدَتْ، فإنْ أحَبَّتْ لِوَلَدِهَا الحريَّةَ فَلْتُخْرِجْهُ مِنْ دارِ زَوْجِهَا إلى دارِ أبِيها، وإلاَّ فإنْ أقَام الوَلدُ بِدَارِ الزَّوج وعَمِلَ بعَمَل الزَّوج فهو - أي الوَلَدُ - مِلْكِي. وهذا بعْدَ ما سألَ الشَّيْخَ مُحَمَّد بن عبد الكريم المغيلي عن أمْرِ هؤلاءِ القَبَائل، فأخْبَرَهُ كما أخبَرَهُ الشَّيْخُ عبدُ الرَّحْمَن السيوطي، واتَّفقَ أقوالُهُمَا كما يَقَعُ الحافِرُ على الحَافِرِ، ثُمَّ أمرَ الشَّيْخُ مُحَمَّد بن عبد الكريم أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد أنْ يَكْتُبَ إلى الخليفَةِ الَّذِي يجيءُ بعْدَهُ ويطلُبَ منه الدُّعاء. وقال له أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد: وهل تَبْلُغُ تِلْكَ البَرَاءَةُ؟ فقال الشَّيْخُ: أرجو أنْ تَبْلُغَ إنْ شَاء الله؛ فأمَرَ الكاتبَ عليّ بن عبد الله أنْ يَكْتُبَ بَرَاءَةً ونصُّها:

«هذا كتابُ أميرِ المُؤمِنِينَ، قامِعِ الفُجَّارِ والكافرين: أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد بن أبي بكر إلى وارثِهِ المسَدَّدِ، والقائمِ بأمرِهِ، المؤيَّدِ بالمُؤمِنِينَ، أحمد المنصور، فسلامٌ أشْهَى من كلِّ مُشتهًى، وإكرامٌ أنْوَرُ من الدُّر وأبهى، يخصُّك ويَعُمُّ على كافَّةِ مَنْ منْك وإليكَ بِرَوْحٍ ورَيْحَان. فمُوجِبُهُ إليك أيُّها الأخُ البَرُّ الصَّالِحُ إعلامُكَ وَتَبْشِيرُك بأنَّكَ آخرُ الخُلَفَاءِ، وقاهرُ الأعْدَاءِ، وهَادي السُّعَدَاء باتِّفَاقِ العُلَماء. ونحنُ نطْلُبُ منكَ الدُّعَاءَ وأنْ أكُونَ يوْمَ القِيَامَةِ في كَرِيم زُمْرَتِكَ، كما نَسْأَلُ اللهَ تَعَالى العِصْمَةَ مِنْ فِتَنِ الزَّمَانِ، ونَرْجُو مِنَ الله سُبْحَانَهُ أنْ يَجْعَلَنَا وإيَّاكَ في زُمْرَةِ خَيْرِ الوَرَى، آمين».

فدعا له الشَّيْخُ أن يُبَلِّغَ الله هذه البراءَةَ بِأيِّمَا وَجْهٍ، فأمَّنَ الحاضِرُونَ على دُعَائِهِ.

قال الشَّيْخُ محمود كَعْتِ: وليَعْلَمَ كُلُّ مَن وقَفَ على هذه

[ص١٦]

القِصَصِ التي ذكَرْنَاهَا أنَّا لم نَقْصدْ بِذِكْرِهَا مُبَاهَاةً ولا افتخَارًا. بل لما رَأيْنَاهُ وشَاهَدْنَاهُ مِنْ مُنَاكرَةِ أهل الزَّمَان أحوالَ السُّلْطَانِ مع اتِّفَاقِ العُلَمَاءِ الأعْيَانِ على أنَّهُ مِنَ الخلفَاءِ النُّبَلاءِ والأُمَرَاء النُّجَبَاء، فلَمْ يَضُرَّهُ ذلك في دِينِهِ ولا في دُنْيَاهُ بحمْدِ الله تَعَالى، وكمَا لم يضُرَّ مَنْ يأتي بعْدَهُ إنْ شاء الله أقوالُ الحُسَّادِ وإبَايَةُ الجُهَّالِ، وسعَايَةُ الغُدَّار والفُسَّاقِ.

قال الفقيهُ محمود، ويعضُدُ قولَ الإمام، ويُوَافِقُهُ ما رُوِيَ عنِ الشَّيْخِ عبد الرَّحْمَن الثّعَالبي،[1] مِنْ أنَّهُ سَيَكُونُ آخرَ الزَّمَانِ في أرْضِ التَّكرُورِ خَليفَتَانِ، أحْدُهُمَا يَظْهَرُ في آخر القَرْنِ التَّاسِع، والآخَرُ يظهَرُ في أوَّل القَرْنِ الثَّالثِ عَشَرَ، يُنْكرُهما أهلُ عَصْرِهِمَا أشَدَّ التَّنْكير، ويَنْسِبُون أفعَالَهُما إلى الظُّلْمِ والأبَاطِيلِ، فَيَقْمَعُ الله لهمَا كُلَّ جَاهِلٍ جَحُودٍ، وكلَّ عالم حَسُودٍ، يُسَوِّيَان في جَميع الأوْصَافِ الحَمِيدَة إلاَّ في العِلْم، يَفِيضُ الله في أيْدِيهِمْ الأمْوَالَ العَرِيضَة المخْزُونَة يصرِفانها فيما يُرْضِي الله.

ولنَرْجِعْ إلى ما كُنَّا بِصَدَدِهِ مِنْ ذِكْرِ مَنَاقبِ الإمام العَادِلِ والسُّلْطَانِ الفاضِل.

فَلَمَّا مَلَّكَهُ اللهُ جميعَ أرْضِ شِي وتَمَكَّنَ في السَّلْطَنَة، عَزَمَ عَلَى الذِّهَابِ إلى بَيْت اللهِ الحَرَام للحَجِّ وزيارة قبر النَّبيِّ ﷺ، وتَهَيَّأ وخَرَجَ في العَام الثَّاني بعد تِسْع مائة،[2] ومعه من العُلَماء الأعيان: الشَّيْخُ مُحمَّد تُلِ، وألْفَا صَالِح جَوَرَ، وكَاعُ زكريَّاء، ومُحَمَّد تِينْكُ، والقَاضِي محمود يَنْدِبُغُ، والشَّيْخُ مُورِ مُحَمَّد هَوْكَارُ،

(١) الثعالبي: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (٧٨٦-٨٧٥هـ/ ١٣٨٥-١٤٧١م)، ولد بشرقي الجزائر الحالية، وتنقل في مناطق كثيرة في المشرق: في الشام والحجاز ومصر. من تلامذته الشيخ أحمد زروق، والإمام محمد المغيلي. له أكثر من تسعين مؤلفا في التفسير والحديث، والفقه واللغة والتاريخ والأدب.

(٢) يوافق أواخر العام الميلادي (١٤٩٦) في شهر أكتوبر أو نوفمبر.

والمبتلَى بالتَّأليفِ أنا محمود كَعْتِ،[(١)] ومِنْ أُمَرَاءِ النَّوَاحِي ابنُهُ أسْكِيَ موسى، وهُدِ كُرْ كُيْ علي فُلَنِ وغيرهم،[(٢)] ومن العَبِيدِ الخُدَّام ثمانمائة عَبْدٍ، وَرَئِيسُهُمْ فَرَج مَيْنُنْ.

وحَجَّ البَيْتَ في ذَلكَ العَام، وتَصَدَّقَ على فُقَرَاء الحرَمَيْن بمائة ألف دينارٍ ذَهبًا، واشْتَرَى بمثْلِهَا جِنَانًا وبُيُوتًا وحبَسَهَا على الفُقَرَاء والعُلَمَاء والمسَاكِين، ثُمَّ طلَبَ مِنْ أمير مَكَّة مولاي العَبَّاس أن يُعْطِيَهُ واحدًا من الشُّرفاء إمَّا أَخَاهُ أو ابنَهُ؛ ليَتَبرَّكوا به، وهذا بعد ما أمَّرَهُ مولاي العَبَّاس على أرض التَّكرُور وبَيَّنَ أنَّهُ واحدٌ من الخُلفَاء الاثني عَشَرَ. وقال له مولاي العَبَّاس:

[ص١٧]

فَسَأُعطيكَ إنْ شاءَ الله مَنْ هُوَ كَأَنَا، ولكنْ لا يمكنُ ذلكَ الآن.

ثُمَّ أمَرَ مولاي العَبَّاس ابنَ أخِيهِ مولاي الصِّقْلِي أن ينزلَ إليه؛ فَنَزَلَ إليه، فنزل

---

(١) تقدَّم في المقدمة التمهيدية لهذا الكتاب التشكيك في قائمة الفقهاء السبعة الذين قيل إنهم صحبوا أسكيا الحاج في رحلته الحجيَّة. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الموضع يكاد يتعارض مع الخبر الوارد (في ص٥١)، من اعتداء صن علي على بعض أولاد مور هوكار، ويدل السياق هناك على أنَّ «الأولاد» لا تعني الأولاد المباشرين، وإنما الأسباط، أي أولاد الأولاد، فإذا كان أسباط مور هوكار معاصرين لصن علي، فكيف يمكن أن يكون الفقيه مور هوكار نفسه معاصرًا لأسكيا الحاج محمد؟

(٢) هُد كُر كُيْ (أو هُك كُرَيْ كيْ)، وتعني بلغة صونغاي: أمير أو رئيس خدَم القصر. (هُكْ= البيت، وكُرَي= الخدَم، وكُي= الرئيس)، والظاهر أنه كان من قبائل الفولاني. كما في نسبته بعلي فُلَن. وقد كان هذا الخادم خير معين لسيِّده أسكيا، وفيًّا له طول حياته، وله في ثنايا هذا الكتاب مواقف فريدة. هرب علي فُلَنِ في آخر حياته إلى تندرم عند أخي أسكيا كورمينا فاري يحيى (عام٩٣٤هـ) بعد أن هدَّده موسى بن أسكيا محمد. وهرب مرَّة أخرى إلى كانو إثر غارة موسى على تندرم، وعزم على الحجِّ والمجاورة، لكنَّ المنيَّة وافته بكانو.

في العام الخامس وعشْرين بعد تسعُمائة.[1] وَوَافَقَ قُدُومُهُ إلينا حالَ بِدَايَةِ التَّأْلِيفِ وَوُصُول القَلَم إلى هنا. فقدَّمْنَا ذِكْرَ مَنَاقِبِهِ على مَنَاقِبِ غيره.

ومما بلغنا منها أَنَّهُ لما قرُبَ ودَنَا إلى تُنْبُكْتُ نحو يومٍ، رأى الشَّيْخُ الإمامُ القَاضِي محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقيت في مَنَامِهِ النَّبيَّ ﷺ في تِلْكَ اللَّيْلَة، وكانت ليلة الأحدِ عَاشِر ذي الحجَّة الحرام، وبَعِيرُهُ جاثٍ؛ فأقْبلَ الشَّيْخُ الإمامُ إليه، فَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَتَحَدَّثَا في أشياء، ثُمَّ قال له النَّبيُّ ﷺ: اعلَمْ يا محمود أَنَّهُ يَقْدُمُ إليكُمْ اليَوْمَ حَفِيدِي في أثوابٍ خُضْرٍ على ناقةٍ سَوْدَاء، في عَيْنه اليُسْرى قَرْحٌ، وهو الَّذِي يُصَلِّي بكُمْ هذا العيد، فإذَا أتَاكُمْ؛ فأنْزِلُوهُ بموْضِعٍ يَقْرُبُ إلى الماء والمقَابِرِ وإلى المسجِدِ الجَامِعِ وإلى السُّوق، ثُمَّ نَبَحَ كَلْبٌ؛ فَوَثَّبَ بعيرُ النَّبيِّ ﷺ للقِيَام، فقَطَعَ كلامَهُ وركبَ بَعيرَهُ وسار، ثُمَّ انتبه الشَّيْخُ وتوضَّأ وجَلَسَ قليلاً. فانْفَلَقَ الفَجْرُ، وكان ذلك اليومُ يومَ العيد؛ فأقْبَلَ إلى مَجْثَى البَعيرِ، فَوَجَدَ آثارَهُ في الأرض؛ فَدَوَّرَ ذلك الموضِعَ بهرَاوَته، ثُمَّ خرج إلى المسجد، فَلَمَّا صلُّوا الفجْرَ وطلَعَتِ الشَّمْسُ، وخَرَجُوا إلى صَلاة العِيدِ أمَرَ الشَّيْخُ محمود المؤذِّنَ إبراهيم بن عبد الرَّحْمَن بن السُّيُوطي، وألفا صالح بن مُحَمَّد، وألْفَا مُحَمَّد بن المُدَان أن ينْظُرُوا له الطَّريقَ، وهلْ يأتي أحدٌ من قِبَلِ المشْرِقِ؛ فَنَظَرُوا فَلَمْ يَرَوْا شيئًا، ثُمَّ أمَرَهُم ثانيًا وثالثًا، فقالوا لم نَرَ شيئًا. فتَعَجَّبَ وقال: الله أكبر! وجلَسَ قليلاً، ثُمَّ

---

(١) بين وفاة مولاي يعقوب كما يدَّعي الخبر (عام٨٥٠هـ)، وبين وصول الصقلي إلى تمبكتو خمسة وسبعون عامًا. فمتى كانت قصة إخبار والدهم لهم؟ وكم كانت سنُّ الصقلي آنذاك؟ وكم كان عمره يوم وصل تمبكتو؟ فإذا افترضنا أن والده قد توفي وهو -أي الصقلي- في سن العاشرة فقط، فإنَّ سنَّه يوم وصل تمبكتو كانت خمسا وثمانين عامًا، وليس من المألوف في مثل هذه السِّن أن يقصد شخصٌ بلادًا نائية للسُّكنى بها وإخلاف ذريَّة بها، ثُمَّ إن بين طلب أسكيا وبين أمر مولاي الشريف ابن أخيه الصقلي بالسفر إلى تمبكتو ثلاث وعشرون سنة، وهذا لا يكاد يكون معقولاً.

قال لهمْ: انظُرُوا فإنِّي أظُنُّ أنَّ هذه الرُّؤيَا لا تَكذِبُ؛ فاطَّلَعُوا فوق الرُّبى، ونظَرُوا إلى بُعدٍ، فقالُوا: قدْ رأيْنَا شيئًا يُشبِهُ طَيْرًا، فقال لهم: امْهلُوا قَليلاً ثم انْظُروهُ؛ فَفَعَلُوا. فإذا هو امرُؤٌ لابسٌ ثوبًا أخضر على ناقةٍ سَوْدَاء؛ فقال لهم الشَّيْخُ هذه بُغْيَتي! ثُمَّ قصَّ لهم ما رأى

[ص١٨]

في البَارِحَة.

فَلَمَّا وصلَ إليهم الشَّرِيفُ أحمد الصِّقْلِي وجدُوهُ كما وَصَفَهُ جَدُّهُ رَسُول اللهِ ﷺ. فأكْرَمُوهُ وحمَلُوهُ على عُنُقِهِمْ إلى مَوْضِعٍ يُقالُ له بِسُوكِرْ، وأنْزَلُوهُ هُنالِكَ، ثُمَّ قدَّمُوهُ إلى المصَلَّى، فصَلَّى بهم العِيد.

ثُمَّ لما رَجَعَ الشَّيْخُ منَ المصلَّى، نظر الموضعَ الَّذِي دَوَّرَهُ بالهِرَاوَة، وَوَجَدَهُ كما عَهِدَ من آثار جُثَّةِ البَعِير ودَوَرَانِ الهرَاوَة؛ فأمَرَ تلامِذَتَهُ بِبنَائِهِ وسَمَّاهُ كُلُصُخُ.[1] واتَّخَذَهُ أهلُ تُنْبُكْتُ موْضِعًا يمدَحُونَ فيه النَّبِيَّ ﷺ في الأيَّامِ العِظَامِ، ويَدْرُسُونَ فيه الأحاديثَ.[2] ثُمَّ أمَرَ الشَّيْخُ بقَتْل جميع كلابِ تُنْبُكْتُ لهذه الرُّؤْيَا، وأمَرَ أميرَ تُنْبُكْتُ بأنْ يُرْسِلَ إلى الإمامِ العَادِلِ والخليفَةِ الصَّالِح يُبَيِّنُ لهُ مجيء مَطْلَبِه؛ فَقَدِمَ الإمامُ إليه مِنْ كَاغُ وأتاه بمائة ألف دينارٍ وخَمْسِمائة خادِمٍ ومائة إبلٍ ضِيَافَةً له، ثُمَّ

(١) أي: موضع العلامة، بلغة صونغاي.

(٢) تعدُّ المدائح النَّبويَّة جزءًا أساسًا في الحياة الرُّوحيَّة ببلاد السُّودان، وكما نصَّ عليه المؤلِّف، فإنَّ المدائح كانت تُنشدُ في الأفراح والأتراح؛ للتَّبرُّك بها، ولدفع المضرَّات، واشتُهر عددٌ من العلماء بإنشاد المدائح النَّبوية كالشيخ الفقيه محمد بن الفقيه سيدي بن العلامة سيدي أحمد بابا التمبكتي، وألفع طاغ بن ألفع علي بن الفقيه الإمام محد (ت١١٤٧هـ). ويظهر خطر المدائح النَّبويَّة، ومكانة الحضرة النَّبويَّة في موضع آخر من هذا الكتاب في إهدار القاضي العاقب دم المؤذِّن الَّذِي أخطأ فصحَّف كلمة (وَبْل) إلى (وَيْل) وصفًا للنَّبي ﷺ، ومنعته كبرياؤه من الاعتراف بخطئه؛ فكان في ذلك سبب قتله. ينظر، [ص١٢٤].

ناوَلَهُ الشَّرِيفُ الحسني بَرَاءَةَ مولاي العَبَّاس وفيها بعد ذِكْر أشْيَاء كانَتْ بين مولايَ العَبَّاس وبين الخليفة أسْكِيَا: «واعْلَمْ يا أخي أنَّ أهلَ بيتنا ليس عَلَيْهِمْ شيءٌ منْ كُلَفِ السَّلْطَنَة، وقد أرسلتُ إليكَ ابنَ أخي هو كَنَفْسِي، فإنْ كنتَ تَسْتَطيعُ أن تُسْقِطَ تِلْكَ الكُلَف عنه وَعَنْ أهْلِه؛ فَلْيُقِمْ عندَكَ، وإلاَّ فاتْرُكْهُ يَرْجع».

فقال الإمامُ بعد قِرَاءَة البراءَةِ: فقد جَعَلْنَا ما هو أصْعَبُ منْ هذا لمن هو دُونَكَ، فكيف لا نَفْعَلُهُ لَكَ؟ ثُمَّ أمرَ كاتِبَهُ عليّ بن عبد الله أن يَكْتُبَ له وثيقةً في ذلك مُعْلِمًا كلَّ واقفٍ عليه من الوُلاة والقُضَاةِ والسَّاداتِ أنْ لا يَتَعَرَّضُوا له، ولا لرَهْطِه الذينَ جاءوا معه ولأزْوَاجِهِمْ وذُرِيَّاتهِمْ، في شيءٍ من أمُورِ السَّلْطَنَة ولو ضِيَافَةً، ولهم شَفَاعَةٌ في كلِّ شيءٍ إلاَّ النَّفسُ التي حرَّمَ الله، وإنْ كان ما شَفَعُوا فيه جِنَايَةً؛ فَعَلَيْنا وعلى نُوَّابِنَا أرْشُهَا،[1] أو في مال فعلينا ضَمانُه، وكلُّ مَنْ خالفَ هذا الأمرَ فلا يَلُومَنَّ إلاَّ نفْسَهُ. وقال للحاضِرين حوله لِيُبَلِّغَ الشَّاهدُ منكم الغَائبَ.

ثُمَّ سأله الإمام عن نَسَبِ الشَّرِيف؛ فأمر خادمًا كان حَوْلَه أن يأتي بكِتَابٍ له فذهب [ص١٩]

فأتى بالكتاب، فتَنَاوَلَهُ منه فَفَتَحهُ فأخرجَ منه رُقْعَةً فَدَفَعَها إلى الإمام، فَدَفَعَهَا الإمامُ إلى عليٍّ المذكور، فَقَرَأَهَا، فإذا فيها:

«أنا أحمد بن عبد الرَّحْمَن بن إدريس بن أبي يعزي بن حسن بن إبراهيم بن عبد الله بن عيسى بن إبراهيم بن عبد الرَّحْمَن عُرِفَ بزَيْن العابدين بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأُمُّه فاطمة بنت رَسُول اللهِ ﷺ».[2]

---

(١) أرْش: (ج: أُروش): دية الجراحات وما يُستردُّ من ثمن المبيع إذا ظهر فيه عيب.

(٢) من الصَّعب قبول هذه السِّلسلة؛ لغرابتها. أمرٌ آخر أنَّ عدد الأفراد في هذه السِّلسلة الشَّجريَّة لنسب الصِّقليِّ، يصعُب الأخذ به دون القول بسقوط أسماء من السِّلسلة؛ لأنَّ عدد أحد عشر من الأجيال غير كافٍ لتغطية شريط زمنيٍّ طوله ألف عام إلاَّ خمسون، أي ما بين الصقلي وبين زين العابدين بن الحسن (رضي الله عنه).

ثُمَّ سأله الإمام أيضًا عن حال ظَعْنِهِ ورِحْلَتِهِ من بَلَدِهِ بَغْدَاذ وكيفيَّةِ حَالِهِ في الطَّرِيقِ ووُصُولِهِ إلى تُنْبُكْتُ؛ فقال: اعلمْ أنَّ أمْرِي عَجِيبٌ، وذلك أنِّي كنتُ ذاتَ يوم أنا وإخْوَانِي...[1] مولاي يعقوب بن موسى بن فضل بن مولاي الرَّشيد بن مُحَمَّد المنوفي بن أبي يعزي بن مُحَمَّد بن عبد الوهَّاب بن عبد القَادِرِ الحيلي بن موسى بن عبَّاس بن أحمد بن عليٍّ بن زين العَابِدِينَ مَوْلاَيَ جِيدَان، ومَوْلاَيَ أبو فارس، ومولاي إسماعيل جالسِينَ عِنْدَ أبينا الشَّيْخ عبد الرَّحْمَن، وهو ينظُرُ إلى وُجُوهنَا، ثُمَّ قال لمولاي جِيدَان: إنَّ الله يُرسِلُكَ إلى مدينة مكَّة أن تكونَ إمَامَها وحفَائدُك هُنَاك، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى أبي فارس وقال له: يا أبا فارسٍ! إنَّ الله يُرْسلُكَ إلى مدينة مُرَّاكُش ويُقَوِّيكَ عَلَيْهِمْ، ورُبَّما تَكُونُ حفَائدُك سُلْطَانهُمْ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إلى إسماعيل وقال له: يا إسماعيل إنَّ الله يُعطِيكَ العِلْمَ والحكْمَةَ والدَّوْلَةَ والهيْبَةَ، ولكنَّ مَسْكنَك مدينة فاس، وتكُونُ

[ص٢٠]

قاضِيها وأسْبَاطُكَ هُنَاكَ، ثُمَّ الْتَفَتَ إليَّ مولاي أحمد - عُرِفَ بالصِّقل بِنْعَال - ووَضعَ يدَه الكريمة على رأسي وبَكى بُكاءً شديدًا وخرَّ مغشيًّا، حتَّى ظننَّا أنَّهُ يموتُ، فَلَمَّا أفاق استَغْفَرَ ربَّهُ، ثُمَّ قال لي: يا مَوْلاَيَ أحمد سيُصِيبُك بَعْدِي هَمٌّ وكَرْبٌ، وتَقَعُ في شِدَّةٍ ظُلمًا، حتَّى تخافَ على نفسِكَ منَ الهلاك، ثُمَّ يُنْجيك الله من ذلك، ثُمَّ يأمُرُك الله بالنُّزول إلى أرضِ السُّودَان، وتكونُ أوتادَهُمْ من أرضه، ويَنْقَسِمُ أبناؤُك ثلاثة أقسامٍ، ويرجعُ فِرْقَتَان إلى بَغْدَاذ، وتبقى فرقةٌ بأرض السُّودَان، وربما تكونُ حفائدُ الفِرْقَتَيْن أقوياء في بَغْدَاذ، وحفائدُ الفِرْقة البَاقية هم أوتادُ أرض السُّودَان، ويكثُرُ فيهم الأوليَاءُ. وهذا الَّذِي ذكرتُ لكم قد ذكرهُ لي

---

(١) هنا كلمة ساقطة، ويبدو أنها (الكبار).

جدُّكُم سيِّدُ المرسَلِين ﷺ في المَنامِ قبل أنْ نتَزَوَّج أمَّكم الكريمة لَلُ زُهُر باثنَيْ عَشَرَ عامًا، ثُمَّ بعد ذلك تُوفي الشَّيْخُ ﷺ في عام مُكمل ثمانمائة وخمسين في آخر ذي الحجَّة الحرام ليلةَ الاثنين بين المغرب والعشاء، ودفنَّاهُ ليلتئذٍ ورَاء مَسْجِدِ بَغْدَاذ تحتَ شَجَرَة طِيشَة.[1]

وكان الأمرُ بعد موته كما ذكر؛ فتَوَجَّه إخواني كلُّهم إلى المواضِعِ التي أشَارَ لهم، وبقيتُ أنا ببَغْدَاذ. فَخَرَجْتُ منها ذات يوم أقصدُ طائفَ، فأصابني العَطَشُ، ولم أجد ماءً إلى أن غَربت الشَّمْسُ وظَلُمَ اللَّيلُ وغمَّ السَّماء، وضَلِلْتُ عن الطَّريقِ حتَّى أيْقَنْتُ بالهلاك؛ فأوَيْتُ إلى شجرةٍ هنديَّةٍ، وقد بَلَغَني مِنَ التَّعب والعَطَشِ والجوع هَمٌّ عظيمٌ، فَبِتُّ هناك إلى أن أصبحَ الله بخيرِ الصَّباح.

فَلَمَّا صلَّيتُ الصُّبح الْتَفَتُّ إلى جانبي،

[ص٢١]

فإذا برجلٍ مُلَطَّخٍ في دم، وفي تحت إبْطَهِ حَرِيش؛ فَنَهَضْتُ قائمًا بالتَّعوُّذ وذهبتُ إليه أنظرُ حاله، فَوَجَدتُهُ في حال الرَّمَق، ثُمَّ نظرتُ إلى بُعْدٍ؛ فإذا بِسَبْعَةِ رجَالٍ يُسْرِعُون وبأيديهم المدافعُ. فَلَمَّا قربوا إليَّ قالوا: والله ما يُنْجِيك هذا اليوم شيءٌ. وقابلوا إليَّ بالمدافع وضَرَبُوهَا عليَّ وأخطأوا كلُّهم؛ فهربتُ وتبِعَني منهُم ثلاثةٌ حتَّى دَخَلْتُ مدينة فاس، وقصدتُ دارَ عليِّ بن نَانْ، وجاء الثَّلاثةُ ووقفوا باب الدَّار، وطلبُوا أن يخرجني عليٌّ، فأبى وقال: والله ما نُخْرِجُ حفِيدَ رَسُول اللهِ ﷺ لتقتُلُوهُ ظلمًا. وطلب أن يُعْطِيَهُم الدِّية، فأبَوا. وكان له ابنٌ واحدٌ ذكر اسمه عبد الله فناداه: يا عبد الله. فجاء الابنُ، فَلَمَّا رأوا الابنَ قال لهم عليٌّ: هل هذا يماثلُ طَريدَكم؟ قالوا: نعم. قال: خُذُوه وافعلُوا به ما شِئْتُم. واترُكُوا حفيدَ النَّبي ﷺ،

---

(١) اسم محلي لشجرة قيل تُدعى باللغة الفولانيَّة «نَيّ».

فقتلُوه ساعَتئذٍ، وكرُّوا راجعين، ثُمَّ مَنَّ الله تعالى على عليٍّ المذكور بِعَشْرِ بنين في تِلْكَ السَّنة، وشَبُّوا كلُّهم، وأنا عند عليٍّ، ونكَحُوا ووَلَدَ كلُّ واحدٍ منهم عشر بنين، وشَبُّوا أيضًا وعليٌّ حيٌّ وأنا عندَهُ.

فركِبَ عليٌّ وأولادُهُ وحفائدُه، فصارُوا مائةً وأحدَ عَشَرَ فارسًا قاصدين إلى حجِّ بَيْت اللهِ الحَرَام، وأنا معهم. فَلَمَّا حجَجْنَا وزُرْنا وقَضَيْنَا مناسِكَ الحجِّ قال عليٌّ المذكور: يا أهلَ الحرَمَيْن، إنَّ الله تَبَارَكَ وتَعَالى أكرَمَنِي بشيءٍ لم يُكْرِمْ أحدًا بمثلها في زمننا، ثُمَّ قصَّ عَلَيْهِمْ القِصَّة الماضية، وانطلقَ راجعًا مع أولادِهِ وحَفَائِدِه، وبَقِيتُ بمكَّةَ عَامَيْنِ، ثُمَّ أمرني مولاي العَبَّاس بأن أَنْزِلَ إلى أرض التَّكرُور، وأخبر بأنَّ هناك خليفةٌ من خُلَفَاء جدِّنا رَسُول اللهِ ﷺ وأكونَ عِنْدَهُ. وخرَجْتُ إلى مدينة بَغْدَاذ مُتهيِّأ، فَنِمْتُ فيها ذاتَ ليلةٍ، وكانت ليلةَ الجمْعَةِ، فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ

[ص٢٢]

ومعْهُ أبو بكر وعمر عند رأسي وقال: يا مولاي أحمد اخرُجْ إلى مدينة تُنْبُكْتُ وهو موضعُ مَسْكنِكَ وأنتَ أوتادُ أَرْضِهِ.

فخرجتُ في غَدِهِ من بَغْدَاذ وإمامُها يَوْمَئِذٍ عبد الله بن يوسف وقَاضِيَهَا عبد الرَّحْمَن بن عيسى، وجئتُ طائف فَوَجدتُ عبد البرِّ بن وهب إمامَهَا ومالك بن عوفٍ قاضِيَهَا، ثُمَّ ارْتَحَلتُ منها فزَوَّدُوني بألف دينارٍ، فجئتُ مصر فَوَجَدْتُ محمود بن سحنون إمَامَهَا، وعبد العزيز قاضِيَهَا، ثُمَّ ارْتَحَلتُ منها فزَوَّدُونِي بألف دينارٍ، فجئتُ الإسْكَنْدَريَّة فوجدتُ مُحَمَّد بن يوشع إمَامَهَا وعبد القادر بن سفيان قاضِيَهَا، ثُمَّ ارْتَحَلت منها وزَوَّدُونِي بألف دينارٍ، فجئتُ مِصْرَاطَ وَوَجَدْتُ أحمد بن عبد الملك إمامَهَا وعليّ بن عبد الله قاضيها، ثُمَّ ارْتَحَلت منها وزَوَّدُونِي بألف دينارٍ، فجئتُ بِنْغَازِي ووجدتُ أبا بكر بن عمر اليماني إمَامَهَا وعمر بن إبراهيم قاضِيَهَا.

ثُمَّ ارْتَحَلت فزَوَّدُونِي بألف دينارٍ فجئتُ طرابلس وَوَجَدْتُ داوود بن ناخورا إمامها وعبد القهَّار بن الفيزان قاضيها، ثُمَّ ارْتَحَلتُ وزَوَّدُوني بألْفِ دينارٍ وخَمْسمائة دينارٍ، فجئتُ غَدَامِسَ ووجَدْتُ ابن عباس بن عبد الحميد إمامَهَا وأحمد الغدامسي بن عثمان قاضِيَهَا، ثُمَّ ارْتَحَلتُ فزَوَّدُونِي بألف وسبعمائة دينارٍ، فجئتُ فرجان فوجدتُ مُحَمَّد الهادي بن يعقوب إمامها وموسى بن سَنُوسِي قاضيها، ثُمَّ ارْتَحَلتُ وزَوَّدُونِي بألف دينارٍ، فجئتُ تونس فوجدتُ يحيى بن عبد الرَّؤوف إمَامَهَا ونوح القرشي

[ص٢٣]

قاضيها، ثُمَّ ارْتَحَلتُ فزَوَّدُونِي بألفِ وثلاثمائة دِينَارٍ، فَجئتُ سُوسَة وَوَجَدْتُ عبد الحقِّ بن الحر إمامها، وعبد الكريم بن عبد الحفيظ قاضِيَهَا، ثُمَّ ارْتَحَلت وزَوَّدُونِي بألفٍ ومائة دينار، فجئتُ فاس ووجدتُ مُحَمَّد بن سنوسي إمَامَهَا والقَاضِي عياض بن موسى قاضيها.(١)

(١) القاضي عياض: هو أبو الفضل العلامة المحدِّث، والفقيه المؤرخ المُرَّاكُشي (٤٧٦-٥٤٤هـ/ ١١٤٩م). ومن أشهر كتبه المتداولة في بلاد السودان، كتابه: «الشفا في معرفة حقوق المصطفى» ويأتي من حيث الأهميَّة بعد القرآن الكريم، وصحيح البخاري، وكان يُقرأ بنصه في مساجد تمبكتو وجيني وغاوْ، وغيرها من المحاضر العلمية ببلاد السُّودان الغربي، ويُتبرَّك بقراءتها. وبعد، فإنَّ هذا الخبر عن سفر الصقليِّ، من الواضح أنَّه خبرٌ أقحم على الكتاب وعلى حياة الصِّقلي؛ لإضفاء صبغة عجائبيَّة على القصَّة، فكثيرٌ من الأسماء المذكورة، وإن لم يتأتَّ لنا الجزم بعدم وجودها تاريخًا، فإنَّ القاضي عياض المذكور - كما هو واضحٌ في تاريخ وفاته - قد عاش من الرُّبع الأخير من القرن الخامس إلى منتصف القرن السَّادس تقريبًا، وقد تقدَّم في [ص١٨] أنَّ الصقلي قدم إلى تمبكتو عام (٩٢٥هـ/ ١٥١٩م)، وبهذه الفجوة الزَّمنية الواسعة بين الصِّقليِّ وبين القاضي عياض يظهر عدم صحَّة تفاصيل هذه الرِّحلة العجيبة المنسوبة إلى الصِّقلي.

ثُمَّ ارْتَحَلتُ فزَوَّدُونِي بألف ومائتيْ دينَارْ، فَجِئتُ مكناسة ووجدتُ مُحَمَّد بن يعقوب إمامها والقَاضِي ابن عبد العزيز قاضيها، ثُمَّ ارْتَحَلت وزَوَّدُونِي بألف دينارٍ، فجئتُ تَنْدُوف فوجَدْتُ قصي بن سليمان إمامَهَا والطَّاهر البَكَّاي قاضيها، ثُمَّ ارْتَحَلتُ وزَوَّدُونِي بألف دينارٍ، فجئتُ يَرْوَنَ فوجدْتُ عليَّ بن حميد إمامها وعبد الوهَّاب بن عبد الله قاضيها، ثُمَّ ارْتَحَلتُ وزَوَّدُونِي بألف وخَمْسمائة دينار، وقصدتُ تُنْبُكْتُ.

فأقام الشَّرِيف الحسني أحمد الصِّقْلِي بتُنْبُكْتُ، ونكَحَ هناك امرأةً أعرابيَّة من أهل تافلالت اسمها زينب، فولدَتْ له مُزَاوِر ومحمَّد وسليمان ورقيَّة وزينب، ثُمَّ إنَّ الإمام أسْكِيَا الحاج مُحَمَّد - أطال الله حياتَهُ وأسكَنَنَا وإيَّاهُ جَنَّتَهُ- لما لم يجد صبرًا على مُفَارَقَتِهِ قدِمَ إليه بنفسه، فأزْعَجَهُ إلى كاغ، فأنْزَلَهُ في دائرَةِ بَيْتِه، وأضَافَهُ بألفٍ وسبعمائة زنجيٍّ، منهم بلد كِوَيْ (بكافٍ ووَاوٍ ممالتَيْن فياءٍ مَسْكُونَة)، وزنجيٍّ كُيْنُ (بكافٍ مَضْمُومَةٍ ضمة إشْمَامٍ فياء مسكونة ونون مَضْمُومة) اسم بَلَدٍ بين تُنْبُكْتُ ودَنْدِ،[1] وإنَّ كِوَيْ كان بين البحرَيْنِ من ناحية بَمْب، نقلتُه من فمِ موسى، وزنجيٍّ كَرْبَا وكان أبوهم وَعْكُرُيْ الأصل ولذلك يُقالُ لهم تُنْكَرَ، وزنجيٍّ أُنْكُنْدُ (بهمزة مَضْمُومة فَنُونٍ مدغمة وكافٍ مَضْمُومة إشمامًا ونون ساكِنَة ودال مَضْمُومة)، وزنجيٍّ كَكُنْكُ هي عَرِيشَةٌ في أرض مَاسِنَة، وزنجيٍّ جَزِيرَة بِرِ كُنْكُ (بباء وراء ممالتين فكافَيْن مَضْمُومتين إشمامًا بَيْنَهُما نون

[ص]

مَسْكُونَة مُدْغَمَة، وزنجيٍّ جزيرة طَيْطَوَن (بطاء ممالة فياء ساكِنَة وطاء مَفْتُوحة

(١) دِند: يعني بالصونغاي (الجنوب)، أو مجرى النَّهر، وتوجد الآن بشمالي جمهورية بنين منطقة باسم دنْدي، وهي المنطقة التي كانت تمثل جنوبي إمبراطورية صونغاي.

وواو مَفْتُوحة ونون ساكنة)، وزنجيٍّ جزيرة كُنْكُكُرِ (بكَافَين أيضًا بَيْنهُما نونٌ كالمتقدِّمَة فكافٍ مَضْمُومة ممالة وراءٍ مَكْسُورة ممالة).

تذييلٌ: قال القَاضِي محمود كَعْتِ: وفي سابع قُدُوم الشَّرِيف الحسني أحمد الصِّقْلِي- عرف بالصِّقْل بنعال - وذلك يوم الاثنين،(١) جاء إليه الأميرُ العادلُ أسْكِيَ للمُؤانَسَة والمُفَاكَهَة، وجلسا لذلك إلى أن ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ، فقال الأمير للشَّريفِ: يا سيِّدي هل يمكنُ للإنسان أن يرى الجانَّ ويكلِّمَهُ بغير دُخُول خَلْوَةٍ بالذِّكر والصَّلاة ونحو ذلك؟ فقال له الشَّرِيفُ: يمكن ذلك ولو تخلَّيْنا الآن لأرَيْتُ ذلك.

فأمرَ الأمير الحاضرين بأنْ يَذْهَبُوا؛ فذهبوا كلُّهم. وبقيَ الأميرُ والشَّرِيفُ جالسَيْن مدَّة طويلة. قال الأميرُ: فرأيتُ كأنما الأرضُ كلُّها صارَتْ ماءً، وكأنَّ النُّجومَ تخرجُ مِنْ ذلك الماء فتصْعَدُ إلى السَّماء، وكأنَّ الطُّيُورَ تأتي حولي فَتَذْبَحُ أنْفُسَهَا، ثُمَّ رأيتُ سَبْعَة رجالٍ يحمِلُونَ كرسيًّا أخضَرَ حتَّى وَضَعُوهَا بيننا فَجَلَسْنا قليلاً، فإذا برجَالٍ كثيرين في أيْدِي بعضهم الكُتُب وفي أيدي بعضِهِمْ الألواح، وبينهم شيخٌ مُتَوَكِّئًا على هِرَاوَةٍ، لم أدرِ من حيثُ أتَوْا، فجلسُوا مُحَدِّقِينَ بنا. وتقدَّمَ الشَّيْخُ إلى الكُرْسيِّ فَجلس عليه.

ثُمَّ قال لي الشَّرِيفُ: هذا كبير تلامذة الشَّيْخ شَمْهَرُوش، وهو من أولاد ميمون حجَّ مع شيخه عشر حَجَّةً. فقلتُ بعدَمَا سلَّم علينا: ما اسمه؟ فقال: دمير بن يعقوب. فتحَّيْنا تَحِيَّة مُتَعَارِفَيْنِ، ثُمَّ قال لي الشَّرِيف: كلُّ ما كنتَ تريدُ أن تسأل الشَّيْخ شَمْهَرُوش عنه لو كنتَ رأَيْتَهُ فاسأل هذا عن ذلك، فَإنَّهُ عَلِمَ جميعَ عِلْمِ

---

(١) ذكر في [ص١٧] أن وصول الشريف الصقلي إلى تمبكتو كان يوم العيد، وهو إمَّا يوم الأحد أو يوم الاثنين، وعلى كلِّ حالٍ، فإنَّ اليوم السابع لقدومه لا يوافق يوم الاثنين.

شَمْهَرُوش؛[1] فقلتُ: إني أحبُّ أن أعرفَ أصل سُغُيْ وأصل وَعْكُرُيْ؛ فقال دمير بن يعقوب: يا أمير المُؤمِنِينَ وخليفةَ المسلمين، إنِّي سمعتُ من شَيْخِي شَمْهَرُوش (رضِيَ اللهُ عَنهُ وأرْضَاهُ) أنَّ جَدَّ سُغُيْ وجدَّ وَعْكُرُيْ، وجدَّ وَنْكَرَ كانوا إخوانًا

[ص٢٥]

شقائق، وأبُوهم كان مَلِكًا مِنْ مُلُوك اليَمَن اسمه تَرَاسَ بن هارون. فَلَمَّا مات أبوهم تَوَلَّى على المملكة أخوه يَسْرِف بن هارون؛ فضيَّق على أبناء أخيه أشدَّ التَّضييق، فتَهَاجَر الأبنَاءُ مِن اليمَنِ إلى ساحل البَحْر المحيط، ومعهُمْ زَوْجَاتُهُمْ. ووجدوا هُنالِكَ عفريتًا من الجِنِّ، فسألُوهُ عن اسمه. فقال: رَوْرَ بن سَارَ. فقالوا: وما جاء بكَ في هذا المكان؟ فقال تُكُ. قالوا وما اسمُ هذا المحل؟ فقال: لا أعلم. فقالوا: يحقُّ لهذا المكان أن يُقالُ له تكرور. وقالوا: وما خِفْتَ منه؟ فقال: سليمان بن داوود. وكان عفريت تارَةً يطيرُ في الهوى، وتارَةً يَصْعَدُ إلى الجبَال، وتارَةً يَغْمُز في الماء، وتارَةً يخرِقُ الأرضَ ويدْخُلُ فيه.

وكان اسم كُبير الرِّجال المذكورين وَعْكُرُيْ بن بَرَاسَ، واسمُ زوجته آمنة بنت بَخْتِ، وهو جدُّ قبيلة وَعْكُرُيْ، (بواو مَفْتُوحة وعين ساكِنَة وكاف وراءٍ مضْمُومَة ممالتين فياء ساكنة)، واسم ثاني الرِّجَال سُغُيْ بن بَرَاسَ، واسمُ زوجَتِهِ سارة بنت

---

(١) سيأتي [في ص٦٦] أن الشَّيخين: ألْفَا صَالِح جَوَرَ، وألفا محمد تُل قد لقيا شمهروس بالصَّحراء بطريق الحج مع أسكيا الحاج محمد، وأن شمهروس قد تنبَّأ بموته هو في فترة وجيرة بعد اكتمال القرن التَّاسع الهجري، وإذا كان وصول الشَّريف الصقلي إلى تمبكتو في العام (٩٢٥هـ)، ففي ذلك إشارةٌ ضمنيَّة إلى أنَّ القصَّة الحالية مع تلميذ شمهروس قد وقعت بعد موته بعدَّة سنوات. هذا جريًا مع ظاهر القصة، وإلاَّ فالرواية في حقيقتها من الأساطير.

وهب، وهو جدُّ قبيلة سُغُيْ، (بسين وغين مَضْمُومَتَيْن ممالَتَيْن بَعْدَهُمَا ياءٌ ساكنة).[1] وثالث الرِّجَالِ اسمه وَنْكَرَ، وهو أصغَرُهُم، وليس له زَوْجَة، وإنما كان لهم أَمَتَان: اسم أحدهما سُكُرَى واسمُ الأخرى كُسُرَى. فاتَّخَذَ وَنْكَرَ كُسُرَى سَرِيَّةً له، وكان جدَّ قبيلةِ وَنْكَرَ، (بواو مَفْتُوحة ونونٍ مدغمة وكافٍ مَفْتُوحة فَرَاءٍ مَفْتُوحة). وكان لهم عبدٌ يُسَمَّى بمِيْنَكَ، فزَوَّجُوه بأَمَتِهم كُسُرَى وهو جدُّ قبيلة مِيْنَكَ، (بميمٍ مكسورة ممالة فبَاءٍ مدغمة

[ص٢٦]

ونون مدغمة وكاف مَفْتُوحة). وإلى آبائهم نُسِبُوا.

---

(١) قبائل سُغُي: تُطلق صونغاي على مجموعاتٍ إثنيَّة منحدرة من أصول مختلفة، قاطنة على ضفاف نهر النيجر في الجزء الجنوبيِّ منه، وهو اسمٌ لم تصرِّح المصادر التَّاريخيَّة عن معنى محدَّد له.(Clifford Edmund, The New Islamic Dynasties, p124) فهل هو اسمٌ لمؤسِّس الدَّولة كما هو الزَّعم هنا؟ أم أنَّه اسمٌ لمدينة قديمة، أم غير ذلك؟ ما معناه بالتَّحديد؟ وقد زاد في غموض معنى هذه الكلمة تأخُّر ظهورها في المصادر التَّاريخيَّة؛ إذ لم تظهر في المصادر العربية إلاَّ في القرن الخامس عشرَ تقريبًا. ولئن استسلم المؤرِّخ جونْ هونْويكْ رائد تاريخ صونغايْ الوسيط لهذا الغموض، وصرَّح بأنَّ المدلول الحقيقيَّ لهذه الكلمة غير معروف، فإنَّ الباحث ديرك لانْج (Dierke Lange)، قد ذهب إلى أنَّها اسمٌ أطلق على الطَّبقة الحاكمة في المملكة، وأنَّ لهذا الاسم مدلولاً قديمًا عميقًا في اللُّغات الإفريقيَّة. فكلمة «سُغُي/ yژsongh» عنده هي عين «زَاغَيْ/ yژzagh»، تجتمعان في الأصل الاشتقاقيِّ «زاغ/ حZagh» .(Dierke Lange, Ancient Kingdoms of West Africa, p254) هذا، وقد ورد استعماله هنا في هذا الكتاب، وعند السعدي للإشارة إلى الشَّعب أو إلى الأسرة الحاكمة آنذاك. تتكوَّن قبائل صونغاي من ثلاث مجموعاتٍ مهنيَّة كبرى، هي: (أ) الفلاحون «دُو» (Do)، وهم «سادة البرِّ» و(ب) الصَّيادون «غُو» (Gow) وهم الذين يزاولوا صيد الحيوانات البريَّة بالنِّبال والشِّباك، والخروج في مواسم الصَّيف في مجموعات منتظمة للصَّيد، و(ج) صيادو البحر «سُورْكو» (Sorko) وهم الذين ارتبطت حياتُهم ونشاطُهم بصيد البحر والملاحة على نهر النيجر.

ثُمَّ تفرَّقُوا في الأرض، وكان كبيرُهُمْ وَعْكُرُيْ سُلْطَانهم. وسمُّوه كَيَمَغَ، ومعنى ذلك في كلامِهِمْ طالَ الإرثُ، يريدون بذلك: أطالَ الله ورَاثَتَنا الملك.[(١)] وقيل غير ذلك، هكذا ذكره الشَّيْخ شَمْهَرُوش.

فقال له الإمام: فجزاكَ الله أحْسَنَ جَزَائِه، فهل أخبركَ الشَّيْخُ بخبر عوج الَّذِي يقول النَّاس إنَّهُ أكبر أهل الدُّنْيا؟ فقال: نعم، قد ذكر لي الشَّيْخُ من أخْبَاره ما لا يمكنُ أن أذْكُرَهُ كلَّهُ لك الآن، ولكنْ سَأذْكُرُ لكَ شيئًا منها إنْ شَاءَ الله. سمعتُ منه ﵁ أنَّ عوج بن نَعْنَاك كان رجلاً جَبَّارًا، وكان أكبرَ أهْلِ الدُّنْيا في زَمَنِهِ وأطْوَلَهُمْ. وكان لا يشْبَعُ، وكان صحرائيًّا،[(٢)] لا يُخَالطُ النَّاسَ إلاَّ أحيانًا. وكان يصطادُ الوُحُوش والحيتان، ويأخُذُ بَعْضَ الطُّيُورِ في طيرانها، ولا يحرثُ ولا يَكسِبُ شيئًا إلاَّ الصَّيد، وإذا قَرُبَ حَصَادُ مَزَارِعِ النَّاس سَبَقَهُمْ عليها فأكَلَهَا واستَأصَلَها، فإذا جاء القَوْمُ ليَطْرُدُوه؛ طرَدَهُمْ، وأخذَ بعضَهُم ورمى به بعضًا فيموتُ المرميُّ به، حتَّى خاف النَّاسُ منه وتركوه.

فَلَمَّا اشتدَّ عَلَيْهِمْ الضَّرَر احتالُوه فَطَرَحُوا من أنفسهم على كُلِّ بيتٍ ثوبًا، فجمعوا تِلْكَ الأثواب فأعْطوه لعوج دَيْنًا إلى شَهْرَيْن. ولما جاء وقتُ الحصَادِ جَعَل[(٣)] على عادته ليَأكل المزارع، فرآه الصِّبْيَان فقالوا: هذا مديانـنا! هذا مديانـنا! اقْضِ لنا دَيْنَنا؛ ففرَّ عنهم وترك لهم مزارِعَهُم.

---

(١) ذكر ابن المختار (في ص٤١)، أن معنى «كَيَمغ»: ملك الذَّهب، وهو أقرب إلى الصِّحة من هذا المعنى المذكور هنا. ينظر هامش الصفحة المذكورة.

(٢) صحرائيًّا: حكم همزة الاسم الممدود في النسب أن تقلب واو؛ فيقال (صحراوي)؛ لأن الألف فيها للتأنيث. لكن ابن المختار أثبت الهمزة خلافًا للقاعدة. فلو كانت الهمزة لغير التأنيث كأن تكون أصليَّة أو مبدلة من أصل؛ لثبتت الهمزة، مثل: قُرَّائي، وكِسائي.

(٣) الظاهر أنَّه: جاء. وفي مواضع عدَّة في هذا الكتاب استخداماتٌ خاصَّة لهذا الفعل في سياقات تبدو بعيدةً عنها، مثل (جعل بمعنى: أرسلَ [ص٤٦].

فَلَمَّا قرُبَ وقتُ الطُّوفان قال النَّبي (عليه السلام): يا عوج احتطبْ لي ما أصْنَعُ منه فُلْكًا؛ لأُشْبِعَكَ؛ فذهب عوج لذلك واحتطبَ عيدانًا كثيرة. فَلَمَّا رآهُ أهلُ القرية خافوا أن يُهْلِكَهُم تِلْكَ العيدانُ إنْ وَصَلَ بها وَطَرَحَها؛ فخرج بعضُهُم إليه وَلَقِيَهُ وقال له: يا عوج إلى أين تقصدُ بهذه العيدان؟ فقال: النَّبِيُّ نوح (عليه السلام) أمرني أن أحْتَطِبَ له لكي يُشْبِعَني. فقال: ألذلك جَمَعْتَ هذه؟ فقال عوج: نعم. قال: أما تَعْلَمُ

[ص٢٧]

أنَّ نوحًا يغرُّك. بل لا يملك ما يُشْبِعُكَ به؛ فَطَرحَ عوج تِلْكَ العيدان كلَّها إلاَّ عودًا واحدًا اتَّخذَهُ لعصاه. فجاء إلى النَّبي نوح (عليه السَّلاَمُ) فقال: اعطني ما في يَدِكَ. فقال عوج: هذا عَصَايَ. فقال النَّبيُّ نوح: خذ شِقَّ خبز؛ فاحْتَقَرَهُ وطرَحَه في فيه، ولم يمكن أن يَضُمَّ عليه فاهُ، ثُمَّ أخرجه وجعل يأكُلُه قليلاً قليلاً حتَّى شبع، وبقي بعضُ الشِّق كأنَّهُ لم يَنْقُص، فقال عوج: الحمد لله ربِّ العالمين، اليومَ شبعتُ. لَمْ أَشْبَعْ قَبْلَهُ قَطُّ. فقال النبي نوح (عليه السَّلام): فسَتَشْبَعُ بعده أيضًا مرَّة.

فَلَمَّا نزل الطُّوفان وكاد الماءُ أن يُغْرِقَ عوج، صعد على بعض الجبال وجلس، وكانت الحيتانُ تأتي إليه فيأخُذُهَا ويَشْوِيها بِعَيْن الشَّمْس، ثُمَّ يأكُلُها هكذا إلى أن شَبع، وراوَدَ الماءُ أن يغرقه فقام، ثُمَّ ارتَفَعَ الماء إلى صَدْرِه، ولم يجَاوِزْ صدرَهُ إلى أن غاض.

وكان لا ينام إلاَّ بعد سنة، فأخذتْهُ السِّنةُ في بعض الصَّحارَى، ووَجَدَهُ بعضُ إماء النبي نوح (عليه السلام) نائمًا، ومرَرْنَ نحو رِجْلَيْه إلى طلب الحطبِ. فَلَمَّا رَجَعْنَ وَجَدْنَهُ قد احْتَلَمَ وسالَ احتلامُه كالسَّيل. فظنَنَّهُ ماءً، فخُضْنَه، فحَمَلْنَ كلُّهُنَّ من ماء احتلامِ عوج، وكُنَّ خمس إماء: أكبرهنَّ ماسي بنت سِرٍ، والثَّانِيَة وهي تلي ماسي في السِّن اسمها سُورَ بنت سِرٍ، وتليها في السِّنِّ كاتو، وتليها جَار، وتليها

سَبَطَ. وكلُّهُنَّ بنات سرٍ. فَلَمَّا وَلَدْنَ ولدتْ كلُّ امرأةٍ توأمَيْن رجُلاً وأنْثَى. فولدتْ ماسي جِنِكِ ومَيْبُنُنْ، وولدتْ سُور بوبو وسري، وولدت كاتو تُمْبُو وحُوبُ، وولدت جارَ كُرُنْكُيْ وسارَ، وولدتْ سَبَطَ سُرْكُ ونار.

فَلَمَّا كبِرَ الأولاد أذِن لهم نوح (عليه السلام) أن يرتحلوا مع أمَّهاتهم فينزلوا في ناحية البحر ويصْطَادُوا حيتانًا يعيشُوا بأنفسهم، ويأتوا له بشيءٍ من ذلك الحيتان، ففعلوا ذلك إلى أن بلغُوا

[ص٢٨]

النِّكاح؛ فتَزَوَّجَ جِنْكِ سَرَيْ وكان أبا قبيلة جِكِنْكِ (بجيمٍ وكاف مكسورتين ممالتين ونون مدغمة بعدها كاف ممالة)، وتَزَوَّجَ بوبو مَيْبُنُنْ، وكان أبا قبيلة بوبو (بباء مُوَحَّدَة ممالة فواوٍ ممالة وباء وواوٍ أيضًا كذلك). وتَزَوَّج كُرُنْكُيْ حوبُ، وكان أبا قبيلة كُرُنْكُيْ. وتَزَوَّج تُمْبو نارَ وكان أبا قبيلة كُرْغُيْ (بكاف وغين مَضْمُومتين ممالتين بَيْنهُما راءٌ ساكنة)، وتَزَوَّج سُرْكُ سَارَ، وكان أبا قبيلة سُرْكُ (بسينٍ وكافٍ مَضْمُومَتين ممالتين بَيْنهُما راءٌ ساكنة).

وكانُوا في تِلْكَ الحالة بزمنِ النبي نوح (عليه السَّلام)، فَلَمَّا توفي النَّبيُّ نوح (عليه السلام) تفرَّقوا وشتَّتوا فرارًا من الرِّقية. فأما تمبو وبُوبُو قَصَدَا مع أبنائهما الصَّحارى. وأمَّا جِكِنْكِ وكُرُنْكُيْ وسُرْكُ، فدخلوا في البحر إلى بعض جزائره، ثُمَّ تناسلوا وتكاثروا وكانوا هُنالِكَ إلى أن طلَعَ عَلَيْهِمْ النَّاسُ، فأُخْبِرَ بِخَبَرِهم بعضُ مُلُوكِ بني إسرائيل؛ فأرسل قومه ليأخذَهُم، وكان صغيرُهُم سُرْكُ جاهلاً غَبِيًّا أحمقَ، فقال له أخوه جِكِنْكِ وكُرُنْكُيْ: يا سُرْكُ قُلْ لرُسُل الملك: ليس فينا مملوكٌ لنوحٍ إلاَّ أنتَ وأولادك، فإذا قلتَ ذلك نَنْجُو نحن، ثُمَّ نطلب ما نَفْدِيكُمْ به؛ فامتثل سُرْكُ قولهما، فأخذَ رُسُلُ الملك سُرْكُ وأولادَهُ إلاَّ قليلاً منهم اختَفوا وبقوا مع جِكِنْكِ وكُرُنْكُيْ، ثُمَّ تَشَتَّتُوا شَذَرَ مَذَرَ إلى أن بلغُوا أرضَكُم هذه. هكذا سمعتُ من الشَّيْخ (رضي الله عنه).

فقال له الأمير أسْكِيَا أجَدْتَ، فجزاك الله خيرَ جزائه. فهل عندك شيءٌ من خَبَر البربر؟ فقال: أجَل، سمعتُ من شيخي شَمْهَرُوش (رضوان الله عليه) أن مَلِكًا من ملوك

[ص٢٩]

فارس اسمه قَرْطُومَ بن دَارِم كان له على بعض عُمَّاله غَرَامَةٌ، وذلك في كلِّ سنة خَمْسمائة جاريةٍ غير مُفْتَضَّة. فأرسل في بعض السِّنين رسولَهُ سلمان بن عاصف إلى أخذ تِلْكَ الغرامة، فأخذها وجاء بالإماء الجواري إلى أن قرُبَ من مدينة الملك بنحو عَشْرَة أيَّامٍ، وبات بهن في موضعٍ يُقالُ له كُرسَا، فَلَمَّا أصبَحَ وَجَدَهنَّ كلَّهُن مُفْتَضَّاتٍ؛ فخاف سلمان من ذلك على نفسه، فأرسل إلى الملك يُبَيِّنُ له ما قدَّرَهُ الله. فأمر الملك بأن يَتْرُكَهُنَّ هُنالِكَ إلى أن يَلِدْنَ؛ ففعل. فَلَمَّا ولدْن؛ وَلَدْنَ غلمانًا كالجِنِّ طبيعةً إلاَّ أنَّ صُوَرَهُم صُوَر بني آدم، فقَطَعَ الملك على عَدَدِ رِجَالهم أفراسًا لهم يَغْزُونَ عليها ويَغِيرُونَ ويأخُذون له الأموالَ. فَلَمَّا مات ذلك الملكُ هربوا إلى أرض المغرب، ودَخَلُوا تحت رعيَّة كَيَمَغَ يحيى بن مارِسْ. وهذا أصلُهُمْ على ما ذكر لي شيخي وسيِّدي شَمْهَرُوش رضي الله عنه.

وقد ذكر القَاضِي محمود كَعْتِ أصل مُلُوك سُنْغَيْ هو امرأتان من أسباط جابر بن عبد الله الأنصاريِّ خرجتَا من المدينة يومًا إلى جنَانهما وأصابهما العطشُ. وكان لإحداهما أي أكبرهما ابنٌ صغيرٌ مُراهِقٌ، وذهب يطلبُ الماء لهما، وَوَجد الماءَ وجاء به في ذلك البُسْتَان، وكان أوَّل من لقِيَتْهُ خالتُه، وطلبتْ عليه أن يَسْقِيَها، وأبى عليها إلاَّ بعد أن يُشْرِبَ أمَّهُ. ومرَّ عليها حتَّى وصَلَ إلى أمِّه، وسألته أمُّه فقالت له: هل أسْقَيتَ خالتَكَ فلانة يعني شقيقتها؟ وقال لا. وغضبتْ عليه

[ص٣٠]

وطرَدَتْه مع ذلك الماء، وغضِبَ هو وطَرَحَ نَفْسَه في الصَّحْرَاء، ولم يُعْرَفْ له خَبَر.

وطرَحَتْ خالتُه نفسَهَا بعده في الصَّحْرَاء لأجْل أمِّه التي طردته بسببها. واقْتَفَت آثار ابن أختها، وضلَّت عن الطَّريق حتَّى وقعتْ في يد النَّصارى، وأخذُوها ومَكَثَتْ مع أحد حدَّاد النَّصارى وولدتْ لذلك النَّصْرَانِيِّ بنتًا في الزِّنى، ثُمَّ نَكَحَهَا بعد ذلك وَوَلَدَتْ له ابنًا، ثُمَّ كَبِرَت البنتُ المولودة في الزِّنى حتَّى زوَّجَهَا أحدُ حدَّاد النَّصارى أيضًا، فَوَلَدَتْ له ابنًا؛ فكبرا هذان الابنان، وحدَّثتْ لهما أمُّهُما حالها وسَبَبَ خُرُوجها من المدينة وطَلَبَها ابن أختها، وأطرحا أنفُسَهُمَا في طلب أخيهما حتَّى سمعا خبرَه في السُّودَان، فوجدَاه في كاع.[١] فوجدوا أنَّ أهل كَاعُ ليس لهم سُلْطَانٌ إلاَّ الحوتُ الكبير يخرج لهم في وقت الأضحية[٢] ويجلس لهم إلى وَقْتِ الزَّوَال، ثُمَّ يرجِعُونَ إلى بيُوتِهِمْ.

فَلَمَّا وصلا إلى أخيهما قال له أخوه ابن خالته: أنا أعملُ لك ما تَقْتُلُ به هذا الحوت فتكون مَلِكًا على هؤلاء القوم؛ فعمل له دَمَ وقتله به.[٣] وكان عَلَيْهِمْ مَلِكًا مَهيبًا مُطاعًا. وعمل ابن أختهما له دُفًّا، وكان يضربه. هو جدُّ من كان دَعْ، اسمُ قبيلة

[ص٣١]

سُغُيْ. وكان الآخر أصلَ كلِّ حدَّادٍ من حفائد جَمْ كِرْيَا.[٤]

---

(١) في هذه الرواية ثلاثة أبناء: أولهم ابن أخت المرأة التي خرجت باحثة عنه، والثاني ابنها، والثالث حفيدها. فالأول وهو المفقود، هو خال للثالث وليس أخا له كما تقول هذه الرواية.

(٢) يريد وقت الضُّحى.

(٣) دَمَ: أي تعويذة سحريَّة، بلغة صونغاي.

(٤) في هذه القصَّة مسحة من مفهوم تبجيل الأخوال في معظم ثقافات غرب أفريقيا؛ فحقُّ الخال أو الخالة مقدَّم على حقِّ الوالدين، والمرء يرث أخواله، وقد يخذله أبَواه، ولكن هيهات أن يخذله أخواله ولو كان مخطئًا. ويُعتقد أنَّ دعاء الخالة أكثر قوَّة في نجاح الإنسان في الحياة من دعاء والديه، وأنَّ سخطها يجلب اللَّعنة على المرء، وتُعرف تلك اللَّعنة عند الفولاني بـ(kuddi) =

تنبيهات:

الأوَّل: نذكر فيه أولادَ الشَّرِيف الحسني أحمد الصِّقْلِي. وذلك أنَّ له منْ الأولاد مُحَمَّد ومُزَاوِر وسليمان. ورجع مُحَمَّد وسليمان إلى مدينة بَغْدَاذ. وبقي مُزَاوِر في بلد تُنْبُكْتُ، ونكح امرأةً من الأعراب اسمها زينب بنت وهب، فولدتْ ابن القاسم ومُحمَّد الهاشمي وعلي وعبد الله ومولاي مُحَمَّد وعبد الرحيم، ثُمَّ ارْتَحَل هؤلاء الشُّرفاء من تُنْبُكْتُ لسبب جوع خافوا منه على أنفسهم وعيالهم. وحين ارْتَحَلُوا باتوا الكاهي الأعراب بُوسُ.[1] ثُمَّ ارْتَحَلُوا منها وباتوا أَسَكُنْغُ، ثُمَّ ارْتَحَلُوا منها وباتوا ديرَيْ، ثُمَّ ارْتَحَلُوا فَلَمَّا وصلوا موضعًا يُقَالُ له عِسَفَي تَفَرَّقُوا، فأخذ بعضهم مَيْمَنَةً وَبَعْضُهُم مَيْسَرَة. فأمَّا أهلُ الميمنة فابن القاسم ومولاي مُحَمَّد الهاشمي وعبد الرَّحيم، فبات هؤلاء رأس الصيران يُقالُ له في كلامنا جُنْدَبُغُ،[2] ثُمَّ ارْتَحَلُوا وباتوا بِجُنْدَجِسِ، ثُمَّ تفرَّقُوا وتوجَّهَ مُحَمَّد الهاشمي إلى سِرْفِلابِيرِ، وأقبل ابن القاسم إلى قرية وانْكُ، ومرَّ عبد الرَّحيم إلى تَوْتَلَ. وأمَّا أهل الميسرة فهم عبد الله ومولاي مُحَمَّد وعليّ. فأما عبد الله أقبل إلى قرية واوْبَارْ، وأمَّا مولاي مُحَمَّد فأقبل إلى نحو وُو، وأمَّا علي فَتَوَجَّهَ إلى كُرْمَ.

= ينظر: (Muhamed Camara, "Benediction et Malediction in Fulani Culture", Indigenous Nations Journal, Vol.6, No.1, Spring 2008, p45-66).

(١) لعلَّ حذف الألف واللام من (الكاهي) يصحِّح الجملة ويوضِّحها، أي: باتوا عند كاهي الأعراب. ويكون مقصودُه أنَّهم نزلوا عند زعيم بعض الأعراب من الصَّنهاجة اللِّثام، يُطلق عَلَيْهِمْ بُوس.

(٢) جندبغ: في هذا الموضع إشارةٌ إلى أنَّ اللغة الأم للكاتب، كانت لغة الصونغاي في قوله: «يُقال له في كلامنا...».

والتَّنبيه الثَّاني نذكر فيه ما للشَّيْخ العالم التَّقي الولي الصَّالِح مُحمَّد تُلِ، وينسبونه إلى بني مَدَاس من الكرامات والعطاء من

[ص٣٢]

الأمير أسْكِيَا، وذلك أنَّهُ ما رآه ولا سمع ذكره إلاَّ احترمه وقَبَّلَ يَدَيْهِ الكريمتَيْن وقال: نفعنا الله ببركَتِك! وجعل له أن يركب جَمَلَهُ ويسير به نهارًا واحدًا، ويكون كلُّ ما وجد في تِلْكَ المسافة من ثلاث قبائل جَمْ وَلِ، وَجَمْ تِنِ، وسُرُبَنَى مِلْكًا له، أي للشَّيْخ مُحمَّد تُلِ. ومَنْ لَيْسَ مِنْ هؤلاء فيكونُ حَوْزًا له، ومبدأ تِلْكَ المسافة حَرْكُنْسَ كَيْغُرُ ومنتهاه إلى دُودِ كَسَرْ. وأمَّا القُرى المصهرات بهذه القبائل في هذه المسافة فيَمُونَ إلى كايْ وما بَيْنهُما مِنْ بَلَدِ أَوْسَ وكُرْمَ تنيف على سبعين قرية.

والتَّنبيه الثَّالث نذكر فيه ما لشيخنا العالم الوَرِع الزَّاهِدِ الوليّ المتفَنِّنِ أَلْفَعْ صَالِح جَوَرَ عند الأمير أسْكِيَا من الإكرام والعطاء. وذلك أنَّ الأمير إذا رَآه لا يُصْغِي إلى كلام أحدٍ سِوَاه ولا يفْرَحُ لأحدٍ كما يفرَحُ له. ومما ملَّكه من القبائل المملوكين: حَدَادَانْكِ، وقبيلة فالَنْ، وسَرَيْ وبَنْكَنَ، وتُمْبا، وَحَرِدانَ، وبِلَ. وأصلُ هؤلاء من سُرْكُ. تتمة.



الباب الثَّاني

مَلِّكُيْ كَنْكُ موسى

ولنَذْكُر بعضَ ما أمكَنَ لنا مِنْ أخْبَار مَلِّكُيْ كَنْكُ موسى.

وكان مَلِّكُيْ سُلْطَانًا صالحًا تقيًّا عابدًا مَلَكَ من مُنْتَهَى مَلِّ إلى سِبِرِدُكْ، وأطاعَهُ جميعُ مَن فيها من سُغُيْ وغيرها. ومن عَلامة صلاحِهِ أنَّهُ كان يعتقُ كلَّ يومٍ نفسًا، وحجَّ إلى بَيْت اللهِ الحَرَام، وبنى في حَجِّه مسجِدَ جامع تُنْبُكْتُ، ودُكُرٍ، وخُنْدَمْ، وديرَيْ، وَوَنْكُ، وبَكُ، وكَنْكُ عجميَّة،

[ص٣٣]

وقيل إنَّها عربيَّة الأصل.

ولحجِّه سببٌ حكاه لي الطَّالب الحافظ لقَصَائِصِ الأوائلِ، وهو مُحَمَّد قُمَ (رَحِمَهُ الله)، ذكر أنَّ ملِّكُيْ كَنْكُ موسى هو الَّذِي قتلَ أمَّه نانا كَنْكُ خطأً، وأسفَ لذلك ونَدِمَ وخاف عُقُوبَة ذلك، وتَصَدَّقَ بمالٍ جسيمٍ، وعزَم على صَوْمِ الدَّهر، وسألَ بعضَ عُلَمَاء زَمَانِه عمَّا يفعلُ في الاستغفار لهذا الذَّنب العَظِيم. فقال له: أرى أن تَفْزَعَ إلى رَسُول اللهِ ﷺ، وتهرب إليه وتَدْخُلَ في حُرْمَتِهِ وتَسْتَشْفِعَ به، وسَيُشَفِّعُهُ الله فِيك، وهذا هو الرَّأيُ.

وعقَدَ العزْمَ والحزْمَ على ذلك في يَوْمِهِ، وقام يَجْمَعُ المالَ والجهازَ للسَّفر ونادى من أرْضِهِ من كلِّ جانبٍ يطلُبُ الزَّادَ والعَوْن. وأتى بعضَ مَشَائخِهِ يطلبُ منه أن يختارَ لهُ يومَ الخروج في الأيَّام؛ فقال: أرى أن تَنْتَظِرَ يوم السَّبْتِ الَّذِي يكونُ ثانيَ عَشَرَ شهر، واخرجْ فيه لا تموتُ حتَّى تَرْجِع لدَارِكَ سالمًا، إنْ شاء الله.

ومكث يتربَّصُ حُصُولَ ذلك في الشُّهُور وينتظِرُهُ، ثُمَّ لم تحصُلْ إلاَّ بَعْدَ تسعة أَشْهُرٍ وافقَ ثاني عَشْرِهِ بيوم السَّبت، وخرَجَ بعدَمَا وَصَلَ رأسُ قَافِلَتِهِ بتُنْبُكْتُ، وهو بداره في مَلِّ.[1] والسَّبت الموافق بثاني عَشَرَ شهر كان منذ حينَئذٍ يَتَفَاءلُ به مُسَافِرُوهم، ويمثل به في مسافرٍ رجع بسُوء المنقَلَب، فيُقالُ: هذا ما خرج في داره سبتَ خُرُوج ملِّكِيْ.

وخرج كَنْكُ موسى بقوَّةٍ عَظِيمَة ومالٍ جَسِيمٍ في جَيْشٍ عَرَمْرَم. وقد روى لنا بعضُ الطَّلبة عن شيخنا العلاَّمة القَاضِي أبي العَبَّاس

[ص٣٤]

سيِّدي أحمد بن أحمد بن أَنْدَغْ مُحَمَّد (رَحِمَهُ الله ورضي عنه وأَرْضَاهُ)، سَأَلَ يَوْمَ خُروج الباشا عليّ بن عَبْدِ القَادِرِ إلى تُوات - زاعمًا أَنَّهُ يريد الحجَّ - عن عدَدِ مَنْ مَشَى معه مِنْ قَوْمِهِ، فقيل له: يَبْلُغُ مَنْ مَعهُ من حَمَلَةِ السِّلاح نحو ثمانين؛ فكَبَّرَ وسبَّح، ثُمَّ قال: لم تزل الدُّنْيا على النُّقصان، وقد خرج كَنْكُ موسى إلى الحجِّ من هُنا ومعه ثمانية آلافٍ،[2] ثُمَّ أَسْكِيَ مُحَمَّد خرج حاجًّا ومعه ثمانمائة رجلاً، عُشْر ذلك، وجاء بعدهما عليّ بن عَبْدِ القَادِرِ ثالثًا بثمانين؛ عُشْرِ ثمانمائة، ثُمَّ قال:

(١) قد تكون هنا مبالغة واضحة إذا اعتبر المعنى المعهود للقافلة وأنها سلسلة متصلة من الإبل؛ لأن مسافة ما بين تمبكتو ونياني عاصمة مالي تبلغ (٩٦٥كلم). وقد يُخرج من هذه المبالغة إذا اعتبر أن القافلة كانت مجموعات متفرقة خرج بعضها قبل الأخرى وتتابعت حتى بلغت تمبكتو، ثم تبعها الملك. كما يمكن القول إن مانسا موسى كان بدارٍ أخرى غير عاصمته نياني عند خروجه للحج، وأنها بمنطقة قريبة من تمبكتو.

(٢) ذكر السعدي أنَّه كان معه ستون ألفا (ص٧)، ويبدو أنَّ هذا العدد مبالغ فيه، إلاَّ أنه ينسجم مع ما ورد هنا أنَّ رأس قافلته بلغ تمبكتو. والظَّاهر أنَّ ابن المختار يعني بالثمانية الآلاف حملة السِّلاح فحسب؛ بدلالة أنَّه قد أورد أن عدد العبيد كان ثمانية أو تسعة آلاف.

سُبْحَانَهُ لا إله إلاَّ هو! وقد لا يتمُّ مُرَادُ عليّ بن عَبْدِ القَادِر.[١] انتهى.

ثُمَّ خرج كَنْكُ موسى راحِلاً ذاهبًا. وفي قِصَّة سَيْرِه أشياءٌ أكثرُهَا لا يصحُّ ويأبى العقلُ قبولَ ذلك، ومن ذلك ما وَجَدَتْهُ جُمْعَةٌ في بَلَدٍ من هنا إلى مصر إلاَّ وبنى فيه مسجدًا يومَهُ،[٢] ويُقَالُ إنَّ مَسْجِدَ بلد كُنْدَم ودُكُرَيْ من المساجد الذين بنى. وأدام طعامَهُ غَدَاءً وعَشاءً منذ خرج من داره إلى أن قَفَلَ لحم الحوت الطَّريِّ والسَّلق الرَّطب.

وحُدِّثْتُ أنَّهُ خرجَتْ معه زوجتُهُ المسمَّاة إنارِ كُنْتِ مع خَمْسمائة (مِنْ) نسوتها وخَدَمِهَا إلى أن نزل بموضِعٍ مِنْ صَحَارَى بين تُوات وتغَازَ وضربوا بها العَطَن. وباتت زَوْجَتُهُ تِلْكَ معه في فُسْطَاطِه سَاهِرَةً، ونام هو، ثُمَّ استيقظ وَوَجَدَهَا ساهِرَةً لم تَنَمْ؛ فسألها: أما نمتِ؟ ما لك؟ فما أجابته، فَبَقِيَتْ إلى نِصْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ استيقظ فألْفَاها كذلك سَاهِرةً، فأنْشَدَهَا بالله عمَّا أصابها، فقالت: ليست إلاَّ وسَخُ بَدَني ودَرْنُهَا، وقد تمنَّيْتُ البحر وأغْتَسِلَ وأخُوضَ وأغْتَمِسَ وأعُومَ، فهل لك تحصيلُ ذلك وإيجادُهُ في مُلْكِكَ؟ ونهض كَنْكُ موسى جالسًا وغاظه ذلك وجلس مُتَفكِّرًا، ثُمَّ أمر بِعَبْدِهِ الَّذِي هو رئيسُ عَبِيدِهِ وقومه المسمَّى فَرْبَ، ونُودِيَ وأتى وأحْيَاهُ

[ص٣٥]

تحيَّةَ الملك، وعادةُ تَحيَّتِهِمْ له أن يَقْلَعَ قَمِيصَهُ ويَتَأَزَّرَ به، ثُمَّ يركَعُ يَضرِبُ صدْرَهُ، ثُمَّ يَجْثُو على ركبَتَيْهِ. ولا من في مملكته يُصَافِحُهُ إلاَّ قاضيه، وهو الملقَّب

---

(١) الباشا علي بن عبد القادر، ولي الباشويَّة في رمضان (١٠٣٧هـ)، ومكث بها أربع سنين وخمسة أشهر، (ت٦ محرم ١٠٤٢هـ)، ينظر: تاريخ السودان، ص٢٩٤.

(٢) الأقرب إلى الصَّواب أنَّه كان يبني في كل موضع أدركته الجمعة به مسجدًا، أي كان يؤسس للمسجد وليس معقولا أن بناء المسجد كان يكتمل يومه.

بأَنْفَارَ قُمَ، وقُمَ قبيلةٌ، ومنها يخرخ قاضيهم، ولا يَعْرِفُونَ القَاضِي وإنما يُقَالُ أَنْفَارَ. فَلَمَّا فرغ فَرْبَ من تَحِيَّتِهِ قال له: يا فَرْبَ، منذ تَزَوَّجتُ بزوجتي هذه ما طلبتْ منِّي وما خاطبتني بما تَقْصُرُ عنه قُدْرَتي، ولا بما لَيْسَ في ملْكِي ويَعْجُزُ عنه قُدْرتي إلاَّ في هذه اللَّيْلَة، فقد سألتني البحر وإيجادُهَا مِنَ العَدَمِ في قفَارها، وبيننا وبين البحر مسيرةُ نصف شَهْرٍ، وليس لهذا الموجد إلاَّ الله وحده، فقد أعْجَزَتْني الآن. فقال فَرْبَ: فعسى الله أن يُصْلِحَهُ عليك.

فخرج فَرْبَ باكيًا يضْرِبُ صدْرَهُ إلى موضع نُزُوله، ونادى العبيد، وحَضَرُوا أسرعَ من طرفة عينٍ، وعدَدُهُمْ ثمانية آلافٍ وسبعمائة، هكذا قاله بابا أَشْرَع مُنْذُ بمدينة جِنِّي، وقال غيره بل تسعةُ آلافٍ كاملةً. فأَخْرَجَ لهم المديرَاتِ على حَسَبِهِمْ، ومشى ألفَ خَطْوَةٍ وأَمَرَهُمْ بحفرِه، وحَفَروهَا وأخرَجُوا تُرابها، ثُمَّ حَفَرُوها حتَّى نزل إلى نحو ثلاثِ قاماتٍ، ثُمَّ أمَرَ بالرِّمال والأحجار حتَّى امتلأت الحفرة، ثُمَّ أمر بجذْوَاتِ الحَطَبِ، فَجَمَعُوها فوقَها، ثُمَّ أتى بقَلْبَاتِ بُلْنَغَة وَوَضَعَهَا فوق ذلك كلِّه.[1] ثُمَّ رمى عليها النَّار، وَوَقَدَ واشتَعَلَ؛ فذابَ ذلك البُلْنَغَاتُ على الأحجار

---

(١) بُلَنْغة: كلمة محليَّة تعني زيت شجرة الزَّيت، واسمها العلمي (Butyrospermum)، وبالإنجليزيَّة (shea)، وهي مقترضةٌ من البامْبارا «sii» ومعناه: العُمر، أي الشَّجرة المعمَّرة. وتُشتهر هذه الشَّجرة بـ(karite)، وهي كلمة فولانيَّة معناها: الشَّجرة التي لا تأكلها البهائمُ. ولعلَّ ذلك ما ورد عند العمري (ص١٢٢) وسمَّاها فاريتي، ويبدو أنَّ العمريَّ نقل هذا الاسم من مصدرٍ مكتوبٍ، فصحَّف القاف فاءً؛ وسبب هذا التَّصحيف أنَّ الفاء بالخط المغربي المستعمل في بلاد غرب أفريقيا، توضع فيها نقطة واحدةٌ فقط فوق القاف، ونقطة تحت الفاء. وشجرة «قَارِيتيهْ» شجرة ذات ثمار مغطَّاة بطبقة رطبة خضراء اللَّون، حلوة المذاق، وتحت هذه الطبقة قشرة صلبة بنيَّة اللَّون، تكسَّر وتستخرج منها جوزة كرويَّة الشَّكل، تحرق وتدقُّ، وتغلى فوق النَّار؛ فتستخرج زيتًا تستعمل في الأغذية، وإنارة المصابيح، وغير ذلك من الحاجات اليوميَّة الكثيرة، وعندما يتجمَّد هذا الزَّيت، يكون لونه أبيض ناصعًا، ولا يوجد فرقٌ بينه وبين السَّمن في اللَّون، وهو سريع الذَّوبان في الحرِّ. وتعدُّ من المواد الأساسيَّة التي تصدرها بعض =

والرِّمال وكَسَرَهُمْ ومَلَسَت الحفْرَة كالفَخَارِ، ثُمَّ أمر بالمياه اللَّواتي في قِرَبِهِمْ وزِقِّهم، وحَلُّوا أفواه القِرَب والزُّقوق[١] فانصبَّتْ وسالت إلى الحفرة حتَّى امْتَلأتْ وأعلت وسمتْ، بحيث يَضْطَرِبُ فيها الأمواجُ

[ص٣٦]

وتَلاطَمَ كالبَحْرِ العَظِيم.

ورجعَ إلى كَنْكُ موسى، فَوَجَدَهُما جَالِسَيْن، وقد أيْقَظَهُما وَهْجُ تِلْكَ النَّارِ ودُخَانُه، فحيَّاهُ حَيَاةً، ثُمَّ قال: أيُّها السَّيِّدُ، فقد أعانك الله وأذْهَبَ همَّكَ، وأين إنارِ؟ فقَدْ أَقْدَرَكَ الله على إيجاد البحر ببركة مَنْ تَزُورُهُ، رَسُول اللهِ ﷺ، فها هي. ووافق ذلك بطُلُوع الفَجْرِ الأعْلَى من تِلْكَ اللَّيْلَة، فقامت نِسْوَةٌ مَعها، وهنَّ خَمْسمائة، وركبت على بَغْلَتِهَا إلى البحر، فنَزَلْنَ فيها فَرِحَاتٍ مُوَلْوِلاتٍ مسرُوراتٍ وغَسَلْنَ، ثُمَّ رحلوا وغَرَفَ بعضُهُمْ مِنْ ماءِ الحُفْرَة.

ومشى معه سِلْمَان بن يَعَتَ، وكان من خَدَمِهِ يركب أمام الرُّفْقَة، وَوَرَدَ في جمٍّ كثير. وَوَرَدُوا يومًا على بئر في قِفَارِ صَحَاريهِمْ عِطاشًا ظامِئِين، وأدْلوا دَلْوَهُمْ في ذلك البئر ونزل على الماء فَقُطِعَ حبْلُه هُنالِكَ، ثُمَّ أخرى فَقُطِع، ثُمَّ أخرى فَقُطِع. فظنُّوا أنَّ هُنالِكَ مَنْ يَقْطَعُهَا، وهم في غاية الظَّمأ،[٢] واجتمعوا كلُّهم على جَرْفِهَا

= الدُّول في غرب أفريقيا للصِّناعات الغذائيَّة والتَّجميليَّة المختلفة في الغرب. (عن التعريف اللغوي، يراجع: Daniel Yves Alexandre, Initiation ب l'agroforesterie en zone sahlienne: les arbres des champs du plateau central au Burkina Faso, Karthala, 2002, p128)

(١) الزَّق: كلُّ إناءٍ يتخَّذ للشراب ونحوه، والجمع (أُزقاق، وأزُقّ، وزِقاق)، ينظر: لسان العرب لابن منظور، مادة «زقق».

(٢) ورد في الأصل (الظَّمآن)، وظاهرٌ أنَّه يريد: الظَّمأ.

لا يَدْرُون ما يفعَلُون. وشَمَّرَ سِلْمَان بن يَعَتَ على سَاعِدِه وتأبَّط سِكِّينَهُ ورمى بنَفْسِه إلى داخلِ البئر، وترك القومَ على البئْرِ واقفِينَ في كربٍ عَظِيم. وإذا هو برَجُلٍ هُنالِكَ لِصٍّ مُحَارِبٍ سَبَقَهُمْ على البئر، مُرَادُه يمنَعُهُمْ الماء حتَّى يموتوا عطشانًا كلُّهم فيَخْرُجَ ويجمَعَ جميع أموالهم لنفسه، ولا يظُنُّ أنَّ أحدًا يقدِرُ أن يَنْزِل عليه هُنالِكَ؛ فقَتَلَهُ سِلْمَان بن يَعَتَ هُنالِكَ، ثُمَّ حرَّك لهم حبلَ الدَّلو وجَرُّوه فإذا هم بجنازة رجلٍ قتله. وجَرُّوهُ ورموا به إلى البئر ميتًا.

وحَدَّثَنِي شيخُنا مور بُكَر بن صالح ونْكَرْبِ (رَحِمَهُ الله)[1] أنَّهُ كان معه حِمْلُ أربعين بَغْلَةً من الذَّهب، وحجَّ وزار. قيل طلب من شيخ بلد الحرام مكَّة الشَّرِيفة

[ص٣٧]

(حرسها الله تعالى) أن يُعْطِيَهُ من أهل بيت رَسُول اللهِ ﷺ الشَّرِيفَيْن أو الثَّلاث أو الأربعة يَذْهَبُ مَعَهُمْ إلى بلده؛ لِيَتَبَرَّكَ أهلُ النَّاحية برؤيتهم وبِبَرَكَة أثرِ أقْدَامِهِم في بلَدِهِمْ، وأبى الشَّيْخُ له، وأجمعُوا على المنع والإبَايَة عن ذَلك تَعْظِيمًا وإجلالاً لدَمِهِ الشَّرِيف، لئَلاَّ يقَعَ واحدٌ منهم في أيدي الكَفَرَة ويضيعَ أو يَضِلَّ، وصَمَّمَ عَلَيْهِمْ في ذلك واشتَدَّ إلحاحُهُ،[2] فَقَال الشَّرِيف: لا أفْعَلُ ولا آمرُ ولا أنهى، ومَنْ شَاءَ فَلْيَتْبَعْكَ، فأمْرُهُ بِيَدِه، فأنَا بريء.

فأمَرَ ملِّكُيْ مناديًا في الجوامع: «مَنْ أراد ألف مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ فَلْيَتْبَعْنِي إلى أرضي، فله ألفٌ حَاضِر». وجمعَ عليه أربعَةُ رجَالٍ مِنْ قُرِيشٍ، قيل إنَّهم كانوا من موالي قريش وليسُوا من أنفَسِ قريشٍ، وأعْطَاهم أربعَةَ آلاف، كلُّ واحدٍ منهم ألف، وتبِعُوهُ بأهْلِيهِمْ راحِلين إلى بلده.

---

(١) وَنْكَرب: أي الونكري نسبة إلى وَنْكر بلغة الفولاني.

(٢) في الأصل (إلحاؤه) بالهمزة، وأصله: ألحَّ في المسألة، والمصدر: إلحاح، أي واظب عليه.

فَلَمَّا رجع ملِّكُيْ قافلاً وَوَصَلَ إلى تُنْبُكْتُ، جمَعَ القَوَاربَ والسُّفن، وَحَمَلَ عِيَالَهُمْ وأمْتِعَتَهُم ونِسْوَتَهُم ليُوصِلَهُنَّ إلى أرضه حين عَجَزَتْ دَوَّابُهُ عن الرُّكُوبِ، فَلَمَّا وصلت سفنه إلى بلد كَم، وفيهنَّ شُرَفاؤُهُ القادمون معه مِنْ مَكَّةَ الشَّرِيفة، وَقَعَ عَلَيْهِمْ جِنِّكُيْ وكُرَنْ[1] ونهبوا كلَّ ما كان في تِلْكَ السُّفن، وأنزلوا الشُّرفاء عِنْدَهُم، وخرَجُوا في طاعة مَلِّكُيْ، وَعَلَّمَهُمْ أصحَابُ السُّفُن بأمْرِ الشُّرَفَاء وأخْبَرَهُم بمكانهم، وأقْبَلُوا عَلَيْهِمْ وأكْرَمَهُم وأجْلَسَهُمْ بمكَانٍ هُنالِكَ يُسَمَّى شِنْشِنْ. قيل إنَّ شُرَفَاء بَلَد كَيِي أو كَئِي منهم.

انتهى قصَّةُ سفر حجِّ مَلِّكُيْ كَنْكُ موسى.

وجِنِّكُيْ مِنْ أصْغَر عبيد مَلِّكُيْ وأرذَل خَدَمِهِ، وحَسْبُك أنَّهُ لا يقفُ إلاَّ على زوجته أي زوجة ملِّكُيْ، ولها يُعطي غرامةَ إقليم جِنِّي ولا يراه مَلِّكُيْ.

[ص٣٨]

فسُبْحَانَ من يُعِزُّ ويُذِلُّ ويرفع ويخفضُ.

تنبيه: إنْ قيل ما الفَرْقُ بين مَلِنْكِي ووَنْكَرَ؟ فاعلمْ أنَّ وَنْكَرَ ومَلِنْكِي من أصلٍ واحدٍ، إلاَّ أن مَلِنْكِي هو الجنْدِيُّ منهم ووَنْكَرَ مَنْ يَتَّجِرُ ويَسْعَى مِنْ أفُقٍ إلى أفق. وأمَّا مَلِّ فإقليمٌ واسعٌ، وأرضٌ كبيرةٌ عَظيمَةٌ مُشْتَمِلَةٌ على المدن والقُرى، ويَدُ سُلْطَانِ مَلِّ مَبْسُوطَةٌ على الكُلِّ بالقَهْرِ والغَلَبَة. وكنَّا نسْمَعُ مِنْ عوامِ عصْرِنَا يَقُولُونَ: سلاطين الدُّنْيا أربعة، ما خلا السُّلْطَان الأعظم: سُلْطَانُ بَغْدَاذ، وسُلْطَانُ مصر، وسُلْطَانُ بُرْنُ، وسُلْطَانُ ملِّ.

---

(١) جنِّكي: أي أمير مدينة جنِّي. وكُرَنْ: يبدو أنَّها لفظةٌ تعني منصبًا زعاميًا عسكريًّا في منطقة جني، اشترك مع زعيم جني في قرصنة سفن السلطان موسى.

وبلدُهُ التي كانت فيه دارُ الإمَارَة لملِّكُيْ اسمها جَارِبَ، وأخرَى تُسمَّى يَنِعْ.[1] ولا يسقي أهاليهما إلاَّ عَلَى بحر كَلَ، وعَليه يَرِدُون على مسافةِ العدي، يخرُجُونَ إليه بُكْرَةَ اليَوْم ويرجعون وقتَ العَصْرِ مِنْ يَومِهِ، وعليه يغسِلُونَ ثيابهم.

وهكذا حَدَّثَنِي به أخونا الحافظ مُحَمَّد قُمَ، فقال: فصار اليومُ مسيرةَ يَوْمَين. فانظرْ هذا الأمرَ وتَعَجَّبْ هلْ نَقَص من النَّهَار شيءٌ أو زِيدَ في مَسَافَة تِلْكَ المكان، أو ضَعُفَ حالُ خَطَوَاتِ النَّاسِ وقوَّتهم. فَسُبْحَانَ مَنْ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ.

وقد أذكرني هذه القِصَّة قِصَّةٌ مَّا حكاه صاحبُ «خريدة العجائب» في قصَّة جبل سَرَنْدِيب، هو جبلٌ بأعلى الصِّين في بحر الهند، وهو الجبلُ الَّذِي أهْبط عليه آدم (عليه السَّلام)، وعليه أثرُ قَدَمِهِ غائصٌ في الصَّخْرُ، طولُهُ سبْعُون شبرًا. وإنَّ آدم خَطَا من هذا الجبَلِ إلى سَاحِلِ البحر خَطْوَةً واحدةً، وهو مَسِيرةُ يَوْمَيْنِ،[2] سُبْحَان مَنْ بَايَنَ بَيْنَ خَلْقِهِ خَلقًا وخُلُقًا.

---

(١) ينع: أو نْياني (Niani)، وهي العاصمة الجديدة التي اختارها صونجاتا كايتا لمملكة مالي التي أعاد تأسيسها بعد العاصمة الأولى «دَاكاجالا» (Dakajala)، وتقع على ضفة نهر «سانْكَرانْ» في الضَّفة اليسرى من نهر النِّيجر في الحدود السياسية الحديثة بين مالي وغينيا، وكانت نياني تتميَّز بموقع استراتيجي مهمٍّ مفتوح على سهول السافانا يحميها من الغارات المباغتة، وعلى مقربة من الغابة ومناجم الذهب، ومزارع الغُورو (الكولا). ذكرها العمري، وقال إنَّ قاعدة الملك بها تُدعى (يني)، والظَّاهر أنَّ العمريَّ قد أحسن نقل الاسم؛ لكن طرأ عليه تصحيف، وأصبح أكثر تصحيفًا على يد القلقشندي؛ إذ نقله عن العمري وادَّعى أنَّ المدينة تدعى «بَنْبي». وذكر ابن بطوطة الذي زارها (عام٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م)، أنَّ طريقا تجاريًّا يمر بها، وهو طريق القوافل المعروف بـ«سراخوليْ سيلا» (sarakhole sila) المتجه نحو الشَّمال الشَّرقي، وطريق آخر عُرف بـ«ماندي سيلا» (mande sila). ينظر: Djibril T. Niane, Africa from the Twelfth to the Sixteenth Century, p132.

(٢) كتاب: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مؤلفه عمر بن المظفر بن عمر الوردي (ت٧٤٩هـ)، وقد ذكر أن الجبل الَّذِي أهبط عليه آدم اسمه «جبل الراهون»، (ص٧١)، وسرنديب هي جزيرة سريلانكا الحالية.

قيل إنَّ مَلِّ مشتملٌ على نحو أربعمائة مُدُن، وأرضُها

[ص٣٩]

كثيرة الخير، ليس في مملكة سلاطين الدُّنْيا غَيْرَ الشَّام أحْسَنُ منها. وأهلُهَا ذَوُو ثَرْوَةٍ ورَفَاهَةِ عيشٍ، وحَسْبُكَ بمعْدن الذَّهَبِ في أرْضِهِ، وشَجَرَةِ كُورُ الَّذِي لا يوجد مِثْلُهَا في الأرْضِين مِنَ التَّكرُور إلاَّ أرض بُرْكُ.(١) ويد سُلْطَانها مَبْسُوطَةٌ من

(١) شجر «غُور»: تعرف هذه الشجرة علميًّا بـ(c. nitida) وطعم ثمرتها مُرٌّ. لها تسميَّاتٌ متقاربةٌ في معظم لغات أفريقيا منها: .(woro, wuro, guro, goro) وتنبت هذه الشجرة في الغابات الماطرة على امتداد المناطق من سواحل غينيا إلى الكونغو. وردت الإشارة إليها في بعض الكتب التَّاريخيَّة عن أفريقيا، ولكن متأخِّرًا، مثل كتاب أفريقيا لمارمول، إذ قال إن بأفريقيا: «أنواعا من الأشجار السامقة تحمل ثمارًا تشبه القسطل، يسمونها كور» (أفريقيا، مارمول كربخال، ت: محمد حجي وآخرون، ١٩٨٤م، ج١/ ٥٣). وللغُورو خواص كثيرة، جعلتها ثمرة مميَّزةً في الوسط الأفريقي؛ فتحتوي مواد نيكوتين منعشة ومنشِّطة، تسهل على ماضغها العمل بنشاط، وتساعد التُّجار على قطع المسافات الشَّائعة في الصحراء الكبرى دون عطش أو جوع أو إعياء شديد، وبمرور الزَّمن فإنَّ ثمرة الغُورو قد تغلغلت في الحياة الاجتماعيَّة والثَّقافية لشعوب أفريقيا، فيرسلها الخاطب إلى أولياء المرأة التي يريد الزَّواج بها وقبولها يعني قبول الخطبة، وترسل إلى الخصوم طلبًا للصُّلح، ويتهاداها الأصدقاء، وقد وردت في هذا الكتاب بين أيدينا عدَّة مواضع تشير إلى مهاداة الأفراد لجوزات الغُور بعضهم لبعض، ينظر: [ص١٨٠، ٢٣٣، ٢٨٨، ٢٩٣]، حتى في الطُّقوس السِّحريَّة والأدوية الشَّعبية، فإنَّ الغورو جزء مهمٌّ فيها. هذا، وقد قامت تجارة الغورو وزراعتها بأثرٍ كبير في حركة التجارة بين شعوب غرب أفريقيا، وفي حركة المد الإسلاميِّ في أعماق الغابات جنوبًا، وذلك منذ القرن الثاني عشر الميلادي، فإنَّ دخول الإسلام في منطقة الأشانْتي مثلاً (وهي غانا الحالية)، يعود في جلِّه إلى تجار الغُورو من الهوسا. ويُطلق مثلاً على المناطق المتاخمة لمزارع الغورو «وُرو-دُغو» أي بلاد الغورو، وهي المناطق التي انطلقت منها الحركات الدَّعويَّة صوب المناطق الغابيَّة في غينيا وفي ساحل العاج. على أنَّ حركة تجارة الغورو قد تخطَّت القارة الأفريقيَّة منذ أواسط القرن التَّاسع عشر الميلادي إلى البرازيل والدُّول الأخرى وراء الأطلسيِّ، =

بِيتُ إلى فَنْكَاسُ،[1] وكَيَّاكَ إلى سِنْقِلُ، وفُوتَ وزَارَ وعربُها في زمانهم الأوَّل.



= ودخلت ثمرة الغورو في تصنيع المشروبات المعروفة بالكولا. ينظر: Paul E. Lovejoy. "Kola in the History of West Africa", Cahiers d'Etudes Africaines, Vol 20, Cahier 77/78, (1980), pp97-134.

(١) بيتُ، ويكتب أيضًا: بيطُ (السعدي، باب٥ ص١١)، وكانت من المناطق ذات الحضور القديم في مملكة صونغاي، ومنها العالم: محمد فودي سانو الونكري، ومن مدنها بِيغو (Bighu/ Begho)، وكانت مركزًا تجاريًّا مهمًّا بالمملكة، وموقعها وسط غانا الحالية، وإليها كان ينتهي طريق تجاري من جيني، وتتفرع عنها طرق تجارية صغيرة موغلة جنوبًا في الغابة حيث مناجم الذهب في بلاد الأشانتي والدَّاهومي.

الباب الثَّالث

مملكة كَيَّاك (١)

ولا يَتَوَلَّى مُلْكَ كَيَّاكَ إلاَّ عبيدُهُ وأمراؤه، ولا يَدْخُلُهُ إلاَّ يَعْت، (٢) ثُمَّ بعد ذلك

---

(١) كيَّاك:(Kaniaga) من الدُّويلات التي قامت إثر تفكُّك غانة القديمة، كانت تحت زعامة عشائر صوصو، وهي المجموعات الجنوبيَّة لقبائل سوننكي، وكانت تتميَّز آنذاك بغلبة الوثنيَّة عليها؛ لبعدها النِّسبي عن روافد المدِّ الإسلاميِّ الأولى، خلافًا للسُّوننكي الشماليِّين. وقد توسَّعت مملكة كياك على حساب جاراتها خاصة في أيَّام ملكها المحارب سُومانْغورو كانْتيه (Sumanguru Kante) الملقَّب بالملك السَّاحر، وهو الَّذِي استولى أخيرًا على دِيَر في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وفي عام (١٢٠٣م)، استولى على ما تبقَّى من مملكة غانة، وحين استولى على غانة، اضطهد المسلمين بها. وإلى سومانغور هذا يُعزى إزعاج حركة التِّجارة في بلاد السُّودان، ونزوح المسلمين من غانة العاصمة إلى بلدة بِيرو (Biru) السُّوننكيَّة التي اشتهرت فيما بعد باسم ولاتة، ولعلَّ تلك الظروف ما أشار إليه المقري أنَّ أبا الرَّبيع سليمان بن عبد الله (ت٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م)، والي سجلماسة في عهد الموحِّدين، كتب خطابًا إلى ملك السُّودان في حدود عام (١١٩٩م)، ينكر عليه تعرُّضه لبعض التُّجار المغاربة (المقري، أحمد بن محمد. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م، ٣/ ١٠٥). وقد زادت أطماع سومانغورو التَّوسُّعيَّة في الممالك المجاورة له؛ فاتَّجه جنوبًا، واستولى على مملكة المادينغ في كانغابا (Kangaba)، لكنَّ المادينغ أعادوا صفوفهم، وتجمَّعوا تحت إمرة البطل صونجاتا كايتا، وألحقوا بسومانغورو هزيمة نكراء، وقُتل حوالي (عام١٢٣٥م)، وضُمَّت جميع أراضيه إلى مملكة المادينغ الجديدة. بعد ذلك هاجرت فلول قبائل صوصو عائدةً إل منطقة تكرور، وبها أعادت تنظيم هيكلها السِّياسيِّ بتأسيس دولة عاشت حتى عام (١٣٥٠م)، حين سقطت إثر غارات قبائل وُلوف عليها. ينظر: Desmond Clark, J.D Fage, The Cabridge History of Africa, Vol (3), p352.

(٢) يعت: من قبائل السُّوننكي التي كانت لها السيادة بمنطقة كِنْكِ (نيورو الحالية شمالي مالي)، وكانت زعامة تابعة لمملكة مالي.

رجع أمرُهُ إلى جَازٍ، ثُمَّ غلبَ على تِلْكَ البُلْدَانِ أهلُ كَيَّاكَ، وخَرَجُوا في طاعَةِ مَلِّكُيْ وقَتَلُوا أمِيرَهُ وخالفُوا عليه، وتَسَلْطَنَ فيها أولادُ جَاوَرَ، وتلقَّبوا كَيَّاكَ. وقَوِيَتْ دَوْلَتُهُمْ وعظُمَت مُلْكُهُمْ وقَهَرُوا أهل تِلْكَ الجهَّة، وقاموا بالمحاربة وَعَظُمَ جيشُهُ، وكثُر حتَّى كان يَخرُجُ إلى القِتَال في نيفٍ وألفين من الخيل.

وكان بأرض كَيَّاكَ مدينةٌ عظيمةٌ قديمةٌ سبَقَتْ زَارَ بناءً وإمارةً، واسمُهَا سَائِنْ دِنْبَ (بسينٍ مُهْمَلَة مَفْتُوحة فألفٍ مَكْسُورة بعدَهُ همزةٌ مكْسُورةٌ فَنُونٌ ساكِنَةٌ)، وهو بلد الجَافْنَاوِين الذين يُقالُ لهم جَافُنْكِ، وهي موجودةٌ مِنْ زَمَنِ كَيَمَع، ثُمَّ خَرِبَتْ عند انْقِراضِ دَوْلَة كَيَمَع في أيَّام فِتْنَتِهِمْ.

وبعد خرابته بُنِيَتْ زَارَ. ورحلَ بعضُهم إلى كُسَاتَ،[1] وهُم المسمُّون بِكُسَ، وبعضُهم إلى زَارَ، وهم قد غلَبَ عَلَيْهِمْ كَيَّاكَ فَرَنْ وَسَلَب مُلْكَهُم، وعلى جميع عَرَبِهَا إلى فُطُطِ وتِشِت وتَكَنكَعَ.

وأرذَلُ النَّاسِ وأصغَرُهُم عندهُمْ هو فُلَنْ، يَغْلِبُ رجلٌ واحدٌ منهم عشرةً من الفُلاَّنِيِّين. وأكثرُ ما يَأخُذُونَ من طاعَتِهِمْ مِنَ الغَرامة الخيْلُ، إلاَّ أنَّ مُلوكَهُم ليس عَلَيْهِمْ هَيْبَةُ الملُوكِ، ولا يجلسُون

[ص٤٠]

في زيِّ الملوك، ولا يخرُجُونَ في زينتهم، ولا يلْبَسُون العِمَامَةَ. ولا يجلسون على الفُرشِ، إنما هو في الفُلانيِّين أبدًا، وربَّما يجلسُ بين أصحَابِه مختلطًا بهم، ولا يُعْرَفُ مِنْ بينهم. ولا يملك مع كثْرة خُيُولِ جَيْشِهِ إلاَّ فرسًا واحدًا أبدًا، عادةٌ جَارِيَةٌ فيهم، مَعَ قُوَّةِ سَلْطَنته. ولا يخرجُ مِنْ بيته إلى زيارةِ أحْدٍ، ولا يخرُجُ مِنْ بيته

---

(١) كسات: منطقة قريبة بين نْيورو وغومْبو الحالية.

إلاَّ إلى الجِهَادِ فَقَط. ولا يَدْخُلُ المسْجِدَ إلاَّ لصلاة العيد لا غير. وكانوا يَقُولون: كفى المَلِكَ زينَةً مُلْكُهُ وسَلْطَنَتُهُ، ولا يحتاجُ إلى الزِّينة بعد ذلك.

ومرَّ كُرْمِنَ فَارِ على كَيَّاكَ إلى تَنْبِضَ[1] ملك فُوتَ، وخافَهُ كَيَّاكَ فَرَنْ وتحيَّر وظنَّه يأتيه، وبعث إليه الهدايا يطلُبُ رِضَاهُ. قيل إنَّ كَيَّاكَ فَرَنْ وقع بينه وبين تَنْبِضَ مَلِكِ فُوتَ أمورٌ وخُصُومَةٌ وتشَاجُرٌ، وحَلَفَ بأنْ يَكْسِرَ بلدَهُ ويُصَيِّرَهُ صحراء، وكان أقْوَى مِنْهُ قُوَّةً وخيلاً ورجالاً؛ فاستَغَاثَ لذلك بكَنْفَارِ عمر؛[2] ولذلك خَرَجَ إليه. وهذا أوَّلُ ما سمعنا من القِصَّة، ثُمَّ أخبرني بعضُ العارفين بسِيَرِهِمْ أنَّ سبَبَ خُرُوج

(١) تَنْبِضَ :(Tengela/Tenguella) ورد ذكر هذا الزَّعيم الفولاني في تاريخ السودان عند السَّعدي، (ص٧٧). وهو المعروف بـتَنْغيلا جاجي باهْ (Tenguella Diadie Bah)، كان زعيما قبليًّا (ardo) بمنطقة ماسينا؛ فانتقل منها واستقر بمنطقة كنغي (Kingi) شرقيَّ صونغاي، وبها أسس مملكة دينيانكي (denyanke)، وتوسعت نفوذه حتى احتلَّ مواضع في جارا، ونيورو وبامْبوكْ أهمّ منجم ذهبي آنذاك. كان تنغيلا يلقب بسيلاتيغي (silatigui)، أي صاحب الطريق (المرشد)، وهو لقب روحي يحرزه الملك بعد تضلعه في علوم الأسرار الطبيعية والطقوس السحرية الخاصة بقبائل الفولاني، ويؤهله ذلك للتوسط بين عالم الأموات السلف وبين الأحياء، وهذا - بالذات - سببُ وصف ابن المختار له بالمتنبي، وهو كذلك من الأسباب المباشرة لمحاربة أسْكيا له. بعد مقتل تنغيلا، تابع ابنه كولي قيادة قبائل الفولاني غربًا إلى فوتا تورو، وبها بنى حصنًا منيعا سماه (geme-sangan)، أي حصن الحجَر. هذا ومن الواضح أن مملكة دينيانكي الفولانية قد أسرعت في الالتزام بالخط الصحيح للإسلام، والبعد عن وثنيات مؤسِّسها، وقد شهد السعدي بأن ابن كولي الثاني، وهو السلطان كلاديو تبارا (galadyo Tabara)، «فاضل خيِّرٌ عدل قد بلغ الغاية القصوى في العدالة». كما وصف حفيد كولي السلطان سامْبا لامْ بأنَّه «قد حاول في العدالة نصيبه، فنهى عن الظلم ولا يقبله البتة».(السعدي، ٧٧). ينظر: Djibril T. Niane, Hiostoire des Mandingues de l'Ouest, P57-59.

(٢) كنفاري وكُرمنَ فاري: لقبان بمعنى واحد، والأوَّل بمعنى وليِّ العهد، والآخر نسبة إلى مدينة كُورمينا مسكن ولي العهد.

كُرْمِنَ فَارِ عمر إليه أنَّ أحدَ الزَّغْرَانيِّين[١] من أهل سُغُيْ كان يخرجُ كُلَّ سَنَةٍ إلى فُوتَ ويَتَّجرُ فيها، وسمع بهِ تَنْبِضَ وأخَذَ مَالَهُ ظُلمًا وجورًا وأرادَ قَتْلَهُ، وهرب إلى كُرْمِنَ فَارِ عمر، وسَعَى به إليه ونمَّ عليه عندَهُ وقال إنَّهُ يَشْتُمُ كُرْمِنَ فَارِ عمر، وَوَقَع فيه وأغْضَبَهُ؛ ولذلك خَرج إليه.

وقد بلغ أهلُ سُغُيْ في الحرب وَعِلْمِ القِتَال والشَّجَاعة والنَّجْدَةِ ومعرفَةِ المكيدَةِ غايةً ونهاية. انظرْ كيف خرج كُرْمِنَ فَارِ بهذا الجمِّ العَرَمْرَم الكثِيفِ وقَطَعَ بها هذه المفَازَةَ البَعِيدَةَ إلى قتال تَنْبِضَ ملك فُوتَ، مَسيرة نيفٍ وشهْرَيْنِ من تَنْدِرْمَة إلى فُوتَ، وكيف ظفر فيهم وتمكَّنَ من مَلِكِهِمْ وقَتَلَهُ وغَنِمَ فيهم الأموالَ الجسِيمَة. وكان ذلكَ في عَام ثَامِنِ

[ص٤١]

عَشَرَ بعد تِسْعِمِائَة.[٢]



(١) الزغراني :(Zughurani) قبيلة تنتمي إلى الفولانيين، يقال لها بالفولانية (Diawambe) قيل إنها كانت في غضون القرن العاشر الهجري مستقلَّة ومنفصلة عن الفولانيين، ولكنها انصهرت مؤخَّرا واندمجت في الفولانيين، وفي تاريخ السعدي أنَّ صن علي قام بحملة عسكرية (عام٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م) على الزَّغْرَانيِّين وعلى الفولبي حيث فرَّق المؤرِّخ بين القبيلتين. ويبدو أن الزَّغْرَانيِّين من القبائل التي تأخر إسلامها نسبيًّا في بلاد السودان. قال عنها السعدي: «لا تعرف بالصلاح، ولا بحسن الإسلام»، وذكر أنَّ الفقيه القاضي عبد الرحمن بن محمود استؤذن على جنازة؛ فقال من هو؟ قيل: زغراني؛ فقال: نصلي عليه؛لأجل الشيخ مَسِر، أي الشيخ الفقيه مَسِر بوبَ الزغراني، وكان من مشاهيرهم الصالحين فاضلا عابدًا زاهدا. (السعدي، ص٥٢).

(٢) النصوص من قوله: «.... أنَّ كيَّاك فرن وقع بينه وبين تنيض...» حتى نهاية هذا الموضع مكرَّرة حرفيًّا في [ص٧٧].

الباب الرابع

دولة كَيَمَع

وأمَّا سَلْطَنَةُ مَلٍّ ما استقَامَتْ إلاَّ بعد انقراضِ دَوْلَةِ كَيَمَعَ سُلْطَانِ المغربِ كلِّه،[١] بلا استثناء مَكَانٍ مَّا مِنْهُ. وسُلْطَان مَلٍّ من عَبِيدِهِ وخَدَمِه ووُزَرَائِهِ، وكَيَمَع (بكافٍ فياءٍ وميمٍ وعَيْنٍ مفتوحات)، معناه في لغة وَعْكُرُيْ: مَلِكُ الذَّهب، كَيَ: هو الذَّهب، ومَعَ: المَلك.[٢]

وهو سُلْطَانٌ عظيمٌ. وأخبرني بعضُ الموثقين عن الفقيه قاضي ماسِنَة ألْفَعْ أيْدَ

(١) المراد بالمغرب هنا المناطق الواقعة غربيَّ تمبكتو، أي منطقة حوض نهر السنغال إلى سواحل المحيط الأطلسي، وهي المنطقة التي كانت بها مملكة تكرور.

(٢) ذهب الباحث بوغس إلى أنَّ «كَيَمغ» (Kaya Maghan)، تحريف للتَّعبير السوننكي (kenwe wa maxha)، وأنَّه يعطي المعنى نفسه أي: مالك الذَّهب. ينظر: Degra Byd-guggs. Camel Treks, p6)، وقد كان هذا لقبًا ملكيًّا يطلق على كل ملك في أسرة سيسي في غانة القديمة، وهو لقبٌ مماثلٌ للقب «امْوِيني موتابا» (Mwenemutapa)، في مملكة زيمبابوي الكبرى؛ لكثرة الذَّهب بتِلْكَ المملكة، وقد عُثر فيها - كما يقول المورِّخ دافيدسون - على أكثر من ستين ألف منجم ذهب. ينظر: Basile, Davidson. Africa) from the Twelth to the 16th Century, p6.). أما زعم دولافوس بأنَّ «كَيَمغ» يعني: الملك الَّذِي يُخصي، وادِّعاؤه بأن ملوك غانة كانوا قد خوَّلوا أنفسهم حقَّ إخصاء كلٍّ من يخالفهم، فذلك وهمٌ بناه على الاشتراك اللَّفظي لكلمة (كايا) التي تعني العضو الذَّكريَّ كما تعني الذَّهب بلغة المادينغ، ولا شكَّ أنَّها تعني هنا: الذَّهب، ومن المستبعد أن يكون معنى «كَيَمغ»: الملك الَّذِي يُخصي؛ لما فيه من بذاءة وتعسُّفٍ وإشارة إلى الظُّلم والاستبداد، وملوك غانة كانوا أحرص في رسم صورة إيجابيَّة عن أنفسهم، وأن يبدوا حامين للعدالة في ممالكهم. ينظر: (Hunwick, O. John. Timbuktu and the Songhay Empire, p13).

الماسني،[1] أنَّ كَيَمَع من الملوك الأوائل، وقد مضى منهم عِشْرُونَ مَلكًا قبل ظهُور رَسُول اللهِ ﷺ، واسم بلده قُنْبِ. قُنْبِ مدينةٌ عَظِيمَةٌ.[2] وكان انقراضُ دَوْلَتِهِم في القَرْنِ الأوَّل من الهجرة النَّبَوِيَّة. وحَدَّثَنِي بعضُ السَّلَفِ أنَّ آخِرَهُمْ كَنِسَعَيْ (بكاف مَفْتُوحة فَنُونٍ مكسورة وسينٍ مُهْمَلَة وعَينٍ مَفْتُوحة قبل ياء ساكنة)، وهو الملك في زَمَنِ رَسُول اللهِ ﷺ، ولهُ بَلَدٌ اسمه كُرُنْكَع، وهو مَسْكَنُ أمِّه، وهي الآن باقيةٌ عامِرَة.

ويُقَالُ إنَّ له ألفَ خَيْلٍ مَرْبُوطِين في داره. عادةٌ معروفَةٌ إنْ ماتَ واحدٌ منهم في صُبْح جيء بآخَرَ مكانَهُ عِوَضَهُ قبل المساء، وفي اللَّيل كذلك. ولا ينَامُ واحدٌ منهم إلاَّ عَلى زَرْبِيَّة،[3] ولا يُرْبَطُ إلاَّ بحرير في عُنُقِهِ وفي رِجْلِه. ولِكلٍّ مِنْهُم آنيَةٌ منَ النُّحَاس يَبُول فيها، لا يقْطُرُ من بَوْلِهِ على الأرض قطرةٌ إلاَّ في الإناء، لا في ليلٍ ولا في نهار. ولا ترى زبلاً واحدًا تحتَ واحدٍ منهم، ولكلٍّ منهم من الخدَم ثلاثةُ أنْفُسٍ يجلسُونَ تحته، واحدٌ منهم يقومُ بِعَلَفِهِ، وواحدٌ منهم بِسَقْيِه، وواحدٌ منهم مُوَكَّلٌ على رَصْدِ بَوْلِهِ وحمل زَبله. هكذا أخبرني به الشَّيْخُ مُحَمَّد تُكَادُ بن مُور مُحَمَّد بن عبد الكريم فُوفَنَ، (رَحِمَهُ الله).

---

(١) أيْدَ: معناه ابن، وبه عُرف الفقيه محمد التازختي، وكان يطلق عليه: محمد أيد أحمد، وهو ممَّن لقي الإمام المغيلي، والقلقشندي، واللقاني. (السعدي، ص٣٩.)

(٢) قُنب: أو كومْبي صالح (Kumbi Saleh)، هي المدينة الأثريَّة المكتشفة التي يُحتمل أنَّها هي مدينة قُنب المذكورة، وأنَّ البكري وصفها عاصمةً لغانة القديمة، وذكر أنَّها مؤلَّفة من مدينتَين على غرار معظم الحواضر السُّودانيَّة: إحداهما هي مقرُّ الملك، وتدعى «الغابة»، والأخرى تجاريَّة بها المسلمون، بها اثنا عشر مسجدًا. و(قُنب/وَغَدو) هما التَّسمية المحليَّة لغانة. كان اكتشاف آثار كومبي صالح الأولى على يد الحاكم الفرنسي ميزييرْ (Bonnel de Mezi re)ة عام (١٩١٤م)، وتقع على حوالي (٢٠٥ميل = ٣٣٠كلم) شمال باماكو عاصمة مالي الحديثة.

(٣) الزَّربيَّة: هي الوسادة تبسط للجلوس عليها، وجمعها (زَرابيّ)، وفي التَّنزيل الحكيم: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (الغاشية: ١٦). أمَّا (الزَّريبة) بتقديم الياء على الباء، فهي حظيرة الغنم.

وكان)أي كَيَمَع(يخرج بعد

[ص٤٢]

عشاءَ كلِّ ليلة يَسْمُرُ مع قَوْمِه. ولا يخرجُ حتَّى يجمَعَ عليه ألفَ حُزْمَةٍ، ويجمعُوها في باب دار مملكته، ويُوقَدُ تحتَهُ نارٌ ويشتَعِلُ مرَّةً واحدَةً، ويضيء لهُ ما بين السَّمَاء والأرْضِ وَيُشْرِقُ البَلَدُ كُلُّهُ، ثُمَّ يأتي ويجلسُ على مَنَصَّةِ الذَّهَبِ الأحمر، وسمعتُ بعضَ من حَدَّثَنِي بالقِصَّة، وقال ألف شقَّةٍ من الكَتَّان، لا ألف حُزْمَةٍ من الحطب، ثُمَّ إنْ جلس يأمر بعشرة آلافٍ من الموائد، ويأكُلُونَ وهو لا يَأكُلُ،[1] فمتى تمَّ الأكلُ يقوم ويدخل، ولا يقُومُون حتَّى تَصِير الحزْمَاتُ رَمَادًا، ثُمَّ يقومون. وهذا على الدَّوام.

ثُمَّ أفنى الله مُلْكَهُم وسلَّط أرذَالهم على كُبَرائِهِمْ من قَوْمِهِمْ واستَأصَلُوهُمْ، وقتلوا جميع أولاد مُلُوكِهِمْ، حتَّى يبقرُوا بُطُونَ نسائِهِمْ ويخرِجُوا الجنِينَ ويَقْتُلُهم.

واختُلِفَ أيُّ قبيلةٍ هم كانوا منها: قيل من وَعْكُرُيْ، وقيل من وَنْكَرَ، وهو ضعيفٌ لا يصحُّ. وقيل من الصَّنْهَاجَة، وهو أقربُ عندي، لأنهم يقُولُونَ في نَسَبِهِمْ أسْكُعُ صُوبَ (بهمزةٍ مَفْتُوحة فسينٍ مُهْمَلة ساكنة فكافٍ مَضْمُومةٍ فعَيْنٍ مَضْمُومةٍ)، وهو حَمْ في اصطلاح سُودَان لقبًا. والأصَحُّ أنهم ليسُوا من السَّوادِين، والله أعلم. وقد بَعُدَ زَمَانُهُمْ ومَكانُهُمْ علينا، ولا يَتَأتَّى لمؤرِّخٍ في هذا اليَوْم أنْ يأتي بِصِحَّةِ شَيءٍ مِنْ أمُورهمْ يَقْطَعُ بها، ولم يَتَقَدَّمْ لهم تاريخٌ؛ فيُعْتَمَدُ عليه.

---

(١) من العادات القديمة في ممالك أفريقيا ألا يأكل الملك بحضرة العامة، وفي بعض المصادر إشارات إلى هذه العادة، منها ما ذكره العمري عن مانسا موسى أثناء جوازه بمصر للحج، قال: «ومن عادة هذا السلطان أنه لا يأكل بحضور أحد من الناس كائنًا من كان. بل يأكل دائما وحده بمفرده» (مسالك الأبصار، ص١١٩).

الباب الخامس

شِي عَالِ

وقد آنَ أنْ نَرْجِعَ إلى المقصُودِ منْ ذكر تَرَاجُم الأساكي، فقد أطْنَبْنَا في هؤلاء وسَلَكْنَا مَسْلكًا لم نقصُدْ مما ليس لهُ طائِلٌ، ويكادُ أن يكونَ أكثَرُهُمْ أكاذيبَ، ونستغفره تعالى: سُبحانَك اللَّهُمَّ وبحمْدِكَ، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ أنْتَ، أسْتَغْفِرُك وأتُوبُ إليك.(١)

ثُمَّ بعد شِي بارُ:(٢) دَلْ يُنْبُ، ثُمَّ شِي مَادُعُو، ثُمَّ شي مُحَمَّد كُوكِيا، ثُمَّ شِي مُحَمَّد فَارَ، ثُمَّ شي بَلْمَ، ثُمَّ شي سِلْمَانَ دَامَ - وفي بعض الرِّوايات دَانْدِ هو اسمه، وهو جَدُّ أهل بَلَدِ أَرْحُمِ، وهو الَّذِي غلب أهل أرض مِيمَ وكَسَّرَهُم

[ص٤٣]

وأفسَدَ مُلْكَهُم، وكانوا قبل ذلك في مُلْكٍ عظيمٍ وقوَّةٍ قاهرة، خرجوا عن سُلْطَان مَلٍّ، وكان في مِيمَ اثنا عَشَرَ مَلِكًا، ورأسُهُمْ مِيمَ فُنُ، ومنهم أيْ من أُمَرَائِهِمْ: تُكِفِرِ سُومَ، وهو الَّذِي يقف عليه سُلْطَان ماسِنَ ويَأخُذُ التُّرابَ له ويُبَايِعُه

---

(١) يغلب الظنُّ أن هذه الفقرة مقحمة هنا، ولعل أنسب محلٍّ لها نهاية الفقرة الموالية لها، أي بعد جملة: «ويلقى به في موضع بلده الخربة...».

(٢) من الواضح سقوط جزء - لا نحسبه يسيرًا - هنا؛ إذ إن سياق الحديث والبدء بسلسلة الملوك بهذا الشكل دون أن يكون لشي بارُ سابق ذكر، يدل على سقوط جزء من الكلام. ويقوي ذلك قوله: «فقد أطنبنا في هؤلاء...»، ويحتمل أن يكون محمود كعت قد أورد في هذا الجزء الساقط أقاصيص كثيرة عن ملوك كيمغ، وهي روايات شفاهية تغلب عليها الصفة العجائبيَّة، ولعلَّ ذلك ما دعا ابن المختار محرر الكتاب أو النساخ من بعده إلى إسقاط هذا الجزء.

ويَقْلَعُ له قمِيصَهُ ويتأزَّرُ به قُدَّامَهُ. وأثَرُ مَدينَتِهِ هُنالِكَ مخرُوبَة، واسم ذلك الملك إلى الآن باقٍ ذليلٌ يمشي على رِجْلِه بلا دَابَّة، وقد زَالَ مُلْكُهُ وبقِيَ اسمُهُ، فسُبْحانَ الملِك الدَّائم! ويزُورُهُ سُلْطَانُ ماسِنَ إلى الآن يَزْعُمُ أنَّهُ يَتَبَرَّكُ به ويَطْلُبُ دُعَاءَهُ وإذْنَهُ، وينزلُ عن دابَّتِهِ؛ لتَحِيَّتِهِ تَعْظِيمًا له، ويلقى به في موضعِ بلده الخربة.[1]

ثُمَّ خَلَفَ سِلْمَانَ دَامَ الظَّالِمُ الفَاجرُ الملعونُ المسَلَّط شِي عَالِ[2] وهو آخرُهم مُلكًا الَّذِي سارت الرِّفاقُ بِقُبح سيَرِهِ. وكان مَنْصُورًا وما قابَلَ أرضًا قَصَدَهُ إلاَّ خرَّبَهُ، وما كُسِرَ لَهُ جَيْشٌ كان فيه قطُّ؛ غالبًا غير مغلوب. لم يتركْ بلدًا ولا مدينةً ولا قريةً من أرض كَنْتَ[3] إلى سِبِرِدُكُ إلاَّ وقد جرى خيلُه فيه وحَارَب أهْلَهُ وغارَ عَلَيْهِمْ.

---

(١) مملكة مِيمَا :(Mema) من الممالك التي برزت وتألَّقت إثر تدهوُر مملكة غانة الكبرى. كانت تقع بين نهر ديبو ونامْبالا (Nampala) في الجنوب الشَّرقي لجمهوريَّة مالي الحديثة. ويرد ذكرها عادةً في التواريخ مقرونًا بمملكة المادينغ بقيادة صونجاتا؛ إذ كانت الملاذ الآمن الَّذِي لجأ إليه صونجاتا فرارا من الطاغية سُومنغورو (Sumanguru) آخر ملك صوصو، وقد آواه ملك ميما موسى تُنكارا، وأمدَّه بالعتاد وبالجند لمحاربة سومنغورو واستعادة مُلك أبيه، وحين ظفر صونجاتا، وقهر ممالك السُّودان الغربي، تمتَّعت مملكة ميما باستقلال نسبي، وبحماية إمبراطورية صونجاتا، وكان يُطلق على ملوكها تُنْكارا، وعليه يرى بعض المؤرخين أنَّ مملكة ميما هي المقصودة في حديث العمري عن مملكة غانة حين ذكر أنه.. «ليس في مملكة صاحب هذه المملكة مَن يطلق عليه اسم مَلك إلاَّ صاحب غانة، وهو كالنَّائب له، وإنْ كان ملكا» (المسالك، ص١١٠). سقطت مملكة ميما عام (٩٤١هـ/ ١٤٦٩م) باحتلال الملك شي سِلمانَ دامَ عاصمتها. كما هو مذكور هنا.

(٢) لم يرد عند ابن المختار استخدام لقب «سُن» لملوك صونغاي. كما لم يرد عند السعدي استخدام لقب «شي» لهم. ولعلَّ سبب هذا الاستخدام هنا وهناك يرجع إلى الاختلاف اللَّهجي بين الكاتبين، أو إلى الاختلاف الزَّمني الَّذِي غلب فيه لقب على آخر، وكان لقب «شي» هو المتقدم.

(٣) كَنت: مملكة أو زعامة في القرن الخامس عشر والسَّادس عشر، كانت واقعة شرقي نهر دَندي، =

ومعنى شِي، على ما وقفتُ عليه من خطِّ بعضِ أئمَّتِنا: محمود. قال معنى شِي: كُيْ بَنَنْدِ، أي خليفةُ السُّلْطَان أو بَدَلُهُ أو عِوَضُهُ. وهو سُلْطَانٌ جَبَّارٌ قاسي القلب، يأمر بإلقاء الطِّفل في المهْرَاسِ ويأمُرُ أمَّهُ أنْ تَدُقَّهُ، وتَدُقُّهُ الأمُّ وهو حيٌّ، ويُطْعِمُهُ للخُيُولَ، وكان فاجرًا فاسقًا. وسُئِلَ بعضُ شُيُوخ عَصْرِه من أهل مُورْ كُيْرَ: هل هو مُسْلمٌ أو كافرٌ؟[1] بأنَّ أفعالَهُ أفْعالُ الكفَرَةِ وهو يَنطقُ بِكَلْمَتَيْ الشَّهادَةِ ومن له قوَّة في العلم.

وانظر في أفعال كُفْرِه يَقْتُلُ الفُقَهَاء، وكَمْ مِنْ قُرًى هدَّمَهَا وقتَلَ أهَاليه بالنَّار، يُعَذِّبُ النَّاسَ بأنواع العَذابِ وتارةً يحرقُ بالنَّار ويقتُلُ به، وتَارَةً

[ص٤٤]

يبني بيتًا على حيٍّ ويموتُ تحته، وتارةً يَبْقُرُ بطْنَ امرأةٍ حَيَّةً ويُخْرِجُ جنِينَهَا. وفيه من سيِّءِ الأعْمَالِ وسُوءِ الرِّعَايةِ ما لا يَسَعُ هذا المجموعَ حَصْرُ بَعْضِه.

وَلِيَ سَلْطَنة سُنْغُيْ سنة تسعٍ وستِّين من القرن التَّاسِع، ومَكَثَ فيها سبعًا وعشْرين سنةً وأربعَةَ أشهرٍ وخمسةَ عَشَرَ يومًا، وهي سنة سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وثمانمائة. هكذا نقلتُه من «دُرَرِ الحِسَان في أخْبَارِ بعضِ مُلُوك السُّودَان» تأليف بابَ كُور بن الحاج مُحَمَّد بن الحاج الأمين كانو.

ومَا له مِنَ الأعداءِ عَدُوٌّ مَسْخُوطٌ عليه يَبْلُغُ عنده فُلَنِ، وكُلُّ مَنْ رآه بِعَيْنِه من الفُلانيِّين إلاَّ قَتَلَهُ، لا عَالم ولا جَاهِل، لا رجَال ولا نسَاء، لا يَقْبَلُ للعَالم منهم لا صَرْفٌ ولا عدْلٌ. قتَلَ قبيلةَ سَنْقَرٍ حتَّى ما أبقى منهم إلاَّ طائفةً يَسِيرَةً، اجْتَمَعُوا كلُّهم

= شماليَّ داهومي، وتُعرف بمملكة كيبي (Kebbi)، ويطلق على زعمائها «كانْتا». أمَّا سِبردك/ سبريدوغو، فهي منطقة سيغو في جمهورية مالي الحاليَّة.

(١) كأنَّ هنا كلمات ساقطة مثل: فأجاب بأنَّ أفعاله...

في ظِلِّ شجَرَةٍ واحدةٍ وَوَسِعَهُمْ كلَّهُم. وكان يأخُذُ بعضَ أحرار المسْلمين ويُعْطيهِم لبعْضِهِمْ ويَزْعُمُ أنَّهُ يتَصَدَّقُ بهم عَلَيْهِمْ.

وكان أهلُ زمانه وجُنُودُه يُلَقِّبُونهُ بدَالِ، وبه يعَظِّمُونَهُ. وما نادى أحدًا منهم إلاَّ أجابه دالِ، (وهو بدالٍ مُهْمَلة وألفٍ ممدودة ولامٍ مَكْسُورة)، وحَدَّثَنِي بعضُ أصحابنا، وهو مُحَمَّد وانْكَر بن عبد الله بن سَنْجُوَك الفُلاني (رَحِمَهُ الله)، أنَّهُ سمع القَاضِي أبا العَبَّاس سيِّدي أحمد بن أندَغْ مُحَمَّد (رَحِمَهُ الله) يقول إنَّه لا يجوزُ أنْ يُلقَّبَ أحدٌ به، لأنَّ معناه: تعالى، وهي تختصُّ بربِّ العزَّة وهو الله تعالى. وكذلك دُولِنْتَ (وهو بدالٍ مهملة فواوٍ ممدودَةٍ فنُونٍ ساكنة فتاءٍ مَفْتُوحة)، وبعضهم يقول «دُورِنْتَ» (بالرَّاء) فهو خطأ، قال: معناه عَبْدُ المولى، وأعني بالمولى: شي لعنةُ الله

[ص٤٥]

عليه. ودالِ هذا لا يقالُ[1] اليوم إلاَّ لكُومَكُيْ وجِنِّ كُيْ، وينبغي أن يتنبَّهَ أهلُ الوَرَعِ والطَّلَبةُ عن ذلك.

وكان شي هذا فرغ أيَّامَه في الغَزَوات، وكان دارُ سَلْطَنَتِه في كُوكِيا[2] وفي كَاغُ وفي كَبَرَ، ودار يُقالُ له تِلَ، وفي وَرَعْ من أرض دِرْمَ يجاورُ بلد أنْكَبَ ويقابل بلد جِنْجَوْ. ولا يستقرُّ في أحدٍ منها. وكان مَنْ تَقَدَّمَهُ من شِيِّين يسْكُنُونَ في

(١) في الأصل (يقالها) بزيادة الهاء.

(٢) كوكيا (أو كوكِيَ، كُوكيَة): هي العاصمة الأولى لمملكة صونغاي في عهد ملوك زا وملوك شي. تقع كوكيا عند ثنية نهر النيجر، ويغلب الظنُّ أنها هي مدينة كوكيا-بِنتيا (Kukiya-Bentia) الموقع الأثري الواقع في حدود مالي والنيجر الحالي. نُقلت عاصمة صونغاي من كوكيا إلى غاوْ شمالاً في القرن الخامس الهجري (=الحادي عشر الميلادي) وذلك إثر ازدهار غاوْ، وإسلام ملوك زا.

كُوكِيا إلاَّ شِي عَالِ هذا الفَاجِرُ، هو في الغَزَوَاتِ أبدًا.[(١)]

وخرج في أوائل سَلْطَنَتِه إلى بلد دِيَرَ. وسمع بخبر سُلْطَان مُوشي المسَمَّى كَمْدَاغُ، وارْتَحَل من دِيَرَ والتَقَيَا في كُبِ، وهَزَمَ جيْشَهُ وَتَبِعَهُ إلى بَنْبَرَ، ونجا بنفْسِهِ حتَّى دخل في بَلَدِهِ في دار مملكته المسمَّى أرْقُمَ، ثُمَّ رجع شي عليّ، ومعه تُنْبُكْتُ كُيْ مُحَمَّد نَضْ، وأسْكِيَ مُحَمَّد وأخوه كُرْمِنَ فَارِ عمر ومُحَمَّد نَضْ سُلْطَان تُنْبُكْتُ[(٢)] وفَرَنْ أُفُنْبَ وأبو بكر وفَرَنْ عثمان في ذلك الغزو.

وطلعَ على شِي عليٍّ شَهْر رَمَضَانَ في بَنْبَرَ، وصلَّى العيد في كُتْنِع، ورَجَعَ إلى كُونَعَ، وخرج في كونع إلى بِسْمَ وقتَل بِسْمَ. ومَضَى إلى تَمْسَغْ، وطلع عليه شَهْرُ رَمَضَانَ في تَمْسَغْ وصلَّى فيها العيد، ثُمَّ دخلَ في إثر بَيْدَانْ حتَّى انْتهَى إلى دَاعْ، وقَتَلَ مُودِبُّ وارَ هناك، ثُمَّ خرج من هُنالِكَ إلى فَكِرِ، ثُمَّ خرج من فَكِرِ ورجع إلى تَمْسَغْ، وطلَع عليه شَهْرُ رَمَضَانَ في تَمْسَغْ، وصلَّى العيد فيها. وأخذَ المخْتَارَ في بلَدِ كِكِرِ،[(٣)] وقاتل أهل تُنْدِ، ثُمَّ رجع إلى سُورَ بَنْتَنْبَعَ، ثُمَّ مضى ورجع إلى كاع، وفي اسم كَاغُ لغتان: كَاغُ وكَوْكَوْ، وطلع فيه شَهْرُ رَمَضَانَ، وصلَّى العيد فيه.

ثُمَّ أخرج أسْكِيَ

[ص٤٦]

---

(١) في الفقرات الآتية دلالة قوية على أنَّ سن علي قد أفنى أيامه في الغزوات؛ حيث قد بلغت السنوات التي واصل فيها الحروب والغزوات بلا انقطاع أربع عشرة سنة، بدأها منذ أوائل سلطنته.

(٢) هنا تكرار؛ حيث إن محمد نضْ الأول المذكور هو عين المذكور الآخر.

(٣) يعني المختار بن محمد نَضْ، وكان أمير تمبكتو، سجنه صن علي عام (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)، وقد بادر أسكيا الحاج محمد - حين تولَّى السلطة - بإصدار أمره بإطلاقه؛ ليردَّه في منصبه، لكنَّه وجد أنَّه قد مات في السِّجن؛ فبعث إلى أخيه عمر بن محمد نض الَّذِي كان قد نزح إلى مدينة بِيرو (ولاتة)؛ فعيَّنه حاكما على تمبكتو.

بَغْنَ وأرسله إلى تُسْكُ - فانظر اسم أسْكِيَ في وقْتِ شي وَزَمَنِه، وهو بخلاف ما عليه جُلُّ النَّاس بأنَّ أسْكِيَ مُحَمَّد هو أوَّلُ مُلَقَّبٍ به وتَسَمَّى بذلك حتَّى ذكروا سبَبَ تَسْمِيَتِهِ وتَلْقِيبِه بذلك، نذكُر ذلك قريبًا في ترجمة أسْكِيَا مُحَمَّد وهذا غريبٌ جدًّا.(١) وهَزَم تُسْكُ جيش أسْكِيَ بَغَنَ.

ومحلَّة شِي عَالِ في بلد منصُور، وطلع عليه شَهْرُ رَمَضَانَ في مَنْصُور، وصلَّى العيدَ في كُوكِيا، ثُمَّ كرَّ راجعًا إلى كاع، وخرج بجيشه إلى أزَوَتْ وقتَ غَزْوَتِه، ومات أسْكِيَ بَغَنَ. وارْتَحَل شِي عَالِ إلى تُسْكُ، وطلع عليه شَهْرُ رَمَضَانَ في بلد نَعْسِرِ من بلاد مُوش، وصلَّى العيد فيه.(٢)

ثُمَّ ارْتَحَل إلى بحر لُولُ، وجمع جيشًا كثيفًا، وأخرج دَنْدِفَارِ أُفُنْبَ وجعله أمير ذلك الجيش كلِّهم، وفي الجيش هَيْكُيْ بُكَرْ - انظر أيضًا اسمَ هَيْكُيْ في دولته، وهو أيضًا بخلاف ما يَقُولُها أهل سُنْغُيْ بأنَّهُ لم ينشأ إلاَّ في زمن أسْكِيَا مُحَمَّد، وذكروا سببَ تَلْقِيب هَيْكُيْ بذلك، وسنذكرُ ذلك في ترجمة أسْكِيَ مُحَمَّد. وفي هذا الجيش أسْكِيَ مُحَمَّد، وهو مُلَقَّبٌ يَوْمَئِذٍ بتَنْدِفَرْمَ، وفيه أخُوه عمر كُمْزَاغُ، وهو يَوْمَئِذٍ كَتَلَ فَرْمَ، وفارَنْ عثمان. وأرْسَلَهُمْ إلى قصاص مُحَمَّد كُيْرَوْ في كَنْكُيْ.

---

(١) لعله يشير هنا إلى زعمهم بأنَّ أصل كلمة «أسكيا» دعاء دعت بها بناتُ صن عليّ على أسكيا الحاج محمد ومعناه: لا كان ملكًا قط! وذلك حين بلغهن هزيمة أخيهن في معركته مع أسكيا. لكن ابن المختار لم يتعرض لهذا الموضوع في ترجمة أسكيا كما وعد هنا.

(٢) في تكرار إشارة الكاتب إلى صلاة العيد تلميحٌ إلى تقليد قديم في بلاد السودان، ألا وهو إعلان الهدنة والكف عن القتال في رمضان، وحتى في عهد متأخر في القرن الثامن عشر، كان هذا التقليد موجودًا، واشتهر به القائد سيكو وَاتَّارا (ت١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م)، الَّذِي حكم في مناطق ما يُعرف اليوم بشماليِّ كوت ديفوار، وجنوبيِّ بوركينا فاسو. ينظر: (Launay Robert, Beyond the Stream: Islam in West African Town, (CA: California University Press, 1992).).

ورجع شي إلى كاع، ولم يجلس فيه، ومضى إلى بَرْكُنَ مدينة التي فيها دارُ مملكة مُوشِكُيْ ودمَّرها وأسر أهلَها وقَتَلَهُم شرَّ قَتْلَة، ثُمَّ خرج إلى مَلِّ، وهربوا ولم يُدْركهُمْ. ورجع وجهَّزَ جيشًا عظيمًا، وجعل هَيْكُيْ يعني أمير الجيش إلى قتل تَنْكِ يَعْمَعْ، وقتَلوه. ورَجَع الجيشُ إليه، وارْتَحَل بهم إلى كِكِرِ، وأخذ مُنْذُ كَنْتَ في كِكِرِ.

ثُمَّ جهَّزَ

[ص٤٧]

جيشًا وأرسَلَ دَنْدِفَارِ أُفُنْبَ إلى قتل بَيْدَانْ في بلد نُومَ، ومضى فَارَنْ أُفُنْبَ إلى دَنْدِ لأمرٍ أرسله شِي عَالِ به، وَرَجَعَ مُنْذُ وَنْكِ بالجيش إلى شِي عَالِ.

ثُمَّ خرج شِي عَالِ وطلع عليه شَهْر رَمَضَانَ في داغَ، وصلَّى العيد هناك، ثُمَّ مضى ورجع إلى جِنِّ، وقدم عليه مُنْذُ وَنْكِ مع الجيش والتقى به في بَلَدِ جِنِّ، وطَلَعَ عليه شَهْر رَمَضَانَ في جِنِّ، وصلَّى العيدَ فيه. وقاتل أهْلَ جِنِّ، وقاتل أهل مَلِّ مَرَّتَيْن، ثُمَّ مضى وحمل الفُلانيِّينَ إلى كَوْكَوْ، وطلع عليه رَمَضان في جَاكُوَا، وصلَّى العيدَ في كَنَوْ، ثُمَّ طلع عليه رَمَضان في كَذِبِ، وصلَّى العيد فيه، ثُمَّ طلَعَ عليه رَمَضان في جَرْكَ، وَصَلَّى العيدَ في مَنْتِ، ثُمَّ رجع إلى البحر، وطلع عليه رَمَضان في مَلِّ، وصلَّى العيد في يَعْتُلُ، ومضى ورجع إلى كَاعُ، وطلع عليه رَمَضان فيه، وصلَّى العيد، ثُمَّ ارْتَحَل من كَاعُ في يومين من شوَّال، ومضى إلى تُنْدِ، وقاتل أهلَ تُنْدِ، ونزل في دُو، ومكث هناك شهرًا.

ثُمَّ سمع بمرور مُوشِكُيْ إلى بيرُ،[1] وترك أهلَ بيته في دِيَرَ، ودخل في إثر مُوشِكُيْ. وجاء إلى سِيلَ، وقتل سِيلَكُيْ.

[ص٤٨]

---

(١) بيرو: أي مدينة ولاتة، وكان ذلك عام (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، وفي تِلْكَ الغارة غلب ملك موشي أهل بيرو، وسبى عيالهم، ولكنهم سرعان ما نظموا صفوفهم؛ فتعقَّبوه وانتزعوا منه جميع ما =

ومضى إلى كَنْتُعُ، وطلع عليه شَهْر رَمَضَانَ في كَنْتُعُ، وصلَّى العيد في سَامَ.[١] وارْتَحَل مُوشِكُيْ إلى سَامَ، ووجد شي حمل أهل بيته وماله. ومضى مُوشِكُيْ في إثر شِي عَالِ، ولحقه وطلع على جَيْشِه، وخاف وكرَّ راجعًا هاربًا على عقبه.[٢] ونقَلْتُ هذا كُلَّهُ مِنْ كِتَابِ الجدِّ أَلْفَعْ محمود بن الحاج المُتَوَكِّل، بخطِّ بَعْضِ طَلَبَتِه مِنْ قَوْلِهِ. وارْتَحَل شِي عَالِ في دِيَرَ والْتَقَيَا في كُبِ.

وفي سنة ثلاث وسبعين،[٣] انكسَرَ مدينةُ تُنْبُكْتُ، ودَخَلَ فيها في اليوم الرَّابع من رجب. وفي تِلْكَ السَّنة خرج الفقيهُ العلامة شيخ الإسلام محي الدِّين القَاضِي أبو الثَّناء محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ من بيرُ ورجع إلى تُنْبُكْتُ (رَحِمَهُ الله).

= سبى منهم. (السعدي، ص٦٩). كانت بيرو مدينةً تجاريَّة في عهد ملوك غانة، علت شأنها خاصَّة بعد اضمحلال شأن حاضرة غانة، واضطهاد ملك صُوصو سومنغورو للمسلمين التُّجار بغانة؛ فنزحوا إلى بيرو ولاتة، وقد باشر صن علي (عام٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) بحفر قناةٍ لربط هذه المدينة بحركة الملاحة على نهر النيجر عُرفت ببحر «رأس الماء» لكنه شُغل عن إكمال هذا المشروع بغارة ملك موشي المذكور. وزاد نفوذ مدينة بيرو مرَّةً أخرى ومكانتها التجاريَّة والعلميَّة بفعل غارة صن علي على مدينة تمبكتو؛ إذ قام زعيم تمبكتو عقيل بترحيل علماء تمبكتو إليها، قيل رحَّلهم على ألف جمل، وكان فيهم القاضي الفقيه عمر بن محمد آقيت وعائلته، وقد توطَّن جلُّ أولئك العلماء بمدينة بيرو، ولم يعودوا إلى تمبكتو بعد هلاك صن علي وقيام دولة أسكيا الحاج محمد.

(١) في تكرار ذكر الكاتب لصلاة العيد إشارة إلى تقليد قديم في بلاد السُّودان، ألا هو الكفُّ عن القتال في رمضان، وفي عهد الأساكي، كانوا يكفون عن الغزوات في شهر شوال، ويطلقون عليه «شهر الرَّاحة».

(٢) كان ذلك عام (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩)، وموشكُي: أي مَلك موشي، وهو نَعسر، وتقع مملكة موشي جنوبي صونغاي (في بوركينافاسو الحاليَّة)، وتُعرف بمملكة ياتينْغا (Yatenga)، والأرجح أنَّ المعنيَّ ها هنا هو الملك نعسر الأول الَّذِي حكم فيما بين عام (١٤٧٥ و١٥٠٠م) تقريبا، وهو الَّذِي وقعت الحرب بينه وبين أسكيا الحاج محمد (عام٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م).

(٣) أي سنة (٨٧٣هـ)، الموافق (١٤٦٨م)، وزاد السعدي أنَّ ذلك كان في السنة الرَّابعة أو الخامسة من سلطنة صن علي، (ص٦٥).

فاعلَمْ أن شي وأسْكِيَ مُحَمَّد وموزْ هَوْكَارُ جدَّ أهلِ مُورِكُيْرَ وفقهاؤها كلُّهم من أصلٍ واحدٍ،(١) وجميع مَنْ يُلقَّب بمُيْ كُمَيْدَع، ومُيْنَنْكُ، ومُيْهَوَ، وَمُيكَعَ، ومُيْفِرَ، ومُيْتَاصُ، ومُيْغُيْ، ومُيْيُور، ومُيْزَع. واسم بَلَدِهِمْ يَرَ. وكلُّ من كان في هذا الإقليم أصلُهُم من المغرب(٢) من وَعْكُرُيْ ووَنْكَرَ.(٣) وكنتُ أسألُ كلَّ مَنْ رَأَيْتُهُ من أهل كَيْعَكَ،(٤) وبِيْتُ(٥) ومَلِّ وجَعْفُنُ،(٦) وكذلك: هل كان عندكم في

(١) هنا إشارة إلى أن ملوك «شي/سُن» من أصل زنجي. بينما الخلاف في أصل ملوك «زا و كَيمغ» الذين سبقوا ملوك «شي» في حكم صونغاي.

(٢) يراد بالمغرب في معظم سياقات هذا الكتاب المناطق الواقعة غربي صونغاي، أي المناطق القريبة من ساحل المحيط الأطلسي حول نهر السنغال.

(٣) ونكَر: ورد هذا الاسم في مصادر التَّاريخ الأفريقي (العربية واللاتينية) باختلافٍ طفيف بين هجاءاته؛ إذ ذكر الإدريسي هذا الاسم وكتبه على (ونْقارة)، ورسمه البكري على (قَنْقارة أو كَنْكارة)، وقال إنهم قبيلٌ من السودان بغربي مدينة بنْكلابِينْ، ورُسِم في «تحفة النظار» عند ابن بطوطة على (وَنْجَراتَة)، وذكر أن مسكنهم بلدة كبيرة اسمها زاغَري، ولكن المصادر كلَّها تجمع على أنَّهم هم تجار الذَّهب. ومن الهجاءات اللاتينيَّة: Wangara, gangara, wongara, wankore, gwangara, ungara أما عن معنى هذه الكلمة فقيل إنَّها مركَّبة (وا + غارا) أي: وا: الملك، غَارا: أهل، أي أهل الملك ورعيَّته. ومثلها (وا+غادو)، أي أرض الملك، وأخذ أسامي الممالك أو القبائل أو المدن من اسم الملك الحاكم بها ظاهرة شائعة في أفريقيا، وذهب آخرون إلى أنَّ معنى وانغارا (أرض الذهب) فتكون مرادفة لغانة، ويعضد ذلك ما أورده الإدريسي من أنَّ ونقارة هي بلاد التِّبْر، وأنَّ من مُدنها التجارية الكبرى تيرَقى.. وفي «الفتاش» هنا، قد يُفهم من كلام ابن المختار أنَّ وانغارا يعني (تاجر)، وهذا الرَّأي لم يصرِّح به أحدٌ، ولكن يعضده تسمية فصيلٍ من الونغارا صراحةً بـ«جُولا» أي تاجر.

(٤) كيعك: أي مملكة كيَّاك التي سبقت الإشارة إليها في هامش [ص٣٩].

(٥) بيتُ/بيطُ: مدينة كانت بالجنوب الشَّرقي من مملكة صونغاي، وتمثل حدودها الجنوبيَّة، وكانت بها مناجم الذَّهب، وتجلب ذهبها إلى سوق جيني وتمبكتو (السعدي، ص١١)، ويبدو أنَّ مناجم الذَّهب بتِلْكَ المنطقة، لم تكن كليًّا تحت سيطرة صونغاي، غير أنَّ أسواقها في جيني وتمبكتو كانت في قلب صونغاي.

(٦) جعفن: (Diafunu, Zafun)، مملكة زَفون كما وردت في المصادر العربيَّة.. قويت إمارة =

أرضِكُمْ قبيلةُ مُيْكَعَ، ومُيْنَنْكُ؟ فيقول: ما سمعْنَاهُ ولم نَرَه.

وكان هذا الفاجرُ يعني شِي عَالِ ملكًا مُطاعًا مَهِيبًا، خَافَهُ رعيَّتُه لشَرِّه. أرسل رسُولَهُ إلى تُنْبُكْتُ، وهو في بلد جِنِّ يحاصِرُهُمْ، وأتاهُ بأنَّ أهلَ تُنْبُكْتُ يهرُبُون، ويرجع

[ص٤٩]

أهل بِيرُ إلى بِيرُ، وبعضُهُم إلى فُطُطِ وتِيشِتْ، ويرجع كلُّ قوم هاربين إلى أرضِ أصْلِهِ. وأمَرَ مَرْسُولَهُ: أيَّ وَقْتٍ وَصَلَ إلى تُنْبُكْتُ أن يُنَادِيَ صارخًا بهم أنَّ السُّلْطَان شي قال: من كان في طاعته فلا يَبِيتَنَّ هذه اللَّيْلَةَ إلاَّ في هَوْكِي وراء البحر، ومَنْ تخلَّفَ فَلْيَذْبَحْهُ؛ فجاء الرَّسُول وقتَ الزَّوال وضرب الطَّبل الَّذِي أتى به واجتَمَع إليه النَّاسُ، فقال: إنَّ السُّلْطَان يأمركم بأن ترحَلُوا أجمعين إلى هَوْكِي راحلين. وأخرج سيفًا في كمِّه وقال: هذا سَيْفُهُ. قال: مَنْ باتَ في البلد هذه اللَّيْلَة فأذْبَحه بِسَيْفِهِ هذا. قال الرَّاوي عن شَيْخِه مُحَمَّد بابَ بن يوسف: فما كان إلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ حتَّى رَحَلُوا بأجمَعِهِمْ، ومنهم مَنْ لم يحمِلْ عَشَاءَ ليلته، وبعضهم لم يأخذ فراشًا، ومنهم مَاشٍ ولَهُ خَيْلٌ في داره تَركَهُ تَوَهُّمًا منه أن ربط السَّرْجِ أمرُهُ يَطُولُ، وبات أكثرُ ضُعَفائِهِم ومَشائِخِهِمْ في أرِبُرُ، وبعضُهُم في جِنْتَع. وقَطع قومٌ البحر لأنْ يبيت[1] في ضَفَّتِهِ، وَوَصَلَ بعضُهُمْ وما وصَلَ وقتُ المغرب، حتَّى خَلَتْ تُنْبُكْتُ مِنْ كلِّ أحدٍ. وخرج قومٌ وما قَفَلُوا بابَ بُيُوتهم. ولم يبق إلاَّ المرضى لم يجدوا حاملاً، والأعمى لا قائدَ له.

= زفون خاصَّة في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي عندما ضعف المرابطون في وجه الموحدين، وقد أورد ياقوت (ص٤٠) أن الملثمين قد اعترفوا بسلطة ملك زفون، وأنَّ ملك زفون حين زار مراكش ترجَّل له الزَّعيم المرابطي بينما ظلَّ هو راكبا.

(١) في الأصل (يبات) بالألف.

وحسبُكَ هذا منْ شَرِّه وأنَّ مِنْ أشرِّ النَّاس مَن

[ص٥٠]

اتَّقَاهُ النَّاس لِشَرِّه. وهذا عندي كاد أن يكون غير ممكن، ولا أحْسِبُ الحَجَّاج بن يوسف مع سفاكه للدِّماء وشرِّه بالنَّاس أن يتأتَّى له مثلُ هذا في مثل تُنْبُكْتُ، ونفُوذِ أمره.

وحين خرج قاصدًا لمحاربةِ جِنِّ، وَوَصَلَ القرية هُنالِكَ يُقالُ لها شِيطَيْ (بشينٍ معجمة مكسُورَة بعده ياءٌ ممدودة بعده طاءٌ مَفْتُوحة فياء ساكنة)، وسمع به كُرَنْ أنَّهُ يريد جِنِّكُيْ قال كُرَنْ: هذا عارٌ عليَّ! يأتي سُلْطَانٌ مِنْ أَرْضِهِ لِقِتَالِ سيِّدنا ويمرُّ علينا ولا نَدْفَعُهُ، ونهض قائمًا وجمعَ جيشًا عَرَمْرَمًا وتلقَّى بِشِي وَوَقَعَ عليه ليلاً، وأجَابَهُ شِي وتنَاضلا شدَّة النِّضال إلى طُلُوع الشَّمْسِ، وأفْنَوْا جيشَ كُرَنْ وكَسَّرَهُم، وفرُّوا هاربين إلى الحجَر.

ثُمَّ لما وصل بكُونَا أتاه تُنكُيْ كذلك وكسَّرَهُ، وتحزَّم له سُرْيَعْ وتلقَّاه، نزل عليه بقومٍ لا ينْحَصرُ كثرةً، وفَعَل به ما فعل بصَاحِبَيْهِ، وبات سَريًّا، وجِنِّكُيْ على سَرير مُلْكِهِ مع هذا كلِّهِ نائمًا كأنَّهُ لا يُبَالي.

ثُمَّ خرج جِنِّكُيْ بمن لا يحْصَى ولا يُعَدُّ كثرةً، وتحارَبَا وتَقَاتَلا ستَّةَ أشْهُرٍ يتَضارَبُونَ نهارًا، ثُمَّ رجع جِنِّكُيْ، وهو كُنْبُرُ على الأصحِّ، وباتَ يبني سُورَهُ ليلاً، فما أصبح حتَّى فاض البحر وأحاط بالبلد وحال الماء بينهما. وحَصَرَهُم شِي بأرْبعُمائةِ سُفُنٍ لئلاَّ يخرُجَ خارجٌ ولا يدخل داخلٌ، ثُمَّ ما فارقَهُمْ إلاَّ أن قهرهم ومَلَكَهُمْ ودخل في سُورِهِم ونزَل في وَسَطِ دار جِنِّكُيْ، وأراد أن يَسْكُنَ فيها فَمَا أخْرَجَهُ فيها إلاَّ الأفاعي والحيَّات والعقاربُ. وخرج لذلك ونزل بدارٍ كانت عن يمين دار جِنِّكُيْ في قِبْلَةِ الجامع الكبير وحَازَهَا، وأَنْزَل فيها فِتْيَانَهُ وأمْتِعَتَهُ بعد

رجوعه، ثُمَّ ملكها أسْكِيَ مُحَمَّد، وقد رأيتُ جُدْرَانها بعد خرابها.

ومتى

[ص٥١]

اشتدَّ ضررُ شي على المسلمين وأحاط بالدُّنْيا والدِّين بأسُه، وامتلأت الصُّدورُ بحمل حزنه وهمِّه، يئس النَّاس من الفَرج في أمره، وقَنِطُوا لطولِ دَوْلَتِهِ وظنُّوا أنها لا تفنى ولا تنتهي.

وَوَقَعَ على رجلٍ فَقيرٍ صالح وغصَبَ بنتَهُ، وأتاه ذلك الفقير بيته واشتكى، وحلف إنْ لم يخرج أمامه إلاَّ أنْ يأمر باحْتراقه بالنَّار، وخرج باكيًا ورَفَعَ يَدَهُ إلى السَّماء واستقْبَلَ القِبْلَة وقال: «اللَّهُمَّ يا ربِّ أسألكَ يا قَريبُ - إنَّك ترى وتعلَمُ وتَسْمَعُ- وأنت القاهر أن تُسَلِّطَ هذا الفَاجِرَ الفَاسِقَ الَّذِي طالَ إمْهَالُكَ عليه، وغرَّه استدْرَاجُكَ به، عَلى رَجُلٍ صَالح، تَسْتَجِيبُ دَعْوَتَهُ وتُغِيثُهُ إن اسْتَغَاثَ بِكَ». فأتاه في ذلك اليوم رَجُلان صَالحانِ مِنْ أوْلادِ مُورْ هَوْكَارُ جدِّ أهل مُورْ كُيْرَ، اسمُ أحدهما مُورْ الصَّادق والآخر مُور جَيْبَ، يَشْتَكيانِ من ضُرٍّ نزل بهما من قَبِيلِهِ أي من شي المذكور. فَلَمَّا أبصرهما أمر بهما فقُبِضَا وثُقِفَا بالحديد، وأمر بهما إلى جزيرة ورموهما فيها. فقال أحدُهما: اللَّهُمَّ ارحمنا منه وأهْلِكْهُ قبل أن يقوم مِنْ مَقَامِهِ، وقال الآخر: ويكون موته على غير الإسلام. بل على الكُفْرِ. وشي حينَئِذٍ في بَلَدٍ يُقالُ له نُنَّ مِنْ بَلَدِ الحجَرِ؛ فمات في يومِهِ وأهْلَكَهُ مَوْتُ الفَجْأَة.[1]

فَلَمَّا تحقَّقَ جُنْدُه بموته دَفنُوه في مَكانه، ولم يُشِعْ أحدٌ بموضِعِ قَبْرِهِ، (لعنة الله

---

(١) لا يوجد اختلافٌ كبير بين ما ذكره ابن المختار هنا بأنَّه مات موت فجأة، وما أورده السعدي (ص٧١)، أنَّه مات غرقًا وهو في طريق العودة من غزو الفولانيِّين. فابن المختار قد أجمل. بينما فصَّل السعدي ودقَّق في سبب موته. هذا، ويجمعان على أنَّ موته بهذه الطَّريقة، أمارة سوء الخاتمة، وانتقام الله منه على فجوره وظلمه العباد.

عليه). وارْتَحَل الجندُ في غدِه، وما عَلِم أحدٌ بموته من أهل ذلك البلد.

وأتى

[ص٥٢]

قومٌ مِنْ أهل جَيْشِهِ إلى مُورْ الصَّادِقِ ومُور جَيْبَ في تِلْكَ الجزيرَة، وأخْرَجُوا القُيُودَ في أرْجُلِهِمْ وأخْرَجُوهُمْ منَ الجزيرة في غَدِه. فسُبْحَان المفرِّجُ عن كلِّ مَهْمُوم، المُنَفِّس عن كلِّ محزون الَّذِي جَعَلَ خَزَائِنَهُ بين الكَافِ والنُّون. إنَّمَا أمره إذا أراد شيئًا أن يقول: كنْ فيكون. أهْلَكَ الأميرَ وفكَّ الأسير.

وكان مَوْتُهُ في شَهْر المحرَّم افْتِتَاح سنة الثَّامِن والتِّسْعِين بعْدَ ثمانمائة مِنَ الهجْرَة، انتهى. وفي «دُرَرِ الحِسَان في أخْبَارِ بعضِ مُلُوك السُّودَان» أنَّ مَوْتَ شِي عَالِ كَانَ في سنَةٍ تِسْع وَتِسْعِينَ من القَرْن الثَّامِن[1] فَمَكَث فيها سبعًا وعِشْرينَ وأربعةَ أشْهُرٍ وخَمْسَةَ عَشَرَ يومًا.

وكان معه ابنُهُ أبوبكر الملقَّب بِشِي بارُ في تِلْكَ الغَزْوِ،[2] وحين وَصَلَ الجيْشُ قَافِلاً إلى بَنْكِي وَلُّوا بارُ مَكَانَهُ في اليَوْمِ الثَّاني مِنْ رَبِيع الآخر، وهَذَا بخلاَفِ مَا في «دُرَر الحِسَان»، فإن فيه أنَّ تَوْلِيَةَ شِي بارُ كانَتْ في زَاغَ، فانظره.

وسبقَ مَوْلِدُ شيخِ الإسْلامِ القَاضِي أبي الثَّناء محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ، (رَحِمَهُ الله ورضي عنه رأرضاه)، سَلْطَنَةَ شِي بسنةٍ واحدَةٍ، لأنَّ مَوْلِدَهُ كما ذَكَرَ سيِّدُنا أبو العَبَّاس أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد في مُصَنَّفِه «كِفايَة المُحْتَاج في معرفة ما ليس في الدِّيباج»[3] سنة ثمان وستين وثمانمائة.[4]

(١) كأنَّه لا يقصد هنا الاستعمال الدقيق للقرن، وإلا كان الأجدر به أن يقول القرن التَّاسع.

(٢) يستخدم السعدي الاسم: أبوبكر داعُو (ص٧١) ويذكر أن توليته كانت ببلدة دنغْ.

(٣) هنا (ما ليس)، وأصل عنوان الكتاب: مَن ليس.

(٤) أي سنة (١٤٦٣ ميلادية). وإذا حرصنا على الدِّقة التَّاريخيَّة في هذا الموضع، فإنَّ التاريخ =

ومِمَّنْ ماتَ في أيَّامه من العُلَمَاء الأعْيَان وأكَابِرِ التَّكرُور الفقيه القَاضِي مُودِبُّ قاسم جِنْكَاسٍ،[1] وسيِّدي يحيى الأنْدَلسي التَّادلسي، وهوَ ثَابِتُ النَّسَبِ، وهو سيِّدِي يحيى بن عبد الرَّحيم بن عبد الرَّحْمَن الثَّعالبي بن يحيى البكَّاي بن الحسن بن عليّ بن عبد الله بن عبد

[ص٥٣]

الجبَّار بن تميم بن هُرْمُز بن هاشم بن قصيّ بن يوسف بن يوشع بن وَرْد بن بطال بن أحمد بن مُحَمَّد بن عيسى بن مُحَمَّد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، (رضي الله عنه) ونَفَعَنَا بحُرْمَتِهِمْ.[2] وقيل إنَّ سيِّدِي يحيى تَوَلَّى القَضَاءَ، وَقَفْتُ على ذلكَ بخَطِّ بعضِ الطَّلَبَة. وبَقِيَ الكَلاَمُ عَلَى ذِكْرِ مَنْ مَاتَ في أيَّامه.

ثُمَّ لما ولي ابنُه بارُ، وما أتَتْ على ولايتِهِ أربعةُ أشهرٍ[3] حتَّى ظهر أمر أسْكِيَ مُحَمَّد بن أبي بكر. وأعانه الله على شِي بارُ في لَيْلَتَيْن من جُمادى الأولى في بَلَدٍ يُقالُ له أنْفَعُ. وَوَقَفُوا هُنالِكَ وجمعُوا أهلَ الغزو، ثُمَّ التَقَيَا بارُ وأسْكِيَ مُحَمَّد في

= المعطى هنا غير دقيق، فإذا كان صن علي قد حكم لمدة سبع وعشرين سنة، وسبق مولد القاضي حكمه بسنة؛ فإن الحاصل هو سنة (٨٧٠هـ)، وليس (٨٦٨هـ) كما ذهب إليه «الفتاش» هنا.

(١) القاضي جنكاس، وكتبه السعدي بالزَّاي (ص٧٠)، وذكر أنَّه توفي قبل صُن علي بأربعة أعوام، أي عام (٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م).

(٢) التادلسي: توفي (٩٢٢هـ)، وهذا النسب موافق لما ورد تاريخ السعدي (ص٥٠) حذوًا بحذو. اللهم إلا أنَّ هناك «حاتم بن قصي»، وهنا «هاشم»، وهو مجرد تصحيف في السعدي، ولا ندري أيُّهما اقتبس من الآخر.

(٣) قال في الفقرة أعلاه إنَّه تولى في شهر ربيع الآخر، إذنْ يتبيَّن أنَّ المواجهة العسكريَّة كانت بعد شهرَين فحسب من ولاية أبي بكر بارُو.

اليوم الرَّابع والعشْرين من جُمادى الأخرى وهو يوم الاثنين.[١] ودخل بَيْنهُما حربٌ شديدٌ وقتالٌ عظيم، حتَّى ظنَّ النَّاس أن الفَنَاءَ نزل بهم. ومع شِي دَنْدِ فَارِ أُفُنْبَ، وهو مِنْ أشْجَعِ النَّاسِ، رمى نفسَهُ في البحر وماتَ فيه. ومع أسْكِيَ مُحَمَّد بَرَ كُيْ مَنْسَ كُورَ، وليس معه أحدٌ من سلاطين التَّكرُور وسُنْغُيْ غيره، ولم يُجِبْهُ أحدٌ دعَاهُ غيرُهُ، ونصر الله أسْكِيَ مُحَمَّد. الحمدُ لله على ذلك! فَهَرَبَ شِي بارُ إلى زاغَ. (أ.هـ).

قال القَاضِي محمود كَعْتِ بن الحاج المتوكِّل كعت: ما نزل القتالُ بَيْنهُما قَطُّ إلاَّ بعد ما أرْسَلَ العالمَ الوَليَّ الصَّالِح مُحمَّد تُلِ الشَّرِيف، يَنْسِبُونَهُ إلى بني مَدَاس، إلى شِي بارُ يدعوه إلى الإسلام، وهو يَوْمَئِذٍ بِبَلَدٍ تُسَمَّى أنْفَعُ. وأبى وامتنع وضنَّ بملكه كما كان ذلك من عادة الملوك، وأغْلَظَ لذلك العَالم الكَلاَمَ وارْتَكَبَ منه أمرًا عظيمًا، حتَّى همَّ بقتله، وصدَّه الله عن ذلك بقهره وغلَبَتِهِ. ورجع إلى أسْكِيَ مُحَمَّد وبَلَّغَهُ الخبرَ مِنْ إبَايَةِ شِي بارُ ومَا فَعَلَ به.

وبعد ذلك أرسَلَ أسْكِيَ مُحَمَّد العالم الصَّالِح التَّقيَّ ذا المناقب والكرامات الوَعْكُرُيْ الأصل ألْفَا صَالِح جَوَرَ إلى شِي بارُ أيضًا ثانيًا

[ص٥٤]،

---

(١) إذا أخذنا بالتاريخ الدقيق المعطى هنا، فإن هذا القتال قد وقع بعد شهرين وعشرين يومًا من ولاية شي بارُ، وقد ذكر السعدي (ص٧١)، أنَّ الحرب كانت يوم الأثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة (عام٨٩٨هـ/ الثلاثاء ٢ أبريل ١٤٩٣م)، ويبدو أنه كان أكثر دقَّة من «الفتاش» هنا؛ لأن التاريخ الَّذِي أقرَّه السعدي بالميلادية لا يختلف عن الهجرية إلاَّ بيوم، ويعود ذلك إلى الاختلاف في عدِّ مستهلِّ الشهر الهجري. أما التاريخ المعطى من لدن «الفتاش» أي الرابع والعشرون، فهو يوافق يوم جمعة وليس يوم إثنين. هذا، ومن المحتمل أن يكون هذا الخطأ بسبب التصحيف وأخطاء النُساخ في مخطوط كتاب الفتاش بتحويلهم العشرة إلى العشرين.

وأتاه وبلَّغَهُ رسالة أمير أسْكِيَ مُحَمَّد. فما ازْدَادَ إلاَّ عُتوًّا وإبَايَةً وامتناعًا وتجبُّرًا، وأتى بأشدَّ من فعلته الأولى. وله وُزَرَاء يَوْمَئِذٍ تَنِيفُ على عَشَرَةِ وَزِير، منهم بَرَ كُيْ مَنْسَ موسى، وهو شيخٌ كبير وله عشرة أولاد يَوْمَئِذٍ. كلُّ أميرٍ بحدَّتِهِ لَهُ جَيْشٌ، وكلُّهم مع شِي بارُ إلاَّ مَنْسَ كُورَ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ هرب إلى أمير أسْكِيَ مُحَمَّد وبايَعَهُ. وأمَّا دِرْمَ كُيْ سَنْدِي، وتَرَتُنْكُيْ، وبَنَكُيْ، وكَرَ كُيْ، وجِنَّكُيْ وغيرهم وهؤلاء المذكورون كلُّ أَمِيرٍ بحِدَّتِهِ لَهُ جَيْشٌ عَرَمْرَم، وكُلُّهُمْ مع شِي بارُ.

وحَلَفَ واحدٌ من وُزَرَائِه، وهو دِرْمَ كُيْ المذكور، ليقتلنَّ العالم الصَّالِح جَوَرَ رَسُولَ الأمير أسْكِيَ، وقال: إنْ لم تَقْتُلْ هذا العالم لا تنقطِعُ رُسُلُهُ إليك. بل لا يُرْسِلُ إليك رسلاً تَتْرَى. ومنَعَهُ الله من ذلك، وقال للصَّالِح جَوَرَ: ارْجِعْ إلى مُرْسِلِكَ، فإنْ رَجَعَ إليَّ بَعْدُ رَسولٌ منه فَدَمُهُ في عنقك، وقُلْ لمرسِلِكَ أسْكِيَ فَلْيَتَجَهَّزْ للقِتَال بيني وبينه، ما قبلتُ كلامَهُ ولا أقبل.

وَرَجَعَ العالم الصَّالِحُ جَوَرَ إلى الأمير وبلَّغَهُ كلامَ شِي بارُ وحَالَهُ وما رأى منه من الإباية والامتناع من الإسلام. ولما بلَّغ الصَّالِحُ جَوَرَ الأميرَ أسْكِيَ ما رأى مِنْ شِي بارُ، جمع أهل مَشُورَتِهِ وذوي رأيِهِ من العُلَماء والأكابر وأقيال جَيْشِهِ وشَاوَرَهُمْ فيمَا يَفْعَل: هل يُقَاتِلُ شِي بارُ أو يرسل إليه ثالثًا؟ واتَّفَقُوا على أنْ يُرْسِلَ إليه رَسُولاً ثالثًا يُدَاريه ويَلينُ له الكَلامَ، لعلَّ الله يهديه إلى الإسلام؛ فأرْسَلَني إليه، أي أنا الفَقِيرُ المحتَاجُ ألْفَعْ كعت، وذَهَبْتُ إليه وَوَجَدْتُهُ بِبَلَدِ أَنْفَعُ وهي بقُرْبِ كاع، وبَلَّغْتُهُ رِسَالَةَ أمير المُؤمِنِينَ أسْكِيَ وألَنْتُ له الكلام مَبْلَغَ جهدي كما أمر أمير المُؤمِنِينَ أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد، وتَلَطَّفْتُ له رغبةً في أن يَهْدِيَهُ الله، وأبى وامتنع وتغيَّظ وأمر بضرب الطَّبْلِ ساعتئذٍ، وشرَعَ في الاسْتِجَاشَة ورَعَدَ وَبرَقَ أرَادَ تخْوِيفِي، وتمثَّلْتُ في نفسي بقول الشَّاعر:

وانْـصُـرْ عـلـى أهـل الـصَّـلـيـ ـبِ وعـابـدِيـهِ الـيَـوْمَ أَهْـلَـكْ.(١)

ثُمَّ اجتمع جيشُهُ فرقة ساعَتَئِذٍ كالجبال

[ص٥٥]،

وَسَطَعَ الغُبارُ حتَّى صار النَّهار كاللَّيل، وأقبلوا على الصِّياح ويحلفُون ليَسِيلَنَّ الدِّماء كالسُّيول. ثُمَّ رجعتُ وبلَّغْتُهُ الخبر، ثُمَّ تجهَّزَ أميرُ المُؤمِنِينَ أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد، وأمر بضَرْبِ الطَّبْل واسْتَجَاشَ جيشَهُ عليه في ساعتئذٍ، وكُلُّهم بايَعُوهُ على الموت، ثُمَّ ركب وتوجَّهَ بجيشه المنصور نحو شِي بارُ، فالتَقَى الجمْعَانِ يومَ الاثْنَيْنِ رابع وعشْرين من جُمادى الأخرى. وبين إرسال أمير المُؤمِنِينَ أسْكِيَ إلى شِي بارُ وبين التقَاءِ جَيْشَيْهِمَا اثنَانِ وخمسُونَ يومًا.(٢)

ودخلتْ بين الجيشَين حَرْبٌ عَظِيمَةٌ، وأعَانَهُ الله على شِي بارُ، وهَزَمَ جَيْشَهُ وقَتَلَهُمْ قتلاً ذريعًا، حتَّى ظنَّ النَّاسُ أنَّ الفناء نزل بهم وأنَّ هذا خرابُ الدُّنْيا. وكان مَعَ شِي بارُ دَنْدِ فار أُفُنْبَ، وهو من أشْجَعِ النَّاسِ، رمى نفسَهُ يَوْمَئِذٍ في البحر وَمَاتَ فيه. وكان مع الحاج مُحَمَّد مَنْسَ كُورَ المذكور ابنُ مَنْسَ موسى، وليس معه من سلاطين التَّكرُور وسُغُيْ غيره، ولم يجبه أحدٌ إلى دعوته إلاَّ هو.

ولما هزم الله جيشَهُ هَرَبَ بنفسه إلى أَيَرُ فَبَقِيَ هُنالِكَ إلى أنْ تُوُفِّيَ، فتَمَلَّكَ

(١) البيت من مجزوء الكامل، والبيت قبله: لاَهُمَّ إنَّ المرءَ يمنعُ رَحْـ..... له؛ فامْنعْ رحالَكْ، وينسب لعبد المطلب جدِّ النبي ﷺ في حادثة عام الفيل، وقد أورد «الفتاش» قافية البيت على «أهلَك»، وهو في الأصل على «آلَكْ». وهذا البيت شاهد في إضافة «آل» إلى مضمر، وذلك ممنوع عند الكسائي والنحاس وغيرهما. ينظر: الأشباه والنظائر ٢/ ٢٠٧؛ الدرر ٥/ ٣١؛ شرح الأشموني ١/ ٥؛ تاج العروس (أهل)؛ الممتع في التصريف ١/ ٣٤٩؛ همع الهوامع ٢/ ٥٠ .

(٢) بهذه الجملة نستنتج أن أسكيا قد باشر بابتعاث الرسل وبالتفاوض مع شي بار منذ حوالي أسبوع فحسب من تقلُّد شي بار الحكم؛ إذ قد سبق [ص٥٢] أنه تولى الحكم في اليوم الثاني من ربيع الآخر.

الأَسْعَدُ الأرشد يَوْمَئِذٍ، وكان أميرَ المُؤمِنِينَ وخليفَةَ المسْلمِين، وأوْرَثَ الله الوَارِثَ أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد المذكور جميع أرض شِي بارُ وهي من كَنْتَ إلى سِبِرِدُكْ.

وَوَجَدَ في مُلْكِهِ يَوْمَئِذٍ أربعًا وعشْرين قبيلةً أرقَّاء له لا أحْرَار اسْتُرِقُّوا. وسنذكر أسماء القبائل إنْ شَاءَ الله ثلاثَةٌ مِنْهُمْ مِنْ كُفَّارِ قَبَائِل بَنْبَرَ: الأولى تُنْسَبُ بجِرَكُرِ بُكَر، والثَّانِيَة فيُنْسَبُون بنْكَرَتِبِ، وأمَّا الثَّالثَة فتُنْسَب بكَسَمْ بَرَ.[1] فَوَرِثَهُمْ شِي بارُ من أبيه شِي عَالِ، وكذلك ورثهم شِي عَالِ من شي سلمان دامَ، وبَعْضُهُمْ يقول له دَانْد، وكذلك هو من شي بَلْمَا، وكذلك هو مِنْ شِي مُحَمَّد فَارَ، وكذلك هو من شي مُحَمَّد كُوكِيَ، وكذلك هو وَرِثَهُمْ من شي مادُغْ، وهو الَّذِي تَغَلَّبَ على مَلِّكُيْ، وكان أصْلُهُمْ تحت ملِّكُيْ بعدَمَا كانوا أجْدَادُهُمْ أقوياء وملِّكُيْ مِنْ تَحْتِهِمْ، وقوَّاهُ اللهُ مُقَلِّبُ[2] ملِّكُيْ وكسَّرَهُمْ، وسبى ذرَارِيهِمْ وجميع أموالهم وأخَذَ مِنْهُم أربعًا وعشْرين قبيلةً.

لكنَّ هؤلاء

[ص٥٦]

القبائل الثَّلاث مِنْ تِلاَدِ مَلِّكُيْ، وعادتهم منذ كانوا بيد ملِّكُيْ لا يتَزَوَّجَ أحدٌ منهم إلاَّ بعد أنْ أعْطَى أصْهَارَهُ أربعين ألفَ وَدَعٍ؛ كَرَاهِيَّةَ أنْ تَدَّعِي المرأة الحريَّةَ أو أولادُها، ورغبةً في أن يكُونُوا مع أولادهم في مِلْكِ ملِّكُيْ.

وهؤلاء القبائل الثَّلاثة المذكورة آنفًا من أصلٍ واحِدٍ أبُوهُمْ اسمه بِمَ تَاسُو (بباء ممالة فميم فَتَاءٍ مَفْتُوحَتَيْن وسِينٍ مَضْمُومةٍ ضمَّة إشمام)، واسم أمِّهِم أرْبَعَكَلَ (بهمزة مَفْتُوحة فراء مسكونة فباءٍ وَعَيْنٍ مَفْتُوحَتَين فكافٍ مَفْتُوحة فلام ممالة)، وهم

(١) بَنْبَر: يكتب أحيانا بالميم (بَمْبَر).
(٢) الأظهر أنَّه: فَقلَّب الله...

ثلاثة رجَالٍ أشقَّاء فَوَقَعَتِ الخصُومَةُ بَيْنَهُمْ لأجْلِ امرأةٍ خَطَبُوهَا جميعًا، وتَبَاغَضُوا وَفَرَّقُوا أنْسَابَهُمْ، وكانَ نَسَبُهُمْ كَسَمْبَرَ، واسمُ قَرْيَتِهِمْ يَنِعْ من أرض ملٍّ،[1] وهي مدينة مَلِّكِيْ.

وغَرَامَتُهُمْ في زمن ملِّكِيْ منذ كانوا مِلْكًا له أربعون ذراعًا للزَّوج وزوجته إلى أن صاروا في أيدي سِيِّين.[2] وغرامَتُهُمْ في أزمان سِيِّين من أوَّلهم إلى شِي عَالِ، وهو آخِرُهُمْ مُلْكًا، يجتمعون مائة أنفُسٍ مخْلُوطِين رجالاً ونساءً ويَكِيلُ لهم كيال مائتي ذِراعٍ في الأرض، ويجتمعون مع الدُّفُوف والمزَامير ويحرُثُونها له ويصِيحُونَ حالَ الحرث ويضربون الدُّفوف. فإذا حُصِدَتْ تِلْكَ المزَارِعُ قسَّمَها شي بين جَيْشِهِ. فإذا فُسِدَت المزارعُ أغْرَمَهُمْ وضَمِنَهُمْ.

فَلَمَّا ملَكَهُمْ أسْكِيَ مُحَمَّد جعل غَرَامَتَهُم في كلِّ عامٍ إذا حصدوا زُرُوعَهُم، يأمر رجلاً من قومه يأخذ غلاتهم فمن استطاع منهم أن يُعْطِيَ عشر أفْتَاتٍ أخذَهَا، ومن استطاع عشْرين فتًّا أخذَهَا، وهكذا إلى ثَلاثِينَ فتًّا، فلا يجاوزها؛ لأنها هو الحدُّ الَّذِي لا يُزادُ فوقَهَا، ولو استطاعَ صاحبُ الغَرَامة ألفًا. وكان أسْكِيَ مُحَمَّد يأخذ بعضَ أوْلادِهِمْ ويجْعَلُهُمْ أثمان الأفراس.

وأمَّا القَبِيلَةُ الرَّابِعَة من القَبَائِلِ الأربع والعشْرين المذكورين هي القبيلة المسمَّاة جِنْدِكَتَ (بجيم ممالة ونون

[ص٥٧]

مسكونة ودالٍ مَكْسُورة كسرة إشمام فكافٍ ممالة فتاءٍ مَفْتُوحة)، ومعنى الكلمة

(١) يَنع: أي مدينة نياني عاصمة مملكة مالي. سبق بيانها [في هامش ص٣٨].

(٢) يجمع «الفتاش» كلمة «شي» لقبا لملوك صونغاي، على «سيِّين» بالسين المعجمة، وليس بالشين الموجودة في المفرد.

في لغتهم: قُطَّاع الحَشيشِ، وغَرامَتُهُمْ من زمن ملِّكُيْ إلى أزمان سِيِّين قَطْعُ الحَشِيشِ للأَفْرَاسِ، إلى أنْ صَارُوا في يد أَسْكِيَ مُحَمَّد وتَرَكَهُمْ كذلك. ووَجَدَهُمْ لا يَصْلُحُونَ إلاَّ لِخِدْمَةِ الأفرَاسِ أين وَجَدَهُمْ مِنْ كَاغُ إلى سِبِرِدُكْ. ولكنْ زادَهُم أَسْكِيَ مُحمَّد بِأَنْ أمرَ كُبَراءهُم أن يصنَعُوا لصِبْيَانهمْ خَدَمَ الأَفْرَاسِ سُفنًا يخدمُون بها الأفرَاسَ، وكان أَسْكِيَ محمَّد يأخذُ بعضَ صبْيانِهِمْ ويخدمُهم أفراسَهُ أين وجدَهُم من كاغُ إلى سِبِرِدُكْ.

وأمَّا القبيلةُ الخامِسَةُ هم الزَّناجِيَّة،[1] وكلُّ زنجيٍّ مِنْ كَنْتَ إلى سِبِرِدُكْ كذلك يأخذ غَرَامَتَهُمْ كلَّمَا غَاضَ البَحْرُ، يأخذ مِمَّنْ اسْتَحَقَّ عَشَرَ حزْمَاتٍ مِن الحيتَانِ اليابسات، ومن استحقَّ تسعًا فتسع، ومن استَحَقَّ سبعًا فسَبْعٌ، إلى مَنِ اسْتَحَقَّ حزمة كلٌّ بِقَدْرِهِ، لكنْ لا يزيد فوق العشر.

وكلُّ من أتى إليه بحاجةٍ من حَوَائِجِ السُّفُن أخذَ مِنْهُم سَفِينَةً وملاحين ويُعْطِيه. واتَّخَذَهُمْ أَسْكِيَ مُحَمَّد واخْتَارَ لخدمَتِهِ وأهل بيته. ما أذِنَ لأحْدٍ أنْ يَخْدِمَهُمْ ولا أنْ يَبِيعَهُمْ إلاَّ هو وأوْلادُهُ، إلاَّ الشَّرِيف الحسني صقل بن عال، فَإِنَّهُ قد أعطاهُ أولادَ زِنْجِيّ يُسَمَّى فَرَنْطَكَ كلُّهم، وهم يَوْمَئِذٍ ألفَان وسبْعُمائة حين قَدِمَ هذا الشَّرِيفُ إلى كَاغُ، وَوَجَدَ أَسْكِيَ مُحَمَّد هُنالِكَ. ومُرَادُهُ من ذلك العَطَاءِ أَنَّهُ من أولاد النبي ﷺ، وحبُّهُ إيَّاهُ، وسنذكر تفاصيل العَطَاء وتَفْرِقَةَ الزَّناجِيَّة بين ما لهذا الشَّرِيف وبين ما لغيره في ترجمة أَسْكِيَ مُحَمَّد إن شاء الله.

---

(١) زنجي: وجمعه: زناجيَّة، في سياقات هذا الكتاب لا يحمل البُعد العرقي المعروف، وإنما يعني العبيد من خواص السُلطان أسكيا، الذين كان يحقُّ له التَّصرُّف فيهم بوصفهم من قبيلة معيَّنة، وكانوا مختلفين عن أصناف العبيد الآخرين الذين تملَّكهم أسْكيا بالأسر أو الشِّراء، ولم يكن يُسمح لأحدٍ غير أسْكيا وورثته باسترقاق الزَّناجيَّة الخاصة به أو تسخيرهم في أيِّ عمل إلاَّ بإذن أسْكيا.

وأمَّا القَبِيلةُ السَّادِسة فاسمُهَا أَرْبِي، وهم عَبِيدُهُ وَحَشَمُهُ وخَدَمُه، وبناتهم يَخْدُمْنَ زوجاته، ويحرُثُونَ له، وأَوْلاَدهمْ وفِتْيَانُهُم يحملونَ السِّلاَحَ قُدَّامَهُ وخَلْفَهُ في الحرْبِ وغيرها، ويُرْسلُهُمْ لحوائِجِهِ الخاصَّة، ولا حاجةَ لهم غيرَ خِدْمَتِهِ، ولذلك لا غلَّةَ عَلَيْهِمْ.

وأمَّا القبيلة السَّابِعَة والثَّامِنة والتَّاسِعة والعاشرة والحادي عَشَرَ فقَبَائلُ الحدَّادِينَ وهم قبيلة جَمْ تِينِ، وجَمْ وَلِ، وسُرُبَنَى، (وَكُمِ)، وقبيلة سَمْشَاكُ.[1] وهؤلاء القبائِلُ الخَمْسُ كلُّهم أبوهم واحدٌ، وهو عبدٌ

[ص٥٨]

للنَّصارى حدَّادٌ هربَ من جَزَائِر البَحْر المحيط إلى كُوكِيَ مدينة السِّيِّين في زَمَنِ شِي مُحَمَّد فَارَ، واسم العَبْدِ بُكَر. وتَزَوَّج أمة نانَ سَلَمْ أمِّ شي المذكور آنفًا، واسم الأمَة مَتَبَلَ. فوَلَدَتْ لَهُ خمسَةَ أولادٍ ذُكُور: تِينِ وهو أبو قبيلة جَمْ تِينِ، ووَلِ وهو أبو قبيلة جَمْ وَلِ، وسُرُبَنَى وهو أبو قبيلة سُرُبَنَى وكُمِ وهو أبو قبيلة كُمِ، وسَمْشَاكُ وهو أبو قبيلة سمشاك، وإلى آبائهم نسبوا.

وكان أبوهم المذكور ظَلُومًا غشومًا فاجرًا مسيطرًا جاهلاً جبَّارًا عنيدًا، وصار هو وأبناؤُهُ محاربين قُطَّاع الطُّرق ويَقْتُلُونَ ويَأْسِرُونَ ويَغْصِبُونَ الأمْوَالَ؛ فَرُفِع أمْرُهُم إلى السُّلْطَان شي، فأرْسَلَ إلَيْهِمْ رهطًا وأمر أن يُقْتَلَ الأبُ وأنْ يُؤْخَذَ أبناؤه؛ لأنهم عبيدُهُ وبنو أمَتِهِ. فقُتِل الأبُ وجيء بالأبناء الخمسة، فرَّقَهُم في البلدان، لئلاَّ يجتمعوا فيَظْلِمُونَ، وتفرَّع من كلٍّ بشرٌ كثير. وغرامَتُهُم من زمن شي إلى زمن أسْكِيَ مُحَمَّد مائةُ رُمْحٍ ومائة سَهْمٍ كلَّ عامٍ من كلِّ بيت.

(١) ورد هجاء اسم هذه القبيلة في موضع سابق أيضًا [ص١٤] بسَمَسِيكُ.

وأمَّا الثَّانِيَة عشرة فقبيلة كُرُنْكُيْ (بكافٍ مَضْمُومةٍ فراء ممالة إلى الضَّم فَنُونٍ مسكونة فكافٍ مَضْمُومةٍ ضمَّة إشمام فياءٍ مسكونة)، من كَاعُ إلى بلد فَانِي، من أرض سُومَ يجاور بلادها؛ لكن ليس بقريب جدًا؛ فإنَّهم تفرَّعوا من قبيلة سمْشَاكُ أبناء بنته.

وسنذكر ما بقي من القبائل الأربع والعشْرين، وهم نصف ما ذُكِرَ في تَرَاجُم كلام أسْكِيَ مُحَمَّد إنْ شاء الله.

وهذا كلُّه في العام المذكور،[1] وكان سِنُّ أسْكِيَ مُحَمَّد يَوْمَئِذٍ خمسين عامًا، وسِنُّ ألْفَا صَالِح جَوَرَ تسعًا وأربعين عامًا، وسن مُحمَّد تُلِ ستًّا وعشْرين عامًا، وأنا يَوْمَئِذٍ ابن خمس وعشْرين عامًا، وكان سِنُّ محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ ثمانيةً وعشْرين عامًا.[2]



(١) يعني في جمادى الآخرة عام (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م).

(٢) هذا تاريخ دقيق؛ لأنَّه ذكر من قبل أنَّه ولد عام (٨٦٨هـ).

الباب السَّادِس

أسْكِيَ مُحَمَّد

هذه ترجمة أمير

[ص٥٩]

المُؤمِنِينَ وسُلْطَان المسلمين أبي عبد الله أسْكِيَ مُحَمَّد بن أبي بكر،[1] ويلقَّب أبوه بارُ لُومْ (قبيلة من السِّلَوِي)، وقيل من طُورِ.[2] وأُمُّه كَسَيْ بنت كَرَكُيْ بُكَر. ورأينا مَنْ سَاقَ نَسَبَ أمِّه إلى سِبْطِ جابر بن عبد الله الأنصاريِّ، وفي تتَبُّع ذلك خروجٌ عن الغرض.

وله من المناقب وحُسْن السِّياسة والرِّفق بالرَّعية والتَّلطُّف بالمساكين ما لا يحصى. ولا يوجد له مثلٌ لا قَبلَهُ ولا بَعْدَه، وحبِّ العُلَماء والصَّالِحين والطَّلبة وكثرة الصَّدقات وأداء الفرض والنَّوافل. وكان من عُقَلاَء النَّاس ودُهَاتِهِمْ،

(١) لم نتبين سبب كنيته بأبي عبد الله، علما بأن عبد الله لم يكن أكبر أولاده، ولعل سبب ذلك أنه من أبنائه القلائل المستقلين باسم واحد، أي أن «عبد الله» لم يتكرر في أبنائه. بينما تكررت معظم الأسماء في بنيه ثلاث مرَّات. ولعل اختيار كنيته بعبد الله لدفع اللَّبس، فلو كُني بأبي موسى، لما عُرف بأيِّ موسى كُني. وعبد الله هذا من أوائل أبنائه، هو وشقيقه أسكيا إسحاق [ص٨٧].

(٢) بارُ: أي أبوبكر، وقد سبقت تسمية ابن صن علي بهذا الاسم المرخم. و(لوم): كما ذكر الفتاش هنا، عشيرة من السوننكي، و(السِّلوي): نسبة إلى عشائر سيلا السوننكيَّة. وقد أورد السعدي (ص٧١)، هذه النسبة على النَّسق الأفريقي: (السِّلنكي)، بزيادة اللاَّحقة «نْكي»، التي تزاد على الأسماء لإرادة النسبة، ومنه «مالينْكي» و«جَافُنْكي» أي أهل مالي وجافُنُ.

والتَّواضع للعلماء وبذل النُّفُوسِ والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإِعَانَتِهِمْ على طاعة الله وعِبَادَتِهِ، وأَبْطَلَ جَميعَ مَا عَلَيْهِ شِي من البِدَعِ والمناكر والظُّلْمِ وسَفْكِ الدِّمَاء، وأقام الدِّين أتمَّ قيام، وأطلق كلَّ مَنِ ادَّعَى الحريَّة مِنْ اسْتِرْقَاقِهِمْ، وردَّ كلَّ مالٍ غَصَبَهُ شي إلى مَوَالِيهِمْ، وجدَّد الدِّين وأقام القُضَاة والأئمَّة، جازاه الله عن الإسلام خيرًا. ونصَبَ في تُنْبُكْتُ قاضيًا وفي بلدَة جِنِّي قاضيًا وفي كُلِّ بَلَدٍ يَسْتَحِقُّ القَاضِي من بلاده قاضيًا مِنْ كَنْتَ إلى سِبِرِدُكْ.

إنه نزل في بلد كَبَرَ[1] حين توجَّه إلى

[ص٦٠]

سُورَ بَنْتَنْبَعَ بجيشه، ركب بِرْذَوْنًا له، وحمل خديمُه عَلِ فُلَنِ سَيْفَهُ أمامَهُ بعد صلاة المغرب. ليس معه أحدٌ غير عَلِ فُلَنِ المذكور إلى أن أتى هذا المكان الَّذِي يُصَلِّي أهلُ تُنْبُكْتُ فيها العيد اليوم، وقال لعَلِ فُلَنْ: أتعرف دار القَاضِي محمود بن عمر؟ قال: بلى. وقال: اذهب إليه فقُلْ له أنا هنا وَحْدِي، فَلْيَأْتِنِي وحْدَهُ. فأخذ بزِمَامِ البِرْذَوْنِ وذهب عَلِ فُلَنْ، وألفى الشَّيْخ القَاضِي محمود واقفًا بباب داره مع طائفةٍ من النَّاس على عادته، وبلَّغ إليه عَلِ فُلَنِ رسالة أسْكِيَا مُحَمَّد. وأجابه ولم يَكُنْ إلاَّ أن دَخَلَ بيته وأَخَذَ هِرَاوَتَهُ ومشى معه، وردَّ كلَّ مَنْ أراد أن يَتْبَعْهُ، وذهب وَحْدَهُ إلى أنْ وَجَدَ أسْكِيَ مُحَمَّد، وحيَّاه وقَبَّلَ يديه الكريمَتَيْن. وأخذَ عَلِ فُلَنِ رَسَنَ البِرْذَوْنِ وَقَادَهُ، وأَمَرَهُ أن ينحي عنهما، ففعل.

---

(١) كَبَر: هي ميناء تمبكتو على نهر النيجر، وتبعد عن تمبكتو بثمانية أميال (=١٣كلم). أما كبَر (كبَّارا) الأخرى فكانت مدينة بعيدة عن تمبكتو، وتحتل المرتبة الثالثة سياسيًّا في صونغاي، وموقعها عند المنطقة العليا من نهر النيجر غربي مدينة جيني، قريبًا من مدينة جاخا (Diakha)، بمنطقة ماسينا. كانت مدينة كبارا حاضرةً علميَّة مشهورة استقرَّ بها كثيرٌ من العلماء منهم الفقيه القاضي مودبُ محمد الكابري.

ثُمَّ قال له بعد التَّحيَّة والسَّلام التَّامَّتَيْن: أرسلتُ رُسُلِي في حوائجي، أو أمَرْتَ بأمري في تُنْبُكْتُ؟ فلترد[1] رُسُلِي وتمنَعُهُ بإنفاذ أموري؟ فهل ما ملك مَلِّكُيْ تُنْبُكْتُ؟ فقال الشَّيْخُ: بلى مَلَكَهُ. فقال: أليس فيه يَوْمَئِذٍ قاض؟ قال: بلى. فقال: أنت أفضَلُ مِنْ ذلك القَاضِي أم هو أفضلُ مِنْكَ؟ قال: بل هو أفضل منِّي وأجلُّ. فقال أسكيَا: هل مَنَعَهُ قاضيه أن يتصرَّف في تُنْبُكْتُ؟ فقال: لا ما مَنَعَهُ. فقال أسْكِيَا: ألم يكن الطَّوَارِقُون سلاطينًا فيها؟ فقال: بلى. قال أليس فيها قاض يَوْمَئِذٍ؟ فقال: بلى، كان ذلك. فقال أسْكِيَا: هل أنت أفضلُ من ذلك القَاضِي أم هو أفضل؟ فقال الشَّيْخ: بل هو أفضل مني وأجلُّ، ثُمَّ قال له: أما ملك شي تُنْبُكْتُ؟ فقال الشَّيْخ: بلى مَلَكَهُ. قال: أليس فيها قاض يَوْمَئِذٍ؟ فقال: كان. فقال: هو أتْقَى لله منك أو أنتَ أتْقَى وأجَلُّ منه؟ فقال: بل هو أتقى لله مني وأفضَلُ. فقال: فهل مَنَعَ هؤلاء القُضَاةُ السَّلاطِينَ مِنْ أن يتصرَّفوا في تُنْبُكْتُ

[ص٦١]

ويفعلون فيها ما شاءوا من أمرٍ ونهيٍ وأخذٍ وَعَطَاءٍ؟ فقال: ما مَنَعُوهُمْ وما حالوا بينهم وبين مُرَادِهِمْ. فقال: فلِم تَنْهَاني أنت وتكُفُّ يَدِي وتَطْرُدُ رُسُلِي إنْ أرْسَلْتُهم لقضاء حوائجي، وتَضْرِبُهُمْ وتَأمُرُ بإخْرَاجِهِمْ في البلد؟ ما لك وذلك؟ فما سببه؟

فقال الشَّيْخ ﷺ: هل نَسِيتَ أم تَنَاسَيْتَ يومَ جِئْتَني في دَارِي وأخذت برِجْلِي وثيابي فقلتَ: جئتُ أدْخُلُ في حُرْمَتِكَ وأسْتَوْدِعُكَ نفسي أن تحُولَ بيني وبَيْنَ جَهَنَّمَ، وانصُرْني وأمْسِكْ بيدي حتَّى لا أقَعَ في جَهَنَّمَ، وأنا وَدِيعَتُك. فهذا سَبَبُ طَرْدِي رُسُلَكَ ورَدِّ أمرِكَ. فقال نَسِيتُ ذلك والله! ولكنْ ذكَّرْتُه الآن، صدَّقْتَ والله!

---

(١) الظاهر أنَّه يريد: فلِمَ تردُّ؟

جُزِيتَ خيرًا وكُفِيتَ شرًّا. أطال الله إقامتكَ بيني وبين النَّار وغَضَبِ الجبَّارِ، فأنا أستَغْفِرُ الله وأتُوبُ إليه، وحتَّى الآن أنا وديعتُك آخذُ بِذَيْلِكَ؛ فاثْبُتْ في ذلك المكان. ثبَّتَكَ الله وادْفعَنْ عن نفسي، وقبَّلَ يَدَ الشَّيْخِ، وَوَدَّعَ الشَّيْخَ وركب ورَجَعَ فرحًا مسرورًا داعيًا للشَّيْخ بطول البقاء بأن يَقْبِضَهُ الله قبل موت الشَّيْخ (رَحِمَهُ الله).

انظر هذا الكلام من أسْكِيَ مُحَمَّد فتَعْلَم أنَّهُ سالم الصَّدْرِ، مُؤْمنٌ بالله ورسوله. فالعَجَبُ والعَجَبُ منهما. فسبحان من فرَّق بين قومٍ، لله دَرُّهما.

فمكث أسْكِيَ مُحَمَّد في السَّلْطَنَة سنتين وخمسة أشهر فتمَّ القرنُ التَّاسِع. ففي تِلْكَ السَّنة فتح زَاغَ. وأخذَ منها خَمْسمائة بنَّاء، فذهب بالأربع المائة إلى كَاغُ لِيَتَّخِذَهُمْ لنفسه-واسم رئيسهم يَوْمَئِذٍ كَرَمُغُ مع آلات بنائهم.[1] وأعطى أخاه[2] عمر كُمْزَاغُ

[ص٦٢]

المائة الباقية.

وتَوَلَّى عمر كُمْزَاغُ الكَنْفَارِيَّة، وذلك في تِلْكَ السَّنة. وهو أوَّل من تَسَمَّى بهذا الاسم، ولم يكن قبل ذلك بخلاف بَلْمَع وبِنْكَفَرْمَ. فإنَّ اسميْهِمَا موجودان منذ زمن شي.

وفي هذا العام وهو عام الثَّاني والتِّسعمائة بُنِيَتْ تَنْدِرْمَة. وأمَرَهُ أسْكِيَ مُحَمَّد أن يبنى لنفسه مدينةً، فجعل يتفتَّشُ في الجزائر والصَّحَارَى حتَّى أتى تَنْدِرْمَ، فأعْجَبَهُ ذلك المكان. وكان قبلُ مَسْكَنَ قَوْمِ بني إسرائيل، وأجْدَاثُهُمْ وآبَارُهُمْ هُنالِكَ إلى

---

(١) كَرَمُغ: أي معلم، وهي كلمة مركبة من جزءين، الأول (قَرَ) والآخر (مُغ)، فالجزء الأول مقترض من العربية (قراءة) والآخر بلغة المادينغ (إنسان)، والمعنى الحرفي للكلمة: صاحب القراءة، أي مقرئ، وتطلق على العلماء الدعاة. كما تطلق على كلٍّ ذي علم أو حرفة يعلِّمها غيره.

(٢) في الأصل: (وأعطاه أخاه).

الآن. فَلَمَّا رأوا آبارهم وَوَجَدُوهَا يَوْمَئِذٍ ثلاثمائة وثلاثًا وثلاثين بئرًا في جوانبها ووسطها. ورأوا عجيب حَفرِهَا وحالها، تعجَّبُوا من ذلك جدًّا.

وحدَّثنا بعضُ أعلام عصرنا من أهل مُورْ كُيْرَ، هو مُور صادق بن الفقيه مور بن الفقيه مور مَعْمَكْ بن الفقيه مور هَوْكَارُ، أنَّهُ قال: سمع من أبيه يتحدَّث عن قَرْنِهِ وجيله، وقال إنَّه سمع من جدِّه أنَّهُ قال: هؤلاء الآبار التي حَفَرَها أهلُ بني إسرائيل ما حَفَرُوها بسبب شيء إلاَّ أنهم أغْنِيَاء جدًّا من المال، ولهم مزارع من السَّلْقِ ويكتَسِبُون بها، يَشْتَرُونها التُّجَارُ منهم بثمنٍ كَثِيرٍ، وماءُ تِلْكَ الآبار أصْلَحُ لِسَلْقِهِمْ من ماء البحر، ومَنْ سقى سَلْقَهُ بماء البحر لم يطِبْ ولم يُشْبِه بنَبَاتِهِ كمَنْ سقى بالآبار، وهو سَبَبُ حَفْرِهِمْ لها. ويحفر بعضُهُمْ مقْدَارَ مائةٍ وأربَعِينَ ذراعًا، وبعضُهُمْ مقْدَارَ مائَتَيْ ذراعٍ، وبعضُهم مائة إلى ستِّين ذِرَاعًا، وكلُّ ما نقصت عن ستين فلا يَصْلُح للسَّلْق

[ص٦٣].

وكان بلَدُهُم حينَئِذٍ إذا أرادوا بَعْضُهُمْ أن يَغْسِلُوا ثِيَابهم يَرُوحُونَ بعد الزَّوال، ويحمِلُونَ معهم عَشَاء لَيْلَة، ويجدُّون السَّيْرَ حتَّى يغربَ الشَّمْسُ أو تَقْرُبَ إلى الغُروب، ثُمَّ يَصِلُونَ إلى مَوْضِعٍ يمكن غسل ثيابهم فيه. وبين جدار بعضِهِمْ وبين الماء كَعِشْرين خَطْوَة.

وفي القرية يَوْمَئِذٍ سبعةُ مُلُوكٍ بنو الملوك من بني إسرائيل، منهم جَبَرُوت بن هشام، وذو المين بن عبد الحكيم، وزير بن سلام، وعبد اللَّطيف بن سليمان، ومالك بن أيوب، وفضل بن مزار، وغالب بن يوسف، كلٌّ منهم يَتْبَعُهُ جيشٌ عَرَمْرَم، وكلُّ مَلِكٍ مع جُنْدِه له آبار. وكلُّ مَنْ أخطأ وسقى سَلْقَهُ مِنْ آبار غير ملك، يَرُدُّ حسابه للملك صَاحِبِ البئر، سواءٌ كان حرًّا أو عبدًا. وكلُّ ملك له اثنا عشر ألفًا من الخيل. وأمَّا الرَّجَالة الذين يمشون على الرِّجْل فلا تُعَدُّ ولا تحصى.

وأمَّا صفة حَفْرهم الآبار، أنَّهمْ إذا حفروا بئرًا وأخرجوا ترابها بَنَوا جوانبهم بالطِّين والأحجار، ثُمَّ يأتوا بحزمات الحطَبِ كشبر ثبر[1] ويجعلونها وسطها، ثُمَّ يأتوا بقَلَبَاتِ بُلْنَغَة فيصبُّونها فوقها، ثُمَّ يُوقِدُون عليها نارًا، فذابت فصارت كالحديد، ثُمَّ يتركونها حتَّى تَبْرُدَ، ثُمَّ يصبُّون عليها ماءً ويُخْرِجُون بعضَ رماده، وبعضٌ لا تُخْرَج. وفي حَفْرِهَا إتلافُ الأموال الجسيم. وكان سَلْقُ هذا البلد المذكور لا مثل له في أرض التَّكرُور. وهذا ما بلغنا.

فَلَمَّا جاء عَمَرْ يريد بناها أي تَنْدِرْمَ، وإنما سُمِّي بهذا الاسم؛ لأَنَّهُ لم يجدْ أحدًا هُنالِكَ حينَئذٍ إلاَّ سُرْكُ واحدٌ اسمه تِنْدِ، وله زوجة

[ص٦٤]

اسمها مَرْمَة، ولُفِّقَتْ اسماهما. وسمِّي البلدُ به وهو تِنْدِ وَمَرْمَ.

ولما رآه عمر كُمْزَاغُ سأله: ما تجئته،[2] وقال له ما اسمك ومِمَّنْ أنت؟ وأجابه وقال: اسمي تِسِمَنْ، لكنَّ أولادي هؤلاء يدعو لي بِتِنْدِ لسَمَاعِهِمْ ذلك من فَم أمِّهم، وقبيلتي زِنْجُ تِنْبُ، جزيرةٌ بين كاغُ ودَنْدِ. وأولاده يَوْمَئِذٍ ثمانية عَشَرَ وَلَدًا، إحدى عَشَرَ منهم إنَاثٌ وسبعةٌ منهم ذُكُور.

وسأله عمر أيضًا: هل زِنْجُ تِنْبُ أحرارٌ أم عبيد؟ وقال: بل عبيدُ الشَّرِيف مولاي أحمد في بلد مُرَّاكُش، وقال له: كم لك هُنالِكَ من السِّنِين؟ قال: خمسٌ وثلاثين سنة، كلُّ مَنْ ترى من أولادي وُلِدُوا هنا إلاَّ كبيرُهم عَيْشَ تِسِمَ، وقال له: هل وجدْتَ هُنَا أحدًا حين تنزل؟ فقال له: ما وجدتُ هنا حينَئذٍ إلاَّ عبدًا شيخًا

(١) رجَّح المترجمان أن تكون هذه الكلمة تسمية محليَّة لنوع من الخشب، (ينظر: الترجمة الفرنسية، ص١٢١).

(٢) الظاهر أنَّه يسأله عن مجيئه إلى هذا المكان، والسؤال: متى جئت؟

كبيرًا ابيضَّ شَعْرُهُ، حتَّى احمرَّ؛ من بقايا قوم بني إسرائيل، وكنتُ معه هنا ثلاثَ سنين، ثُمَّ مات في يدي. وقال له عمر: هل سألتَهُ عَنْ حالة هذا البلد؟ فقال: نعمْ سألْتُهُ عن قُوتِهِ واسم البَلَدِ واسمه، واسم البلد فاسمه بَعَكُ، واسم بحيرتها فَتٍ، واسمي سابق. وقال لي أيضًا أمَةٌ جِنِّيَّة أعتقها سيِّدُهَا تأتيه بما يأكل كلَّما جاع. وأخبرني بأشياء نسيتُ بعضها.

وكان تِسِمَ[1] يُعطي عمر ضيافةً له حيتانًا

[ص٦٥]

رطبة، فمَكَث عمر وقَوْمُهُ هناك تسعة أيَّام يأكلُ مَنْ معه الحيتان حتَّى يشبعوا، ثُمَّ شرعوا في ابتناء تِلْكَ المدينة. وفتَّشْنا عن الأحوال والأعوام، فإذا ذاك العامُ عامَ ثان بعد تسع مائة، والبنَّاؤون يَوْمَئِذٍ مائةٌ كاملة، واسم رئيسهم وهَبْ بري.

وبنوا خمسًا وعشْرين يومًا، أتى عمر رسولُ أخيه أسْكِيَ مُحَمَّد قبل إتمام سور داره، فأمَرَهُ بالمجيء إليه، وأمر أسْكِيَ مُحَمَّد بَلْمَع مُحَمَّد كُرَيْ، وبِنْكَفَرْمَ علي كِنْدَانْكَنْكَيْ أن يأتيا تَنْدِرْمَ ويُتِمَّانِ بناء سُورِ دَارِهِ. والَّذِي يَتَوَلَّى تِلْكَ البناء: أرميزَ وأخاه بارَ كُيْ بُكَرْ الزَّغْرَاني، ابني دَنْدِفَارِ.

ورحَّل كَنْفَارِ أخاه إلى كاغ واستَخْلَفَهُ مكانه، ثُمَّ جعل أسْكِيَ مُحَمَّد يَتَجَهَّزُ للحجِّ وزيارة بَيْت اللهِ الحَرَام وقبره (عليه السلام) وقُبُورِ أصحابه (رضي الله عنهم). وقام يجمع المال والجهاز للسَّفَر، ونادى من أرضه مِنْ كُلِّ جانِبٍ ويطلب الزَّاد والعَوْن. ومشى إلى الحجِّ في شهر الصَّفر بعد ما حصل له ثلاثمائة ألف ذهبًا الَّذِي أخذه عند الخطيب الطَّيب عمر من مال شِي عَالِ الَّذِي تحت يده. وأمَّا الَّذِي في داره في الحفرة والتَّابوت فكثير.

(١) وردت ثلاثة هجاءات لهذا الاسم هي (تِسِمَ، وتُسِيَم، وتسمَن).

ومعه ثمانمائة رجلٍ من الجند، منهم ابنُه أسْكِيَ موسى، وهُكْ كُرَيْ عليّ فُلاَنْ،[١] وياَيْ كَتُ، وكَارَ، وأقيال كُرَيْ مع بَرَ كُيْ مَنْسَ كُورَ بن موسى الَّذِي أمَّره أسْكِيَ مُحَمَّد على أرض فَرَ حين نَصَرَهُ الله على شِي بارُ.

ومعه أيضًا سَبْعَةٌ مِنْ فُقَهَاء بلده، وهم: ألْفَا صَالِح جَوَرَ، ومور مُحَمَّد هَوْكَارُ وهو يَوْمَئِذٍ شيخٌ كبير، وألْفَا مُحمَّد تُلِ، وكَاعُ زكريَّاء المنسوب بسَنَفَهْ، ومور مُحَمَّد المنسوب بتِنْكُ، والقَاضِي محمود يِنْدَبُعُ، وأنا معه أي محمود كَعْتِ.

وفي قصَّة سيره عجائب أنَّهُ تبيَّن لنا فضله وفضل الفَقِيهَيْنِ ألْفَا صالح جَوَر وألْفَا مُحمَّد تُلِ. وهو أنَّهُ مشى مع رُفْقَتِهِ حتَّى جاء فحصًا[٢]

[ص٦٦]

واسعًا بين الإسْكَنْدَريَّة ومصر، وبات هُنالِكَ مع عَسْكَرِه. فَلَمَّا انتصَفَ اللَّيْلُ،[٣] خرج ألْفَا صَالِح جَوَرَ وَحْدَهُ لِيَتَنَفَّلَ بخلوة، فإذا هو بأصواتٍ مرتفعة، فتَوَجَّهَ نحو الأصوات، فَلَمَّا قرب منها رأى مصابيح وحولها طلبةٌ من الجِنِّ يَقْرؤون الكتاب؛ فطاف حولهم، وإذا هم رَهْطُ شَمْهَرُوش من الجِنِّ، معهم رجعوا من الحجِّ، وهو وسَطَهُمْ وعليه تَقْرَأ طلبةُ الجِنِّ. فقَصَدَ ألْفَا صَالِح جَوَرَ نحوه فأتاه وحيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الإسلام، وصافَحَهُ فَجَعَلَ الرَّهْطُ يُسَلِّمُونَ عليه ويصافحونه؛ فارتفعت لذلك أصواتٌ فسَمِعَهَا ألْفَا مُحمَّد تُلِ، وهو خارجٌ للتَّنفُّلِ، وعَرَفَ صوت ألْفَا صَالِح جَوَرَ بين الأصوات، وخَشِيَ أن يَكُونَ ألْفَا صَالِح جَوَرَ يخاصم أحدًا من

(١) ترد تهجئة هذا الاسم أحيانا بـ(علي/ علِ فُلَن).

(٢) الفَحْص: أرض مبسوطة مكشوفة، أو ما استوى من الأرض واتَّسع.

(٣) في الأصل: (تَنَصَّف) على وزن (تفعَّل)، ومعناه: طلب معروفه أو أطاعه وانقاد له، ويقال: تَنصَّفت الجاريةُ، إذا اختمرت، وليس شيء من تلك المعاني مرادًا هنا. ومراده (نَصف، ينصُف؛ ينصِف، وانتَصَف، وأنصف)، أي: بلغ نصفَه. ينظر: لسان العرب، مادة: نصف.

رفقة أسْكِيَ مُحَمَّد، فتَوَجَّهَ نحوهم. فَلَمَّا جاءهم وجدَهُمْ رَهْطَ شَمْهَرُوش الجنيِّ وألْفَا صَالِح جَوَرَ قريبًا من شَمْهَرُوش يسأله، فأتى وسلَّم على شَمْهَرُوش وعلى رهطه، وجلس يتحدَّثُ معهم.

وبينما هم كذلك إذ خرج موسى بن ألْفَا صَالِح جَوَرَ، وهو غلامٌ سُدَاسِيٌّ حينَئذٍ. فَسَمِعَ صَوْتَ أَبيه؛ فَتَوَجَّهَ نحو الصَّوْتِ فَأَتَاهُم فوجد أباه وألْفَا مُحمَّد تُلِ مِنْ بينهم أيْ الجنِّ رَهْطِ شَمْهَرُوش الجني، وجلس قرب أبيه. وقال شَمْهَرُوش للفَقِيهَيْن: فمَنْ أنتما؟ فقالا من قوم أمير المُؤمِنِينَ أسْكِيَ مُحَمَّد، خرج وخَرَجْنَا مَعَهُ حُجَّاجًا. فكبَّر جَوَرَ[1] شَمْهَرُوش وقال إنَّ: أسْكِيَ مُحَمَّد رجلٌ صالحٌ، سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «الخلفَاءُ اثني عَشَرَ خليفَةً، كلُّهُم مِنْ قُرَيْش»،[2] وأظنُّ أنَّهُ منهم. مَضَتْ عَشَرةٌ منهم وبَقِيَ اثْنَان، فلَعَلَّهُ الحادي عشر. وسيأتي آخرُهُمْ في القَرْنِ الثَّالث عَشَر، وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنِّي أعيشُ إلى تاسِعِ القُرُون، وأوافِقُ الحادِي عَشَر مِنَ الخُلَفَاء، ثُمَّ يُحْكَمُ بين الجِنِّ والإنْسِ، وحينَئذٍ أتَوَقَّعُ الموتَ. وقالوا له: هلْ رأيتَ النَّبِيَّ ﷺ؟

[ص٦٧]

فقال نعم، وقرأتُ عَلَيْه. وتبَشَّرُوا بذلك.

وبينما هم كذلك إذْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ عَبْدٌ جِنِيٌّ وقال: إنَّ راعِيَكُمْ ضَرَبَ غُلامَنَا حتَّى أُغْمِيَ عليه، فإنَّا دَعَوْنَاكُم إلى الشَّريعة. وقال الفقيهُ ألْفَا صَالِح جَوَرَ: كيف ضرب غلامَكُمْ راعِينَا، ونحن لا نَراكُمْ؟ وقال العبد: إنَّ الغُلامَ تَبَدَّلَ حَيَّةً. وقال شَمْهَرُوش أميرهم: مَنْ تَبَدَّلَ عن صورته فَدَمُهُ هَدَر، ثُمَّ قاموا يودِّعُونَهم وذهبوا فَرَجَعُوا إلى رُفْقَتِهِم.

---

(١) اسم (جَوَر) مقحم هنا في الأصل.

(٢) كذا في الأصل: اثني (بالياء)، والصواب بالألف.

وباتوا هُنالِكَ لَيْلتَيْنِ. فمات من الرُّفْقَة رجلٌ اسمُه مُحَمَّد كُيْ إِج من سُغُيْ،[١] وكان من قوم شِي، وكثِيرَ الظُّلْم، فَلَمَّا جعلوا الصَّفَّ ليُصَلُّوا عليه،[٢] وكان موسى بن أَلْفَا صالح واقفًا مع القوم، وتبَيَّنَ لنا فضْلُه. وهو بِقُرْبِ أبيه وقال لأبيه: انْظُرْ يا أبتي إلى الملائكة يُخْرِجُون الرَّجُل من بين أيدينا! ولم يبق بين أيدينا إلاَّ النَّعْشُ الخالي. ولم يرَ ذلك أحدٌ إلاَّ هو؛ فَجَعَلَ أبُوهُ يقول له: اسْكُتْ يا بُنَيَّ! فظهر لهم أنَّهُ مُكَاشِفٌ منذ كان صبيًّا.

وفي غَدِ ذلك اليوم تبيَّنَ لنا فضلُ شَيْخِنَا وصاحبنا رطْبُ اللِّسَانِ بالذِّكرِ الفاضل الصَّالِح التَّقي الزَّاهِدِ، وليِّ الله تعالى الفقيه الأمين أَلْفَا صَالِح جَوَرَ، وفَضْلُ الشَّريف الحسني الفقيه اللُّغويِّ التَّصْريفيِّ النَّحْوِيِّ، له حَظٌّ في مَعْرِفةِ الصَّحَابة، وليِّ الله تعالى مُحمَّد تُلِ، وفضل أَسْكِيَ مُحَمَّدٍ الإمَام العَادِلِ أبي اليَتَامَى والأَرَامِلِ والمسَاكِينِ والضُّعَفاء ومَلْجَأ العُلَمَاء.

أمَّا الَّذِي بيَّن لنا فَضْلَ أَلْفَا صَالِح جَوَرَ، فَلَمَّا ارْتَحَلنا من هناك سِرْنَا ثَلاثَةَ أيَّامٍ مجدِّين، فَلَمَّا كان اليوم الثَّالثُ هَبَّتْ ريحٌ شَدِيدَةٌ حَارَّةٌ حتَّى يئِسَ مَنْ في الرُّفْقَةِ من الحياة إلاَّ قَوِيُّ الإيمان، ونَشَفَتْ ما في القِرَبِ من الماء جميعًا، حتَّى لم تَتْرُكْ منها ولو قطْرَةً، واشتدَّ على القوم العطَشُ، حتَّى كان أشدَّ عَلَيْهِمْ من الرِّيح؛ ففَتَحُوا القِرَب فلم يجدوا شيئًا، فزاد خوفهم؛ فأمَرَ أميرُ المُؤمِنِينَ أَسْكِيَ مُحَمَّد غلامًا له يُقالُ له فَرَ جَلُ أن يَذْهَبَ إلى هذا العالم أَلْفَا صَالِح جَوَرَ، وهذا كلُّه بعد نُزُول العَسْكَرِ من شدَّة الرِّيحِ، وطلَبَ منه أن يَدْعُوَ الله بحرمة النَّبيِّ ﷺ أن يَسْقِيَنَا؛ فزجر

(١) كيْ إج: أي ابن الزَّعيم بلغة الصونغاي، وتطلق على أبناء الأمراء، وأفراد الأسرة الملكيَّة القديمة لدى الصونغاي.

(٢) يبدو أن استخدام (الجعل) هنا مع الصف، من تأثير لغة المادينغ على الكاتب؛ حيث يقولون: (safa k?).

[ص٦٨]

الغُلامَ بأشدِّ زجْرٍ وقال: إنَّ حُرْمَة النَّبيِّ ﷺ أعْظَمُ من أنْ تُطْلَبَ بها الحوائجُ الدُّنْيَويَّة، اطلبْ منَّا أن نطلب بحرمتنا المذنبين، فقام ساعتَئِذٍ وتَوَجَّهَ إلى القِبْلَة وقال: اللَّهُمَّ إنَّا عَطِشْنَا وأنت أعْلَمُ بحالي منَّا، وأنتَ عالم الظَّاهِرِ والبَاطِنِ. فما تمَّ كلامُهُ حتَّى سمعنا رعدًا، فَمُطِرْنَا مطرًا ساعَتَئِذٍ؛ فَشَرِبْنَا وسَقَينا دَوابنا واغتَسَلْنَا وغَسَلْنا ثيَابَنَا. وأقَمْنَا هنا يَوْمَيْن، فصار الماءُ نهرًا طُولُهُ مائةُ رُمْح.

فَلَمَّا جعل الأمير أسْكِيَ مُحَمَّد يَقْسِمُ التَّمر بين أهل الرُّفْقَة كعادته، فأعطى جميع النَّاس، ونَسِيَ ألْفَا مُحمَّد تُلِ؛ فَحَزِنَ لذلك ألْفَا مُحمَّد تُلِ في نفسِهِ، ولم يُبِنْ لأحدٍ، فجعل بعضُ أهل الرُّفْقَة مَنْعَهُ عمدًا، والبعضُ يقول نسيانًا، وبكى أهلُ منزل ألْفَا مُحمَّد تُلِ، وبعضٌ اغتاب أسْكِيَ مُحَمَّد. وبينما الرُّفْقَةُ كذلك إذا هُمْ بِجَمَلٍ أبيض من المشْرِقِ، عليه حِمْلٌ من التَّمر يَشُقُّ الرُّفْقَة إلى منزل ألْفَا مُحمَّد تُلِ، حتَّى أتاه فألْقَى حِمْلَ التَّمر بين يَدَيْهِ، فَرَجَعَ إلى حَيْثُ أتى؛ فقام ألْفَا مُحمَّد تُلِ إلى الحِمْلِ، فجعل يَقْسِمُ التَّمر بين أهل الرُّفْقَة كما جعل أسْكِيَ مُحَمَّد، فجعل للأمير أسْكِيَ قسمًا. فإذا هو تمرٌ لم يُرَ له مِثْلٌ؛ فجعلنا إلى الجمل ننظر حتَّى غاب عنَّا. فجاء الأمير أسْكِيَ مُحَمَّد فأكبَّ بين يَدَيْهِ يُقَبِّلُ يديه ورِجْلَيْه، ويعْتَذِرُ إليه بالنِّسْيَان. وتَبَيَّنَ لهم فَضْلُ هذا العالم الوليِّ ذلك اليَوْم، وقال: إنْ نَسِيتَني فالعبدُ ينسى ولكنَّ الرَّبَّ لا ينسى أحدًا. ورجع في آخر الثَّالثَة.(١)

وله خصائصٌ ومَنَاقِب في حَجِّهِ، من ذلك: أقبل عليه أهلُ الحرَمَيْن الشَّرِيفَيْنِ، واشترى في مكَّةَ المشرَّفة بقعةً وبَنَاها دارًا، وحَبَسَ الدَّارَ على الكعبة الشَّريفة. وتلقَّى هُنالِكَ العُلَماءَ الأجلاَّء والصُّلَحَاء المرضيِّينَ، وعمَّمَهُ شَرِيفُ مَكَّةَ ، وقدَّمَهُ

---

(١) الضمير عائد على أسكيا الحاج، أي أنَّه رجع من الحج في آخر العام (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧).

ولاَّهُ، وألبَسَهُ العِمَامَةَ الزَّرْقَاءَ، وسمَّاهُ «الإمامَ».(١)

وتلقَّى بمصر سيِّدي عبدُ الرَّحْمَن السُّيُوطي، وأخْبَرَهُ بما سيكُونُ في بلاده. قيل إنَّه سأَلَ عن بَلَدِ كاغُ وما يَؤُولُ إليه آخِرُه. قيل: قال أخافُ أن يكونَ سَبَبُ خَرَابه الفِتَنُ، وعن بلد تُنْبُكْتُ قيل

[ص٦٩]

قال: إنَّ أخوَفَ ما أخَافُ عَلَيْهِمْ أنْ يَكُونَ خَرَابُهُ وإتْلافُهُ بالجوع. وعن بلد جِنِّ قال: خَرَابُهُ وهلاكُ أهْلِهِ الغَرَقُ، يَفْجَأُهُم الماء ويُغْرِقُهُمْ أجمعين. وله معه قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ أيضًا، وزارَهُ سيِّدِي العالم العلاَّمَةُ مُحَمَّد بن عبد الكريم (المغيلي).

وقيل إنَّه سمع رجلاً مِنْ أهل مكَّة كان عِنْدَهُ شيءٌ من شَعْرِ رأس رَسُول اللهِ ﷺ، يأتيه التُّجار بألوفٍ مِنَ الذَّهب يطلُبُونَ منه أن يَغْمِسَ تِلْكَ الشَّعْر الشَّرِيفة المباركة في الماء ويشْرَبُون ذلك الماء ويَغْسِلُونَ به. فَلَمَّا أتى الرَّجُلَ طلبه منه وأخْرَجَهُ له وظفر بشَعْرٍ منها وألْقَاهُ في فمه والْتَقَمَهُ، يا له من فوزٍ ما أكْرَمَهُ، ونِعْمةٍ ما أَوْفَرَه!

وقيل لما دَخَلَ شَبَكَةَ رَسُول اللهِ ﷺ، دَخَلَ معه بَرَ كُيْ مَنْسَ كُورَ، وأمْسَكَ بمَعْمَدَةٍ مِنَ الشَّبَكة الشَّرِيفة وقال: يا أسْكِيَا مُحَمَّد هذا رَسُول اللهِ ﷺ، وهذا أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما)، دَخَلْتُ في حُرْمَتِهِم، أطلبُ منك أشياء: الأولى أن لا تجعَلَ بَنَاتي في الدَّار إلاَّ بالنِّكَاح.(٢) فقال: فعلتُ، ثُمَّ قال: وما الثَّانية؟ قال: أن تقف

---

(١) في [ص١٢] السابقة، ذكر ابن المختار أنَّ العمامة بيضاء. وفي تاريخ السعدي ذكر العمامة والخليفة العباسي، ولكنَّه لم يشر إلى لون للعمامة ولا إلى اسم الخليفة [ص٧٣].

(٢) كان من عادة النَّاس في ممالك أفريقيا أن يهدوا بناتهم الحسناوات إلى الملوك بلا تزويج، وكان المسلمون يمارسون هذه العادة جهلاً منهم. وقد نبه ابن أمير حاجب مانسا موسى إلى بطلان هذه العادة شرعا وعقلا؛ فرجع عنها في الحال (العمري، مسالك الأبصار، ص٤/ ١١٩).

حيثُ وَقَّفْتُكَ في الأمر والنَّهي؛ فقال: فعلتُ. وما الثَّالثَة؟ قال: فلا تَقْتُلْ مَنْ دخل في داري ولا مَنْ وَصَلَني. فقال: فعلتُ. فقال: لا بد أن تُعْطِيَنِي العهْدَ على ذلك في هذا المكان الشَّرِيف، ويكون رَسُول اللهِ ﷺ شاهدًا على ذلك. فقال: فعلت. وعَقَدُوا على ذلك.

وقيل إنَّهُ كان حين حَصَرُوهُ أهلُ بُرْكُ وهَزَمُوا جَيْشَهُ، تبعه أولادُهُ وهم مائة كاملة، وحَاط بهم جيش سُلْطَان بُرْكُ، وحَالوا بَيْنَهُ وبين قَوْمِه، وليس إلاَّ هو وأوْلاَدُه؛ نزل عن فَرَسِهِ وصلَّى رَكْعَتَيْن، ثُمَّ استَقْبَل القبلة وقال: أسألُكَ اللَّهُمَّ بحرمة ذلك اليوم الَّذِي وقفْتُ عند رأس رَسُولِكَ في شَبَكَتِهِ

[ص٧٠]

وسألْتُكَ أنْ تُجِيبَنِي عند كلِّ شِدَّة، أسألك اللَّهُمَّ أن تُفَرِّجَ عَنِّي وعن أولادي وأَخْرِجْنَا بين هؤلاء سالمين، ثُمَّ رَكِبَ وقال لأولاده: ادخلوا أمامي حتَّى أُخْرِجَكُم. فقالوا له: لا نَفْعَلُ ذلك أبدًا؛ لأنَّا جمعٌ، إن مات فينا طائفةٌ تبقى طائفَةٌ أخرى، وأنت فينا واحدٌ، فإن مِتَّ فلا أب يخلُفُكَ لنا، ثُمَّ جَعَلُوهُ في وَسَطِهِمْ واقْتَحَمُوا عَلَيْهِمْ وهَزَمُوهُمْ، وخَرَجُوا سالمين ولم يُجْرَحْ منْهُمْ أحدٌ.

فَلَمَّا خرج ولحِقَ بجَيْشِهِ قال لهم: اسمعُوا ولا تَعْجَبُوا مع ما فيه من العَجَب الَّذِي لم يتَّفِقْ لِبَشَرٍ قبلي وذلك أنَّ الله أعطاني مائَةً من الولد، ما فيهم ولَدٌ خَاسِرٌ ولا جَبَّانٌ، وكلُّهُمْ فُرْسَانٌ شُجْعَان. وقد يخلقُ الله رجلاً ويَعِيشُ ولا يُصِيب ابنًا واحدًا، وقد يصيبُ واحدًا فيكُونُ ولدًا فاسدًا خاسرًا. وقد أعطانا الله مائةً صَالحين، فإنِّي أشْكُرُ الله على ذلك!

ومن كرامَاتِ أسْكِيَ مُحَمَّد أنَّهُ لما أتى بلد مُوشِكُيْ بعد قتْلِهم وإهزام جيش مُوشِكُيْ، وقف على شَجَرَةٍ هُنالِكَ التي صَنَمُهُمْ تَحْتَهَا، وأشار إلى الصَّنَم فإذا

الشَّجَرَةُ انْقَلَعَتْ مِنْ أسفَلِهَا وسَقَطَتْ بإذن الله. وسُئِلَ عمَّا قال عند الشَّجَرَة وما فعل بها وَتَسَبَّبَ لسُقُوطِهَا، فقال: والله ما قلتُ إلاَّ «لا إله إلاَّ الله مُحَمَّدٌ رَسُول اللهِ»، وما زُجْتُ عليه كَلْمَةً غيرها. سمعتُهُ من والدي المختار قنبل (رَحِمَهُ الله)، يتَحَدَّثُ بها.

وغزا في السَّنة الرَّابِعَة.[١] في تِلْكَ السَّنة تَوَلَّى شيخُنَا الفقيهُ محمود بن عمر القضاء. وفي العام الخامس غزا باغَنَ فارِ. وفي السَّادِسة غزا تِلْظَ في أيرْ، وهُنالِكَ أصاب كَكَكِ،[٢] ولم يكن لهم قبل ذلك. وفي السَّنة السَّابِعَة مشى إلى زَلَنْ، ورجع إلى كاع.[٣]

وأمر سبعة رجالٍ من أبنائه وهم: كُرْمِنَ

[ص٧١]

فَارِ عثمان، ومور عثمان سَاكِدِ، وعثمان كِرِيَ، وسليمان كَتِنْكَ، وبِنْكَفَرْمَ سليمان، وكَلِسِفَرْمَ سليمان، وعمر تُوتُ، وفقهاؤهُمْ الذين حجَّ معهم لاستئنائه صَالِح جَوَرَ ومُحمَّد تُلِ. وقال لهم: فإذا جاءوا الموضع الَّذِي عُرف بإسَكَيْنَ إلى موضعٍ عُرِف بقَا حَوزٌ لك يا صَالِح جَوَرَ، وأنتم الشُّهداء. وفيه ثلاث قبيلة ملكًا له:

---

(١) أي عام (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م).

(٢) أي عام (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م). و(تِلْظ): لقبٌ للسُّلطان محمد بن عبد الرحمن، سلطان أغاديس التَّاسع، وهو الَّذِي أشار إليه الإمام السيوطي في عنوان رسالته إلى ملوك التكرور قائلا: «إلى الملك الزاهد محمد صطفو وأخوَيه محمد وعمر». و(كَكَك): بوقٌ عملاقٌ من النُّحاس، يُنفخ فيه في المراسم الملكيَّة وفي الاستنفار للحروب. وفي «تاريخ كانو» (ص٧٠) أنَّ بداية استخدام القرون الطويلة كان في أيام سَركنْ سَميَّة (Sarkin Tsamia, 1307-1343)، ويضيف الراوي أن النغمة التي كانت تصدرها كانت تعني: «اثبتْ فإن كانو مسقط رأسك!» ينظر: African Music Society, p36

(٣) ذكر السعدي أنَّه بعث أخاه عمر كمزاغ إلى هذه الغزوة، ولم يذهب هو بنفسه. (السعدي، ٧٥).

حَدَادَنْكِ أغمًا،[١] وقبيلة فالَنْ، وأهل بِلَ كُكُ، وكُرْكَعَ، وسَرَيْ، وإنما أصْلُهُم مِنَ الزَّنْجِيَّة، ثُمَّ قال يا مُحمَّد تُلِ إذا وصلُوا حَرْكُنْس كَيْغُرُ وركب في مقابله من طلوع الشَّمْسِ إلى حين غربت عليك حَوْزٌ لَكَ، وفيه ثلاثة قبيلة ملكًا لك: قبيلة زَنْجِيَّة وقَبِيلَةُ سُرُبَنَى وَقبيلة جَمْ وَلِ، لأنَّ جَمْ وَلِ وسُرُبَنَى أمُّهم عربيَّةٌ، وأبوهم حدَّادٌ ماسِنِّيٌّ. وكان الأمر كذلك وغربت عليه الشَّمسُ بحذاء أشجار دُودِكَش، ثُمَّ رجع إليه وقَصَّهَا عليه، ودعا لهم.

وما غزا في السَّنة الثَّامِنة والتَّاسِعة والعاشرة، وفي الحادية عشر[٢] مشى إلى بِرْكُكْ، ولم يَغْزُ في الثَّانِيَةَ عَشَرَ.

وفي الثَّالثَة عَشَرَ نزل في كَبَرَ وتلقَّاه هُنالِكَ ثلاثةُ رجالٍ من حَفَدَةِ الشَّيْخ مُورْ هَوْكَارُ، وهم: مور الصَّادق، ومُور جَيْبَ، ومور مُحَمَّد الذين أخذهم شي عليّ في زمنه كما تقدَّمَ. واشتكوا إلى أسْكِيَ مُحَمَّد البؤس والشِّدَّة التي تَلَقَّاهُمْ في زَمَنِ شِي عَالِ، وأمر لهم بعشرة خُدَّامٍ ومائَةٍ بقرة؛ فرجَعُوا. فَلَمَّا كانوا راجعين تلَقَّوْا بإخوانهم بني أبيهم حَفَدَةِ مُورْ هَوْكَارُ في الطَّريقِ قادمين إلى أسْكِيَ مُحَمَّد، وسألُوهُمْ عن حاله، وأخبروهم بحُسْنِ سيرته وسياسَتِه وكَرَمِه، وذَكَرُوا

[ص٧٢]

لهم ما وَهَبَهُ لهم مِنَ العَبِيدِ والبَقَرَاتِ. فقالوا: نحن شركاؤُكُمْ في هذه العطيَّةِ نَقْسِمُهَا على رؤوسنا، وأبَوْا، وتخاصموا، وبلغوا في ذلك نهايةً، حتَّى رجَعُوا معهم إلى أسْكِيَ مُحَمَّد وأخبروه بما جرى بينهم وبين إخوانهم؛ فضَحِكَ فرحًا

---

(١) أي طوال الشعر، وقد تقدم [ص١٤] أن هاتين القبيلتين، أي: جَمْ وَل، وسُرُبَنَى، هما من القبائل الإثنتي عشرة التي قيل إن السيوطي والمغيلي أفتيا أسكيا الحاج محمد بجواز تملُّكها.

(٢) أي عام (٩١١هـ/ ١٥٠٥م).

مسرورًا، ثُمَّ قال للإخوة: إنما هذه العَطِيَّةَ ما نَوَيْتُ بها ذريَّاتِ مُورْ هَوْكَارُ، وإنما قَصَدُوني إخْوَتُكُمْ هؤلاء الثَّلاثة، فأعْطَيْتُهُم ما قَسَّمَ الله لهم، وذلك رِزْقُهُمْ سَاقَهَا الله لهم، ثُمَّ أمَرَ للإخْوَة الآخَرين أيضًا بعَشَرَةِ عَبِيدٍ ومائة بَقَرةٍ، وقال: هذا رزقُكُمْ أنْتُم، ولكم عندي ذلك غَرَامَة في كلِّ عَامٍ ما بَقِيتُ؛ فأخذوها وشكروا فِعْلَهُ، ودَعَوْا لَهُ بِطُولِ البَقَاء والتَّمتُّع بملكه، ثُمَّ قالوا له: نُرِيدُ مِنْكَ أن تكتُبَ لنا كتابَ الحرْمَة نَسِيرُ بها في البُلْدَانِ نحمى بها أعراضَنَا، حتَّى لا يتعرَّض لنا أحدٌ مِنْ ظَلَمَةِ جُنْدكَ بِظُلْمٍ ولا بتَعْدِيَةٍ - عَتَقَكَ اللهُ مِنَ النَّار - فرَضِيَ وأجاب وأمرَ الكاتب أن يَكْتُبَ، وهو يملي له ويَكْتُبُ. ووقَفْتُ أنا على ذلك الكتاب، أوْقَفَني عليه خَالي القَاضِي إسماعيل بن الفَقِيه القَاضِي محمود كَعْتٍ، وقد لحسَ منه الأرضةُ بعضَ أسْطَارٍ أسْفَلَ رسمه، ونَقَّبَ منه أشياء. ونصُّه:

«هذا كتاب أمير المُؤمِنِينَ وخَليفةِ المسلمين السُّلْطَانِ العَادِلِ القَائم بأمْرِ الله أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد بن أبي بكر، أدَامَ الله عِزَّه ونَصرَهُ وخلَّد البرَكَةَ في عَقِبِهِ. ومَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ بِأيْدِي جُمْلَةِ حَفدَة الفقيه الزَّاهِدِ الصَّالِحِ مُور مُحَمَّد هَوْكَارُ، وهم: مُورْ الصَّادق، ومُور جَيْبَ، وإسحاق وأنْيَازُكْ، ومُحَمَّد ورسْمَاكْ، وعليّ، وبلقاسم، بني الفقيه مورْ مَعْمَعْ بن مور مَعْمَكْ

[ص٧٣]

بن الفقيه مُور هَوْكَارُ، (رَحِمَهُ الله) ونفعنا بعلمه ودينه آمين. ومن وقف عليه مِمَّنْ يؤمن بالله واليوم الآخر وبرسالة رسوله الصَّادِقِ ﷺ؛ فلْيَحْتَرِمْهُم ويُوَقِّرهُمْ ويَعْرِفْ مناقِبَهُم وفضْلَهُم وحرمة جدِّهم. ويمسِكْ كلُّ جائرٍ وفاجِرٍ جوره وفُجُورَهُ من جُنْدِنا وأهلِ جَيْشِنَا وخَدَمِنَا الجائِرينَ وعَبِيدِنَا وَرُسُلِنَا، فلا يَقْرَبهم بضَيْمٍ ولا بتَحْقِيرٍ وتَصْغِيرٍ. ومَنْ تعرَّضَ لهم بسُوءٍ وظُلْمٍ يَنْتَقِمُ الله مِنْهُ على كذا. ونُوصي كلَّ من تنسَّلَ منَّا من أولادنا وحفَائِدِنَا أن يَبَرُّوا بهم ويحترمُوهُمْ ويحسنُوا إليهم. وقد أسْقَطْنَا

جميع وَظَائِفِ السَّلْطَنَة وغرامته بحيث لا يُطَالبهم أحدٌ بشيء حتَّى الضِّيافة، وإن تعرَّضَ بينهم ظنَّة أو ادَّعى عَلَيْهِمْ حقًّا فلا يحْكُمُ عَلَيْهِمْ إلاَّ أنا وحدي أو مَنْ سَيَخْلُفُني في هذا المقام مِنْ أوْلادِي، ومَنْ ظَلَمَهُم أو أخَذَ منهم أدنى شيءٍ ظُلمًا باطلاً من ذُرِيَّتي؛ لا بارَكَ الله لَهُ في مُلْكِهِ وَفَسَدَ عَلَيْه مُلْكَهُ، وخَتَمَ له بخَاتمةِ السُّوء بحرمة الَّذِي وقفْتُ به على رَسُول اللهِ ﷺ وقمتُ في داخل شبكة رَوْضَتِه ﷺ. وكذلك أبحْتُ لهم ولذريَّاتهم أن يتزوَّجُوا في مملكتي كلِّها: مِن كَنْتَ إلى سِبِرِدُكُ الَّذِي هو الحدُّ الحاجز بيننا وبين سُلْطَان مَلِّ، مِنْ كلِّ نساء أحبُّوها، ويكون ولدُهُم منها أحرارًا وأُمُّهُم تابِعَاتٍ لهم في الحريَّة، إلاَّ سُرْكُ وأرْبِي، وأنِّي

[ص٧٤]

أنهاهم وأحذِّرُهُم عن نكاحهم؛ لأنَّهما مملوكان لنا، ثُمَّ من تعدَّى منهم فَوَلَدَ منها بحرمة جَدِّهِمْ مَعْتُوقٌ دون أمِّه، فأمُّه لا يطالبُها أحدٌ بالرِّقِّ ما دامت في عِصْمَتِهِ، فترجِعُ إلى مِلْكِي بعد طلاق أو وفاة الزَّوج».

ويتلو هذا السَّطْرَ أربعةُ أسْطَارٍ لحسَتْ دابَّةُ الأرض كلَّها وما بقيتْ منها إلاَّ ما لا يتأتَّى كَتْبُهَا، ولا يمكن تلفيقُ بعض ذلك إلى بعضه. ويتلوه:

«وقد حضر عند هذه الوثيقة الفَقِيهُ أبوبكر بن ألْفَعْ علي كارَ بن الخطيب عمر وألْفَك عبد الله بن مُحَمَّد الأغلالي، والعاقبُ بن مُحَمَّد الشَّرِيف، وشَهِدَ به كاتِبُهُ عليّ بن عبد الله بن عبد الجبَّار اليمني، ختم الله له بخاتمة الحسنى».

ثُمَّ أمر بأن يُنَادَى كلُّ من حَضَرَ هُنالِكَ منْ أوْلادِهِ: كَلِسِ فَرْمَ سليمان كِنْدَنْكَرِي،[1] ونَيْفَرْمَ موسى يُنْبُلِ، وشَاعُ فَرْمَ عَلُوا، وحارِفَرْمَ عبد الله، وكَنْفَارِ عليّ كُسُل. وأحْضَرُوهُم وأمر بقراءة الكتاب عَلَيْهِمْ، فقُرِئَ عَلَيْهِمْ، وقالوا كلُّهُمْ:

(١) ورد هجاء هذا الاسم في صفحة (٧٩) بـ«كُند كُرية».

سمعنا وأَطَعْنَا، ثُمَّ قال: مَنْ سمع باسم هذا الكتاب أو رآه فلم يمتثل

[ص٧٥]

فلا يُبَارَكُ له في نفسه وفي كلِّ مَا رَزَقَهُ الله مِنْ ذُرِّيَّاتِهِ، ثُمَّ أَخَذَ الكتَابَ بِيَدِهِ وَطَوَاهُ وجعله في يد كبيرهم، وهو مور الصَّادق. انتهى.

وقال القَاضِي إسماعيل كعت: كلُّ حُكْمٍ حَكَم به أَسْكِيَ مُحَمَّد ما عرفنا ما بقي منها بعد نزول محلَّة جَوْدَر[1] إلاَّ هذا الحكمَ وحْدَهُ، وقد أبطل الكُلَّ ذُرِيَّاتُ أَسْكِيَ مُحَمَّد وحفائده. فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

قلتُ: وهذا الواحد الَّذِي قال القَاضِي إسماعيل إنَّه بقي، فقد أبطلوه بعد موت أَسْكِيَ مُحَمَّد بُنْكَنَ بن بَلْمَع صادق،[2] وما أبقوا له أثرًا. وقد رأيتُ بعيني كثيرًا من حفائد مور هَوْكَارُ وأسباطِهِ في سُوق تُنْبُكْتُ يُبَاعون[3] وهم يُصَارِخُونَ بِأَنَّهُمْ حفَائِدُ مُورْ هَوْكَارُ، وباعوهم، ومِمَّنْ تسبَّب بإتلافهم أهلُ سُنْغُيْ، وذلك في أوَّل العام الخامس والسَّبعين وألف، وقد أظهروا لهم العَدَاوَة والبغضاء. وأظنُّ أنَّ دعوة أَسْكِيَ مُحَمَّد كادت أن تنزل بهم أو نزلت وحاقَتْ بهم كلُّ ذلَّةٍ وتَصْغِير، وحسبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكِيل.

---

(١) هو القائد المغربي الذي أغار على صونغاي، وهو من أصل إسباني من مدينة «لاسْ سويفاس» (Las Cuevas) بغرناطة، أسِرَ وهو صغير؛ فتربَّى بالقصر الملكي في مراكش، وصفه صاحب «تذكرة النسيان» بأنه: «فتى قصير أزرق»، وواضحٌ في تصرُّفاته أنَّه كان يتمتَّع بشجاعةٍ وبشخصيَّة قتاليَّة كبيرة، ولكنَّ الجهل والسُّخف كان باديًا عليه؛ لذلك سرعان ما عزله الباشا محمود بن زرقون حين قدم تمبكتو من مراكش. مكث في قيادة الجيش المغربي بتمبكتو تسعة أشهُر. (ينظر: التذكرة، حرف الجيم).

(٢) هو السلطان الخامس بعد الغزو المغربي، والخامس عشر في سلسلة سلاطين أسكيا، توفي (١٠٥١هـ/ ١٦٢١م).

(٣) في الأصل: (يباعونهم).

وفي الرَّابِعَة عشر[1] مشى إلى كَلَنْبُوت، ورجع في أوَّل الخامس عشر. وفي تِلْكَ السَّنَة حجَّ سَيِّدُنَا محمود بن عمر، وَوَلِيَ القَضَاءَ بَعْدَهُ القَاضِي عبد الرَّحْمَن، ثُمَّ رجع ومكث في تُنْبُكْتُ سنتين، والقَاضِي عبد الرَّحْمَن يقضي وما ردَّ القضاء للقاضي محمود الَّذِي استنابه. والقَاضِي محمود ساكتٌ ولم يتعرَّض له، وما استردَّه، إلى أن وقعت نَازِلَةٌ في مجلِسِ القَاضِي عبد الرَّحْمَن وحَكَمَ فيهَا بما حَكَمَ به، وسَمِعَ بذلك الفقيهُ

[ص٧٦]

القَاضِي محمود وأرسل إليه ينقض ذلك الحكم لمخالفته بِنَصِّ الكتاب والسُّنة والإجماع؛ فأبى إلاَّ إنْفَاذَهُ وسكت الشَّيْخ، فأُبْلِغَ الخبرُ بذلك إلى أسْكِيَ مُحَمَّد؛ فأرسل رُسُلَهُ لِيَرُدُّوا الحكم للقاضي محمود ويعزلوا عبد الرَّحْمَن.

وجاء الرَّسُول وجَمَعُوا علماء تُنْبُكْتُ وفقهاءها في جامع سيدي يحيى، ونادوا القَاضِي بأمر أسْكِيَ، وحضر، وقال له الرُّسُلُ: إنَّ أسْكِيَ يأمرك بأن تُسْلِمَ الأمْرَ للقاضي محمود؛ لأنَّكَ نَائِبُهُ، وإذا حَضَرَ المنيب فالنَّائبُ مَعْزُولٌ مَبْطُولٌ، مع أنَّك لا تَسْتَحِقُّ القَضَاءَ ما دامَ محمود بين أظهُرِكُمْ حيًّا، ولاموه بسُوءِ أدَبِهِ لِعَدَمِ تَسْلِيمِ القَضَاءِ إلَيْهِ حين أتى، وعَزَلُوه.

ثُمَّ أتوا القَاضِي محمود يَأْمُرُونَ بأمر أسْكِيَ بأن يَرْجِعَ إلى مَكَانِهِ ويَتَوَلَّى. وأبى وامتنع، وألحُّوا عليه. فَلَمَّا سمع أسْكِيَ بإِبَايَتِهِ وامتناعه أرْسَلَ إليه كُبَرَاءَ قَوْمِهِ وألْزَمُوهُ ذلك، ثُمَّ لم يرْضَ إلاَّ بعد ما غَلَبُوهُ بالحُجَجِ؛ أقاموه عليه وتَوَلَّى (رَحِمَهُ الله).

وفي السَّابع عشر، أرسل عليًّا المسمَّى عَلِ فُلَنْ، وبَلْمَع مُحَمَّد كُرَيْ إلى باغَنَ فارِ مع فَتِ.

---

(١) أي عام (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م).

وفي الثَّامِنَةَ عَشَرَ قُتِلَ أي تَنْبِضَ الكذَّاب الَّذِي ادَّعى النُّبوَّة والرسالة (لعنةُ الله عليه). قَتَلَهُ كَنْفَارِ عمر كُمْزَاغُ بغير عِلْمِ أَسْكِيَ وأمْرِهِ. خرج من تَنْدِرْمَ إليه، ونَصَرَهُ الله علَيْهِ. ومع ذلك كان في كثرة ومَنْعَةٍ وَقُوَّةٍ أكثَرَ مِنْ جَيْشِ كَنْفَارِ عمر، ولم يغلبه إلاَّ بنصر الله.[1] وهو سُلْطَان فُوتَ، ويُقالُ فوطَ كِنْكِ. وكان قويًّا مَنْصورًا شُجَاعًا ذا بأسٍ خارجًا. خرج عن مَلِكِ فُوط وجاء إلى كِنْكِ

[ص٧٧]

وأقام وتَسَلْطَنَ هناك. وسبَبُ خُرُوجِهِ أي كَنْفَارِ عمر وذلك أنَّ كَيَّاكَ فَرَنْ وَقَعَ بَيْنَهُ وبين تَنْبِضَ مَلِكِ فُوتَ أمورٌ وخُصُومَةٌ وتَشَاجُرٌ، وحَلَفَ بأن يَكْسِرَ بَلَدَهُ ويُصَيِّره صحراء، وكان أقْوَى منه قوَّةً وخيلاً ورجالاً؛ فاسْتَغَاثَ لذلك بكَنْفَارِ عمر ولذلك خرج إليه، وهذا أوَّلُ ما سمعنا مِنَ القِصَّة، ثُمَّ أخبرني بعض العارفين بِسِيَرِهِمْ أنَّ سَبَبَ خُرُوجِ كَنْفَارِ عمر إليه أنَّ أحدَ الزَّغْرَانيِّين من أهل سُنْغُيْ كان يخرج كلَّ سَنةٍ إلى فُوتَ ويَتَّجِرُ فيها، وسمع به تَنْبِضَ وأخذه وأكل مالَهُ جورًا وظلمًا وأراد قَتْلَهُ، وهرب إلى كُرْمِنَ فَارِ، وسعى به إليه ونمَّ عليه عنده وقال إنه شَتَمَهُ، وَوَقَعَ فيه وأغْضَبَهُ، ولذلك خرج إليه.

وقد بلغ أهلُ سُنْغُيْ في الحرب وعِلْمِ القِتَالِ والشَّجَاعة والنَّجْدَةِ ومعرفة المكيدة غايةً ونهاية. انظرْ كيف خَرَجَ كُرْمِنَ فَارِ بهذا الجمِّ العَرَمْرَم الكثيف، وقَطَعَ بها هذه المفَازَةَ البَعيدَةَ القَفْر في مسافة نَيِّفٍ وَشَهْرَيْن في البُعْدِ مِنْ تَنْدِرْمَ إلى فوتَ، وكيف ظَفِرَ بهم وتمكَّن من مَلِكِهِمْ وقَتَلَهُ وَغَنِمَ فيهم الأمْوالَ الجسِيمَة، وكلُّ ذلك في العام الثَّامِن عَشَرَ بعد تسعمائة.[2] وقطع رأسه وجاء به إلى تَنْدِرْمَ ودَفَنَهُ هُنالِكَ.

---

(١) في السعدي أنَّ أسْكيا الحاج نفسه هو الَّذِي خرج إليه وقتله. (ص٧٧).

(٢) النصوص من قوله: «.... أنَّ كياك فَرَنْ وقع بينه... » حتى هذا الموضع، مكرَّرة حرفيًّا في [ص٤٠].

وفي التَّاسِعة عشر[١] غزا كَشِنَ. وفي الخامسة[٢] نزل كَبَرَ في شَهْر رَمَضَانَ، ثُمَّ رجع إلى كَاغُ في تِلْكَ الرَّمَضَان. ولحق الخبر يوم نزل كَاغُ بمرض أخيه كُرْمِنَ

[ص٧٨]

فَارِ عمر كُمْزَاغُ، وكرَّ راجعًا خُفْيَةً إلى تَنْدِرْمَ، ودخله ليلاً. وتوفي عمر في تِلْكَ اللَّيْلَة، ودفنه بداره. ومكث فيها ثلاثَ لَيَال. ويُقالُ إنَّه رَكِبَ فيها يومًا وتَبع بحره الصَّغيرة حتَّى انتهى إلى بحر فَتِ. فَلَمَّا رجع قال: ما أجمَلَ هذا البلدَ وأحْسَنَهُ! ولكنَّ أهله لا يَتَّفِقُونَ على أمرٍ وَاحِدٍ أبدًا. وقيل له في ذلك وقال: لأنَّ بَحْرَهُ مُعْوَجٌّ، ومَنْ شرب من مائه لا يَثْبُتُ قَوْلُهُ ولا يَتَّفِقُ أهْلُه، ثُمَّ رجع إلى كاع. وذهابه ورجوعه اثني عَشَرَ يومًا، ولم يَفْطُنْ أحدٌ من أهل كَاغُ بذهابه حتَّى رجع.

وجعل أخاه كُرْمِنَ فَارِ يحيى، وهو المسمَّى يَايَ. وفيه أقوال: قيل إنَّه ابنُ زوجته وهو ربيبه. وقيل إنَّه أخوه لأمِّه. وقيل إنَّه ابن أخي أمِّه كَسَيْ بنت كَرَكُيْ بُكَر. ومُدَّةُ سلطنة كَنْفَارِ يايَ المذكور تسعة أعْوَام.[٣]

ثُمَّ خرج إلى كَاغُ حين سمع بخبر أسْكِيَ موسى أنَّهُ يريد عَزْلَ أبيه ويدخل حين ضَعُفَ بَصَرُهُ. خرج من تَنْدِرْمَ يريد أنْ يَنْهَاهُمْ ويَزْجُرَهُمْ عن ذلك؛ فجاء إلى كَاغُ وتكلَّم لهم، فلم يسمعوا ولم يرجِعُوا عن عصْيَانهم. خرج يومًا يركب إلى وراء بلد كَاغُ وركب أسْكِيَ موسى وإخوانُه المفسدون الخاسِرُونَ الخَارِجُونَ، وتَبِعُوا إثْرَهُ حتَّى لَحِقُوهُ بمكانٍ يُقالُ له رأس أرزُرْ، (أرِزُرْ بهمزة مَفْتُوحة بعدها راء مكسورة فزاي مَضْمُومةٍ) معناه مجرى الماء. وتقاتلوا هُنالِكَ وغلبوه وقتلوه.

---

(١) أي في العام (٩١٩هـ/ ١٥١٣).

(٢) أي في السنة الخامسة والعشرين (٩٢٥هـ/ ١٥١٩).

(٣) ذكر السعدي أنَّه كان أخاه، ولم يُشر إلى خلافٍ في ذلك. (ص٧٩).

وفي آخر هذا (أعني العام الخامس والثَّلاثين) عزل أسْكِيَ موسى أباه أسْكِيَ مُحَمَّد وتَسَلْطَنَ -ولم يُبَارِكِ اللهُ له في سَلْطَنَتِهِ - وذلك يوم عيد الأضحى من العام الخَامِسِ والثَّلاثين. ومكث أسْكِيَ مُحَمَّد في السَّلْطَنَة أربعين سَنَةً غَيْرَ واحِدٍ، وقيل ثلاثةً وأرْبَعِينَ سَنَةً على الصَّحيح، وعاش سبعًا وَتِسْعِينَ سنة، ومات في أيَّامِ أسْكِيَ إسماعيل.(١)

وترك أولادًا كثيرًا،

[ص٧٩]

أوَّلهم: أسْكِيَ موسى، ووَنَيْفَرْمَ موسى يُنْبُلِ، وكُرَيْ فَرْمَ مُورِ موسى ذهب مع كُرْمِنَ فَارِ عثمان.(٢)

وله أولاد ثلاث أسماؤهم عثمان: أولهم كُرْمِنَ فَارِ عثمان، ومور عثمان سَاكِدِ، وعثمان كِرِيَ.

وله سليمان ثلاث: سليمان كَتِنْكَ، وبِنْكَفَرْمَ سليمان، وكَلِسِ فَرْمَ سليمان كُنْدِ كُرْيَة.

وله عمر ثلاث: عمر كُوكِيَ، وعمر تُوتُ، وعمر يُوِيَعْ.

وله بُكَر ثلاث: بُكَر كورُ، وبُكر سينْ فِلِ، وبُكر كِرِنْ كِرِنْ.

وله عليّ ثلاث: عليّ وايِ، وعلِ كُسُل، وبِنْكَفَرْمَ عل كَنْدَانْكِيَ.(٣)

---

(١) أورد السعدي (ص٨١)، رواية أخرى ذكر فيها أنَّه مكث في السلطنة ستا وثلاثين سنة وستَّة أشهر.

(٢) هرب معه إلى مدينة تِمِنْ بعد هزيمة أبناء أسكيا الحاج في وجه محمد مر بنكن، [ص٨٣] من هذا الكتاب.

(٣) ورد هجاء هذا الاسم في [٦٥] بـ«علي كِنْدَانْكَنْكَيْ» بالياء في «عليّ»، وزيادة نون وكاف قبل الحرف الأخير.

وله مُحَمَّد ثلاث: مور مُحَمَّد، ومُحَمَّد كِنْبِ، ومُحَمَّد كُدِرَ، وقيل بل: مُحَمَّد دَنْدُمِيَ، ومُحَمَّد الطاهر، وحَارِفَرْمَ عبد الله، وأسْكِيَ إسحاق، وأسْكِيَ إسماعيل، ومحمود دُمِيَة، ومحمود دَنْمَعْ، ومحمود بُكَر، وأسْكِيَ داوود، ويعقوب، وبِنْكَفَرْمَ مُحَمَّد بِلُ اسمهُ حَبِيبُ الله، وخالد، وياسِ، وإبراهيم وهو شقيقٌ لسليمان كَنْكَاغَ، وبَابِلِ فَرْمَ فَعْمَ، وغيرهم مما لا يُعَدُّ كَثْرَةً. وهذا ما حضَرَ لي الآن، وبَقِيَ أكثَرُهُمْ.

ومن بناته وَيْزَبَانِ، ووَيْزَ (أمُّ هانِئ)، ووَيْزَ

[ص٨٠]

عائشة كَرَ، وَوَيْزَ حفصة،[1] وعائشة بُنْكَنَ (أمُّ مُحَمَّد كوبَ) وعائشة كَرَ (أمُّ بَلْمَع مُحَمَّد واوُ)، وبنْشِ، وحاوَ أدَمَ، وأمْكُرَ، ومَكَ ماسِنَ، وفُرَاسَ مانِنْكُع، وكِبُرُ، وصفِي كَرَ، وحاوَ دَعْكُيْ (أمُّ هُنْبُرِ كُيْ مَنْسَ)، ودَدَلَ، ونانا حسن، وفَتِ جُنْدِ (أمُّ عبد الرَّحْمَن)، وفَتِ، ونِينَ، وكَرَ تُوجِلْ (والدة سيدِ كَرَ).

وأمَّا كُرْمِنَ فَارِ عَمَر قد ولَدَ أولادًا كثيرًا، إلاَّ أنَّ أكثرَهُم لم يُصِبْ اسمًا ولا موضعًا يُشْتَهَرُ بِه، غير أنَّهُمْ كُلَّهُم شُجْعان أهل قتال.[2] ولم يَلدْ مَلكًا إلاَّ مُحَمَّد بُنْكَنَ كِرِيَ فقط، وكُرْمِنَ فَارِ تُمَنِ تَنَفَرِيَ،[3] وقلَّتْ أيَّامُهُمْ. ومن أولاده: تَرَعْ فَرْمَ ألفَكِ وهو أثْبَتُهُم وَأوْقَرُهُمْ مُرُوءَةً، وبِنْكَفَرْمَ عل زُلَيْلَ، وجعفر، ومُحَمَّد كُورُ، وباغَنَ فارِ عبد الرحمان، وعَلُوسَمَ، وسمعيل كِنْكِرِ، وكِرِيَعْ، ومُحَمَّد نانِ كونُ وغيرهم، وهم جماعة.

---

(١) توفيت عام (٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م).

(٢) في الأصل: (شجعانًا أهلي القتال).

(٣) تُمَن: ترخيم محرَّف من عثمان (تُمَن)، وقد ورد هذا الاسم كاملاً في مواضع من هذا الكتاب [ص٨٥؛ ١٨٥].

وبناته: كَبَرَ تَزَوَّج بها كَنْفَارِ يعقوب ثُمَّ تَزَوَّجها أَسْكِيَا داوود بعد موت يعقوب، وكَيْبَنَو تَزَوَّجها بَرَ كُيْ

[ص٨١]

مَنْسَمَغْ بُكِلْ، وولدتْ له بَرَ كُيْ عمر، ونانَ أسْما، ومامُس فلها ذريَّاتٌ كثيرة، وشَتَ زَعْرَ، وبِنْش كَرِ.

والأساكي كلُّهم أولادُ السَّراري إلاَّ أَسْكِيَ مُحَمَّد وحدَهُ، بخلاف سلاطين بَرَ؛ كلُّهم أولاد زوجاتٍ إلاَّ بَرَ كُيْ منسَ كِنْتَ وحدَهُ، وهو ابن أَمَةٍ. فأم أَسْكِيَ مُحَمَّد الَّذِي هو ابن زوجة، اسمها كَسَيْ بنت كَرَكُيْ بُكَر، ثُمَّ أَسْكِيَ موسى اسم أمِّه جَارَ كُرْبُ، ثُمَّ أَسْكِيَ مَرْ بُنْكَنَ أمُّه مِنَ كِرْوَ، ثُمَّ أَسْكِيَ إسماعيل أمُّه مريم دابُ وانْكَرِيَّة، ثُمَّ أَسْكِيَ إسحاق أمُّهُ كلثوم بِرْدَ من أهل دَامَ، ثُمَّ داوود أمُّهُ سَانَ فارْيو، ثُمَّ أَسْكِيَ الحاج أمُّهُ من كايَ، ثُمَّ أَسْكِيَ مُحمَّد بان أمُّهُ أَمَسَ كارُ، ثُمَّ إسحاق أمُّه فاطمة بُصُ الزَّغْرَانية. كلُّهُنَّ - على زعمهم - سراريهم.

وأمَّا سلاطينُ بَرَ[1] أوَّلُ القائم منهم كَنْسِرِ مَعَ؛ سَكَن كِنْكِرِ. وأوَّلُ من سكن جِبَرْ منهم حفيدُهُ مَنْسَ كُورَ بن مَنْس موسى أمُّهُ مريم سُنْبُن، ثُمَّ مَنْس سلمان أمُّه يَعْزِسِرِ، ثُمَّ منس كِنْتَ أمُّهُ فَرْمَ تُورِ، ثُمَّ مَنْسَمَغَ بُوكِل أمُّه كُرْزَ كِنْتَ، ثُمَّ مَنْسَ بُكَر كوكِ أمُّهُ فَتِ بَعْدَ، ثُمَّ منس دُبُرْ أمُّهُ مريم كُنْبُعْ، ثُمَّ مَنْسَ بُكَر وَيْنُ أمُّهُ أَيْشَ بَرَدَ، ثُمَّ

[ص٨٢]

مَنْسَ عمر أمُّهُ كَيْبَنَو، ثُمَّ مَنْسَ عَلُوا أمُّهُ نَامُويْ، وعليه جاء جَوْدَر.

---

(١) مملكة بَر: زعامة مالينكية في الضفة الشمالية لنهر السنغال، ومن الزعامات المجاورة لها: باديبو، ونياني، ووُولي (wuli)، وهي جميعا زعامات تجاريَّة تألَّقت في القرن السادس عشر الميلادي(The Cambridge History of Africa, 4/218).

ووُلِدَ في أيَّام أسْكِيَ مُحَمَّد: مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن سعيد حفيد الفقيه محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ، وسيدي الفقيه مُحَمَّد بن القَاضِي محمود بَغَيُغُ (رَحِمَهُ الله)، والفقيه أبو بكر بن محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ، وأحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ والد سيدي أحمد بابا، والفقيه القَاضِي محمود بن الحاج المتوكِّل كعت.

وأمَّا ألْفَعْ مُحمَّد تُلِ (بتَاءٍ مَضْمُومةٍ بَعْدَهَا لام مكسورة)، هو جدُّ أهل دُكُرِ وأفْقَهُهُم. وتُنْسَبُ قبيلتُهُم لبني مَدَاس. حجَّ مع أسْكِيَ مُحَمَّد، وكان أسْكِيَ مُحَمَّد يحترمُهُ احترامًا عظيمًا ويُوَقِّرُهُ، لكنَّهُ لم يتركْ عقبًا تعلَّم من العلم شيئًا. ومات في أيَّامه ألْفَعْ صَالِح جَوَرَ جدُّ أهل تَوْتَل، وكذلك هو لم يترك ولدًا عرف اسمه أن كتبه له.[1]

وقيل إنَّ أسْكِيَ مُحَمَّد هو الَّذِي وهب أمَّ القَاضِي مُحَمَّد للفقيه محمود (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وأمره أن يَتَّخِذَهَا سَرِيَّةً؛ ففعل، ثُمَّ أرسل أسْكِيَ مُحَمَّد ألف مَثَاقِيل للفقيه محمود، قال له: إنْ وَلَدَتْ سَرِيَّتُكَ ذكرًا فسمِّهِ باسمي فأعْطِهِ هذا الألف، وإن كانتْ أُنْثَى فاعْطِهَا خَمْسمائة ولك أنت خَمْسمائة الباقية.



(١) ترجم المحقِّقان هوداس ودولافوس هذه الجملة بأنه لم يترك عقبًا يستحقُّ أن يدوَّن اسمُه ويؤرَّخ له.

الباب السَّابع

أسْكِيَ موسى

ثُمَّ قام أسْكِيَ موسى على أبيه وتَوَلَّى الملك غصبًا لضعف بصره، وذلك في مُصَلَّى عيد الأضحى يوم الأحد العاشر من ذي الحجَّة. ومَكَثَ فيها سنةً واحِدَةً وتِسْعَةَ أشْهُرٍ.[١] ولم يَتَوَلَّ سَلْطَنَةَ سُنْغُيْ وأسْكَوِيَّتَهُ

[ص٨٣]

أخفُّ وأرذلُ منه. فسلطنة سُنْغُيْ على ما قيل أكبر منه. ومن سَفَاهَتِهِ أنَّهُ لما عزل والده أسْكِيَ مُحَمَّد وأخْرَجَهُ من دار المملكة امْتَنَعَ[٢] بِجَوَارِيه وسراريه أن يَدْخُلْنَ عليه وحَبَسَهُنَّ عنه لنفسه، ودعا عليه أسْكِيَ مُحَمَّد وقال: اللَّهُمَّ اكْشِفْ عَوْرته وافْضَحْهُ. واسْتَجابَ الله دَعْوَتَهُ عليه، وركب في غَدِهِ مع كافَّةِ جَيْشِهِ، وحرَّكَ فَرَسَهُ ليُجْرِيَهُ، وسقط عن فرسه، وَقُطِعَ حَبْلُ سَرَاوِيلِهِ، وعليه أربعُ قِمْصَانٍ، وانْقَلَبَ القمصان إلى رأسه، وبقي عُريانًا. ولم يبق في الجيش أحدٌ لم ير عَوْرَتَهُ.

وفي السَّادِس والثَّلاثين قاتَلَ هو وإخْوَتُهُ بين أكَكِنْ وكَبَرَ،[٣] وغَلَبَ إخْوَتَهُ

---

(١) في السعدي (ص٨٦)، أنَّه حكم لمدة سنتين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما، وقتل في الرابع والعشرين من شعبان ٩٣٧هـ/ (=١٢ أبريل ١٥٣١م).

(٢) كذا في الأصل على زنة (افتعل).

(٣) ذكر [في ص٨٤] أن المعركة كانت بين كبَر وألْجِفِ، وقد تكون ألْجِفِ تسميةٌ أخرى لأكَكِنْ، أو مدينة أخرى في اتِّجاهٍ مقاربٍ لمدينة أكَكن؛ ويصلح أن يُشار إلى إحدى المدينتين مقارنة بمدينة كبَر.

هُنالِكَ. فقَتَلَ مِنْ أولاد عمِّه كُرْمِنَ فَارِ عمر أكْثَرَ مِنْ ثلاثين، وقيل خمسٌ وثلاثون، وقيل خمسٌ وعِشْرُون. وهرب كُرْمِنَ فَارِ عثمان إلى تِمِنْ.

وفي سنة وثلاثين[1] قُتِلَ في قرية مَنْصُورَ يوم الأربعاء الرَّابع والعشْرين من شعبان.[2]



(١) أي في السَّنة السَّابعة والثَّلاثين.

(٢) ذكر السعدي أنَّ سبب مقتله، تعسُّفه في قتل إخوته من أبيه، بالإضافة إلى قتل أبناء عمِّه؛ لذلك اتفقوا على الغدر به؛ فكمنوا له حتى قتلوه. (ص٨٦).

الباب الثَّامِن

أَسْكِيَ مُحَمَّد بُنْكَنَ

وتَوَلَّى بعده أَسْكِيَ مُحَمَّد بُنْكَنَ كِرِيَ، اسم أمِّهِ مِنَ كِرْوَ،(١) أوَّلَ يومٍ من رمضان.(٢) ولا يُقالُ له إلاَّ «مَرْ بُنْكَنَ» قاطعُ الرَّحم.(٣)

فَلَمَّا تولى، أمر بإجلاء عمه الأكبر أَسْكِيَ مُحَمَّد (رَحِمَهُ الله) وأخرجه من بلد كَاغُ إلى جزيرة كَنْكَاكَ وأسكنه فيها. وإن أَسْكِيَ موسى لما عَزَلَهُ تركه في كاغ ولم يُخْرِجْهُ منه.

وقيل لما سقط مَرْ بُنْكَنَ من بطن أمِّه ليلة ولادته استَهَلَّ صارخًا، وسمع باستهلاله شِي عَالٍ، وهو في دار مملكته وهو بِقُرْبِ دَارِهِمْ. وأمَرَ وَلَدَهُ أنْ يُنَادِيَ كَنْفَارِ عمر وأَسْكِيَ مُحَمَّد؛ فنُودِيَا وأتَيَاهُ. فقال: هل وُلِدَ بِدَارِكُمُ اللَّيْلَة من وَلَدٍ؟ فقال أَسْكِيَ مُحَمَّد: بلى ولَدَتْ أمَةُ أخي عمر ابنًا الآن، فقال لهما. أخْبِرُكُمَا فيه

---

(١) الاسم «مِنَ» مرخَّم من آمنة.

(٢) ذكر السعدي (ص٨٦)، أنَّه تولى السلطنة يوم مقتل أسكيا موسى أي في الرَّابع والعشرين من شعبان، وهذا أقرب إلى الصَّواب؛ لأنَّ الظُّروف التي تولَّى فيها السلطنة ما كانت تسمح بفراغ في منصب السلطنة لمدَّة أيَّام دون أن يحاول أحد الأمراء الطَّامعين في الحكم تحويل الأمور لصالحه.

(٣) أطلق عليه هذا اللَّقب لأسباب، منها: نفيه لعمِّه أسْكيا الحاج محمد الكبير إلى جزيرة نائية، وكان ذلك كافيًا لإثارة سخط الشَّعب عليه؛ لما كان يتمتَّع به أسكيا الحاج محمَّد من مكانة روحيَّة عظيمة في نفوس أهل صونغاي. بالإضافة إلى ذلك، قتل محمد بنكن الكثير من أبناء عمِّه، وغصب السُّلطة منهم على خلاف العادة المتَّبعة في وراثة الحكم.

أن تَقْتُلُوه. فحطَّا التُّراب

[ص٨٤]

على رأسهما وصبَّرَاه لِيَتْرُكَه. فقال لهما: اذهبا إليه وانْظُرَا في فمِّهِ، فَإِنَّهُ وُلِدَ بسِنٍّ؛ فذهبا ففَتَحَا فَمَهُ، فإذا هي مملوءةٌ سِنًّا. فرجعا إليه فأخْبَرَاهُ بذلك؛ فقال: إنَّهُ ولدٌ شَقِيٌّ فَاجِرٌ، ولكن تركته. وأنتَ يا مَعَ كَيْنَا لا يضرُّ إلاَّ إيَّاك،[1] فسترى ما يصدُرُ لك منه ولأولادك. كذا نقلتُ من شيخي ووالدي (رَحِمَهُ الله).

وكان أسْكِيَ مَرْ بُنْكَنَ كِرِيَ شُجَاعًا بطلاً فارسًا. إذا حَضَرَ القتَالُ واشْتَدَّ البأسُ نزل عن فرسه ويُقَاتِلُ على الرِّجل.[2]

---

(١) مَع كَيْنا: تعبير تلطُّف، ومعناه: أخَيَّ. وفي الثقافة الأفريقيَّة، يتشاءم الناس من الطفل المولود بسن، ويزعمون أنه لا يعيش أو أنَّ والديه لا يعيشان طويلاً، وفي بعض المجتمعات كانت القبيلة تتفق على وسيلة لإخفاء مثل هذا الوليد ووأده بمعونة السحرة، فرارًا من شؤمه. ينظر: Larry Stephen Milner, Hardness of Heart, Hardness of Life, The stain of Human Infantcide, (University Press of America, 1998), p161. وولادة بعض الأطفال بسن أو سنَّين حالةٌ معروفة علميًّا، ولكنَّ الأسنان لا تتجاوز الاثنتين أو الثَّلاث، وقد قيل إنَّ الشَّاعر بيغوت (Bigot) والملك لويس (Louis XIV) وريتشارد الثالث، وغيرهم من المشاهير الإغريق والرُّومان، ولدوا بأسنان، ويعتقد أن ذلك دلالة على القوة والشجاعة والغلبة، ينظر: Walter Lytle Pyle, Anomalies & Curiosities of Medicine, (Plaint Label Books, n.d), p184. وفي بعض المجتمعات الغربية - حتى عهد قريب - كان الاعتقاد سائدًا بأن المولود بأسنان مشؤوم ساحر، وقد سجل بعض الباحثين في منطقة (Kerelia) بفنلندا قريبا من فينا، عام ١٩٠٣م، هذا الاعتقاد. ينظر: Kati Koppana, Snake Fat & Knotted Thread, p22

(٢) من المؤكَّد أيضا أنه كان على قدر من العلم والفقه، فقد درس في صباه بجامع سنكوري (السعدي، ص٨٨)، على غرار أترابه الجيل الثاني من الأمراء، مثل الأمير أسكيا داود، وأسكيا إسماعيل، وأسكيا إسحاق، وأسكيا محمد بان.

وهو مِمَّنْ أقام أمَرَ سلطنة سُنْغُيْ وأوَّلُ من فَصَّل ملف وِنْدِ وصنع السِّوَارَ لِخَدَمِهِ، وأوَّلُ مَنْ مَشَى بالدُّفُوف في السَّفِينة. وهو الَّذِي اخترع فُتُرِفُ وكَبَتَنْدَ آلتَيْ اللَّهو، وفُتُرِفُ (بفاء مَضْمُومةٍ بعدها تاء مَضْمُومةٍ فراء مكسورة ففاء مَضْمُومةٍ) يُشْبِهُ البُوق، وكَبَتَنْدَ وهو كالطَّبل إلاَّ أنَّ صَوْتَ الطَّبْلِ أرْفَعُ منه، وهما مَعْرُوفَان عندهم. ولم يكن فُتُرِفُ إلاَّ لسُلْطَان أيِرْ.

وكان أسْكِيَ مُحَمَّد بُنْكَنَ رجلاً حَرُوفًا قليل الصَّبر. وهو أوَّلُ كَنْفَارِ كان أسْكِيَ وتَوَلَّى بعده كَنْفَارِيَّة عثمان بن كَنْفَارِ عمر أو ابن أسْكِيَ مُحَمَّد، والله أعلم بصحَّة هذه الورقة وما يليها، وفيها خلافُ تَرْتِيبُ كَرَامِن فُوري.[1] ووقع الشَّرُّ بَيْنَهُما والتقَيَا بين كَبَرَ والْجِفِ، وتقاتلا هُنالِكَ، وغلبه مُحَمَّد بُنْكَنَ. وقتل من

[ص٨٥]

إخوة كَنْفَارِ عثمان بن مُحَمَّد خمسةَ عشَرَ من أولاد أسْكِيَ مُحَمَّد. وقد كثُر جَيشُ سُنْغُيْ في أيَّامه. ويُرْوَى عنه أنَّهُ قال: زِدْتُ فيها ألفًا وسَبْعُمائة رجُلاً.[2]

ومُدَّةُ إقامته في السَّلْطَنَة سِتُّ سنين وشهر. وعُزِلَ في مَنْصُورَ القرية التي تَوَلَّى فيها السَّلْطَنَة وقاتَل إخوته، وذلك في يوم الأربعاء ثاني يوم من شَهْر ذي القعدة عام

---

(١) يغلب الظنُّ أنَّ الورقة المنعزلة التي وضعها المترجمان في الملحق الأوَّل [ص١٨٥] محلُّها هنا، وتدرج هنا بعد قوله: كرامن فوري. ومن الإشارات التي تدعم هذا الظن حديثه هناك عن كُرمن فاري يحيى، وتعقيب ذلك بقوله: «وقد تقدَّم تفصيل ذلك...» [ص١٨٥]، وهذا التَّفصيل موجود في [ص٧٨].

(٢) في تاريخ السودان (ص٩٣)، أنه حين عُزل، وهرب ولحق بأخيه عثمان، تحمَّس أخوه للعودة إلى كاغ؛ للحرب واستعادة الحكم، فحذَّره محمد بنكن وذكر له أنَّه قد زاد كثيرا في عدد الجند وفي قوَّته، وأنَّه جيش لا يُقهر. فها هنا دلالة واضحة على القوة العسكرية التي كان يعلمها لجيش صونغاي.

الرَّابع والأربعين.[١] وقيل كان قتالهم في اليوم الرَّابع والعِشْرين من شعبان، هكذا ذكَرَهُ بابَ كُور في «دُرَرِ الحِسان».

ومِمَّنْ مات في أيَّامه مِنَ الأعْلامِ والعُلَماء الكرام الفَقِيهُ العالم سَيِّدُنا الحاج أحمد الأكبر جدُّ سيِّدِي أحمد بابا، وهو الحاج أحمد بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ شَقِيقُ سَيِّدِنَا القَاضِي محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ، وهو أسَنُّ منه، فَإنَّهُ مات (رَحِمَهُ الله) على ما قال أحمد بابا في «كِفايَة المُحْتَاج» في السَّنة الثَّالثَة والأربعين.

وفي تِلْكَ السَّنَة - يعني سنة ثلاث وأربعين- قام عليه ابنُ عَمِّهِ أسْكِيَ إسماعيل بن أسْكِيَ مُحَمَّد، فتَوَلَّى السَّلْطَنَة خارج بَلَدِ كاغ. فَلَمَّا اتَّصَل الخَبَرُ بأسْكِيَ مُحَمَّد بُنْكَنَ خرج هاربًا إلى تُنْبُكْتُ، فَتَبِعَتْهُ الخُيُولُ، ثُمَّ خرج منها ودخل تَنْدِرْمَ، وهناك أخوه كُرْمِنَ فَارِ عثمان شقيقه، وهو تَوَلَّى الكَنْفَارِيَّة بعد كَنْفَارِ عثمان بن أسْكِيَ مُحَمَّد. فَلَمَّا رآه عثمان مَعْزُولاً هاربًا تَبِعَهُ وهَرَبَا إلى مَلِّ مخلصًا نجِيَّيْنِ، وسكن مدينة تَعَبَ،[٢] ومات فيه، وقبره هُنالِكَ.[٣]

---

(١) أورد السعدي (ص٩١)، أنَّ ذلك كان في العام الثالث والأربعين بعد تسعمائة.

(٢) في «تاريخ السودان»، أنه سكن مدينة سَامَ، آخر بلاد سلاطين كَل في مالي، بعد عزله عن السلطة. وعن سبب وفاته ذكر السعدي أنَّ أسكيا داود لما غزا أهل مالي (عام٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م)، وغلبهم، رجع بطريق بلدة سامَ، حتى إذا شارف البلدة، نزل خلف البحر، وكان محمد بنكن قد عمي آنذاك؛ أمر أسكيا داود فرقة العزف أن تعزف، وتضرب جميع آلات الطرب تحيَّة إجلالٍ لأسكيا محمد بنكن، فلما سمع تِلْكَ الأصوات؛ انقطعت نياط قلبه ومات في الحال (ص١٠٤)، ولا يبعد هذا الخبر عن الصِّحة لأنه قد تقدَّم أنه هو أول من اتخذ آلات الطرب في الجيش الصونغائي، ومال إلى اللهو، وأنَّه كان قليل الصبر، فلا يبعد - إذنْ - أنَّه حين سمع الأنغام، تذكَّر أيام ملكه، وما آل إليه أمره من البعد عن مسقط الرأس، واللجوء السياسي، والعمى والكبر... فما تحمَّل قلبه الوهن تلك الصدمة العنيفة.

(٣) هذا الخبر يخالف ما جاء أنَّه مات سنة (٩٤٦هـ)، وهو بخلاف ما ورد عند السعدي أنه توفي عام (٩٦٦هـ).

الباب التَّاسِع

أَسْكِيَ إسماعيل

وَوِلايَةُ أسْكِيَ

[ص٨٦]

إسماعيل (رَحِمَهُ الله) كان في أوَّلِ يومٍ من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعين بعد تسعمائة. وكان محمود السِّيرة، ومِمَّنْ استحقَّ السَّلْطَنَة.[١] أمُّهُ مريم دابُ وَنْكَرِيَّة.[٢]

فَلَمَّا تَوَلَّى أسْكَوِيَّة أمر ساعَتَئِذٍ بإخراج أبيه أسْكِيَ مُحَمَّد المرحوم من تِلْكَ الجزيرة يعني كَنْكَاكَ التي أجلاه مُحَمَّد بُنْكَنَ كِرِيَ إليه. وفي العام الرَّابع والأربعين ذَهَبَ إلى دِيرَ، ثُمَّ رجع إلى كاع.

ولما أخرج أباه مِنْ تِلْكَ الجزيرة وأسكنه في بعض بُيُوتِ دار المملكة أتى بِشَكَارَةٍ له وحلَّ ربْطَ فَمِّها وأخْرَجَ مِنْهَا قَمِيصًا وشَاشِية خَضْرَاء وعِمَامَةً بَيْضَاء، وأدخل القميص في عُنُق أسْكِيَ إسماعيل وأدخل القَلَنْسُوَة الخَضْرَاء في رأسه وعمَّمَه بتِلْكَ العمامة، وأدْخَلَ في عُنُقِهِ سَيْفًا، وقال: هذا قميصٌ قَمَّصَني به شَرِيفُ

(١) هذا رأي ابن المختار، وقد ذكر مثله في أسكيا داود [ص٩٤]. أما في «تاريخ السودان» فقد ذكر السعدي أنَّ أهل صونغاي كانوا يعدُّون اثنين من السَّلاطين هم أكبر من سلطنة صونغاي، وهما: أسكيا الحاج محمد الجدُّ، وأسكيا محمد الحفيد، واثنين استويا بالسَّلطنة، وهما: محمد بنكن، وأسكيا إسحاق بن أسكيا داود. أما بقيَّة السَّلاطين، فإنَّ السلطنة أكبر منهم. (ص١١٤).

(٢) ذكر السعدي أنَّ أسكيا الحاج محمد سباها في غزوته لقبائل الوَنْغارا ببلدة تنفرن قرب زَلَن، عام٩٠٧هـ. (السعدي، ص٧٥).

مَكَّةَ المشَرَّفة الَّذِي هو أميرها حينَئِذٍ، وأدخل هذه القَلَنْسُوَة على رأسي وعمَّمَني هكذا بيده المباركة في حَضْرَةِ جَمٍّ غَفِيرٍ من قومه من أهالي مَكَّةَ وغيرهم، وقلَّدَني هذا السَّيْفَ وقال: أنتَ أميري ونائبي وخليفتي في إقْلِيمِكَ وأنتَ أمِيرُ المُؤمِنِينَ، وأنا خليفَتُهُ وأمِيرُهُ ونائِبُهُ، وولأني ومَلَّكَني، وغَصَبَ الملك مِنِّي ولدي الفاسِقُ موسى، ثُمَّ غَصَبَهُ منه مُحَمَّد بُنْكَنَ، وكِلاهُمَا خَارِجَان، وقد وَلَّيْتُكَ أنا وَرَدَّدْتُ الخِلاَفَةَ التي قَلَّدَني بها الشَّرِيف لك، وأنت خليفةُ خليفةِ الشَّرِيف الَّذِي هو خليفة السُّلْطَان الأعظم العثماني.

فاعْلَمْ أنَّ هذا السَّيْفَ هو الَّذِي كان أهل سُنْغُيْ يَكْذِبُونَ فِيهِ ويَقُولُون الْتَقَطَهُ في رَحْبَةِ بَدْرٍ حين وصل هُنالِكَ، قيل هذا بَدْرٌ الَّذِي قَاتَلَ فيه رَسُولُ اللهِ ﷺ الكُفَّار؛ فحرَّك الفَرَسَ الَّذِي كان عليه وقال: وددْتُ لو حَضَرْتُ معه يَوْمَئِذٍ وأكون من أنْصَارِهِ وأقَاتِلَ بين يَدَيْهِ حتَّى أمُوت. وقالوا في افترائهم أيضًا إنَّهُم سمعوا صوت الطَّبْل في السَّماء ضُرِبَ

[ص٨٧]

له، والصَّحيحُ ما ذكرنا من أنَّهُ من مَوَاهِبِ الشَّرِيف لأسْكِيَ.

وهذا السَّيْفُ هو المسمَّى أنْكُرْجِ. وفي آخر أمر هذا السَّيف ثلاثةُ أقوال: قيل ذهب به أسْكِيَ إسحاق الزَّغْرَاني حين خرج عليه أخوه مُحَمَّد كَاعُ وعزله هرب إلى بِلَنْكَ جهَّة كُرْمَ، قتله سُلْطَان كُرْمَ وأخَذَ ذلك السَّيف، وهذا أصحُّ الأقاويل فيه.[1]

---

(١) من الصَّعب قبول هذا القول بوصفه أصحَّ الأقوال في شأن هذا السيف، وذلك أن ابن المختار نفسه قد أورد [ص١٥٤] أنَّ إسحاق الزغراني، حين أخذ شارات السلطنة وخرج بها هاربا بعد عزله، تلقَّاه هيكي (=أمير الأسطول البحري)، واستردَّها منه، إلاَّ السيف والخاتم والعمامة، فلما استردها منه، أبى وقال إنه لا يصيب الخاتم والعمامة إلاَّ من قطع إصبعه ورأسه. ولم ينكر أنهما لأسكيا الحاج محمد. أما السيف، فقد صرَّح أنه سيفه هو، لا سيف أسكيا الحاج. فهذا =

وقيل كان في عُنق أسْكِيَ مُحَمَّد كَاعُ حين أُخِذَ يوم تَنْشٍ وسُلِبَ منه. وقيل ذهب أسْكِيَ نوح به إلى دَنْدِ، والله أعلم. ولا خلافَ أنَّهُ لم يبقَ في أيدي أساكي تُنْبُكْتُ اتِّفاقًا.(١)

ثُمَّ استَخْلَفَ بعد هروب كَنْفَارِ عثمان في كَنْفَارِوِيَّة كُرْمِنَ فَارِ حماد بن أَرْيَوْ بنت أسْكِيَ مُحَمَّد،(٢) وأبوه بَلْمَع مُحَمَّد كِرِيَ، ثُمَّ عزله. وقيل قتله، ولقَتْلِهِ سببٌ يَطُولُ ذِكْرُه هنا. وبعد قتله أطلع أسْكِيَ في مكانه في كَنْفَارِوِيَّة: كَنْفَارِ عليّ كُسُل بن أسْكِيَ مُحَمَّد. وكان في أيام أسْكِيَ إسماعيل قَحْطٌ وجُوعٌ. وكان فارِمُنْذُ يوم يَنْتَقِلُ ويَطْلَعُ أسْكَوِيَّة.(٣)

ومِمَّنْ مات في أيَّامه أبوه أسْكِيَ مُحَمَّد في ليلة الفطر سنة أربع وأربعين ولا نعرفُ له عقبًا هنا اليوم، لا رجالاً ولا نساء.(٤) ومُدَّة سَلْطَنَتِهِ سنتان وسبعة أشهرٍ

= دليلٌ على أنه لم يحمل السيف معه حين خروجه. بناءً على ذلك، يستبعد أن يكون القول بأنه حمل السيف معه يوم خروجه، أصحَّ الأقوال. بل أضعفها.

(١) يعني الأساكي الذين تولوا السلطنة تحت الوصاية المغربية، بعد غزو صونغاي. أولهم أسكيا سليمان بن داود (تولى ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م)، وآخرهم أسكيا محمود بن عمار (تولى ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م). والإشارة إلى أن هذا السيف لم يبق بأيدي أساكي تمبكتو، فيها دلالة ضمنية على عدم الرضا الشعبي عن أولئك بوصفهم سلاطين عملاء ودُمى للغازي، وهذا السيف - كما اتَّضح - كان من شارات الدولة الصنغائية الإثنتي عشرة. أضف إلى ذلك الهالة الرُّوحية المضفاة عليه.

(٢) في تاريخ السعدي أنَّه: هماد ولد أرْيُ بنت أسكيا الحاج محمد. (ص٩٤)، وهو ولي العهد الخامس في سلسلة الذين شغلوا هذا المنصب.

(٣) أي أن أسكيا إسماعيل كان في منصب فارمنذ يوم تولَّى السلطنة.

(٤) من أولاده محمود، شغل منصب بِنْكافَرم. كما شغل منصب كورمينافاري. وهو الَّذِي قدَّمه الجيش بعد وفاة أسكيا محمد بانَ، بعد أن سئموا حكم أولاد أسكيا داود، ونزاعاتهم الكثيرة. =

وأربع ليالٍ.[1] ومات يوم الثُّلاثاء أربع من شعبان المنير سنة ستٍّ وأربعين وتِسْعِمائة.[2]



= قبض عليه الباشا محمود مع أسكيا كاغ، وقتل مع من قتل (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م). وهنا دلالة على أنَّ كاتب هذا الجزء من كتاب الفتاش، هو ابن المختار الحفيد على أرجح تقدير؛ لأنَّ الإشارة هنا تدل على أن هذ الخبر يتحدث عن فترة متأخرة جدًّا عن عهد أسكيا إسماعيل.

(١) في تاريخ السودان [ص٩٥]، أنَّه حكم لمدة سنتين وتسعة أشهر، وأنَّه كان في السابع والعشرين من عمره يوم تولَّى السلطنة، وبناءً على ذلك يكون عمره يوم وفاته: تسعا وعشرين سنة وسبعة أشهر (أو تسعة أشهر طبقًا لرواية السعدي). وبناءً على التاريخ المعطى هنا أيضًا لوفاته، ولسنِّه يوم تولَّى السلطنة، يمكن تحديد سنة ولادته بعام (٩١٧هـ/ ١٥١١م)، وفي [ص٧٥] أنَّ أمَّ إسماعيل مريم دابُو كانت من سبي الغزوة التي غزاها أسكيا الحاج محمد بمالي (عام٩٠٧هـ).

(٢) بما أن ابن المختار يتحدث هنا بلغة الأرقام؛ فلا بد من محاسبته طبقا لذلك؛ فقد ذكر أن أسكيا إسماعيل قد تولى في أول يوم من ذي القعدة (٩٤٣هـ) وأن مدة حكمه سنتان وسبعة أشهر وأربع ليال. عليه، فإن تمام هذا العدد يوافق الرابع من رجب (٩٤٦هـ)، وليس شعبان. وقد كان السعدي أدق من ابن المختار في هذا المقام إذ ذكر أنه قد توفي يوم الأربعاء في شهر رجب، دون أن يحدِّد التَّاريخ الفعليَّ لوفاته (ص٩٥). وفي الهامش ذكر المحقِّق أن كلمة «الثاني» زائدة في النسخة (C) من المخطوطة.

الباب العاشر

أسْكِيَ إسحاق

ثُمَّ تَوَلَّى أسْكِيَ إسحاق بعد موت أسْكِيَ إسماعيل. وهو وحَارِفَرْمَ عبد الله شقيقان، أمُّهُمَا كلثوم بِرْدَ، أصلُهَا من دِرْمَ.[1] وحَارِفَرْمَ عبد الله والد بِنْكَفَرْمَ مُحَمَّد حَيْكَ.

وكان أسْكِيَ إسحاق مَرْضِيًّا صالحًا مباركًا، كثير الصَّدَقَاتِ، مُلازمًا لصَلاة الجماعة، عاقلاً فطنًا ذا دَهَاءٍ. قيل أتى يومًا إلى المسجد لصلاة العِشَاء الأخيرة ليلةً ذات مَطَرٍ وظُلْمَة وطِينٍ

[ص٨٨]،

وجلس في المسجد وحده، ثُمَّ أتى المؤذِّنُ ونادى بالأذان، ثُمَّ وَقَد المصباحَ وجلس يَنْتَظرُ الجمَاعَةَ والإمامَ، ثُمَّ لم يجئ أحدٌ حتَّى جاء الإمامُ وحده وأحيا المسجد، ثُمَّ قال له المؤذِّنُ: أيُّهَا الإمامُ قُمْ فَنُصَلِّي، ولعلَّك تَنْتَظِرُ مجيء أسْكِيَ إسحاق، فَإنَّهُ لا يخرج من مرقده في هذا المطر والظُّلْمَة والطِّين، وأين هو السَّاعة؟ على سريره المفْرُوش عليه بأنواع الحرير. فأجابه أسْكِيَ إسحاق في جانب المسجد قائلاً: إن كان أسْكِيَ إسحاق هو المنْتَظَرُ فها هو قد سَبَقَكُمَا، فقُوما نُصَلِّي؛ فقاما مُتَعَجِّبَيْن في خُرُوجِهِ وحدَه إلى الصَّلاة.

---

(١) سبقت الإشارة [ص٨٢] أنها من أهل دامَ، ويبدو أن دِرم المذكور هنا أصحُّ.

وولايتُه كان في يوم الأحد السَّادِس من شعبان عام ستٍّ وأربعين.[١] و(بقي في السَّلطنة تسع سنين و) تسعة أشهُرٍ وتسع ليال.[٢]

وفي عام طلوعه يعني ستٍّ وأربعين[٣] ذهب إلى تَعَبَ ووجد أسْكِيَ مُحَمَّد بُنْكَنَ هُنالِكَ حيًّا، ثُمَّ مات في تِلْكَ الأيَّام، وصلَّى عليه أسْكِيَ إسحاق. وفي قصَّة موته سببٌ يطولُ ذكرُه.[٤]

ويُروى أنَّهُ دخل مدينة جِنِّ (حرسها الله) في ذهابه لتَعَبَ وملك فيها أيَّامًا، فأمر يومًا بأن يحضر كلُّ من كان في جِنِّ من العامَّة والخاصَّة في المسجد الكبير بحيثُ لا يَتَخَلَّفُ منهم أحدٌ؛ فَحَضَرُوا أجمعون، ثُمَّ جاء هو ومعه أعيانُ جيشه وكبراء أقْيَاله، حتَّى امتلأ منهم الصُّفُوفُ والأسَاطِين، ثُمَّ أمر ترجمانه[٥] أن يُنَادِيَ بالنَّاس

---

(١) إذا كان يوم الثلاثاء هو الرابع من شعبان - كما أثبته ابن المختار آخر ترجمة أسكيا إسماعيل في الصفحة السابقة - فلا يمكن أن يكون يوم الأحد السادس من هذا الشهر، فالسادس منه هو يوم الخميس، والأحد يوافق التاسع منه.

(٢) ذكر السعدي (ص١٠١)، أنَّه حكم لتسع سنين وستة أشهر، وأنه توفي يوم السبت الرابع والعشرين من شهر صفر (٩٥٦هـ/ ٢٥ مارس ١٥٤٩م).

(٣) أرَّخ السعدي هذه الغزوة بعام تسع وأربعين، وهو العام الَّذِي تولَّى فيه أسكيا إسحاق السلطنة على تقدير السعدي (ص٩٧).

(٤) لعل ابن المختار أحجم عن ذكر تِلْكَ القصَّة؛ لتعارضها مع ما ورد هنا. وسبقت الإشارة إليه (هامش، ص٨٥).

(٥) ليست مهمَّة الترجمان هنا نقل الكلام من لغة لأخرى، وإنما العادة في البلاط الأفريقي ألا يُكلِّم الملك محدِّثيه مباشرة، وإنَّما يتولى ذلك متفنِّنون في فن القول، ويطلق عليه في هذا الكتاب «كِسِردُنك»، وقد أورد العمري هذا التقليد في معرض حديثه عن مانسا موسى بمصر، فحين خرج المهمندار لملاقاة مانسا موسى؛ أكرمه إكرامًا بليغًا، وعامله بأجمل الآداب، يقول المهمندار: «ولكنه كان لا يحدِّثني إلا بترجمانٍ مع إجادة معرفته للتَّكلُّم باللِّسان العربي»، مسالك الأبصار، ٤/ ٧١، فالكلمة في الرُّؤية الإفريقيَّة مسؤوليَّة كبيرة، لا يتحمَّلها إلاَّ المشتغلون بفنِّ القول.

يُعْلِمُهُمْ حالفًا بلفظه: «والله ما سافرتُ سَفَري هذا إلاَّ لإصلاحِ البلادِ ولمصالح العباد، والآن فعلِّمُونا بمن يُؤذي المسلمين، وبمن يَظْلِمُ النَّاس في هذا البلد. ومن عَلِمَ ذلك ولم يَذْكُرْهُ وحقُّ نفسه فحقُّ عباد الله في عُنُقِهِ». ودخل الترجمانُ في الصُّفُوف يُتْبِعُها ويقول ذلك، والجماعة ساكتة.

وكان مِمَّنْ حضر في تِلْكَ الجماعة الفقيهُ القَاضِي محمود بن أبي بكر بَغَيُغُ، وهو بقربه جالسٌ. فَلَمَّا أطالَ الحال عَلَيْهِمْ

[ص٨٩]

فما ردَّ أحدٌ له جوابًا، قال له الفقيهُ محمودٌ المذكور: أحقٌّ ما تقولُ يا إسحاق؟[1] فقال: والله لحقٌّ. فقال: إنْ عَلَّمْنَاكَ بذلك الظَّالِم فماذا تفعل له؟ فقال: أفعل له ما يَسْتَحِقُّ مِنْ قَتْلٍ أو ضَرْبٍ أو سِجْنٍ أو إجْلاءٍ أو ردِّ ما أتْلَفَهُ منَ المال وغَرْمِهِ. فقال له الفقيه محمود بَغَيُغُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما عرفنا هنا أظلَمَ منك، أنت أبو كلِّ ظالم وسبَبُه، ولا يَغْصِبُ غاصِبٌ هنا مَغْصُوبًا إلاَّ لك وبأمْرِكَ وبقُوَّتِكَ. إنْ كنتَ تَقْتُلُ الظَّالِمَ فابدأ بِنَفْسِكَ وبَادِرْ به، وهذا المالُ الَّذِي يجلبُه إليك مِنْ هُنا وتَثْري إليك. ألَكَ، أو لَكَ هنا عبيدٌ يحرثون لك، أو مالٌ يُتَّجَرُ به لك؟

فَلَمَّا سمع بذلك تحيَّر وتدهَّش وتَنَفَّسَ الصُّعَداء، وبكى وندم على قوله، حتَّى رحمه النَّاس وحتَّى عَبَسَ وَجْهُ قومه على محمود بَغَيُغ. وقال له أرذالهم الجهلة السَّفَلَة: أنت القائل للسُّلْطَان هذا القول؟! وكادوا أنْ يَسْطُوا إليه، فردَّهُمْ عن ذلك

---

(١) يبدو أنَّ الفقيه كان ممَّن تجوز له مناداة أسْكيا باسمه المجرَّد. وقد سبق [ص١١] أن كِسِرْدُنْكِ وحده كان يحقُّ له أن ينادي أسكيا الحاج محمد الكبير باسمه في مجلسه. كما سبق أنَّ أسكيا «خرج من ذلك كلِّه» بعد أن ترسَّخ الإسلام بالمملكة، ولعلّ تحريم مناداة السلطان باسمه الصَّريح لم يكن ملزومًا، خاصَّةً للعلماء والقضاة.

وانْتَهرهُمْ، فما صَدَرَ منه إلاَّ الإذعان[١] والخشُوعُ وَالحَشَمَة، بل قال: صَدَقْتَ والله! وأنا تائبٌ لله وأسْتَغْفِرُهُ، ثُمَّ نهض إلى منزله باكيًا، والدُّمُوع تَقْطُرُ وتَسيلُ من عَيْنَيْهِ.[٢] هكذا رَوَيْنَا القِصَّة عن خالنا الفقيه القَاضِي مُحَمَّد الأمين بن القَاضِي محمود كَعْتِ (رَحِمَهُم الله).

ثُمَّ رَجَعَ أسْكِيَ إسحاق إلى كاغُ. وأدْرَكَهُ في الطَّريق نَعْيُ الخطيب أحمد تُرْفُ خطيب جِنِّ قبل وُصُولِهِ لكَاغُ، وهو الَّذِي ألفَاهُ أسْكِيَ إسحاق هُنالِكَ خطيبًا، وقيل الخطيب أحمد سُنْكُمُو؛ فأمر بتقديم القَاضِي محمود بَغَيُغُ، وأَرْسَلَ أحْدَ أعْيَانِهِ مِنْ جَيْشِهِ؛ لِيُقَدِّمَهُ قاضيًا أحَبَّ أم كرِهَ. فأتى الرَّسُول وجمع أهْلَ البلد كلَّهُ، سُلْطَان جِنِّ فَمَنْ دُونَهُ وفُقَهَاءها. وأحضروا محمود بَغَيُغُ، وهو لا يَشْعُر، فأخذوه وأمْسَكُوا به وجعلوا قمْصَانَ أسْكِيَ في عُنُقِه الَّذِي أرسل

[ص٩٠]

إليه، وعمَّمُوه، وهو يَصْرُخُ ويبكي بكاء الصَّبي. وقدَّمُوهُ جبرًا وقرأوا عليه كتاب أسْكِيَ، وبِأمْرِهِ أتوه بِفَرَسٍ وَحَمَلُوهُ إلى داره.

فَلَمَّا دَخلَ بَيتَهُ استَقْبَلَتْهُ زَوْجَتُهُ أمُّ ولده السَّيِّد الفقيه أحمد بَغَيُغُ، وقالت له: لم رَضِيتَ القَضَاء؟ فقال لم أرضَ بذلك، وإنَّما أجبروني بها وكلَّفُوني؛ فقالت لو اخترتَ الموتَ عليه لكان أحْسَنَ منه، ولو قلتَ اقتُلُوني فلا أدخل؛ فقال: ما قُلْتُ

---

(١) في الأصل بالهاء (إذهان)، ويبدو أنَّه يريد (إذعان) بالعين، يقال: ذعِن، يذعَن، إذعانا، وهو الانقياد والطاعة الخضوع.

(٢) إذا كان ابن المختار يرسم هنا صورة إيجابية مثالية عن أسكيا إسحاق، فإن السعدي ينقل عنه صورة سلبية في معظم الأحيان، من ذلك أن مجموع ما غصبه من تجار تمبكتو ظلما وعدوانا، بلغ سبعين ألفا ذهبًا. بالإضافة إلى إسرافه في قتل القادة والمقربين منه؛ لأدنى توجس خيفة منهم. [ص١٠٠].

ذلك؛ فَأَدْبَرَتْ باكيةً، ثُمَّ لم تزلْ تبكي أيَّامًا، (رحمهما الله). انتهى.

ثُمَّ دَعا على أسْكِيَ إسحاق ومات في شَهْرِهِ. ويقول: إسحاق نفى عن عيني الكَرَى، وألزَمَنِي السَّهر، كدَّر الله عليه عَيْشَهُ، وينزل عليه ما يُشْغِلُهُ؛ فَرَجَعَ الذِينَ أَرْسَلَهُمْ لِيُوَلُّوا ذلك القَاضِي، فَوَجَدُوهُ قد مات.[1]

وأسْكِيَ إسحاق هو الَّذِي قدَّمَ القَاضِي عثمان دَرَم قاضيًا في تَنْدِرْمَ، وكلَّفَهُ عليه، واستَقْضَاهُ قهرًا. وكان القَاضِي عثمان عالمًا صالحًا ورعًا زاهدًا عابدًا وليًّا مكاشفًا، حجَّ وزار، معروفًا. وله من الكرامات والمناقب مَا ظَهَرَ لمن عَاصَرَه.

ومما يُؤثَرُ من ذلك حين كان في المكتب يقرأ القرآن، وأمُّهُ فقيرةٌ لا خَادِمَ لها إلاَّ ولدُهَا عثمان هذا الفقيه، وهو في خِدْمَةِ مَعِيشَتِهَا من الطَّبخ والدَّقِ وحَمْل الحطب والماء. فذهب يومًا يحمل حَطَبَ القراءة[2] ولم تجد أمُّه من يقوم بإصلاح عَشَائِهَا في تِلْكَ اللَّيْلَة، وهي عَجُوزٌ عاجزة؛ فعمدت إلى قَدَحٍ يَأكُلُ فيها وَلَدُهَا عثمان، فأمْلأتها رُوزًا مَقْشُورًا لم تُدَقَّ وغَطَّتْهُ، فَلَمَّا رجع عثمان من المكتب أشَارَتْ إليه بها، فقالت: خُذْ قَدْحَكَ فيها عَشَاؤُكَ، فَكُلْ. وعندَهَا امْرَأَةٌ أُخْرَى تَتَحَدَّث معها. فذَهَبَ عثمان إلى القَدْحِ فَأَخَذَهَا، فإذا هي مملُوءة طعامًا مَطْبُوخًا بأنواع الإدَام

[ص٩١]

واللَّحم والسَّمن الكثير؛ فَقَامَتْ أمُّهُ إليه وأدْخَلَتْ يَدَهَا في القَدْحِ، فَإذَا هُوَ فِيهَا

(١) هنا أسلوبٌ غامضٌ يوحي بأنَّ الميت هو أسكيا إسحاق، ولكنَّه ليس كذلك؛ إذ الميت هو القاضي. وقد توفي أسكيا إسحاق عام (٩٥٨هـ).

(٢) حطب القراءة: هو الحطب الَّذِي يوقده الطَّلبة للقراءة على ضوئه أو للاستدفاء بناره ليلاً في المجلس، وعادةً تتناوبُ مجموعاتٌ من الطلبة جمع هذا الحطب، أو يقوم به الأصغر سنًّا فالأصغر، أو يقومون كلُّهم بجمعه، وما زال هذا التَّقليد معمولاً به في الكتاتيب بغرب أفريقيا.

طَعَامٌ طيِّبَةُ الرِّيح تَفُورُ وَتَفُوحُ منه رائحةٌ طيِّبَةٌ عَمَّت فناءَ دارها. فرجَعَتْ إلى مَقْعَدِها، فعَلِمَتْ أنها كَرَامَةٌ مِنَ الله أَكْرَمَهُ الله به.

وقبره وراء جامع تَنْدِرْمَ. الدُّعاء عند قبره مُسْتَجَابٌ مُجَرَّبٌ. وهي تِرْيَاقٌ كما قال القُشَيْري في رسالته. ويقول البَغْدَاذيون: قبر معروف الكرخي ترياقٌ مجرَّب.[1]

فائدة: القبور اللَّواتي يُستجابُ الدَّعوات عندها:

- قبر القَاضِي عثمان دَرَمِ المذكور، وهو معروفٌ يُستَجابُ الدُّعَاءُ عنده مجرَّبٌ اتِّفاقًا، لا يُرَدُّ الدَّعواتُ عنده. رأيناهُ بعيني، ودَعَوْتُ الله عنده بدعواتٍ استجابَ الله لي، والحمدُ لله وله الشُّكر.

- وعند قبر مور مُحَمَّد الكابِرِي.[2]

- وقبر سيِّدِي يحيى مجرَّبٌ. رأيناه وسمعنا به من كثير جرَّبوه فألفَوْه كذلك وما

(١) معروف الكرخي: هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، نسبة إلى قرية على باب بغداد، يعرف بالكَرْخ (بفتح الكاف وسكون الرَّاء المهملة وبالخاء المعجمة)، من عُبَّاد أهل العراق وقرائهم. له حكايات كثيرة في كرامته واستجابة دعائه، وهو من رفقاء بشر بن الحارث. ذكره ابن حبان في الثقات (٩/ ٢٠٦)، وذكر الذهبي ترجمته في سير أعلام النبلاء، (٩/ ٣٣٩)، وحلية الأولياء (٨/ ٣٦٠). قيل توفي سنة مائتين أو إحدى ومائتين. أما عن خبر الدعاء عند قبره، فقد أورده القشيري في رسالته، وقال: «كان من المشايخ الكبار، مستجاب الدعاء يستسقى بقبره. أورد الحافظ البغدادي عن بعض أكابر السَّلف ممن كان في زمن الإمام أحمد بن حنبل واسمه إبراهيم الحربي أبو إسحاق، وذكر أنَّه كان حافظا فقيها مجتهدًا، يشبَّه بأحمد ابن حنبل، وأنَّ الإمام أحمد كان يرسل ابنه ليتعلَّم عنده الحديث.. ذكر الحافظ أنَّه - أي إبراهيم الحربي - قال: «قبر معروف التِّرياق المجرَّب». ينظر: تاريخ بغداد، للحافظ البغدادي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ)، ج١/ ١٣٤.

(٢) منسوب إلى مدينة كَابارا، وكانت حاضرةً علميَّة مرموقة قبل نشوء تمبكتو، وقد ذكر السعدي هذا الفقيه، ووصفه بشيخ الشيوخ، وأنه كان غاية في الصلاح والزهد والكرامات، وتوفي بتمبكتو، ودفن بقربه بروضته أكثر من ثلاثين كابريًّا «كلُّهم علماء صالحون» (ص٤٨).

زال فقهاء تُنْبُكْتُ الذين تَلَقَّيْنَا بهم يَزُورُونَهُ، كَسَيِّدِي أحمد بابا، والسيِّدَيْنِ الفَقِيهَيْن إبراهيم ومُحَمَّد ابنيْ أحمد بَغَيُغْ. وأخبرني صاحبي الفَقِيهُ محمود أنَّ هذا الموْضِعَ الَّذِي يقفُ النَّاسُ عنده الآن يظُنُّونَهُ قبره، وهو الموضع الملصق بالمنار الَّذِي يُؤَذَّنُ فيه، بل هو بِقُرْبِ ذلك الباب يسيرًا، وهو مَوْقِفُ الفَقِيه إبراهيم وأخيه مُحَمَّد بَغَيُغْ.

- وقبر سيدي الفقيه محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ.

- كذلك وقبر الفقيه العالم مُحَمَّد بَغَيُغْ ابن القَاضِي محمود بَغَيُغْ، جَرَّبْتُهُ أنا بنفسي ورأيتُ الإجابة، ولله الحمْدُ.

- وقبر الفَقِيهِ عثمان الكابري المدْفُون بمسجد كَبَرَ. حَكَى لي بعضُ الصَّالِحين في ذلك خبرًا يَطُولُ سَرْدُهَا.

- وقبر مُورْ هَوْكَارُ في بلد يُقالُ له يَرَ

[ص٩٢]،

قد خرِب اليوم، وقلَّ مَنْ يَعْرِفُ مَوْضِعَ قَبْرِه الآن.[١]

- وقبر الفقيه بُكَر سَنْ في داخل جامع مُورْ كُيْرَ.

- وقبر أَلْفَعْ مُحمَّد تُلِ في حُنْدِبيرْ مُجَّرب. وربما يأتيه صَاحِبُ البَرَصِ وَالجذَامِ، فيشفعه الله فيه فيبرأ. رأيتُ ذلك مِرَارًا.

- وقبر مُورِ مَانَ باكُوَ في قرية مُسمَّاة تَاوْتَلَة في أرض بَرَ، وهي مَعْرُوفٌ مَعْلُومٌ، وعليه علامَةٌ يُعْرَفُ بِهِ.

- وعند قبر الحاج كَسُرَبِيرَ في بلد كُوكَ الوَنْكَرِيِّ الأصل (رَحِمَهُ الله). بنى الكاهية الدلول سُورًا على قبره.

---

(١) هنا دليلٌ آخر على بُعد الفترة بين موت هذا الشخص وبين كاتب هذا الجزء من الكتاب، وهو ابن المختار؛ فلو كان الكاتب هو محمود كعت، (وهو معاصر للشيخ مور هوكار، بحسب زعم كتابنا هذا)؛ لما قال مثل هذا الكلام.

- وقبر فُودِيكِ مُحَمَّد سانُ في بلد جِنٍّ، المدفون في قبلة مَسْجِدِهِ الكبير بوراء منبره.

- وعند قبرِ الفقيه إبراهيم في بلد يُقالُ له كُومَ معروفٌ. وعنده دَخَلَ الكاهية مُحَمَّد الهندي، وهو يَوْمَئِذٍ عامل في بِنْكَ.(١)

- وقبر الفقيه سَنْبَ تِنِينِ المدْفُونُ في جَوْكَل.

وغير ذلك مِمَّنْ لا يُعْرَفُ ولا يُسْمَعُ به، ولله خُلْصَان.(٢) وإنما أتينا منهم ما عرفنا وما سمعنا من الثقات.

ويُلقَّب أَسْكِيَ إسحاق يُقَالُ له: إسحاق كَدِبِنِ، وكَدِبِنِ في اصطلاح وَعْكُرُيْ: الحجر الأَسْوَد.

ومِمَّنْ مات في أيَّامه من العُلَماء الأعلام الشَّيْخ الفقيه محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ (رَحِمَهُ الله) ستَّةَ عَشَرَ ليلة من رَمَضان ليلة الجمعة. وقال صاحبُ «دُرَر الحِسَان» إنَّه توفي في اليوم الخامس عَشَرَ مِنْ رَمَضان ليلة الجمعة، وعُمْرُهُ ثمانية وثمانون.(٣) وتُوفي أَخُوهُ الأكبر الحاج أحمد بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ

[ص٩٣]

ليلة الجمعة غُرَّةَ الرَّبيع الآخر عام اثنين وأربعين وتِسْعُمِائَةٍ في الطَّاعون المسمَّى كَفِ. هكذا في «دُرَر الحِسَان»، وَوَافَقَ بما ذكره العلاَّمَة أبو العَبَّاس أحمد

---

(١) الكاهية محمد الهندي، ورد ذكره عند السعدي في أحداث عام (١٠٤٢هـ)، وأنَّه - أي السعدي - سعى معه في مصالحة بين متخاصمين (تاريخ السعدي، ص٢٥٠).

(٢) يقال: فلان من خُلصان فلان، أي هو من أصفيائه.ولعل الكاتب هنا يريد أن لله عبادًا من خاصَّته لا يعرف بهم أحد.

(٣) أي توفي في العام (٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م).

بابا في «كِفايَة المُحْتَاج» أنَّ القَاضِي محمود بن عمر مات لَيْلَةَ الجمعة سادِسَ عَشَرَ من شَهْر رَمَضَانَ، وأنَّهُ وُلِدَ سنة ثمانٍ وستِّين وثمانمائة. ومات في هذا الطَّاعُون خَلْقٌ كثير، وتَوَلَّى القضاء بعد أَلْفَعْ محمود بن عمر وَلَدُهُ القَاضِي مُحَمَّد بن محمود يوم الجمعة الخامس عشر شوَّال.

وفي أوَّل السَّادِس والخمْسِين مات أسْكِيَ إسحاق. ومَكث في السَّلْطَنَة تِسْعَ سِنِينَ وتسعةَ أَشْهُرٍ وتِسْعَ ليالٍ في بلد كُيْكِيَ،(١) وهُنالِكَ قبْرُهُ.(٢) وُلِدَ له من الأولاد تُنْكِ سِلْمَانَ، وعبد الملك الَّذِي جَعَلَهُ وَلِيَّ العهد، ولم يَرْضَ أهْلُ سُنْغُيْ إلاَّ أسْكِيَ داوود.(٣)



---

(١) يكتب أيضًا: كُوكِيَ، وكُوكية، وكُكِيَ (ينظر أيضًا هامش، ص٤٥).

(٢) جاء في تاريخ السودان أنَّه توفي يوم السبت الرابع والعشرين من شهر صفر سنة ست وخمسين وتسعمائة للهجرة، وهو تاريخ موافق لما ورد عند ابن المختار هنا، والخلاف الطَّفيف بَيْنَهُما في مدَّة سلطنته فحسب؛ إذ ذهب السعدي إلى أنَّه قد قضى فيها تسع سنين وستة أشهر (وليس تسعة كما ورد عند ابن المختار)، وبالتدقيق الحسابي يظهر أن السعدي أقرب إلى الصواب؛ لأن شهر صفر (عام٩٥٦هـ) يوافق بالتمام تسع سنوات وستة أشهر. هذا إذا أخذنا بداية حكم أسكيا إسحاق بشهر شعبان (عام٩٤٦هـ)، حسب رواية ابن المختار. فالظاهر أن ابن المختار أدقّ في تحديد بداية حكم أسكيا إسحاق، لكنه في تحديد مدة سلطنته بتسع سِنين، وتسعة أشهر وتسع ليال، لم يكن دقيقا؛ لأن هذا الحساب يقتضي أن تكون وفاة إسحاق في التاسع أو العاشر من جمادى الأولى في السنة المذكورة (٩٥٦هـ)، وهو خلاف ما أورده ابن المختار نفسه هنا أنه قد توفي أول العام.

(٣) أضاف السعدي أنَّ أسكيا إسحاق لما أيس من الحياة، وأيقن بدنوِّ أجله، بعث بابنه عبد الملك في حماية أربعين فارسًا، إلى الخطيب بكاغ؛ ليدخل في «الحرمة» أي في حمايته، وذلك لما عرف من ابنه من الوقاحة والظلم والطغيان على أهل صونغاي. (السعدي، ٩٩).

الباب الحادي عشر

أسْكِيَ داوود

وَوَلِيَ السَّلْطَنَة بَعْدَهُ أخُوهُ أسْكِيَ داوود بن أسْكِيَ مُحَمَّد في الثَّاني والعشْرين من صفر عام خمس وخمسين.[1] ومكث في السَّلْطَنَة أربعًا وثلاثين وأربعَةَ أشْهُر.

ساعَدَتْهُ الدُّنْيا، فنال ما شاء من دَوْلَةٍ ورِيَاسَةٍ، وحصل له الدُّنْيا عَرِيضَةً. وقد تعِبَ أبوه أسْكِيَ مُحَمَّد وإخْوَتُهُ فَزَرَعُوا له، فجاء فحصد. ومهَّدُوا الأرض، وأتى فَنَامَ عليه. وليس في إقليم تَكْرُور من مَلٍّ إلى لُعْلُع مَنْ يَرْفَعُ يَدَهُ،[2] وَوَجَدَهُمْ يوم يطلع عبيدًا طائعين سامعين، ولا من يُقَابِل جُنْد سُنْغُيْ إلاَّ كُرْمِنَ فقط.

وروى أحمد بن إبراهيم بن يعقوب (رَحِمَهُ الله) أن أسْكِيَ مُحَمَّد كان إذا مرَّ عليه أسْكِيَ داوود في صباحٍ؛ عَبَسَ وَبَهَتَ ويَنْظُر فيه ويَتَأَوَّهُ، فقال بعض خُدَّامِهِ: ولدُكَ داوود كأنَّك لم تَلِدْهُ، ولا تحبُّه كما تحبُّ جمِيعَ أوْلاَدِكَ؛ فقال: كيف لا يحبُّ الرَّجُلُ وَلَدَهُ؟ وقد رأيتُ فيه أنَّهُ سَيَلِي السَّلْطَنَة، وَيَطُولُ عُمْرُه، ويرزقه الله فيها أولادًا كثيرًا. ومتى ارتفع وتَسَلْطَنَ

[ص٩٤]

غَلَبَ على جميع أولادي وحَفَائِدِي وذُرِيَّاتي كلِّهَا، ويمحي أسماءهم ولا يُذْكَرُ منهم أحْدٌ سِوَاهُ وأولاده، ويكون أولادي وأولادُهُمْ لهم تبعًا إلى مُنْتَهَاهُمْ؛ فقال له

---

(١) هنا سهو واضح؛ إذ أن أخاه إسحاق قد توفي سنة ست وخمسين وتسعمائة، فلا وجه أن تكون ولايته قبل موت أخيه.

(٢) تعبير محلي، أي لا يوجد من يضاهيه ويقارعه وينافسه.

صاحبه: مَنْ علَّمَك بهذه الحكمة؟ فقال: أتَعْجَبُ مِنْ هذه؟ ولو شئتُ لأخبَرْتُك بما بعد ذلك من هذا اليوم إلى يوم تَنْسِ.(١) قال: وما يوم تَنْسِ؟ فقال: يوم يَنْتَقِمُ الله منهم، ويُرْغِمُ الله أنفَ المتكبِّرين منهم. انتهى.

واسمُ أمِّ أسْكِيَ داوود: بُنْكَانُو فَاري. وكان أسْكِيَ داوود سُلْطانًا مَهِيبًا فصيحًا خليقًا للرِّئَاسة كريمًا جوادًا مَبْسُوطًا فَرِحًا ذا مِزَاحٍ، وسَّعَ الله عليه في دُنْيَاهُ. وهو أوَّلُ من اتَّخَذَ خزائنَ المال حتَّى خزائن الكتب، وله نُسَّاخٌ ينسخون له كتبًا، وربما يُهَادِي به العُلَماء. وأخبرنا كِسِرْدُنْكِ دَكُ بن بُكر فَطَ أنَّهُ حافِظٌ للقرآن، قرأ «الرسالة» فأتمَّها،(٢) وله شيخٌ، يُعَلِّمُهَا ويأتيه الشَّيْخُ بعد الزَّوال ويُقْرِئُه إلى الظُّهر.

وكان ما يأتيه من مَزَارِعِهِ وأحراثه من الطَّعَام ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، وله في كلِّ أرضٍ من طاعته - من إرْيَة ودَنْدِ، وكُلَنِ، وكِرِيْ حَوْصَ، وكِرِيْ كُرْمَ وما حَوَالَيْهَا إلى كُيْكِيَ وإلى كَاغُ إلى كِيسُ، وجزائر بَنْبَ، وبَنْكَ، وأَتِرِمْ إلى كِنْكِ، وبُونِيُ إلى أن ينتهي مَرْسَى دِبُ، مِنَ الأحْرَاثِ. وقد يحصلُ له من ذلك من الطَّعَام في بعض السِّنين ما يَنِيفُ على الأربعة آلاف صُنِيَّة.(٣) وليس في قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى ما ذكرناه إلاَّ وله فيه عبيد وفَنْفَ. وحَرْثٌ في تحت يد بعض الفنافي منهم مائةُ عَبْدٍ، وعَبْدُ بَعْضِهِم خمسُونَ وستُّون وأربعون وعِشْرُون. والفَنَافي جمع: (فَنْفَ) وهو رئيس

---

(١) في بعض المواضع ورد بالشين «تَنْشِ» [ص١٥٨، ١٦٧، ١٦٩، ١٨٦]. وهو كما في [ص١٤٧]: يوم المعركة الحاسمة بين أسكيا إسحاق الثَّاني، والجيش المغربي بقيادة جودر، هزمت فيه صونغاي، وسقطت الدَّولة.

(٢) أي رسالة أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، ومن أشهر شروحه: «الثمر الداني» لصالح عبد السميع الآبي الأزهري (ت١٣٣٥هـ).

(٣) يساوي حوالي (٨٠٠طن). والصُّنيَّة (ج: صنُون): كلمة صونغائيَّة، وهي وعاء للكيل، وتساوي الصنية الواحدة (٢٠٠كلغ) تقريبا.

[ص٩٥]

العبيد، ويُقالُ ذلك أيضًا لرئيس السَّفينة.

وحكى لي مَنْ أثِقُ به أنَّ له حرثًا في أرض دَنْدِ يُقالُ له أبْدَا، وله على ذلك الحرث مائة عَبْدٍ وأربع من الفَنَافي. ولهم رئيس يقفُون عليه، اسمه مَسَكِلِ الله،[1] ومعنى: مَسَ كِلِ الله: كلُّ أمر كان ويكون من كلٍّ ما هو كائنٌ في الدُّنْيا والآخرة، الله هو مُقَدِّرُه ومُكوِّنه سبحانه لا إله إلاَّ هو. ويُحْصَدُ له من هذه المزرعة ألفُ صِنُون من الأرز. وهذا عليه مَقْطُوع لا يزيد ولا يَنْقُصُ.

وكان بَذْرُهُ لا يخرج إلاَّ مِنْ عند أسْكِيَ في العادة، وجُلُود صُنُونِهِ والسُّفُن التي يحملها إلى أسْكِيَ عَشْرُ قَوَارِب. ويُرْسِلُ أسْكِيَ لرئيسهم مع الرَّسُول الَّذِي يأتي منه لحمل صُنُونه ألف كُورِيَّة والكَمَلِيَّة الواحدة من الملح والقَمِيص الأسْوَد والملحَفَة الأسْوَد لِزَوْجَةِ ذاك الرَّئيسِ، وهذا عَادَتُهُ مَعَ أسْكِيَ، حتَّى أتى رُسُلُ الفَنَافي يومًا إلى رئيسِهِمْ مَسَ كِلِ الله يُعْلِمُونَهُ بِوُصُولِ وَقْتِ حَصَادِ حَرْثِهِمْ وَطِيبِهِ، وهُمْ لا يُدْخِلُونَ اليَدَ في قِطْعَةٍ حتَّى يأتي ويَنْظُرَهَا ويَدُورُ فيها ثلاثَةَ أيَّامٍ، ويَطُوفُ في جَوَانِبِهِ الأرْبَعِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى مَكَانِهِ ويَأمُرُهُمْ بالحصاد.

وأتاه رُسُلُهُمْ في بعض السِّنين يُعْلِمُونَ ببُلُوغ حَصَادِهِ وطِيبِ حُبُوبِه، وخرج على عادته في سَفِينَتِهِ مَع دُفُوفِهِ وجماعته إلى أنْ أتَى المزْرَعَة وألْفَاهَا قد طاب، وطاف فيها نحو ثلاثة أيَّامٍ، ثُمَّ أتى بلدًا يَقْرُبُ ذاك الحرثَ اسمُهَا دِنْكِ دُمْدِ، وترسَّى في مَرْسَاهُ، ثُمَّ بعث إلى إمام البلد وطَلَبَتِهِ وضُعَفَائِهِ وأرملته،[2] وجاءوا

(١) مَسَ كل: وهِمَ هوداس حين ضبط هذا الاسم على (مِسَكُلْ)، والأصحُّ (مَسَ كِلِ)، و«مَسَ/ مانْسَا»: يعني الملك، واللاحقة «كِلِ» بمعنى: واحد، أي: الله وحده هو الملك.

(٢) لعله جمع «أرْملة» على «أرملات»، وهو يريد «أرامل»، وهو الشَّخص المعدم الذي لا يملك ما يقوم به على نفسه، ويطلق على الذكر والأنثى. ينظر: لسان العرب، مادة «رمل».

كلُّهُمْ، وقال لهم: مَنْ يَسْتَحِقُّ هذا الحرث وما فيه؟ وقالوا له: فمَنْ يَسْتَحِقُّه غير مَوْلاهُ يعني أسْكِيَ؟ قال: أنا الَّذِي استحِقُّهُ في هذا العام لنفسي،

[ص٩٦]

وأنَا أتَصَدَّقُ به وأجْعَلُهُ في آخرتي وأتَقَرَّبُ به إلى الله، وهو لكم صدقةً مني لله، فاقْطَعُوهُ واحْصُدُوهُ، وللضُّعَفَاء والمسَاكين منكم الذين لا يجدُونَ سَفِينًا أن يقطعُوا ما يَقِفُ فيه القَدَم، ولأصْحَابِ السُّفُنُ الصَّغَائر ما فَوْقَ ذلك مما يَلِي وَسَطَ الحرْث، ولأصْحَابِ السُّفن الكِبَار وسط الحرث. تَقَبَّلَ الله ذلك منِّي. ورجَعَ إلى بلده وأعْطَى لكلِّ وَاحِدٍ من الفَنَافي مِنْ عند نَفْسِه مَزْرَعَةً يَتَعَشَّوْنَ فيها.

فبَلَغَ خَبَرُ ما فعل في تِلْكَ المزرعة إلى بلد كَاعُ وَفَشَا، وجاء يَعْمُدُ كَرَنْ كَرَنْ خديم أسْكِيَ ومُؤَنِّسُه وقتَ عَشَائِهِمْ في نادي قومه وقال: جَاءني رجلٌ اليوم وأخبرني بأنَّ مَسَكِلِ الله عَبْدُكَ قد أصابه الجنُونُ وتَوَسْوَسَ وجُنَّ. فقال أسْكِيَ: فمَاذَا فَعَل؟ فقال يَجِبُ قَتْلُهُ به إن لم يكُنْ مجنونًا. قال فما هو؟ قال: أتى إلى حَرْثِكَ أبْدَا وأعْطَاهُ لأهل دِنْكِ دُمْدِ وقسَّمها بيْنَهُمْ، فقال إنَّهُ جَعَلَهُ لآخرته، وأسْلَطَ أهْلَ البَلد عليه، ونَزَلُوا فيه وحَصَدُوهُ، وما أبْقَوْا فيه لا قَبْضَةً ولا قَبْصَة ولا حَفْنَة.

وقال جُلَسَاؤُهُ: وهل العُقُوبَةُ إلاَّ على أهل دِنْكِ دُمْدِ؟ وَبَقَوْا يَخُوضُونَ فيه بأقاويل، ومنهم مَنْ يَقُولُ ما جُنَّ، ومنهم من يقول بجنونه، وأسْكِيَ جالسٌ ساكتٌ، ثُمَّ قال: وأنا أقول ما فعل شيئًا ضَرَّني قليلاً إلاَّ ما أجِدُني مِنَ الغَيْرَةِ بأنَّ هذا العَبْدَ بمنْزِلِهِ وفَقْرِهِ وحَقَارَتِهِ يَتَصَدَّقُ بمزرعة تخرج منها ألْفُ صُنِيَّة، فماذا أتَصَدَّقُ به أنا؟ وما طلب من ذلك إلاَّ اسمًا ممدوحًا يَنْفَرِدُ به بين جماعته.

ثُمَّ سكت مليًّا، ثُمَّ نادى بِرَجُلٍ مِنْ خَدَمِهِ وحَشَمِه كان في ذلك المجلس، ونهض الرَّجُلُ قائمًا. وقال: اذهَبْ إلى المرْسَى فَيُعْطِيكَ كُيْمَكُيْ عَشَرَ سُفُنٍ وألْفًا

مِنْ جُلُودِ صُنُون، واذهبْ الآن في هذه اللَّيْلَة إلى مَسَكِلِ الله، فيمْلئ لك هذه

[ص٩٧]

الصُّنِيَّات. وأمر بإخراج الكَمَليَّة الملح وألف كُورِيَّة والقميص الأسْوَد والقَلَنْسُوة الحمراء ومِلْحَفَة سَوْدَاء التي هي عَادَتُهُ عليه. وقال: إنْ أكْمَلَ لك عَدَدَ الصُّنِيَّات كاملاتٍ وَفِيَّاتٍ؛ فادْفَعْ إليه هَؤلاء الهَدَايَا، ثُمَّ أخرج كَلْبَيْنِ من الحديد وسلسلة، وقال: إن لَم يُكْمِلْ هذا العَدَدَ أو نَقَصَ واحدٌ منها فَتَقْبِضُهُ واجعَلْ هذه السِّلْسِلَةَ في عُنُقِهِ والقُيودَ في رجْلَيْه واْئْتِنا به مع جميع ما مَلَك، وإنْ أعطاك ما تَسْألُ منه فلا سبيل لك عليه ولا تَقُلْ له شيئًا، وما كان عليه إلاَّ ألف صِنُون، ولا نَعْرف منه إلاَّ صُنِيَّاتِنَا، ولو كان مِنْ أيِّ حَرْثٍ، وإنْ بِشِرَاء. وسَيَّرهُ في تِلْكَ اللَّيْلَة، وذهب.

ثُمَّ قال ما أراد مَسَ كِل الله إلاَّ أن يَعْلُوَ اسمه عن اسمنا، وإنَّا لا نعطي ألف صُنِيَّةً مَرَّةً واحدَةً، فكيف عَبْدُنَا يفوق[1] عَلَيْنَا في الجود والكَرَم؟ وقال جُلَسَاؤُه: حاشا وهو بنفسه لا يساوي قَطْرَةً من بحر جُودِكَ وكَرَمِكَ، وإنْ شِئْتَ تَتَكَرَّمُ به وبجميع مَا لَهُ مِنَ المالِ. وشَرَعُوا في مثل هذا الكلام، وتَفَنَّنُوا فيه حتَّى أسْكَنُوهُ، وسَكَت.

وذهب الرَّسُول إليه، وسبقَ الخبَرُ عنده بأنْ جاءه رَجُلٌ ووجَدَهُ في مجلسه سُلْطَانًا بين وسادته مُضْطَجِعًا يَسْمُرُونَ عنده، وأدخل ذلك الرَّجُلُ فمه في أذنه والْتَقَمَ أذنه، وأخبره بأنَّ رسول أسْكِيَ يأتيه بالقُيُود والسَّلاسِل يأخذونه، وسارَّهُ بذلك، ونهض جالسًا يرفع صوته قائلاً: وما الَّذِي عَمِلتُ لأسْكِيَ حتَّى يُرسل مَنْ يقبضُني بالسَّلاسل والأغلال، وما دخلتُ له في الفتنة وما خَالَفْتُه قَطّ، فكيف؟ ثُمَّ قال: لا أمَانَةَ بين العَبْد وسَيِّده.

---

(١) في الأصل: يفاقُ.

ثُمَّ أمر في تِلْكَ السَّاعَة بإحضار سَفِينَةٍ وسَبْعَةً من

[ص٩٨]

القدافين، وقام حينَئذٍ مُسْرعًا. ومشى بحاله، ولم يَدْخُلْ دارَهُ، وركب سَفِينَتَهُ وتوجَّه إلى كَاغُ. ومَرَّ بِسُفُنِ أسْكِيَ في تِلْكَ اللَّيْلَة قادمين، وحادَّ عنهم ومرَّ ولم يعرفوه. ومكث لَيْلَتَيْن وقَدِمَ كَاغُ، وكان له هُنالِكَ بيت كُبير وزَوْجَةٌ، وبات في المرسى وما صعد إليها. فَلَمَّا أَصْبَحَ بَكَّرَ قَبْلَ طُلُوع الشَّمْس إلى بيت أسْكِيَ، فتلقَّاهُ البوَّاب وأدخله وأجلسه حتَّى اسْتَيْقَظَ أسْكِيَ.

ودخل المبكِّرُون الذين يفطرون عندَهُ وقْتَ الصَّبُوح، وشاوَرَه البَوَّابُ على المشَاوِرِ، وأتاه المشاور ووقف عليه وحيَّاهُ، وسَلَّم عليه وتحاوَرُوا، ثُمَّ دخل على أسْكِيَ وعَلَّمَهُ به، وسكت طويلاً، ثُمَّ قال له بَعْضُ مَنْ له عِنْدَهُ حَظٌّ: ألا تستأذِنُ لَهُ في الدُّخول فَيَدْخُل؛ فنراه هل هو كما قيل إنَّهُ مَجْنُونٌ فنرى وَجْهَهُ ونسمع كَلامَهُ هل يُشْبِهُ كَلامُه كلام المجنون؛ فأذِنَ له في الدُّخول حينَئذٍ فَدَخَلَ وحَمَلَ التُّراب على رأسه على عادتهم المألُوفَة؛ فقال له أسْكِيَ: ما جاء بك أما تَلَقَّيْتَ برسُولي المبعُوثِ إليك بِقَوَاربي لحمل صُنِيَّاتي؟ فقال: لَقِيْتُ بهم البارحَةَ؛ فأخْفَيْتُ نفسي عنهم؛ لأنِّي سمعْتُ أنَّكَ أرْسَلْتَهُم ليقْبِضُوني ولذلك فَرَرْتُ إليك، إذْ ليس لي مَفَرٌّ منك إلاَّ إليك، ولم أعلم عَمَلي وفِعْلِي. وقال له أسْكِيَ: إنْ ما عَمِلْتَ شيئًا، وأنا ما بعثته لِقَبْضِكَ ولا لتَقْييدك إلاَّ إذا أنْقَصْتَ مِنْ صُنِيَّاتي شيئًا، فإذًا يقبضُوك ويُقَيِّدُوك. فقال: فكيف يمكن أن يَنْقُصَ من صُنِيَّاتِكَ شَيْءٌ وأنا حيٌّ؟ وهذا لا يكونُ أبدًا، ثُمَّ قال: فلا سببَ لقَبْضِي ولا لقَيْدِي إلاَّ لهذا فقط؟ فقال: فليس سواه؛ فَضَحِكَ ورفع التُّراب، ثُمَّ تَوَلَّى خارجًا كأنَّهُ يريد الخروج لداره الكائنة هُنالِكَ، ثُمَّ رجع مُسْرعًا وحمل التُّراب على رأسه، فقال:

[ص٩٩]

إنِّي أطلبُ منك إحدى الأمْرَيْن بحرمة أبيك وحُرْمَةِ قَدَمِهِ التي وقف بها على رَسُول اللهِ ﷺ في المدينة المشرَّفَة، فقال له أسْكِيَ: وما هما؟ فقال أريدُ منك أن تصبر لي عَشَرَةَ أيَّامٍ حتَّى أستريح عند زوجتي الكائنة هنا، فقد طال عهدي بها مُنْذُ عام الأوَّل ما جئتُ إليها، أو تأخُذُ مِنِّي أرُزَّ عام الأوَّل الَّذِي قبل هذا العام، يعني الأرز القديمة. فقال أسْكِيَ ألفُ صِنُون من أرُزِّ عام الأوَّل؟ فقد تَبَيَّنَ جُنُونُك، وأنا الَّذِي أملكُكَ لا أجِدُ في داري مائةَ صُنيَّة من أرُزِّ عام الأوَّل، ثُمَّ قال: قبِلْتُ ورَضِيتُ، وأين كانت؟ فقال: في داري التي كانت هُنَا مَوْجُودَة، فَيُبَكِّرُ رُسُلُكَ إليَّ بجلُودِ صِنُون غدًا. وشكَّ فيه بعضُهُمْ وأبْعَدُوا أن يكون ذلك مَوْجُودَةً له، فقال أسْكِيَ أليس قال يأتي رُسُلِي غدًا، فالغد قريبٌ، إنْ يكذِبْ هُوَ فَالغَدُ لا يكْذِبُ، ثُمَّ ذهب ومشى إلى داره وبات.

فما اسْتَيْقَظ مِنْ نَوْمِهِ إلاَّ ورسول أسْكِيَ عبد الخصِّي، ومعه خمسون عبدًا يحملون جُلُود الصُّنُون معه، وقام من نومه وتوضَّأَ وصَلَّى وأمَرَ لهم بالدُّخُول، وأمر لهم بالفُطُور، ففطروا. ودخل عليه جماعة من أصحابه وغيرهم من المرجفين، ثُمَّ أمر مَسَ كِل الله بعَبْدِه الكبير الكائن بباب داره هُنالِكَ، فَنُودِيَ فأتى؛ فقال له: اذهبْ مع عبيد أسْكِيَ هؤلاء فاكْسِرْ بُعُ[1] التي كانت في المكان الفلاني وعمِّرْ هؤلاء أصنًّا كور.[2]

---

(١) بُع/بُوغُو: كلمة محليَّة بلغة المادينغ، وهي بناء مدوَّر على شكل منارة ولكن لا يتعدَّى ثلاثة أمتار، يبنى على قواعد من الحجارة أو جذوع الشجر؛ ليرتفع عن ظاهر الأرض قليلاً، وتحفظ فيه الحبوب والمحاصيل الزراعية، وتغطى مثل البيوت بالقش. كما تعني أيضًا المحلَّة أو القرية الصَّغيرة، وتضاف إلى أسماء كثير من القرى والمدن في مناطق المادينغ (مثلا: بُونِيُ بُكُ، ص١١٧؛ وجُندبغ، ص٢٧).

(٢) كور: يبدو أنها كلمة زائدة هنا؛ أو أنَّها تصحيف لكلمة (أرز)؛ لأنَّ السياق يستبعد أن تكون بمعنى جوزة كور المعروفة، فإنها لا تحفظ في مثل هذه الحاويات لمدة طويلة. وقد رجَّح =

فذهب وذهب العبيد والخصي معهم إلى تِلْكَ المكان في طرف

[ص١٠٠]

بيته، فكَسَّرَهَا، فإذا هي ملآن بأرُزٍّ تُسَمَّى زَيْفَتَ، وعَمَّرَ مِنْهَا سَبْعَمِائَة صُنِيَّة، وفرغ ما فيها، ورجع العبد إليه وأخبره بفراغ ما في تِلْكَ بُعُ وبما حصل فيها من سبعمائة صُنِيَّة؛ فقال: ارْجِعْ فَانْظُرْ في المكان الفلاني، فكان سمَّاهُ له، في طرف البيت أيضًا، فإنَّ فيه بُعُ، فاكْسِرْهَا وعَمِّرْ منها البواقي.

وذهب ثُمَّ رجع وعَمَّرَ منها ثلاثمائة، وبقيتْ منها شيء. فقال له: ادْخُلْ في البلد واطلبْ جُلُودَ الصُّنُون المبيعات؛ فذهب واشْتَرَى مائتين جلود صنُون وثلاثين، وعَمَّرَها، وأتاه وأخْبَرَهُ، فقال له: ادفَعْ لرسُولِ أسْكِيَ مائةً، واعْطِ لمراسِيلِه عشْرين، واتْرُك المائَةَ البَاقِيَةَ هُنالِكَ، واتْتِنَا بالعشرة، فأتاه بها، فقَسَّمَهَا بين الجالسين هُنالِكَ عِنْدَهُ وبين الفُقَرَاء والمساكين، ثُمَّ قال: صدقةٌ تَصَدَّقْتُ بها جعَلَهَا الله بين أسْكِيَ داوود وبين كُلِّ شَرٍّ، ويُرِيه الله تعالى عَامَ المقبل.

فقال الرَّاوي يرويه عن أبي أمِّه بُكَر (بن) عليّ دِنْتُورُ، قال إنَّهُ حاضرٌ عند مَسَ كِلِ الله حينَئِذٍ وحَلَفَ بالله أنه - أي مَسَ كِلِ الله - ما وقَفَ في مَكانِ عِمَارَة تِلْكَ الصُّنِيَّات، ثُمَّ حلف بُكَر بن عليّ دِنْتُورِ المذكور أنَّهُ ما مِنْ أحدٍ مِنَ العبيد الخمسين الذين حملوا جُلُود الصُّنُون إليه لم يخرج إلاَّ بنحو مائَةِ مُدٍّ على التَّقْدير أو السِّتِّين أو السَّبْعِين، بل منهم مَنْ

[ص١٠١]

أصاب نصف صُنِيَّة.[1] ومَرُّوا عليه به، وما الْتَفَتَ على أحدٍ منهم، ولا بحثَ

= المترجمان هوداس ودولافوس أن تكون هذه الكلمة تعني «كلّ/ جميع» بلغة صونغاي، أو تعني: جعبة من الجلد.

(١) نصف الصنية تعادل مائة كليو تقريبا.

عَنْ أحْدٍ، ورجع مرسول أسْكِيَ الَّذِي هو ذاك الخصِيُّ بعد فَرَاغِهِمْ مِنْ شُغُلِهِمْ، وأخبره بما جرى من حُصُول الصُّنِيَّات وافياتٍ كاملاتٍ بعد صلاة العصر.

ووجَدُوهُ في جماعته، وتَعَجَّبُوا منه كلُّهُمْ، ثُمَّ قال أسْكِيَ: ألم أقُلْ لكم إنَّ هذا العبد قد شبعَ حَتَّى لا يُشَبِّهُ نفسَهُ إلاَّ بنا أو بأولادنا؟ وهذا الَّذِي فعل الآن أعجبُ مِنْ تَصَدُّقِهِ بالحرث الَّذِي يخرج مِنْه ألفُ صُنِيَّة. وقالت الجماعة له: هذا كلُّه ما كانَتْ مِنْهُ إلاَّ بسَعْدِكَ وصَنِيعَتُهُ هذه زيادةٌ في اسمك، وقال بعضُهُم: العبيدُ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ، لا يعْظُمُ أحْدٌ منهم إلاَّ مِنْ عَظَمَةِ سيِّدِهِ، وهو وَرِزْقُهُ رِزْقُ سيِّدِه. وإذا افتخر مَلِكٌ مِنْ أشْبَاهِكَ أو افتَخَرَ سُلْطَانُ كُرْمَ أو أيَرْ أو كَنْتَ أنَّ عَبْدَ مَلِكِهِمْ قد يُعْطِي كذا وكذا، فيُقالُ لهم: عَبْدُ أسْكِيَ أعطى الفقراء ألفَ صُنِيَّة. وتبَسَّمَ أسْكِيَ حينَئذٍ من قوله، وعُرِفَ البِشْرُ في وجهه. قالوا: فَأيْنَ عَطَاؤُكَ مِنْ عَطَاء عَبْدِك وشَتَّانَ ما بين الثُّرَيَّا والثَّرى، وهَيْهَاتَ ما بينهما.

وما تَمَّ كلامُهُم ولم يخرج أحدٌ من الجلساء في ناديه حتَّى دَخَلَ رَجُلٌ من خدم أسْكِيَ عليه ملف ونْدِ محزَّم، وفي يَدِه اليُمْنى سِوَارُ فِضَّة، وقد بعثه أسْكِيَ قبل ذلك إلى بَلَدٍ مِنْ بلاد دَنْدِ. وجاء ووقف قُدَّامَ أسْكِيَ، وجثا على ركبته وحمل التُّراب على رأسه على عادتهم في تحيَّةِ سُلْطَانهم، وحيَّاه تحيَّةَ العَبْدِ سَيِّدَهُ؛ فقال أسْكِيَ داوود له: مَنْ أنْتَ؟ فقال: أنا كارْشَع بُكَر. فقال: أنت مِنْ جُنْدِي ومن عبيدي؟ قال: نعم

[ص١٠٢].

قال: مِنْ أين جئت؟ فقال العبد: سُبْحَان الله! أنَسِيتَ أو غَفَلْت؟ فقال: والله أنت الآن في عيني كأنِّي ما رأيتُك أبدًا. أنتَ من كارْشَع يِبْرَع أو مِنْ كَارْشَعْ كَتَع؟ فقال: من كارْشَعْ يِبْرَعْ، وأنا أكون شَعْ لفلان سمَّاه، فقال: أسْكِيَ من أيِّ بَلَدٍ جئت؟ قال: من دَنْدِ، ألستَ أنتَ بَعَثْتَني؟ فقال: إلى مَنْ وفي أيِّ شيء؟ فقال

العبد: بَعَثْتَني لحمل ميراث خَدِيمِكَ زَنْكُ موسى سَقَنْسار. وقال: هل مات موسى سَقَنْسار؟ وقال له جُلَساؤهُ: غَفَلتَ؟ قد مات وأتاك نَعْيُهُ مُنْذُ شَهْرِ الفُلاني، وموته إلى هذا اليوم يبلغ أربعة أشهُرٍ ونيف.

ثُمَّ سكتَ مليًّا والعبدُ واقفٌ قدامه، ثُمَّ سأله ما الَّذِي رأيتَ مِنْ ماله؟ هل ترك مالاً؟ فقال الرَّسُولُ: هكذا. وقال له: وما ذاك؟ فأراد العبد أن يدُورَ إلى خَلْفِهِ ويسارِهِ ليُنَاجِيَهُ بما وجَدَ له من المال وما أتى به الآن مِنْ ترَكِتَهِ وما بقي هُنالِكَ. فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أذكر لك عَدَدَ المال. فقال: لمَ لا تَذْكُرُهُ في النَّاس جهرًا؟ هل سرقنا؟ قل ذلك يَسْمَعُهُ النَّاس أو تخرج؛ فقال: وجدتُ له خَمْسمائة عَبْدٍ بين العَبْدِ والأمَة، وطَعَامٌ تَرَكَهُ في بُعُوَاتٍ أربعة عشر يكون فيها على التَّقدير ألْفٌ وخَمْسمائة صُنِيَّة،[1] وسَبْعَ سَرَاجِين البقر وثلاثين سراحًا من الغنم، ولباسه، وفرسه وهُنَّ خمسة عشر فرسًا منها سَبْعُ خُيُولٍ أحرار والبواقي من البراذين، وسُرُوجَها وغير ذلك من أمتعة بيته وسِلاحِه وتُرْسِهِ، وثلاثين من بُولُ[2] مُعَمَّرات بحريش. وقال أسْكِيَ داوود: رَحِمَ الله موسى سَقَنْسار وأسبابه،[3] وما يصيب من حُرْمَتِنَا أكثر

[ص١٠٣]

من تركته كلِّها، ثُمَّ سأل الرَّسُول عن العبيد أين كانوا، فقال: أدخلتهم داري

---

(١) بعُوات: جمع (بُع)، عرَّب الكاتب هذه الكلمة هنا، ثم أخضعها لنظام الصرف العربي، وقد سبق بيان معناها في هامش، [ص٩٩]. في كل خزينة حوالي (١٠٧) صنية، أي (٢١،٤٠٠ كلغ، أي حوالي ٢٠ طن في كل واحدة)، وهذا يعطي صورةً تقريبية عن حجم الخزينة.

(٢) بُول: كلمة غير واضحة المعنى، فلعلَّها «فُولُو» (folo) التي تعني (جعبة أو كيس) بلغة الصونغاي. كما يمكن أن تعني (خزينة) بلغة الماندينغ، لكنَّ إشارته إلى أنَّ عددها ثلاثون وأنَّها مملوءة بالسِّهام يُضعف هذا الاحتمال الأخير.

(٣) هكذا في الأصل: (أسبابه) لكن يرجَّح أنه (أشباهه).

وتَرَكْتُهُمْ هُنالِكَ، وداري لا تَحْمِلُهُمْ، فقال: اذهبْ فائْتنا بهم؛ فذهب فأتى بهم أجمعين، حتَّى أوقَفَهُمْ بين يديه، وجاءت معهم أَمَةٌ كبِيرةٌ عَجُوزٌ عَرْجَاء بيدها هِرَاوَةٌ أملَسُ الرَّأْسِ، صَلْعَاء رأسُهَا؛ فقال أسْكِيَ: ما هذه العجوز؟ فقال: هي من جُمْلَةِ الإمَاء، فقال ما فائدتها؟ وقد ظَلَمْتَهَا وأخْرَجْتَهَا مِنْ وَطَنِهَا باطلاً، ولا حاجة بمثل هذه.

فقامَتِ العَجُوزُ وقالت: تَمَلَ تَمَلَ تَمَلَ،[1] حفظك الله وأصْلَحَ لك دُنْيَاك وآخرتك وهنَّأك بملكك. إنَّ رسُولَك هذا ما جاء بي بالقَهْرِ وما سَاقَني، وإنَّما جئتُ لحاجة لي قصَدْتُكَ بها وتَشَفَّعْتُ إليك فيها برَسُول اللهِ ﷺ وبِقَدَمِ أبِيكَ أسْكِيَ مُحَمَّد التي وقف بها في الرَّوضة الشَّرِيفة. فقال أسْكِيَ لتِلْكَ العجوز: قُولي حَاجَتَكِ وما هي؟ قالت الأمة: اعلم أيُّها الملك بأنِّي أَمَةُ زَنْكُ موسى سَقَنْسار، وأنا ظِئْرُه، وأمِّي رضَّعَتْ أباه، وملَكَني أبوه، وملك جدُّه جدِّي. ولي من هؤلاء العبيد من الأولاد والحفائد والأسباط سبعةٌ وعِشْرُون؛ ولذلك طلبتُ بالله منك، إنْ كنْتَ تَبِيعُهُمْ؛ فَبِعْهُمْ لواحد، وإنْ كُنْتَ تُعْطيهم فاعْطِهِمْ لواحدٍ، لا تُفَرِّقْ بينهم.

فَسَكَت مُتَفَكِّرًا، ثُمَّ قال للعجوز: يا أمِّي أين أولادُك؟ أخْرِجِيهم وميِّزي بينهم وبين هؤلاء العبيد؛ فدخلت العَجُوز بينهم وأخْرَجَتْ أولادَها وحَفَائدَها وجاءت بهم، فإذا هم أحسنُ العبيد وأجْمَلُهُمْ وَجْهًا وقَدًّا، ومنهم مَنْ يَزِيدُ ثمنُه على خمسين، ومنهم من يُسَاوي سبعين وثمانين. وقال لها أسْكِيَ: اذهبي بأولادك، فقد حَرَّرْتُهُم وتركْتُهُمْ وَعَتَقْتُهُمْ لله الَّذِي أعطاني خَمْسمائة

[ص١٠٤]

عبدٍ في ساعةٍ واحدةٍ، ولم أتَّجِرْ وَمَا سافَرْتُ وما قَاتَلْتُ مع أحْدٍ في تحصيلهم.

---

(١) تعبير يُقالُ قبل مخاطبة السلطان، وهو واجب في حقِّ الجميع، ولو أبناء السلطان نفسه، ينظر مثلا: [ص١٠٥] الآتية.

وحملت العجُوزُ التُّراب على رأسها، وشَكَرَتْ سَعْيَهُ وأطالت له في الدُّعَاء، ودعا له الجالسون.

ثُمَّ قالت: أريد منك أن تَكْتُبَ لهم الوَثِيقَةَ بِشَهَادةِ هؤلاء الجلَسَاء الصَّالِحين خَوْفَ دَوَرَانِ الزَّمَان وانقلاب الأحوال وتَغَيُّرِ الأمور. وقال: يا أمِّي كلُّ مَنْ يَكْتُبُ الوثيقة لمعتوقه لا يكتبها إلاَّ لخوفي، وإني لا أخافُ أن يَجْتَرِئ أحدٌ مِنَ السُّودَان على موالي. ومن هو؟

فما زالوا في محاوَرَتهم حتَّى دخلَ تاجرٌ في كَاغُ يسمَّى عبد الواسع المسراتي، سمع بإتيان العبيد له، فَوَجَدَهُمْ وقوفًا، ودخل وسلَّمَ، فقال: يا أسْكِيَ هؤلاء الخدَّامُ هُمْ من أرزاقي. بِعْهُمْ لي وأنا أشتريهم، وهم خَمْسمائة بخَمْسَةِ آلافِ مَثَاقِيل تِبْرًا.[1] فقال: والله لا أبيعُهُمْ إلاَّ لِلْخَالِقِ تَعَالى لا لِلْمَخْلُوقِ، وأشتري بهم مِنَ الله الجنَّة، ولي مِنَ العبيد عبد بَرْمَاوِيٌّ الأصل الَّذِي هو مَسَ كِلِ الله، اشترى الجنَّة بألفِ صُنُون، فكيف أنا بذنوني الكثيرة؟ فَسَيَأتي رِزْقُكَ غير هؤلاء إنْ شَاء الله.

ثُمَّ الْتَفَتَ أسْكِيَ إلى أَلْفَعْ بُكَرْ الأنباري[2] وقال له: اكتبْ لأولاد هذه العجوز بأني عَتَقْتُهُمْ وقَطَعْتُ عنهم حَبْلَ الرِّقِّ وتَركتُهُمْ لله تعالى. واستَنْطَقَ الكاتِبُ الأمَةَ العَجُوز بأنْ تَذْكُرَ أسماء أولادها. فكتبه الكاتب ساعَتَئِذٍ في تِلْكَ المجلس بشهادته وشهادات

---

(١) بهذا العرض من قبل المسراتي، يكون ثمن كلِّ عبد (١٠) مثاقيل ذهبًا، وهذا سعرٌ يبدو زهيدًا للعبد الواحد، خاصَّة أنَّه يُعرض على السُّلطان، وأنَّ ابن المختار قد ذكر أعلاه أنَّ من أحفاد المرأة العجوز من يصل ثمنه خمسين، وسبعين، وحتى ثمانين. ولعلَّ المسراتي - بطبيعته التِّجاريَّة - عرض على أسْكيا «سعر الجملة»، أو أن العشرة وما فوقها كانت السعر المتوسط للعبيد.

(٢) يشار إليه في سائر المواضع بلَنْبارُ، ويقال له: «وزير القلم» (السعدي، ص١٢٥).

[ص١٠٥]

مَنْ حضَرَ هُنالِكَ من المعتبرين.

ثُمَّ أقام إنسانًا مِنْ أنَاسِهِ وأمَرَهُ بأنْ يُنادِيَ له مَنْ حضر في البلد من أولاده، فيأتون قبل أن يقوم من مقامه. وذهب ونادى الحاج مُحمَّد بانَ ويَاسِ وإسحاق ومُحَمَّد سُرْكُ ووَنَيْفَرْمَ دَكُ بَرِكُمْ، ولَنْتِنَ فَرْمَ بُكَر، وأتى بهم وحَيَّوْهُ تحيَّةَ الوَلَدِ وَالِدَهُ وتحيَّة الخديم مَخْدُومَهُ، وقال لهم: انْظُرُوا يا أولادي إلى هذه الشِّرْذِمَة القَليلَةَ أخْرَجْتُهُمْ من هؤلاء الجماعة الكثيفة الذين أعطانيهم الله فضلاً منه مجَّانًا، وما اشْتَرَيْتُهُمْ وما أصَبْتُهُم بالقتال، ولذلك أخرَجْتُهُم مِنْ هذه الطَّائفة، وهم سبعةٌ وعِشْرُون، أعْطَيْتُهُم لله وَرَدَّدْتُهُمْ له تعالى شكرًا له على ما أنعم؛ فانظروا بأنَّ الشَّيْخ الكبير كمثلي يقول في ظنِّه إنَّهُ مَيِّتٌ، وأنَّ موته يكونُ قبل ممات الأولاد، فالله تعالى يقدِّم من شاء ويُؤخِّر مَن يشاء. وقد عَتَقْتُهُمْ، فمَنْ رَدَّهُمْ في المِلْكِيَّة بَعْدِي أو ظلَمَهُم بأدنى شيء أو سقى لهم ماءً غصبًا، فالله حَسِيبُهُ والمنْتَقِمُ مِنْهُ يَوْمَ الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْه، ولا يُبَارِكُ اللهُ لَهُ في حَيَاتِهِ وعُمْرِه.

فأجَابَهُ كبيرهم، وهو فَارِ مُنْذُ، فقال: تَمَلَ تَمَلَ تَمَلَ، أطال الله عُمْرَك. إن شئتَ فَاتْرُكْهُم أجمعين لله ولا لك ولدٌ يُبْطِل أفْعَالَكَ، ولا مَنْ يَهْتِكُ حُرْمَتَكَ. حاشا وكلاَّ، بل نحمَدُ الله بك ونَشْكُرُه أنَّ الولد يُطِيلُ بُنْيَانَ والِدِهِ ويُشَيِّدُ أركانَ جُدْرَانِ بيته، وها هو سليمان أخُونا الَّذِي هو أصْغَرُنا سِنًّا إن قطعتَ سَرِيَّةً إلى بلد من بلاد الكُفَّار، لا يبيتُ عنك في هذه اللَّيْلَة حتَّى يَغْنَمَ عشرَةَ آلافٍ مملوكًا أو أكثر. فقد أغْنَانَا الله بِوُجُودِكَ، أطالَ الله بَقَاءَكَ. افْعَلْ ما شئت، جزاك الله خيرًا وأضاف لَكَ ثَوابَ ذلكَ.

ثُمَّ خرجوا، وبعد خروجهم

[ص١٠٦]

نهضَتِ العَجُوزُ قائمةً فقالت: تَمَلَ تَمَلَ تَمَلَ، استَوْدِعُكَ الله إنَّ النَّاس الضُّعَفاء لا يَقُومون إلاَّ بِسَنَدٍ يَسْنِدُ إليه، وأعْلِمُكَ بأن سَنَدِي هو الله، ثُمَّ أنت ومن يَسْتَخْلِفُكَ في هذا الدَّار من أولادك ويجلس مجلِسَكَ بَعْدَكَ، ولا بُدَّ لي مِنْ حَمْلِ غَرَامَةٍ لك تذكِّرُني بذلك، وذلك عشر رؤوس صَابُون في رأس كُلِّ سَنَة.(١) فقال أسْكِيَ داوود وأنا كذلك أحمِلُ لَكِ - لابتغاء عَفْوِ الله تعالى وغفرانه- غرامَةً تَأخُذِيهِ مِنِّي رأس كلِّ سنة، وهي الكَمَلِيَّة الواحدة والملحفة السَّوداء لله تعالى. وأمرَ لذلك في ساعته لها وأعطاها إيَّاها، أي الكَمَلِيَّة الملح والملحفة السَّوداء، فقال: هذه غَرَامَتي تَأخُذِينهُ منِّي في أوَّل شهر الشِّتَاء. وخَرَجَتِ العَجُوزُ بأوْلادِهَا وحَفَائِدِهَا وأسْبَاطِهَا أجمعين.

ثُمَّ الْتَفَتَ إلى رجلٍ مِنْ قَوْمِهِ فقال له: انظُرْ في هؤلاء العبيد، وائتني منهم بسبعة وعشْرين نفسًا. فأتاه بذلك. فأعطاهم أسْكِيَ ألْفَعْ بُكر،(٢) فقال: هؤلاء صَدَقَةٌ مِنِّي لَكَ لله تعالى، ثُمَّ أخْرَجَ مِنْهُمْ سَبْعَةً وعشْرين فقال: هؤلاء أعْطَيْتُهُمْ للمسجد الكبير فأَرْسَلَهُمْ مع رسُولِهِ إلى إمامه وأمَرَهُ أن يَسْتَعْمِلَهُم في خِدْمَة المسْجِدِ الكَبِير، والنِّسْوَة منهم تَنْسُجْنَ حُصُرَ المسجد وفُرُشَه، والرِّجال يحمل بعضُهُمْ الطِّين له ويقْطَعُ له الخشَبَ؛ فذَهَبَ رَسُولُه إلى الإمام.

(١) رؤوس صابون: هنا تداخل لغوي من لغة الكاتب الأم، لغة وعكري؛ حيث يطلقون على القطعة من كل شيء: رأسا. فيقال لقطعة الصابون: (safuna kun)، وهو ما استخدمه ابن المختار هنا حرفيا.

(٢) أسكي ألْفَع: اللَّقب أسكي مُجرَّد لقب إداريٍّ بوصف حامله مستشارًا خاصًّا للسلطان، وإلاَّ فإنَّه لم يشغل منصب أسْكيا. أما لقب (ألْفَعْ)، فهو محرَّف من «الفقيه»، وكان بُكر لَنْبار بمثابة فقيه مستشار شرعي خاصٍّ لعدد من الأساكي.

ثُمَّ قطع منهم سبعةً وعشْرين وقال لرسولٍ آخر: اذهب بهم إلى الإمام أيضًا فقل له هؤلاء صدقة منه عليه جَعَلْتُهُمْ لآخرتي فيَدْعُو لي الإمام بالعفو والغُفْرَانِ، ثُمَّ أمر بسبعة وعشْرين إلى الخطيب مُحَمَّد جَعِيتِ خطيب كاع، وهو قاضي البلد، وأمر مَنْ يَدْفَعُهُمْ إلى يد الخطيب؛ لِيَقْسِمَهُمْ بين المسْتَحِقِّينَ للصَّدَقَة، إمَّا برؤُوسِهِمْ أو بِثَمَنِهِم فيبيعهم ويتَصَدَّقُ بِثَمَنِهم إنْ رأى ذلك

[ص١٠٧]

أصْوَب.

ثُمَّ سبعةً وعشْرين أَمَرَ بهم لشَرِيفٍ هناك يُسَمَّى شريف علي بن أحمد؛ فقال: هؤلاء لله يَقْسِمُهُم للشُّرَفَاء بين نفسه وبين إخوته وبناته، ثُمَّ عزم الشُّرفاء بإعْتَاقِهِمْ أجْمَعِين. فَلَمَّا أعتقوهم أمروهم أن يذهبوا حيث شاءوا من الأماكن، وهؤلاء المعتُوقُونَ هُمُ الشُّرَفَاء الكاذِبُون الذين يقولون في أنفسهم ما ليس فيهم، وأمَّا مواضع مَسْكَنِهِمْ يَنْزِلُونَ في أرْضِ كِرَيْكُرْمَ، وبعضهم في سَيْ فُلاَيْرِ،[1] وبَعْضُهُمْ في قَرْيَةِ كُومو.

ثُمَّ سبعةً وعشْرين فقال للخطيب نفسه، وأرْسَلَهُمْ إليه، ثُمَّ قطع منه مائة ونادى رجلاً من خَدَمِهِ فقال له: اذهَبْ بهؤلاء الطَّائفة إلى القَاضِي العاقب، فَقُلْ له يَشْتَري لي الجنَّةَ مِنَ الله بهؤلاء، فيكُونُ وكِيلِي في اشْتِرَائِهَا مِنَ الله، يَقْسِمُهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وبَيْنَ أهْلِيهِ وذُرِيَّتِه وبين من يَسْتَحِقُّ شيئًا منهم، فقال الرَّاوي هذه المائة هي أصلُ كُلِّ مَنْ كانت في تُنْبُكْتُ من المسَمَّى كَابِبِ.

ثُمَّ لم يَزَلْ يَقْسِمُهَا على عَدَدِ سبع وعشْرين في تِلْكَ العشيَّة حتَّى ما صلَّى

---

(١) الظاهر أنه (سِرْفِلابِير) وهي بلدة مذكورة في [ص٣١]، قيل توجَّه إليها أحد أبناء الشَّريف الصقلي.

المغرب، وفي بيته واحدٌ. فقال له وَنْدُعُ: جاءت الشَّمْسُ وطلَعَت وانْدَرَسَ ومُحِيَ نورُ النُّجُوم وذهب، وقد مَحَا جودُك وكرَمُك كَرَمَ مَسَ كِلِ الله وجُودَهُ، وقد أظْهَرَ الله ذَلِكَ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْس. وشَتَّان ما بين الفيل والفأر.

ثُمَّ نادى مَرْسُولَهُ كَارِشِعَ بُكَر المتقدَّم ذِكْرُهُ واستردَّهُ إلى حمل ما بقي هُنالِكَ من تَرِكَةِ موسى سَقَنْسَار من البَقَرَاتِ والأنعام والخيُول والطَّعام. قال الرَّاوي عن جدِّه أبي أمِّه، وهو حالفٌ بالله إنَّ جميعَ ما جاءهُ مِنَ التَّركة مَا رَفَعَ منه مِثْقَالَ ذَرَّةٍ،

[ص١٠٨]

وما استأثر بشيء، بل تصدَّق بالجميع. وما ترك دارًا في كَاعُ فيها يتيمٌ أو أرامل إلاَّ أدخل فيها بَقَرَةً حَلاَّبَةً أو بقرتين حلابتين أو أكثر، وقَطَعَ مِنْهَا لمؤذِّني مَسَاجد كَاعُ مائَةَ بَقَرَةٍ، وأمَرَهُمْ بالطَّعَام وفَرَّقَهُ بين الفُقَرَاء والمساكين إلاَّ الخيول، قَسَّمَهُمْ لأهل الجيش، وأعْطَى أخْتَ القَاضِي هِنْد ألْفَعْ ألفَ شَاةٍ مِنَ الضَّأنِ والمعز. قالت: رَحِمَ اللهُ أسْكِيَ داوود ومَنْ مِثْلُه؟! انتهت القِصَّة مع خصائله وكراماته الفاشية.

ومن ذلك ما رَوَيتُ عن خالي يَرْوِيهِ عن أبيه ألْفَعْ كعت، أنَّهُ أتاه في بعض السِّنين في كاع، وتلَقَّاهُ بالتَّرحيب وفَرِحَ به غَايةَ الفَرَح، وأضافه وأنزله وأكرمه، وربما يأتيه ليلاً يسمُر عنده إلى قرب ثُلُث الأوَّل من اللَّيل. قال: فنادى ألْفَعْ كعت كاتبه بُكَر لَنْبَار، فجاء، فقال له: أردتُ أن أبعثَكَ إلى أسْكِيَ بحاجةٍ لنا. فقال: أنا رَسُولُكَ بلا شَكٍّ؛ فقال له: قل لأسْكِيَ إنِّي محتاجٌ قَصَدْنَاهُ به، فإنَّ لي أربعَ بناتٍ وخمسة بنين، ويدخل بهنَّ أزواجُهُنَّ، ونطلب منه أربع زرابيَّ وأربع إماء وأربع كلات، وأن يعينني في جِهَازِهِنَّ. وأمَّا البنون أريد لهم العمامة وأريد منه كسوة العام: قميصَيْنِ وعمامتين وقَلَنْسُوَتَيْنِ والدَّابَتَيْن- فرسًا ورُمْكَة عتيقة[1]- ومَزْرَعَة

(١) الرمكة: الأنثى من البراذين، والجمع: رِماك، ورمكات.

وعَبِيدَهَا وبِذْرَها، وأربعين حَلاَّبَة. وذكر أنَّهُ رأى في بلد تُنْبُكْتُ نسخة «القاموس» تُباع،(١) وقد قيل فيه ثمانون مثقالاً، وأوْقَفْتُها في يَدِ صَاحِبِهَا حتَّى آتيك وأطلُبُ منك خَلاصَهَا، وتكون ذلك ذخيرةً لَك عند الله. ومعي أربعٌ مِنْ طلَبَةِ العِلْم، وقد خرق ثيابهم، ونريد منك يا أسْكِيَ ألْفَعْ أنْ تخبره وتُبَلِّغَه رسالتي.

وقال أسْكِيَ ألفع: تأمر أحدَ تلاميذك أن يكتبها لئَلاَّ

[ص١٠٩]

أنسى منها شيئًا. فأمَرَ أحدَ طَلَبَتِهِ، فَكتَبَ وهُو يملي إليه. ورفع أسْكِيَ ألْفَعْ ذلك إليه فقَرَأَهَا عليه؛ فَتَبَسَّمَ فقال: ومن يقدر على إعطاء هؤلاء في دفْعَةٍ واحِدَةٍ إلاَّ أن يصبر؟ فقال له أسْكِيَ أَلْفَعْ: قَدْرُكَ أَعْظَمُ وَرِزْقُكَ أَوْسَعُ مِنْ ما طلبه منك؛ فضحك فقال: إنَّ لكُلِّ قومٍ رئيسًا يُطْلَبُ رِضَاه، وأظُنُّ هذا الشَّيْخ رئيسَكَ، تُرِيد أن تَغْصِبَ مِنِّي مَا تُرْضِيهِ به إنْ رَأيْتَهُ؛ فقل له: يقضي الله الكلَّ إنْ شاء الله.

وما ترك له حاجةً إلاَّ أعطاه إيَّاها في غده. وأعْطَاهُ حرثًا يُقالُ له زَنْكزَع في أرض يُونُ، وعليها ثلاثةَ عشر عبدًا - وهو الَّذِي تخاصَمَ مع كَبَرَ فَرْمَ علُوا عليه - يَحْرُثُونَه له أعطاه الحرث والعبيد وفَنْفَهُم، وأعطاه بِزْرَه(٢) أربعين صُنِيَّة، واشتَرَى

---

(١) أي القاموس المحيط للفيروز أبادي، ويعضد هذا المقال ما أورده إسحاق الوزان بأنَّ أسعار المخطوطات بمدينة تمبكتو كانت تفوق أسعار سائر البضائع؛ فسعر القاموس هذا (٨٠ مثقالا) كان يساوي سعر فَرَسين على ما كان عليه الفرس من غلاءٍ ونُدرة في بلاد السُّودان، وقد سبق [هامش، ص١٠٤] تقدير متوسط ثمن العبد الواحد بعشرة مثاقيل ذهبًا، وقد يرتفع ثمن بعضهم إلى خمسين؛ فها هنا أيضًا دلالةٌ على أهميَّة المخطوطات في المجتمع الصونغائي آنذاك.

(٢) كذا في الأصل بالزاي، وهو بالذال: بِذْر، وجمعه (بُذور)، وهو كل حَبٍّ يزرع في الأرض، و(بزَر) الحبَّ بِزْرًا، أي: ألقاه في الأرض للإنبات، جمعه (بُزور).

له تِلْكَ النُّسْخَة بِثَمَانين مِثْقَالاً.[1] هكذا رواه لنا وَلَدُهُ (رَحِمَهُ الله)، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة والسِّيرة الجميلة.

فانْظُرْ حُسْنَ مُلاطَفَتِهِ مع القَاضِي العاقب عند بناء المسجد الكبير في تُنْبُكْتُ، وقد سعى بَيْنهُما وُشَاةٌ وَتَقَوَّلُوا على لِسَانه ما لم يَقُلْهُ، وأرسل أسْكِيَ إليه أقوالاً لا ينبغي بينهما. فأجابه القَاضِي بأجْوِبَةٍ لا يصبر عليه إلاَّ مثل داوود، فَلَمَّا أتاه أسْكِيَ في سفره إلى مَلِّ وَزَارَهُ في بيته، عليه البَوَّابُ وردَّه، وأبى البَوَّابُ أن يدخل عليه، ووقف أسْكِيَ على بابه على رِجْلَيْه وقوفًا طويلاً، وما استأذن له في الدُّخُول إلاَّ بِشَفَاعَةِ بعض عُلَمَاء البلد وأكابر شيوخه، ثُمَّ أمر بفتح الباب له، ودخل عليه مُتَمَلِّقًا مُتَوَاضِعًا مُتَذَلِّلاً، وكبَّ على رأسه فقَبَّلهُ وجلس حذَاءَهُ مستوفزًا،[2] وهو يَتَخَشَّنُ. وأسْكِيَ يَتَكَيَّنُ حتَّى أرضاه ورضي، وتَوَافَقَا بعد إبَايَةٍ منه وامتناع. وفي سرد تِلْكَ القِصَّة طولٌ تركناه لذلك.

وعادة أسْكِيَ إذا مرَّ على تُنْبُكْتُ في غزواته نزل

[ص١١٠]

محلَّته ما بين كَبَرَ[3] إلى تُعْيَة، وبعد نزوله بيوم أو يَوْمَيْن يَصْعَدُ إلى تُنْبُكْتُ ببعض أكابر جيشه ومَشَائِخَ أقْيَالِهِ، ويَنْزِلُ في بَلْمَع جِنْدِ ويضرب أخْبِيَته[4] هُنالِكَ.

---

(١) ذهب دوبيوس (Dupius) إلى أن المثقال التمبكتي كان يزن حوالي (٤،٥ و ٥،٠ غرام)، فثمانون مثقالا يساوي إذن حوالي (٣٦٠غرام). أما المثقال في العالم الإسلامي، فكان يساوي (٤،٢٥غرام) ينظر: The Cambridge history of Africa, iv, p618

(٢) مستوفز: أي غير مطمئن في جلسته، وهو أن يرفع الجالس إليتَيه، ويضع ركبتيه على الأرض.

(٣) كَبَر: هي مرسى السفن على مشارف تمبكتو، وتختلف عن مدينة كبارا الأخرى التي كانت مدينة علمية وتجاريَّة موازية لتمبكتو، وقد اضمحل شأنها بسبب قيام تمبكتو.

(٤) في الأصل: (خباياته)، جمعا لخباء، وهي الخيام.

ويجد يُوبَ كُيْ وتُنْبُكْتُ مُنْذُ والبَرْبُوشِ مُنْذُ وكُيْرَبَنْدَ مُنْذُ بَنَوا له بيوتًا نوالاً، وينزل هُنالِكَ ساعة، ثُمَّ يَرْكَبُ إلى دار القَاضِي، ويجد القَاضِي قد أحْضَرَ شُهُودَهُ وأعوان الشَّرع وخَدَمَهُ، ويَدْخُلُ عليه ويقوم القَاضِي ويتَلَقَّاهُ بالباب ويصنع القَاضِي لهم شيئًا من المأكُولِ والمَشْرُوب يُرِيدُونَ التَّبرك به. ويأكلون ويَشْرَبُونَ بَعْدَ دُعَاءٍ كَثِيرٍ عَلَى العَادَةِ، ثُمَّ يتَوَجَّهُ إلى المسجد الجامع الكبير، وهُنالِكَ يَتَلقَّاه عُلماء البلد الأجِلَّة وأكابر الأئمَّة كلُّهم يدخلون المسجد قبل قدومه ينتظرونه. ويُشيِّعُه القَاضِي وشُهُودُهُ ويدخلون على الفقهاء في الجامع الكبير، ومنها تكون تحيَّتُهُمْ وسَلامُهم ويدعون له، ثُمَّ يخرج إلى منزله في محلَّته بَلْمَع جِنْدِ، وهُنالِكَ تجار تُنْبُكْتُ وكبراؤها، ويَبِيتُ هُنالِكَ ليلةً واحِدَةً، ويُضَيِّفُهُ النَّاس تِلْكَ اللَّيْلَة ويُهَادُونَهُ الهدايا الكثيرة. انتهى.

فَلَمَّا كان عام مُنَازَعَتِهِ مع القَاضِي في بناء ذاك المسجد حَلَفَ للقاضي أنَّه والله ما ضَرَّهُ شيءٌ من ذلك كلِّهِ سِوى أن لم يجعل له حظًّا، ويترك له بُقْعَةً منها يبنيها ويَنَالُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنَ الله، ثُمَّ دَخَلَ في ذاك المسْجِدِ وأطَاف فيه مِنْ أوَّلِهِ مِنْ جهَّةِ القِبْلَة إلى مغربه، وينتهي بناؤه إلى هذه الرَّحْبَة الكبيرة الواسعة التي يُصَلِّي النَّاس فيه العِشَاءيْن وقت الصَّيْف، وبعده مقبرةٌ كثيرة وقال للقاضي: ما أبْقَيْتَ لي مَوْضعًا! وقال القَاضِي: ابنِ إنْ شِئْتَ سَهْمَكَ على هؤلاء القبور، وكلاهما حَبْسَان ويجوزُ إدخالُ كُلِّ

[ص١١١]

واحدٍ منهما على الآخر.

وقام أسْكِيَ على رجْلَيْه حينَئذٍ فرحًا وخَطَّ برجله على موضِعَيْ هَذَيْنِ الصَّفين الطَّويلين اللَّذين يَلِيَانِ مقبرة سيدي بلقاسم التُّواتي وأصحابَهُ، وقام تُنْبُكْتُ مُنْذُ ومن معه وأمَرَهُمْ بوضع الأساس فيه، وأعطاهم ما أعطاهم من المال، دفَعَهُ بيد القَاضِي العاقب (رَحِمَهُ الله)، إلى غير ذلك من انْقِيَادِهِ للحَقِّ.

ومن ذلك ما رُوِيَ أنَّهُ قدِمَ بعضُ الحُجَّاج من أهل تُنْبُكْتُ وحَوَالَيْهَا في بعض السِّنين. وكان منهم رجلٌ من أهل كَنْتَ، وهو من مماليك أسْكِيَ، وقد حجَّ معهُم. ونزلوا بخارج بلد كاعُ، وعادةُ الحُجَّاج في وقتِ سُنْغُيْ إذا قَفَلُوا ينْزِلُونَ بِخَارِجِ البَلَدِ ولا يَدْخُلُونَ إلاَّ بَعدَ مُشَاوَرَةِ أسْكِيَ واستئذَانِهِ، ويَخْرُجُ أسْكِيَ لِمُلاقَاتِهِمْ ويَأتِيهِمْ بِالكِسْوَاتِ واللِّبَاسِ ويسْألُهُمْ الدُّعَاءَ ويَتَبَرَّكُ بِهِمْ.

فَلَمَّا قَدِمَ هؤلاء الحُجَّاج المذكورون، وذلك في زمن أسْكِيَ داوود، نزلوا بخارج البلد على عادتهم المألوفة، وسمع أسْكِيَ بذلك، ثُمَّ جاءه رَسُولُهُمْ يُبْلِغُهُ رسالتهم، وَوَجَدَ ألْفَعْ كعت عنده. وخرج مع بعض رُؤساء البلد، وأشار للفع كعت بالخرُوجِ مَعَهُ إلَيْهِم وفعل، حتَّى أتوهم. ونزل أسْكِيَ مع مَنْ مَعه، وأتاهم الحُجَّاج، وقام هو بنفسه إجلالاً لهم وتعظيمًا وقبَّل أيديهم. وأقبل الرَّجل الكنْتَوِيُّ الَّذِي تقدَّم ذكرهُ بأنَّهُ من مماليك أسْكِيَ، وقام أسْكِيَ له وهو لا يَشْعُرُ به ولا يَعْلَمُ أصْلَهُ، وصَافَحَهُ وأرَادَ تَقْبِيلَ يَدِهِ، وكان وَنْدُعُ واقفًا على رأس أسْكِيَ وقد كان عرف ذاك الحاجَّ الكَنْتَوِي المذكور وعَرَفَ أصْلَه وأبَوَيْه، وقال: أخرِجْ يَدَكَ مِنْ يَدِ أسْكِيَ! أتُصَافِحُهُ بِيَدِكَ وما خرجْتَ منْ قَوْمٍ يَقْدِرُ على هذا؟ فكيف أنتَ

[ص١١٢]

عبْدُه؟ وما أجْرَأَكَ على مُصَافحة السُّلْطان؟ أخُرُوجُك هذا من مكَّة؟ وأخذ بيده ونزعها من يد أسْكِيَ، وحَلَفَ وَنْدُعُ على قطع يده التي أدْخَلَهَا في يد أسْكِيَ.

وعَظَّمَ القَوْمُ ذلك وتعَجَّبُوا من جُرْأتِه على يد أسْكِيَ بإدخال يَدِهِ فيها، وألْفَعْ كعت بجانب أسْكِيَ قاعدٌ سَاكِتٌ، والْتَفَتَ إليه أسْكِيَ وقال: يا محمود ما تقول في هذه المسألة؟ فما جزاءُ مَنْ جَهِلَ قَدْرَهُ؟ وقال ألْفَعْ كعت: إلاَّ أن تُقْطع يَدُه وهذا أوْلى به. فقال له أسْكِيَ: أنْشُدُكَ بِالله، هَلْ يَجُوزُ قَطْعُ يَدِهِ على هذا؟ فقال كيفَ لا يجوز قَطْعُ يَدِ مَنْ وقف عرفة وطاف الكَعْبَة ووضعها على الحجر الأسْوَدِ، ثُمَّ

وضَعَهَا على الرُّكن اليماني ورَمَى بها الجمْرَتَيْن، ثُمَّ زار الرَّسُول ﷺ ووَضَعَهَا على مَقْعَدِ رَسُول اللهِ ﷺ من منبره الشَّرِيف، ثُمَّ دخل في الرَّوْضَةَ المشَرَّفَةَ، وَوَضَعَهَا عَلَى شَبَكَتِهِ، وَوَضَعَهَا على قبر أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، ثُمَّ لم يَكْتَفِ بهذه المزايا والفَضَائِلِ والمحامدِ كُلِّهَا، حتَّى أتاك يُصَافِحُكَ بها لتُعْطِيهُ غَرضًا قليلاً حثيثًا من أغراض الدُّنْيا؟ بل حقُّ هذه اليد أن يضنَّ صاحِبُهُ بها ويحْفَظَهَا من النَّجَاسَة، ولا يرضي أن يُصَافِحَكَ بها. فَلَمَّا صَافَحَكَ بها ظننَّاها خُتِمَتْ لها بسُوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك.

فَلَمَّا أصغى داوود لكلامِه؛ نهض إلى ذاك الحاجِّ الكَنْتَوِيِّ والدُّمُوع تسيلُ

[ص١١٣]

وتقطُرُ من عينه ويقول: يا وَيْلَنَا، وقد أضْلَلْنَا اننا لييس الا نسن،[1] وقَبَّلَ يَدَهُ وأعطاهُ مِائَةَ ألْفٍ[2] وأمَرَ بونْدُعُ ونُزِعتْ عِمَامتُهُ على رأسه، ولَطَمُوهُ وَسَجَنَهُ وَعَزَلَهُ مِنْ مَكَانِهِ ذلك، ثُمَّ قال له: تركْتُكَ بِحُرْمَة يَدِكَ وَتَرَكْتُ في قبِيلَة أبيك خمسين رجلاً وخمسين رجلاً من قبيلة أمِّك، وأسْقَطْتُ عنهم مِنْ وَظَائِفِ السَّلْطَنَة، ثُمَّ قال للفع كعت: ولَوْلا العُلَمَاءُ لَكُنَّا من الهالكين. فجزاك الله عَنَّا خيرًا.

ثُمَّ رَجَعُوا إلى البَلَدِ، فَلَمَّا رَجَعَ لِدَارِهِ أرسل للفَعْ كَعْت عَشَرَةَ أثْوَابٍ وخمسة عبيدٍ، وقال: هذا جزاؤك لما دخلتَ بَيْني وبين مَعْصِيَة الله وغَضَبه، أعُوذُ بعَزَّةِ الله وقُدْرَتِهِ من ذلك.

---

(١) اننا ليس الا نسن: هكذا ورد في الأصل، وهي غير مفهومة، وإن كان المترجمان قد ترجماها بقولهما: «que mon age ne le comporte je suis plus us»، أي: إنني طاعنٌ في السِّن ولا أتحمَّله، ويبدو أنَّ هذا المعنى غير مرادٍ هنا. نرى أنَّ الأقربَ إلى الصِّحة أن تكون: إنَّنا لَبِئسَ الإنسان؛ لأنَّه في معرض التَّلاوُم، والتَّحسُّر على نفسه.

(٢) الظاهر أنه يعني مائة ألف ودَع؛ إذ لا يمكن أن يكون ذهبا أو غيره.

ومناقب أسْكِيَ داوود وإحسانه مع طلبة العلم وحميد سِيَرِهِ مع الرَّعِيَّةِ أكثَرُ مِنْ أنْ يُؤْتَى ببعضه، فكيف بكُلِّه؟ وفي تتَبُّعِهِ طُولٌ.

ومن تَلَطُّفِهِ وتَوْقِيره العُلَماءَ والصَّالِحين وصَبْرِه عَلَيْهِمْ، ما حكاه لي بعضُ أشيَاخِنَا ما جرى بينه وبين الفقيه أحمد بن مُحَمَّد بن سعيد سبط القَاضِي محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ حين أتاه مع السَّيِّدَيْنِ الفَقِيهَيْنِ مُحَمَّد بَغَيُغُ وأخيه أحمد ابنيْ القَاضِي محمود بغيع (رَحِمَهُم الله) في كاع، حين أمر أسْكِيَ داوود بأن يَتَوَلَّى أحْدُهُما قَضَاءَ جِنِّ. وألحَّ عَلَيْهِمْا في ذلك،[1] وتَشَفَّعَ فيهما النَّاسُ، وأبى وشَدَّد في ذلك، حتَّى هربا ودخلا المسجد وأقاما به شُهُورًا، ويأتيهم رُسُلُ أسْكِيَ كلَّ يوم، إلى أن عفا عنهما، ثُمَّ قال: لا عَفْوَ حتَّى يأتياني إلى كَاعُ ونَتَبَرَّك بِرُؤيتِهِمَا؛ فخرجا

[ص١١٤]

إليه، وخرج معهما إليه الفقيه أحمد بن مُحَمَّد بن سعيد المذكور، حتَّى أتوه، ووَافَقَ إتْيَانُهُمْ إليه بيوم الجمعة، وأتاه الفَقِيهُ أحمد بن مُحَمَّد بن سعيد وحْدَهُ، وترك الشَّيْخَيْن المذكُورَيْنِ بالمرسى أي مَرْسَى كَاعُ، ودخل عليه وألفَاهُ في مجلس الجمعة على عادتهِمْ، وعَبِيدُهُ الخِصْيَانُ واقفون على رأسه، وكانوا نحو سبْعِمِائة، وعلى كلِّ واحدٍ منهم لبَاسُ الحرير. وإذا أراد أسْكِيَ أن يَبْصُقَ أو يَتْفُلَ، أسرع إليه بعض الخصيان ويَبْسُطُ له كُمَّهُ ويَبْصُقُ فيه، ثُمَّ يمسَحُ فَاهُ مِنَ النُّخَام. ودخل الفقيه، وتلقَّاهُ بالتَّرحيب، حتَّى كاد أن يَقُومَ لملاقاته، إلاَّ أنَّهم إذا جَلَسُوا على سريرهم في ناديهم يوم الجمعة أو يوم العيد لا يقومون لأحْدٍ، ولا يجْلِسُ أحْدٌ مَعَهُ على

(١) في الأصل بدون همزة، وأصله: ألحَّ في المسألة، والمصدر: إلحاح، أي واظب عليه. ومثله في ص١٢٠؛ ١٥١.

سريره،[١] ثُمَّ أمر بإخراج النَّاس فأُخْرِجُوا؛ ليَخْلُوَ بذاك الشَّيْخ، فَلَمَّا انْفَرَدَ به قام إليه وحمل حصير الصَّلاة بيده وأفْرَشَهُ له وأجْلَسَه عليه، وحمل إليه الوِسَادَةَ، وقَبَّلَ يَدَهُ وَمَسَحَ وَجْهَهُ بها.

ثُمَّ أخبره بمكان الشَّيْخَين بالمرسى، وفَرِحَ بهما وتبَشَّرَ، ثُمَّ أمَرَ أسْكِيَ ألْفَعْ بُكَر لَنْبَار وهَيْكُيْ أن يأتِيَهُمَا هُنالِكَ. وأسْرَجَ الفَرَسَيْن يقودهما[٢] إليهما ليركبُوهما، وفعلوا. وسمَّى لهم بيتًا ينزلون فيه.

وبقي الفقيهُ أحمد عنده يتَحَدَّثَان، فقال له الفقيه أحمد: عَجِبْتُ منك حين دَخَلْتُ عليك، وما حَسِبْتُكَ إلاَّ مجنونًا رَذِيلاً سَفِيهًا حين رأيْتُكَ تَبْصُقُ في أكمَامِ قمْصَان، والنَّاس يحمِلُونَ على رُؤُوسِهِمْ التُّراب لك؛ فضحك أسْكِيَ وقال: ما كنتُ مجنونًا، أنا بِعَقْلِي، ولكن كنتُ رئيس المجانين الفَاسِقِينَ المتكَبِّرين؛ ولذلك جعلتُ نفسي مجنونًا وأدخَلْتُ الجنَّ على نفسي تخويفًا لهم لئلاَّ يَتَعَدَّوا على المسلمين.[٣]

[ص١١٥]

ثُمَّ أمَرَ بطعَامِه، ونَاشَدَ الفقيه أحمد بالله أن يأكل معه؛ فأجَابَ فَأكلَ ثَلاثَ لُقُمَاتٍ، ثُمَّ أمسك، ثُمَّ أمر بخيله فَسُرِجَ وبِفَرَسٍ آخر للفقيه أحمد ليركبَهُ، فأبى الرُّكوب، فمَشى على رِجْلَيْهِ معه حتَّى أتَيَا مَنْزِلَ الشَّيْخين الَّذِي أمرَ بإنزالهما فيه، ودَخَلَ الفقيه أحمد، ثُمَّ دخل أسْكِيَ، وكبَّ على رأسِهِمَا يُقَبِّلُهُمَا، وحَيَّاهُمَا

(١) قد تكون هذه عادةً خاصَّة بيوم العيد والجمعة، أو أنَّها عادة مستحدَثة بعد إيغال سلاطين صونغاي في الأبَّهة، وإلاَّ فقد سبق (في ص١١) أنَّ أسكيا الحاج محمد، كان يجلس معه على سريره الشُّرفاء، وأنَّه كان يقوم للعلماء والحجَّاج ويأكل معهم [ص١١].

(٢) في الأصل: (يقادهما).

(٣) في أصل الكتاب بإثبات النون: يتعدون.

بأحسَنِ تحيَّةٍ وإكرام، إلى آخر القِصَّة مع ضِيَافةٍ عَظِيمَةٍ وزيارتهما كلَّ لَيْلَةٍ إلى رُجُوعِهِمَا بالمنَحِ التي زوَّدهما بها.

ثُمَّ انظر إحْسَانَهُ وتجلَّتَهُ أيضًا مع الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ جدِّ سيدي أحمد بابا بن أحمد. من ذلك ما ذكره أحمد بابا نفسه في ترجمة والده المذكور قال: ولما مَرِضَ أي والدُه أحمد المذكور (رَحِمَهُ الله) في كَاغُ في بَعْضِ أسْفَارِه، وكان السُّلْطَان الأعظم أسْكِيَ داوود يأتيه بلَيْلٍ يَسْمُرُ عنده حتَّى برئ تَعْظيمًا لما ذكر. وقفْتُ على ذلك في «كِفايَة المُحْتَاج».

قيل قرأ عليه بعض العُلَماء قوله عزَّ وجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾. وسأله عن تفسيره، فَفَسَّرَهُ له، وكان له فَرَسٌ عتيقٌ سَوْدَاءُ الرُّكبة وقَميصٌ سُوسِيٌّ عالٍ أزْرَق، وأمر بالفرس فَقِيدَ إلى مجلسه، وقال: ليس في مِلْكِي خيلٌ أحبُّ إليَّ من هذا الفرس، وهذا النَّوع في الخيول أحبُّ إليَّ من جميع أنْواع الخُيُول، وكذلك القَمِيصُ السُّوسِيُّ العَال الأخْضَر أحبُّ اللِّباس إليَّ. وأعطاهما القارئ المفسِّر انتهى.

وإنَّ لداوود قِصَصًا في الإحسَانِ وقد تَرَكْنَا منها الكَثِيرَ خوْفَ التَّطويل والإطناب. وكان يُرسِلُ للقاضي العاقب بن محمود كلَّ عامٍ أربعةَ آلافٍ صُنِيَّة ليقسمها على مساكين تُنْبُكْتُ. وأقام لمساكين تُنْبُكْتُ جنانًا فيها ثلاثون عبدًا اسمه «جِنَان المساكين».

وكان منصورًا في غَزَوَاتِهِ، وغزا غَزَوَاتٍ كَثِيرة،

[ص١١٦]

وانتهى إلى سور بَنْتَنْبَعَ. ولكنَّه هو الَّذِي ابتدأ ميراثَ الجنْدِيِّ، وقال إنَّهم عبيدُهُ. ولم يكن قبل ذلك، ولا يُورِثُ من الجند إلاَّ فَرَسَهُ وترسه وحَرِيشه فقط لا غير.

وأَمَّا أَخْذُهُم بَنَاتِ جُنْدِهِمْ وجَعْلُهُنَّ سَرِيَّةً، فَمُصيبةٌ تقدَّم زَمَنَ مُلْكه. فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون.[١]

وكان إذا جلَسَ مَجْلِسَهُ جاء رَجُلٌ كلَّما أراد أنْ يَتْفُلَ مدَّ إليه كُمَّه فَيَتْفُل فيه. وكان إذا ركب يمشي معه رَجُلان يأخذ أحْدُهما قَرَبُوس سَرْجِه على يمينه،[٢] والآخر على يساره. ويضع يده اليمنى على رأس الَّذِي على يمينه واليُسْرى على رَأْسِ الَّذِي بِشِمَالِهِ، وتَبِعُوهُ في ذلك أولاده.

وقد خرج من الكَنْفَارِويَّة مِنْ بَلَدِ تَنْدِرْمَ إلى أسْكِيَويَّة، وَوَلَّى الكَنْفَارِويَّة لِكَسْيَة وهو الزَّغْرَاني، ولبِثَ فيه كَسْيَة ثلاثَ عَشَرَة سنة،[٣] ثُمَّ أخلفه أخوه يعقوب في الكَنْفَارِوِيَّة، ولبث فيه سبعة عشر سنة، ثُمَّ مات وخَلَفَهُ ولَدُهُ مُحَمَّد بُنْكَنَ في الكَنْفَارِوِيَّة، ولبثَ فيها أربع سنين. وعلى هذا الحساب تكون مُدَّة سَلْطَنَة داوود ثلاثًا وثلاثين سنة، وقيل أربعة وثلاثين وشيءٍ قَلِيل.

وفي تِلْكَ العام أعني عام الثَّالث والثَّلاثين[٤] قتل أسْكِيَ داوود مُحَمَّد الشَّرِيف ابن مُزَاوِر خطأً. وأسفًا لذلك. وندم وخاف عُقُوبَةَ ذلك، ثُمَّ لم يَزَلْ يبكي أيَّامًا (رَحِمَهُ الله)، ثُمَّ عزم على صوم الدَّهر، وسأل بعْضَ علماء زمانه، وهو محمود

---

(١) سبقت في هامش [ص٦٩]، الإشارة إلى أن هذه العادة كانت منذ عهد ملوك مالي، ويبدو أنها امتدَّت إلى عهد أسكيا الحاج محمد أيضا وأبنائه. لكن في نطاق بنات الجند؛ لأن الجند كانوا بمثابة عبيد للسلطان؛ ففي موقف بين أسْكيا وبين بَرَكُيْ منْس كُورَ بالمدينة المنورة أثناء حِجَّتهما ووقوفهما بالشبكة الشريفة دلالة على ذلك، إذ رجاه منس كور بقوله: «ولا تجعل بناتي في الدَّار إلاَّ بالنِّكاح، فقال: فعلتُ».

(٢) قرَبوس: ج. قرابيس، هي حِنْوُ السَّرج، وهي الحديدة أو الخشبة التي يضع فيها الفارس رجله حين يركب.

(٣) في الأصل: (ثلاثة عشر سنة)، ومثله (سبعة عشر سنة... وأربعة وثلاثين) في الفقرة نفسها.

(٤) أي في العام الثَّالث والثَّلاثين من سلطنته، وبالتحديد عام (٩٩٠هـ)، وكان ذلك بعامٍ قبل وفاته.

جَعِيتِ خطيبُ كَاعُ، وألْفَعْ كعت، وأسْكِيَ ألْفَعْ بُكَر لَنْبَار، وشريف علي بن أحمد، وأنا حاضرٌ أي القَاضِي إسماعيل كعت، وكَاعُ زكريَّاء بن أحمد، ووليُّ الله يَا جَوَرَ بن وليِّ الله صَالِح جَوَرَ

[ص١١٧]

ويوسف بن مُحمَّد تُلِ- عمَّا يفعل في الاستغفار لهذا الذَّنب العظيم. فقالوا له: أنْ تَفْزَعَ إلى رَسُول اللهِ ﷺ وتهرب إليه وتدْخُلَ في حُرْمَتِه وتَسْتَشْفِع به ويشفعه الله فيك. وإذا لم تقدر على هذا؛ فَلَكَ دِيَةٌ في الشَّرع، وهذا هو الرَّأي عنْدَنَا أنَّ للشُّرَفَاء تَعْظيمًا وإجلالاً عند الله، فكيف عند النَّاس، كما قال ﷺ: «إيَّاكُمْ وذُريتي، فَمَن آذاهُم فقد آذاني» إلخ.[1]

ثُمَّ قال أسْكِيَ داوود: سَمِعْنَا وأطَعْنَا؛ ولكن ضعُفَ بَدَني ووَهَنَ عظمي، وقلَّت حياتي وقرُبَتْ مَنِيَّتي، ولكنْ نُعطي قيمةَ الدِّية ثلاثين نفسًا، إنْ شاء الله. والْتَفَتَ إلى أخي المقتول ساعتئذٍ، وهو ابن القاسم بن مُزَاوِر الشَّرِيف الوَنْكَرِيِّ، وسأله عن ما يحبُّه من المال؛ فقال ابن القاسم المذكور: العبيد عندنا خيارٌ. وقال داوود: وهل تحبُّ الزَّنَاجِيِّين من جهَّةِ أَرْضِكَ؟ وقال نعم.

وأعطاه ثلاثة من أماكن الزَّناجِيَّة وكلَّ مكانٍ يساوي بمائتي أنفس. أمَّا اسم المكان الأوَّل بُونِيُ بُكُ يجاور قرية تَوْتَلَ[2] من أرض تَنْدِرْمَ، ورئيسُهُم يَوْمَئِذٍ أنْكَنْدَ بن بَلَ مُودِ، وكُرَيْ بن غَيْكُ، وإنما أصْلُهُم من بقيَّة غنيمة بلد مُوشي حين أرَقَّهُمْ الحاجُّ (رَحِمَهُ الله) بعد كَسْرِهم. وأمَّا اسم المكان الثَّاني كِرُني بُلُنْغُ من أرض شَابُكُ بجوار بلد سِينِ، ورئيسُهُم يَوْمَئِذٍ جَعْجِي بن كُيْمِي بُكَر، وتَلَقَ بَرْبُوشِ، وإنما

(١) لم نعثر على هذا الحديث بالرواية المذكورة، وإن كانت هناك أحاديث بالمعنى المذكور.
(٢) يكتب أحيانًا: تَوْتَل [ص٣٢]، وتَاوْتلة [ص٩٣]، وطَوْتَل [ص١٥٠].

أصلُهُم من بقيَّةِ غَنِيمَة أسْكِيَ مُحَمَّد حين أرق أهل بلد كُسَاتَ من بلاد المغرب بعد كسرهم. وأمَّا الثَّالث اسمه حجر الصُّغرى من بلاد بُرْكُ، يلقِّبُونهُ بِيَثِكِ، وعند بعضهم كاجِلْ، في أرض ماسُعُ، ورئيسُهُمْ يَوْمَئِذٍ بُكَر جِعَنْ، وسِيرِ بن قاسم، وإنما أصْلُهُم حين أَرَقَّ أهلَ كَلَنْبُوت. انظُرُوا. فقال أسْكِيَ داوود فتَعْلَمُ أنَّهُ مؤمنٌ بالله ورسوله.[١]

وله مِنَ الأوْلادِ مِنْ بين الذُّكور والإناث ما يزيدُ على إحدى وستِّين، لأنَّ أولادَهُ أكْثَرُ من أولاد أبيه.[٢] وقيل الأولادُ الأطفال الذين ماتوا له أطفالاً أكثرُ من

[ص١١٨]

ثلاثين. ومِمَّنْ تَوَلَّى السَّلْطَنَة من أولاده عشرة: أسْكِيَ الحاج، وأسْكِيَ طَفَ وهما شقيقان وما عرفنا من الشَّقِيقَيْن دَخَلا أسْكِيَوِيَّة قطُّ سواهما، وأسْكِيَ مُحَمَّد، وأسْكِيَ إسحاق، ومُحَمَّد كَاعُ، وأسْكِيَ سليمان،[٣] وأسْكِيَ نوح، وأسْكِيَ هارون لَنْكَتَيَع، ومُحَمَّد شُرْكُ إيجِ، وأسْكِيَ الأمين. وما عرفنا من الملوك من تَوَلَّى له عشرة من الأولاد السَّلْطَنَة سوى داوود وحده.

ومن أولاده أيضًا: كُرْمِنَ فَارِ مُحَمَّد بُنْكَنَ، وكُرْمِنَ فَارِ صالح، وكُرْمِنَ فَارِ الهادي، وبَلْمَع صادق، وبَلْمَع حامد. ومن أولاده أيضًا مَارَنْفَ عيسى، وبَنَفَرْمَ دَكُ

(١) يبدو أنَّها جملة مقحمة هنا، ويبدو أن محلَّها بعد الحديث المعزوِّ إلى النَّبي ﷺ: «إياكم وذريَّتي»، وتُعدُّ جملة: «فقال أسكي داود» زائدة.

(٢) يَكاد هذا يعارض ما ورد سابقًا [ص١٤] حسبما ورد على لسان السيوطي، قال مخاطبًا للأسكيا الحاج: «ولكَ أبناء كثير نحو مائة رجل»، ويظهر في هذا السياق أنَّ أولاد أسكيا الأب - الذكور وحدهم - أكثرُ من أولاد ابنه أسكيا داود. وقد يُفسَّر هذا التَّعارض بأن الرواية الأولى واردة في الجزء الذي يعتقد أنه مدسوس على الكتاب.

(٣) أول السلاطين تحت الغزو المغربي.

كَم إجِ، ولَنْتِنَ فَرْمَ بُكر، ودَعَيْ فَرْمَ سِنَ،[1] وهو أعْوَر العين، وعمر كُمْزَاغُ، وعمر كَتُ، وكارَ فَرْمَ بُكر،[2] ويَاسِ، وهارون وُلْد فَاتَ طُرُ، ووَنَيْفَرْمَ زكرياء، وعَلُوا واكِ، ووَرْكِيَ فَرْمَ حماد، وأرْيَفَرْمَ عليّ كُلْمِ. وهؤلاء الذين حفظنا من أولاده الذُّكور.

ومن الإناث فكثيرةٌ ومنهنَّ: كاسَ (زوجة جِنِّكُيْ مَنَبَعْلَ)، وأرْحَمَة كَرَوَيْ، وبِنْتَ (زوجة مَقْشَرَنْ كُيْ) ماتَتْ ببلد تُنْبُكْتُ، وأرِيَوْ (أمُّ القَاضِي بوزُ كان قاضيًا في لُولُعْ)، وصفيَّة (زوجة سيدي سالم العَصْنُونِي والد الحسن كاتب الباشا)، وأمَةُ الله (زوجة الخطيب دَرَامِ)، وعائشة كِيَمَرِ (زوجة القَاضِي محمود كَعْتِ)،[3] أرحَلَهَا إلى تُنْبُكْتُ

[ص١١٩]

وماتَتْ في عِصْمَتِه، وألَيْمَةَ، ووَيْزَ (أمُّ هانِئ).

ثُمَّ مات أسْكِيَ داوود (رَحِمَهُ الله) يَوْمَ الثُّلاثاء سَابع عَشَر رجب عام إحْدَى وَتِسْعِينَ وتِسْعِمِائه، وقَبْرُهُ بِكَاعُ وَرَاءَ قَبْر أبيه.

---

(١) دعي فرم: أي الوزير المكلف بالمصاريف.

(٢) كار فرم: أي الوزير المكلف بتنفيذ العقوبات الجنائية.

(٣) من الصَّعب قبول هذا الخبر بهذا السياق؛ لأنَّ محمود كعت كان في السَّادسة والثَّمانين من عمره يوم تولى أسكيا داود السلطة، لأنَّه كان في سن الخامسة والعشرين حين تولَّى أسْكيا الكبير السلطة (عام٩٠٠هـ)، ويُستبعد أن يكون هذا الزَّواج قبل تولِّي داود السلطنة أو في السَّنوات الأولى من حكمه، وقد سبق [في ص١٠٨-١٠٩] أن محمود كعت أتاه مرَّة والتمس منه العون في تزويج أربع بنات له، والظَّاهر أنَّهما لم تكونا من بنات عائشة كَيَمر، وإلاَّ لم يكن داعٍ لمحمود كعت أن يتكلَّف مسألة أسْكيا، وهو صهره، فقد كانت زوجته عائشة تكفيه مؤونة سؤال والدها حسب العُرف في مجتمعات بلاد السُّودان، ويبدو في سياق القصَّة أيضًا أنَّ علاقة أسكيا داود بمحمود كعت كانت علاقة رسميَّة، ولم ترق إلى علاقة المصاهرة. ويمكن الخروج =

الباب الثَّاني عشر

أسْكِيَ الحاج وقاضي تُنْبُكْتُ العاقب

ثُمَّ تَوَلَّى الأمرَ بَعْدَهُ ابنُه أسْكِيَ الحاج في ذلك اليوم قبل دفنه. وكان الحاج رجلاً مليحًا لحيانًا مَهِيبًا ذا مُرُوءة. ولم تَطُلْ مُدَّتُه، ومَكث في السَّلْطَنَة أربع سنين وخمسة أشهُرٍ وعشرة أيام. وكان في أيَّامه رَخَاءٌ وسَعَةٌ في المعيشة.

وفي شهر ولايته غزا أهلَ وَكَدُ،(١) وقَتَل فَرَنْ وَكَدُ وسَبَوْا ذراريهم وجميع أموالهم وزَنَاجِيَّهُمْ إلى كَاع، وهؤلاء الزَّنَاجِيُّون الذين يتكلَّمُون بلغة وَعْكُرُيْ، ثُمَّ أفْلَتَ من الأسارى رجلٌ زنجيٌّ اسمه مامِ كُو إلى تَنْدِرْمَ وعند كُرْمِنَ فَارٍ؛ فوَجَدَ هُنالِكَ رجلاً زنجيًّا اسمه تُثِيَمَ وأولادَهُ، ونكح بنت تُثِيَمَ، وهذا المذكور آنفًا هو جدُّ أهل كُلِّ مَنْ يُسَمَّى أهل كُرْمِنَ من الزَّناجِيَّة بَاشِ فَرْمَ، وكانوا يجتمِعُونَ على موضِعٍ من البحر يُسَمَّى سَنْشِرْكُيْ في اصطياد حيتان دُعْ. وإنما يأكلون أهل سُنْغُيْ غَرَامَتَهُمْ، ولكنَّ حَبْلَ عُبُوديَّتِهِمْ للشُّرفاء إلى هلمَّ جرى.

وفي مدَّتِه ولي القضاء للقاضي عمر بن القَاضِي محمود بعد وفَاةِ القَاضِي

= من كل ذلك باعتماد قول مَن ذهب إلى وجود أكثر من شخصٍ باسم محمود كعت، وأنَّ كعت المذكور هنا، هو عينه المذكور في [ص٨٢]، وأنه ولد في عهد أسكيا الحاج محمد. وقد وقع المترجمان هنا في حيرةٍ؛ فأرادا التَّخلُّص منها بترجمة جملة «وماتت في عصمته» بأنَّها توفيت دون أن يمسَّها (sans avoir été touchée par lui) وهذا المعنى غير مفهوم في هذا الموضع.

(١) وَكَدُ/ وَغد :(Wagadu) هي التسمية المحليَّة لمدينة غانة، وهي مرادفة لقُنب: أو كومْبي صالح .(Kumbi Saleh)

العاقب بمدَّةٍ نحو سنة وخمس أشْهُرٍ، وكانت ولايتُهُ عَشِيَّةَ يوم الخميس سَلْخَ المحرَّم فَاتِحَ عامِ ثلاثٍ وَتِسْعِينَ وتسعمائة. ومكث القَاضِي عمر فيها ثمان سنين.

وكان أسْكِيَ داوود يتمَنَّى السَّلْطَنَة من بَعْدِهِ لولده مُحَمَّد بُنْكَنَ، ودبَّرَ فيها وُسْعَهُ، أبى الله إلاَّ

[ص١٢٠]

أن يكون الحاج هو القائِمَ بَعْدَهُ، وأُمُّهُ مِن كايْ. وقيل كان يَتَكلَّمُ بكلام الكَهَنَة، ويخبر بما في الغيب، ويوافِقُ أكثَرُ أقْوَالِهِ بمقادير الله.

ومن ذلك أنَّهُ كان في مجلس قَوْمِهِ وبِطَانَتِهِ ودُخَلائِه وغيرهم، والزَّمَّارون يَزْمرون بين يديه، ثُمَّ سكت طويلاً، ثُمَّ تنفَّس الصُّعداء، ثُمَّ قال: يَدْخُلُ علينا الآن رَجُلٌ منْ أهل بيتنا وولد أبينا، ولا يسبقه في الدُّخُول علينا أحدٌ، وهو أشْقَى إخْوَتِنَا، ويكونُ آخرَ سَلاطِينِنَا، وتكون مدَّةُ سلطنته كلِّها إحدى وأربعين يومًا، وفَنَاءُ قَبِيلَتِنَا بسُنْغُيْ يكون على يده، يُهْلِكُ نفسَهُ وَمَنْ معه، ثُمَّ فاض الدُّمُوعُ من عَيْنَيْه، وما تمَّ كلامه حتَّى دَخَلَ أخُوه مُحَمَّد كَاغُ، ولم يَسْبِقْهُ إليه داخِلٌ، وحيَّاهُ، ثُمَّ جلس والْتَفَتَ إليه وقال: يا مُحَمَّد أنشُدُكَ الله، إنْ أصَبْتَ السَّلْطَنَة إحدى وأربعين يومًا أتحبُّها؟ وسَكَتَ ولم يُجِبْهُ، ثُمَّ سأله وألحَّ عليه. وقال: أحبُّها. وقال: خُذْهَا وهو سَهْمُك، والله لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ. ووافق بما قَدَّرَهُ الله ومَقَادِيرُ الأمُور بِيَدِه، ومَصْدَرُهُ عَنْ قَضَائه.

ومما حُكِيَ عنه أيضًا أنَّهُ كان له فرسٌ عتيقٌ أشْهَب، فنزل به ضررٌ شديدٌ، وصرعه ونَحِلَ جسمه ولا يستطيع على الجلوس فكيف القيام؟ حتَّى انْسَلَخَ شَعْرُ جَنْبِه الَّذِي كان يضْطَجِعُ عليه، وأنْتَنَ وخرج منه الدِّيدَانُ، وتأذَّى أهلُ بيته بِشِدَّةِ نَتْنِهِ، وأشار إليه بعضُ أصحابه بأن يأمر بإخراجه وجَرِّهِ إلى المزبلة؛ لئلاَّ يصْعُبَ

إخْرَاجُ ميته، وضَحِكَ منه فقال: أتَحْسَبُ أنَّهُ يَمُوتُ في هذا المرض؟ لا والله وقد بقي من عُمْرِه بَاقِيَة، وقال صَاحبُه: لم يَبْقَ له في الدُّنْيا نَفَسٌ، ومن وقف عليه الآن يجده مَيْتًا. وقال: والله ما مات! وعلى هذا الخيل إن شاء الله

[ص١٢١]

أركبُ يَوْمَ أَدْخُلُ في دار سَلْطَنَتِنَا، ولا تَشُكَّ، ثُمَّ عوفي وشفاه الله وعاد على ما كان عليه من القُوَّةِ والصِّحة، ووافَقَ قَوْلُهُ بما كتب الله في سابِقِ عِلْمِه، وعليه كان سَرْجُهُ يوم تَسَلْطَن، ودخل في دار المملكة وهو يركب عليه، فَسُبْحَان مَنْ يُحْيي العِظَامَ وهي رَمِيمٌ، وعنده مَفَاتِحُ الغيب لا يعلمها إلاَّ هو.

ومات في مُدَّتِهِ الفقيهُ القَاضِي العاقبُ بن القَاضِي محمود بن عمر (رَحِمَهُ الله)، وهو أعظم قُضَاة تُنْبُكْتُ عدلاً واجتهادًا، ولم يَتَوَلَّ بَعْدَهُ نظيرُه، ثُمَّ لا يكون أبدًا. ومولده -كما قال أبو العَبَّاس أحمد بابا في ترجمته من «كِفايَة المُحْتَاج لمعرفة من ليس في الديباج» - عام ثلاثة عشر بعد تسعمائة. وتوفي في شَهْرِ رَجَب عام إحْدَى وَتِسْعين. ومَنْ أرَادَ مَعْرِفَتَهُ ومعرفة مَنَاقِبِهِ وَقَدْرِهِ وسِيرَتِهِ المحمُودة وكَوْنه مُسَدَّدًا في أحكَامِهِ ثَبْتًا فيها، صليبًا في الحقِّ لا تَأْخُذُه في الله لَوْمَةَ لائِمٍ، فَلْيَقِفْ على ترجمته في «كِفايَة المُحْتَاج».(١) ومنه يُعْرَفُ فَضْلُه، وأنَّهُ حَجَّ، ثُمَّ رجع وشرع في بناء المسجد الجامع. وفي سنة تسع وثمانين وتِسْعِمِائَةٍ شَرَعَ في بِنَاءِ مَسْجِد سَنْكُرَيْ، (رَحِمَهُ الله).(٢)

---

(١) ذكر القاضي أحمد بابا في كتابه «نيل الابتهاج» أنَّه كان إذا رأى ما يكره؛ عزل نفسه عن القضاء وسدَّ بابه على نفسه، فلا يزالون يلاطفونه حتى يرضى ويعود إلى القضاء. (حرف العين).

(٢) مسجد سنكورَيْ: منسوب إلى الحي الذي يقع به، وهو المسجد الجامع الثاني بتمبكتو، يقع على تلَّة في الشمال الشرقي من المدينة، طوله بحوالي خمسين مترا، وعرضه ٢٥ مترا، وارتفاع منارته خمسة عشر مترا. وسَنْكِرِي (بكسر الكاف والراء) قرية وراء كوكيا من جهة نهر دند (السعدي، ص٧٩).

وأخبرني بعض الشُّيُوخِ أنَّهُ لما حَجَّ وأرادَ الانْصِرافَ والقُفُول إلى تُنْبُكْتُ اسْتَأْذَنَ خَدَمَ الكعبة المشَرَّفَة أنْ يحدَّ الكعبة ويَكِيله بِقَدَمِه طولاً وعرضًا، فأذنوا له، وكَالَهُ بالحَبْل طُولاً وعرضًا بطوله وعرضه، وجاء بالحبل المكيل. فَلَمَّا أراد بناء مَسْجِد سَنْكُرَيْ، أخرج ذلك الحبل وكَالَ تِلْكَ العرصَة التي أراد بناءه فيه على

[ص١٢٢]

الأوتاد على جِهَّاتها الأرْبَع، وبنى عليها. وهو على مِقْدَارِ الكَعْبَة، ما زادَتْ وما نَقَصَتْ عليها بِشَيْءٍ، ثُمَّ لم أسمع ذلك من غير الشَّيْخ الَّذِي أخبرني به، وبَقِيَ في نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ من ذلك،[1] والله أعلم.

ثُمَّ رجع لبناء مسجد سُوق تُنْبُكْتُ، وهو آخرُ بنيته (رضي الله عنه). وأنفق في بناء هذه المساجد الثَّلاثة ما لا يَعْرِفُ نهايَتَهُ إلاَّ الله تعالى، فجَازَاهُ الله أحْسَنَ ما جازى به مَنْ أحسَنَ عَمَلاً.

وحَدَّثَنِي بعضُ من أثِقُ بِروَايَتِه أنَّ الحاج الأمين كَانُو سَأله حِينَ كان في بناء الجامع الكبير: كم يكون نَفَقَةُ البِنَاء ونهايته في يومٍ عليك؟ فقال سبعًا وستِّين مِثْقالاً إلاَّ ثلثًا. فقال الحاج الأمين: أريد منك أن تُسَامِحَني وتُؤْثِرَني أن أحمل نَفَقَةَ غَدٍ؛ فَرَضِيَ له، وفرح الحاجُّ الأمين بذلك وسُرَّ به. فَلَمَّا أصبح في غَدِه، نادى أشَرَعْ مُنْذُ ودفع إليه سبعًا وستِّين مثقالاً إلاَّ ثلثًا ليبلغه للقاضي، وأعطى أَشَرَعْ مُنْذُ ألْفَ وَدَعٍ ومائة كُورِيَّة،[2] وقال له: أردتُ منك أن تُبَكِّرَ عليَّ غدًا؛ لتأخذَ مني نَفَقَتَهُ ولا تُشَاوِر القَاضِي حتَّى تَقْبِضَهَا إليه فرَضِيَ بذلك، ثُمَّ أصبح وبكر إليه، ودفع له سبعًا

(١) يتضِّح في أسلوب سرد هذا الخبر تشكيك ابن المختار فيه، وذلك لأنَّ مساحة الكعبة (٢٤) ذراعًا وشبرا، وعرضها (٢٣) ذراعًا وشبرا، وهذا أقلُّ بكثيرٍ من مساحة المسجد الجامع بتمبكتو، ولعلَّ الكاتب هنا يخلط بين الكعبة والمسجد الحرام.

(٢) أي ثمرة الغورُ، وقد سبق الحديث عنها [في هامش، ص٣٩].

وستِّين إلاَّ ثلثًا، ثُمَّ أعطاه ألفَ وَدع ومائة كُورِيَّة، ثُمَّ قال له: إنْ قَبَض هذا منك؛ فارجِعْ إليَّ غدًا في مثل هذا الوقت، وذهب به إلى القَاضِي العاقب. فقال: هذا ممن؟ فقال: مِنَ الحاجِّ الأمين. فقال: إنَّ الَّذِي قَبَضْنَاهُ بالأمس كفَاهُ؛ فَتَوَقَّفَ في أخذه، ثُمَّ أخذها.

فَلَمَّا أصبح من اليوم الثَّالث

[ص١٢٣]

بَكَرَ عليه ودفع له سَبْعًا وستِّينَ إلاَّ ثُلثًا، وألف ودع ومائة كُورِيَّة. فقال: على مَنْ قَبَضْتَ هذا؟ فقال: مِنَ الحاج الأمين. فقال: ارجعْ إليه وانْتَهِرْهُ، وَرَدَّهُ بها؛ فَرَجَعَ إليه أَشَرَعْ مُنْذُ بذَهَبِهِ فأخبره بما قال، وركب الحاج الأمين إليه وحمله في قلمون بُرْنُسِه وصَبَّرهُ ولاطَفَهُ بالقول، وقال له القَاضِي: هناك رجالٌ لا يحبُّون أن يُزَاحِمَهُمْ أحدٌ في نَفَقَةِ هذا البِنَاء، وهُمْ يتَنَافَسُونَ في ذلك، ثُمَّ قَبَضَهُ منه بَعْدَ إبَايَتِهِ وامْتِنَاعِهِ، ونهاهُ عَنِ العَوْدَةِ إلى مثل ذلك؛ فرَضِيَ لَهُ عنه. وقد يَكُونُ الرِّجَالُ الذين ذكر أنَّهُم لا يُحِبُّونَ أن يزَاحِمَهُمْ أحدٌ أراد به نفسه. وكان القَاضِي العاقب رجلاً صالحًا حَافِظَ القُرآنِ مَلِيحَ الصَّوْتِ، وكذلك أسْكِيَ داوود وابنه أسْكِيَ الحاج.

وكان ذاتَ يوم من أيَّام تَوْلِيَةِ أسْكِيَ الحاجِّ وَرَدَ كتابٌ من عند الشَّرِيف الحسني علي بن مولاي أحمد بن عبد الرَّحْمَن من بلد مُرَّاكُش إلى القَاضِي العاقب العادل القائم من أمر الله. فَإنَّهُ سمع بأنَّ كُرْمِنَ فَارِ وإخوانَهُ يأخذون الغرامة على زنَاجيَّتِنَا تُثِيَمَ وأولادِهِ، وهم زاعمون بأنَّ أسْكِيَ هو الَّذِي أمَرَهُمْ بذلك، ونحن لم نُصَدِّقْهُمْ في ذلك، فإنْ كانوا صادقين فأسْكِيَ قد سمعنا أنَّهُ ذَهَبَ إليكم؛ فاسأله أيُّهَا القَاضِي العاقب. فهل يظنُّ أسْكِيَ أنَّ له قُدْرَةً على ظُلْمي، لأنَّ تُثِيَمَ وأولاده وحفائِدَهُ وأولادَ مَمِي كُو وحفائِدَهُ وهؤلاء المذكورُونَ ولائِدُنَا، ما مَلَكَهُم أسْكِيَ قَطُّ حتَّى الآن. فوجد أسْكِيَ حاضرًا عند القَاضِي؛ فقال: والله لا أعلم بذلك

شيئًا، ثُمَّ أمر مَرْسُولَهُ ساعَتَئِذٍ إلى تَنْدِرْمَ عند كُرْمِنَ فَارِ بأنْ يُسْلِمُوا أمْرَهُمْ بِسَبَبِ النَّبيِّ ﷺ. انظر هذا فَتَعْلَمُ أنَّهُ سالم الصَّدْر انتهى.

ومن عدله وصلابته في الحقِّ ونزاهته عن مُسَامَحَةِ مَنْ حَادَّ عن الحقِّ

[ص١٢٤]

خوفَ لومَةَ لائِمٍ قتْلُهُ مُؤَذِّنَ الجامع الكبير المسَمَّى عبد الله وُلْد كُنْكَيْ. وكان هذا المؤذِّنُ حضر يومًا بمجلس يُمْدَحُ فيه النَّبيُّ ﷺ، وهو يوم الجمعة بِبَيْتِ الشَّيْخ النَّحْوي أبي حفص عمر كُرَيْ بن العلامة أبي العَبَّاس الحاج أحمد ذي الكرامات بن محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ (رَحِمَهُ الله). وقد اتَّخَذَ عَادَةً أن يَمْدَحَ النَّبيَّ ﷺ في بيته بِحَضْرَة الجمَاعَة بعشْرينيَّات الفَازازي وتخميسها لابن مهيب،[1] فكانوا يمدحُونَ بها حتَّى مَرُّوا بقول المُخَمِّس: «هُو الوَبْلُ وَيَعْلُو أنْ يُقَاسَ بِطَلِّهِ». فقرأ عبدُ الله المذكور: الوَيْلُ، فقلَّب باءه ياءً مع شَكْلِ كلٍّ بحركة الأخرى؛ فراجَعَهُ في ذلك مَنْ سمعه منه، ولم يَرْجِعْ عمَّا قرأه به؛ فرافَعُوا أمْرَهُ إلى القَاضِي العاقب الصَّادع بالحقِّ الَّذِي لا يخافُ في الله لَوْمَةَ لائمٍ، ابنِ الشَّيْخ القَاضِي الوَرِع الزَّاهد الَّذِي انتشر فضلُهُ في الآفاق القَاضِي محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ، فأمَرَ بأخذِهِ، فَسَمِعَ به فَخَرَج هاربًا إلى بعض القُرَى مِنْ بلاد أَتِرِمْ من إنُنْ ونْدَعْدَكَرْ وكُنْدَام، ثُمَّ رجع كامنًا حتَّى ظفروا به بعد عامٍ إلى آخره.

---

(١) العشرينيات أو ديوان الوسائل المتقبلة في المدائح النَّبوية لأبي زيد عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد الفازازي الأندلسي (ت٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م)، نظمه عام (٦٠٤هـ)، بقرطبة، ومعه تخميس الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن مهيب المغربي، ويُعرَف هذا الكتاب بديوان القصائد العشرينيَّات؛ ويعرف ببلاد غرب أفريقيا باسم مؤلفه محرَّفًا «فجاجي»، شرحه القاضي عمر بن محمد أقيت وسمَّاه «شرح تخميسات العشرينيات الفازازية»، ولكنه لم يكمله. والبيت المشار إليه هو: هُوَ الوَبْل يَعلو أنْ يُقاسَ بِطلِّهم - غنيٌّ بمولاَهُ عن النَّاسِ كُلِّهِم - فخاطرُهُ لله منهمْ مُفَرَّغ، ص١٠٤، المطبعة الميمنية، ١٣٢٢هـ.

وفي مُدَّة أسْكِيَ الحاج وَلِيَ القَضَاءَ الفَقِيهُ القَاضِي عمر بن القَاضِي محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ بعد وفاة القَاضِي العاقب بنحو سنةٍ وخمسة أشْهُرٍ، وتَعَطَّلَ القَضَاءُ في تُنْبُكْتُ سنةً وخمْسَةَ أشْهُرٍ. وقام الإمامُ مُحَمَّد بَغَيُغُ (رضي الله عنه) بالصُّلْحِ بين النَّاس دفعًا لما بدا في النَّاس في ذلك الزَّمَان المفتَّرَة من الخسَارَةِ وأكْلِ بَعْضِهِمْ أمْوَالَ بَعْضٍ وتَضْيِيعِ أمْوَالِ الأيْتَام.

وكان إذا صلَّى الصُّبح يجلسُ بباب مسجد سيدي يحيى، ويحضُرُ بعضُ طلبته، ويقول (رَحِمَهُ

[ص١٢٥]

الله): مَنْ له حَقٌّ على مَن امْتَنَع به فَلْيَأْتِ، فَجَعَل النَّاسُ يَأتِيهِ بِدَعْوَاهُمْ ويحكم بينهم فَيَأمُرُ ويَنْهى ويَسْجُنُ ويضْرِبُ مَنِ اسْتَحَقَّ الضَّرب. وتَكَلَّمَ فيه المرْجِفُون وأهلُ الفساد والسُّفَهَاء، ويقولون: انظُرُوا هذَا الرَّجُل، يَعْنُون هذا الشَّيْخ مُحَمَّد بَغَيُغُ، الَّذِي يزعم أنَّهُ لا يحبُّ الدُّنْيا وأنَّهُ زاهِدٌ وهو يُحِبُّ الرِّئَاسَةَ وجَعَلَ نَفْسَهُ قاضيًا، وما استَقْضَاهُ أحَدٌ، فربَّمَا يجد في محلِّهِ كَتْبَةَ النَّاسِ ويقولون فيه: مَنْ أمَرَكَ بهذا يا مُحَمَّد بَغَيُغُ؟ ويَشْتُمُونَهُ فيه، والعيَاذُ بالله. ويَرْفَعُه ويقرأه ويتَبَسَّمُ ويقول (رَحِمَهُ الله): وقد تَعَيَّنَ ذلك علينا، ويَسْأَلُنَا الله عَنْ كُلِّ ما تَضِيعُ في هذا الزَّمان، ولا نبالي لَوْمَ أَحْدٍ فيما تَعَيَّنَ علينا، وعِنْدَنَا عِلْمُهُ، ونخاف ونَترك حقَّ الله، ونِقْمَةُ الله أشدُّ؟ وربما يجد هُنالِكَ خُطُوطَ بعض الكُبَرَاء المشَارُ إليْهِمْ بالعِلْم بمثل ذلك، ولا يَلْتَفِتُ إليهم إلى أنْ قَدِمَ القَاضِي عمر بن القَاضِي محمود.

ولم يكن إبايةُ أسْكِيَ الحاج على تقديم القَاضِي إلاَّ لِسَبَبٍ وَقَعَ بينَهُمَا، ولذلك أبى أن يُقَدِّمَهُ، ولم يقدِّمه إلاَّ بتكرار رُسُلِ مُحَمَّد بَغَيُغُ المذكور إليه وكُتُبِه لَدَيْه يَزْجُرُه ويأْمُرُهُ بِتَقْدِيمه، وما عرف أهلُ تُنْبُكتُ بذلك إلاَّ بعد ما أتاهُ رسول أسْكِيَ

المذكور قائلاً لأهل تُنْبُكْتُ: لولا شفاعَةُ مُحَمَّد بَغَيُغُ لا نُقدِّم القَاضِي عمر، ولا نَسْتَقْضِي أحدًا فيهم ما دُمْتُ حيًّا في هذه السَّلْطَنَة. وعند ذلك تَبَيَّنَ فَضلُه وأنَّهُ لم يُرِدْ تَوْلِيَةَ القَضَاء. (رَحِمَهُ الله ورضي عنه)، فنِعْمَ الرَّجُلُ، آثَر الله عَنْ غَرَضِهِ. ومكث القَاضِي عمر في القضاء ثماني سنين.



الباب الثَّالث عشر

أسْكِيَ مُحمَّد بان(١)

ثُمَّ قام أسْكِيَ مُحمَّد بان بن أسْكِيَ داوود على أخيه الحاج فَعَزَلَه. وتَوَلَّى السَّلْطَنَة في المحرم عام خمْسَةٍ وَتِسْعِينَ وتسعمائة. ونفى الحاج

[ص١٢٦]

إلى تُنْدِبِي بعد ضَعْفِه بِعِلَّةٍ لازِمَة. فما لبِثَ بعد عَزْلِه فَمَات.

ومكثَ أسْكِيَ مُحمَّد بان في السَّلْطَنَة سنةً وأرْبَعَةَ أشْهُرْ وثمانِيَةَ أيَّامٍ، وكانت

(١) محمد بان: ينقل هذا الاسم في غياب الضَّبط بالحركات مثلَّثًا، أي بالحركات الثَّلاث على النُّون (Bana/Bani/Banu)، والأرجح أنَّه بالفتح (بانَا)؛ إذ قد ورد في مخطوطٍ لرسالة أبي زيد القيرواني نسخه للأسكيا محمد بانا ناسخٌ يدعى أحمد بن أبي بكر بن علي بن دنبسل (عام٩٩٥هـ/ ١٥٨٥م)، ونصَّ فيه على اسم أسْكيا بـ«أبي عبد الله محمد بان» وأردف النَّاسخ ذلك بتجنيس فقال: «بنى الله الإسلام والمسلمين على يديه، وبنى له في جنانه غرف (كذا) من فوقها غُرف»، فيغلب الظَّن أن هذا التَّجنيس قد سوَّغ للناسخ بين (بان) والفعل (بنى)؛ لكونهما على إيقاعٍ واحد. هذا وفي نَسخ رسالة أبي زيد القيرواني للأسكيا عدَّة دلالات، منها: اهتمام السَّلاطين بالعلم، وحرصهم في المدارسة على الرُّغم من ظروف الحكم ومشاغله، ويغلب الظنُّ أنَّ دراسة رسالة أبي زيد القيرواني كانت سنَّة متَّبعة لدى سلاطين صونغاي، فقد سبق أنَّ أسكيا داود كان يدرسها على يد شيخ يأتيه بالقصر، ويمكن كذلك تلمُّس بعض ملامح نظام الحكم بصونغاي، وتشكيل رؤية سياسية بها، انطلاقًا من هذا الكتاب المهمِّ في الفقه المالكي ببلاد السُّودان الغربي. ينظر المخطوط المذكور في: John O. Hunwick, "West African Arabic Manuscript Colophons I: Askiya Muhammad Bani's Copy of the Risala of Ibn Abi Zayd", Sudanic Africa, p124-130"

في أيَّامه غلاءٌ وقَحْط. وتُوُفِّيَ يوم السَّبت ثالث عشر جُمادى الأولى عام ستٍّ وَتِسْعِينَ وتسعمائة في مَحَلَّتِهِ بالبَيْدَاءِ بِقُرب تُنْدِبِي قاصدًا إلى تُنْبُكْتُ، بعد أن اعْتَقَدَ للمُسْلِمِينَ الشَّر بسبب حُبِّهِمْ لأخيه بَلْمَع صادق.[1] وكفى الله المسلمين شرَّهُ. نقلتُ هذا كُلَّهُ مِنْ «دُرَر الحِسَان» مِنْ عَزْل أسْكِيَ الحاج وطلوع مُحمَّد بانَ إلى وفاته.[2]

وسبب الشَّر الواقع وأمَّا سبب الشَّر الواقع بين أسْكِيَ مُحمَّد بان بن أسْكِيَ داوود وبين أخيه بَلْمَع صادق: وذلك سبب فنَاءِ سُنْغُيْ وفَتْحِ بابِ الشَّرِّ بينهم، وسبَبُ فَسَاد مُلْكِهِمْ وقَطْعِ سِلْكِ نِظَام دَوْلَتِهِم، إلى أن نَزَلَتْ مَحَلَّةُ أهْل مُرَّاكُش بهم إلى هَلُمَّ جَرًّا.

وقصَّةُ ذلك على ما حكى بعضُ شُيُوخِهِمْ الموثَّقِين أنَّ كَبَرَ فَرْمَ كان غُلامًا لأسْكِيَ على عادَتهم،[3] ومَسْكَنُ بَلْمَع ودارُ سَلْطَنَتِه هي كَبَرَ. وكَبَرَ فَرْمَ مُوكَّلاً بالمرسى وسفن المسافرين يأخذ من كل سفينة غرامة من الدَّاخل والخارج، وبَلْمَع يكون سُلْطَانًا على الجنْدِيِّين. وكلُّ واحِدٍ منْهُمَا على طريقه.

وكان كَبَرَ فَرْمَ عَلُوا هذا ظَلُومًا غَشُومًا خَصيًّا فاجرًا مُسَيْطرًا جاهلاً جبَّارًا عنيدًا، سُرِق مِلْحَفَةٌ بعض جَوَاريه اسمها كُنْكَيْ، أظنُّها كنْكَي أم طُرْكُي بُرِ. واتُّهِمَ

(١) ورد هجاء اسمه عند السعدي في أكثر من موضع بـ«سالِكُ» وهو تحريف واضحٌ لـ(صادق)، ويبدو أن تسميته بسالك كانت أكثر شيوعا. (السعدي، ص١٢٤؛ ١٢٦؛ ١٢٧).

(٢) هنا اختصار يثير شكوكًا لدينا في احتمال سقوط جزء من الرواية خاصَّة بعد تنصيص ابن المختار على أنه «قد نقل هذا كلَّه من درر الحسان».

(٣) يشير ابن المختار هنا إلى عادة أخذ الملوك أبناء الزُّعماء التَّابعين لهم؛ ليكون أولئك بمثابة رهائن في قصورهم تأكيدًا لتبعيَّة آبائهم للسُّلطة المركزيَّة، وقد كان بعض أولئك الشباب الأمراء، بحكم تربيتهم على الفروسيَّة وعلى الإدارة والسياسة، ومعرفتهم الميدانيَّة بمجريات الأمور بالقصر، ينقلبون على الحكم المركزيِّ فيطيحون بالسلطان كما حدث لملوك مالي على يد علي كُلُن.

خديمُ بَلْمَع بِسَرِقَتِها، وسمع كَبَرَ فَرْمَ بذلك، وبعث مَرْسُولَه إلى بَلْمَع صادق يَذْكُرُ له بأنَّ غُلاَمَهُ سَرَقَ مِلْحَفة جَارِيَتِهِ. إمَّا أنْ يأخُذَهَا منه أو يُرْسِلَهُ إليه لِيَتَوَلَّى سُؤالها منه؛ فسَأَلَ غلامه عنها وحَلَفَ إنَّهُ لم يرها بعينه، لا سيَّما أن يسرقها.

[ص١٢٧]

وذكَرَ كَبَرَ فَرْمَ أنَّهُ لا يُصَدِّقُ إنْكارَهُ حتَّى يأتيه الغُلامُ بنفسه ويعذِّبَهُ إلى أنْ يَرُدَّهَا، وأبى بَلْمَع على ذلك وامْتَنَع، وكان ذلك بَيْنَهُما في ذلك اليوم خُصُومَةٌ عظِيمَةٌ، ويمشي بَيْنَهُما الرُّسُل بالشَّتم والكلام القبيح، إلى أنْ ظَفِرَ كَبَرَ فَرْمَ بذلك الغُلام المتَّهَم على غَفْلَة وخَطَفَهُ رُسُلُ كَبَرَ فَرْمَ وحملوه إليه. فأمر كَبَرَ فَرْمَ بِضَرْب الغُلاَم مائَةَ جَلْدَة،[1] وثَقَّفَهُ بالحديد في سِجْنِه. ولما سمع بذلك بَلْمَع نهض إليه بِرِجْلِه، ومَعَهُ فِتْيَانُ دَارِهِ وبِيَدِه حَرِيشٌ كَبِير، حتَّى دخل عليه نِصْفَ النَّهَارِ وهَجَمَ عليه. ونهض كَبَرَ فَرْمَ قائمًا، وقَبَضَهُ بَلْمَع وَلَطَمَهُ وسقَّطه على الأرض وطَعَنَهُ بحَرِيشِهِ الكبير تحت إبْطِهِ وقطع قلبه، وسقَّطه ميتًا، وأمَرَ بِغُلاَمه المسْجُون؛ فَانْحَلَّ من قُيُودِه. وأمَرَ بِقَفْلِ دياره. وأمر بالميت، فَجَرُّوهُ بِرِجْلِه إلى خَارِجِ بَيْتِه، ورُمِيَ هُنالِكَ، وحازَ بيتَهُ بما فيه من الأموال.

وخاف عُقُوبَةَ أسْكِيَ بذلك، وبعثَ رَسُولَهُ إلى أخيه كَنْفَارِ صالح بن أسْكِيَ داوود، وهو بتَنْدِرْمَ، وأخبره بما فعل، وأنَّهُ خرج في طاعة أسْكِيَ مُحمَّد بان وخَلَعَ عَنْ بَيْعَتِه، وأمر أخاه كَنْفَارِ صالح بالمجيء إليه مع جَيْشِهِ وأهْلِ جُنْدِهِ؛ لِيَتَّفِقَ معه

(١) بالإضافة إلى حكم القضاة الَّذِي كان حكمًا شرعيًّا بامتياز، فإنَّ هذه الفقرة تشير إلى عموم الحكم بالشَّريعة الإسلاميَّة بصونغاي؛ فاتِّهام الخادم بسرقة ملحفة الخادمة، فيه تهمة ضمنيَّة متلازمة بعلاقته المشبوهة بها، لكن الطَّريقة المتسرِّعة في تنفيذ حدِّ الزنا في الغلام فيها أيضًا استفزاز مبطنٌ لسيِّده بلمعْ صادق.

ويذْهَبَانِ إلى أسْكِيَ مُحمَّد بان بن أسْكِيَ داوود ويَعْزِلانِهِ ويَتَوَلَّى كَنْفَارِ صالح سَلْطَنَةَ أسْكِيَ ويكون سُلْطَانًا ويُوَلِّيهِ كَنْفَارِويَّتَه .

وأتاه رسُولُهُ وأخْبَرَهُ وحَضَّهُ وحَثَّه على الخروج مَعَهُ وأجابه فرحًا مسرورًا، وجمع جَيْشَه، وتَبِعَهُ بَرَ كُيْ ودِرْمَكُيْ، وخرج بجَيْشٍ عَظِيمٍ. وأخبر من سمع من مُحَمَّد بِنْيَعْتِ الحدَّاد أنَّهُ قال: عَدَدْتُ مَنْ خَرَجَ معه مِنَ الفُرْسَان واحدًا بعد وَاحِدٍ، فكانوا أربَعَةَ آلافٍ وَسِتَّمِائة، وأمَّا الرِّجَالُ فلا يحسب ولا يعدُّ كثرةً. تَوَجَّهُوا إلى بَلْمَع صادق في كَبَرَ حَتَّى نزلوا بطُعْيَة، وبعثَ إلى بَلْمَع بِقُدُومه.

[(ص١٢٨)]

وخرج بَلْمَع للِقَائِه، وتَلَقَّوْا هُنالِكَ، ومَعَهُ قومُه وأصْحَابُه وجَيْشُه، وكان بَلْمَع لابسًا يَوْمَئِذٍ دِرع الحديد، وجعله شعارًا، ولَبِسَ فَوْقَ ذلك قَمِيصًا سُوسيًّا أخْضَر دثارًا، وسَيْفُه في عُنُقِهِ، وحِزَامُهُ في وَسَطه.

وخرجا من جماعتهما يَتَنَاجَيَان ويتَحَدَّثان، وحَدَّث له بَلْمَع بِكَيْفِيَّة قَتْلِه كَبَرَ فَرْمَ وسبب قتله، وعقدا الرَّأي والتَّدبير في سَيْرِهما إلى كَاغُ في عزل أسْكِيَ مُحمَّد بان أخيهما. ورحل كَنْفَارِ صالح من طُعْيَة بجيشه، ومعه بَلْمَع وسارا حتَّى نزلا المَحَلَّة بين كَبَرَ وأمَزَع. وبعد نُزُولهم رَجَعَ بَلْمَع إلى كَبَرَ؛ لتَجْهِيز ضِيَافَتِهِمْ ونُزُولهم، وقيل هيَّأ لهم ثلاثمائة بَقَرَةٍ وأعدَّها لهم قبل إتْيَانهم، وذَبَحَ ما ذَبَح لإدام طعامهم.

فَلَمَّا رجع بَلْمَع إلى داره لإخراج تِلْكَ الضِّيافة إليهم، عقَّبه بعض الوُشَاةُ إلى أخيه كَنْفَارِ صالح ونمَّ له بقوله إنَّه يَغْدِرُهُ ويريد قتله، وحذَّره وقال له: انظُرْ وَتَأَمَّلْ الهيئة التي ألقاك بها من لبس دِرْعِ الحديد وشدَّةِ ربط الحزام. وصدَّقه كَنْفَارِ صالح، وكان رجلاً خرقًا؛ فأمر بربط سَرْجِه ساعَتَئِذٍ بلا توانٍ ولا تأمُّل، وركب ونادى مِنْ شُجْعَان قَوْمِه أربعين فارسًا، وأمَرَهُمْ بالرُّكُوب معه، ولم يُشَاوِرْ أحدًا منهم بِسَبَبِ خُرُوجِه.

وخرج عازمًا حازمًا كميًّا في سلاحِهِ بقُوَّةِ الغضَبِ، حتَّى أتى بباب دار بَلْمَع وألْفَاه وبيده كاصُ[1] يَغْرِفُ به السَّمن على مَوائِدِ ضِيَافَتِهِم، وما راعَاه[2] إلاَّ بِصَوْت كاكَكِ بباب داره،[3] وعلم بأنَّ كَنْفَارِ هو المواتي، وتَحَقَّقَ عنده أنَّهُ لم يأت في هذا الوقت إلاَّ لشَرٍّ. ونهض، وفَرَسُه الَّذِي أتَى به واقِفٌ تِجَاهَهُ بِسَرْجِه ولِجَامُه في

[ص١٢٩]

فَمِّه، وركب وخرج بباب أخرى مِنْ داره، وحَمَل تَرْسَه، وأملأ يَدَهُ بالحريش، وتلقَّاه كَنْفَارِ خارجًا من الباب ورماه كَنْفَارِ بحريشٍ، وقال بَلْمَع: إنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُونَ، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله العَليِّ العَظِيم! ما حَمَلَكَ على هذا، وما سَبَبُ ذلك؟ أتتْبَعُ كلام النَّمَائم وتَكُون علينا شماتةُ الأعْدَاء؟ ثُمَّ بكى بَلْمَع صادق، ثُمَّ رماه كَنْفَارِ بحريشٍ آخَرَ، ولم يُصِبْهُ به وخَطَّأَهُ، ثُمَّ رماه بحريشٍ ثالِثٍ ووَقَفَ الحرِيشُ على قَرَبُوسِ سَرْجِه، وحرَّك بَلْمَع فرسه كأنَّهُ يهْرُبُ، ثُمَّ رجع إليه، ورَمَاهُ بحريشٍ ورَكَّزَهُ بين كَتِفَيْهِ حتَّى خَرَجَ مِنْ صَدْره. وقيل إنَّ الرَّامي هو غلامٌ كان مع بَلْمَع يُقالُ له مُحمَّد بن كَنْفَارِ يعقوب، وهو المسمَّى كُيْ إجِ، والأوَّل أصحُّ بأن بَلْمَع هو الرَّامي بيده.

فَلَمَّا أحَسَّ كَنْفَارِ بألم ذلك الجرح وَلَّى هاربًا، وحمله فَرَسُهُ وذهب به، ولم يبق له قُوَّةٌ يملك رأس الفرس، وحمَلَهُ إلى بُقْعَةٍ بين كَبَرَ وكُرُنْزُمِي قَريبٍ مِنْ كَبَرَ،

---

(١) نبات ذو ثمرة كرويَّة على شكل إجاصة صغيرة ذات طرف ممدود، تشق إلى قسمين وتجفَّف؛ فتصبح مغرفة تستعمل للطَّبخ والأكل.

(٢) كذا في الأصل المرقون بالألف، والأصحُّ بدون ألف بعد العين: راعَ، يروعُ، رَوْعًا، وهو الخوف. أما راعى: مراعاة، فمن الرِّعاية، أي العناية.

(٣) بوق عملاق من النُّحاس ينفخ فيه عند الاستنفار للحرب والقتال. وقد تقدَّم [ص٧١] أنَّ إدخال هذا البوق إلى صونغاي كان بعد غزوة أسكيا الحاج محمد لسلطان أغاديس في السنة السادسة بعد تسعمائة الهجريَّة.

وأسْقَطَه هُنالِكَ ميتًا. ونزل عليه ورَفَعَ رأْسَهُ وَوَضَعَهُ على حِجْرِهِ، وهو في سَكَرَاتِ الموت، حتَّى خَرَجَ رُوحُهُ على رِجْلِه، وذلك عَشِيَّةَ يوم الأربعاء الخامس والعشْرين من ربيع الآخِرِ عام سِتٍّ وَتِسْعِينَ وتِسْعِمِائة. كذا ذَكَرَهُ الفَقِيهُ يوسف كعت بن ألْفَعْ كعت (رحمهما الله).[١]

ثُمَّ أمَرَ بَلْمَع بِحَمْل جَنَازَتِه إلى كَبَرَ؛ فَحُمِلَ إلى داره بكَبَرَ، ولم يَفْطُنْ بخروج كَنْفَارِ من محلَّتِه إلى بَلْمَع أحْدٌ من أهل جُنْدِه الذين أتوا معه إلاَّ تِلْكَ الشِّرذمة القليلة الذين اخْتَارَهُمْ من بينهم، وخرجوا معه إليه. وبعد عِلْمِهِمْ بذلك؛ ركِبُوا كلُّهم إلى بَلْمَع وَنَزلوا عَلَى بَلْمَع طائعين، وسألهم بَلْمَع عَنْ مَنْ عَقَّبَهُ عنده بعد

[ص١٣٠]

ذَهَابِهِ وبما سَمِعَ عَنْه، فَتَعَجَّبُوا وقالوا: ما عَلِمْنَا بأحدٍ دَخَلَ عليه بعدك.

ثُمَّ شَرَعَ في غَسْلِ جَنَازَتِه وأتى بثلاثِ شُقُوق من السُّوسية العالية لِكَفَنِه. وكفَنَهُ إمام كَبَرَ مُور كُنْبَ في واحدة، وحمل الباقِيَيْن، وهو الَّذِي تَوَلَّى غَسْلَهُ وحمل نَعْشِهِ إلى تُنْبُكْتُ. وهُنالِكَ صلُّوا عليه، ودُفِن هُنالِكَ. وقيل دُفِن في دار مملكة بَلْمَعْ في كَبَرَ، والأوَّل أصحُّ.[٢] وشَيَّعَ جنَازَتَهُ بَلْمَع إلى تُنْبُكْتُ، ثُمَّ تصدَّق عليه بقراءة القرآن وذَبْحِ بَقَرَاتٍ كثيرة وأعطى الطُّلباء القُرَّاء عشرة عبيدٍ ومائةَ ألفِ وَدْع.

---

(١) ذكر السعدي أن مقتل كبَر فرْم علو كان عشية الأحد السَّابع من الرَّبيع (الثاني) سنة ست وَتِسْعِينَ وتسعمائة. (تاريخ السودان، ص١٢٢). وقد نصَّ السعدي على أنَّ الفترة بين مقتل كبر فرم علي وبين مقتل كنفار صالح سبعة عشر، وهو موافق لما ورد هنا في الفتاش. غير أنَّ سياق رواية الفتاش هنا يوحي بأنَّ الحدَثين لم يكن بينهما تراخ. تجدر الإشارة إلى أنَّ من التعبيرات الدارجة ببلاد السودان أنهم إذا ذكروا شهر الربيع، وعنوا به الأول فإنهم يقولون: الربيع النبوي، أو ربيع المولد. أما إذا ذكروا الربيع مجرَّدًا عن الصفتين السابقتين - كما سبق آنفا عند السعدي - فإنهم يعنون به ربيع الآخر.

(٢) ينظر التعليق على هذا الرَّأي في هامش [ص١٨٦].

تذييل: قيل إن كَبَرَ فَرْمَ عَلُوا هذا جَرَتْ بينه وبين أحْدٍ مِنَ العُلَماء خُصُومَةٌ في مَزْرَعَة الأرُزِّ التي أعطاها أسْكِيَ لذلك الشَّيْخ، وتِلْكَ المزْرَعَة في أرض يُونُ. وجاء كَبَرَ فَرْمَ عَلوا يريد أن يَغْصِبَها منه يزعُمُ أنَّها مَزْرعَةُ السَّلْطَنَة ولا يَعْمَلُها، وهي أي تِلْكَ المزرعة بيد كُلِّ مَنْ تَوَلَّى كَبَرَفَرْمَويَّة، هو الَّذِي يحرثها لدار سَلْطَنَة أسْكِيَ، وتخاصَمَ مع الشَّيْخ في أمْرِ تِلْكَ المزرعة، حتَّى أخذ بيد ذلك الشَّيْخ وصَرَعَهُ، وكان ذلك أمرًا عظيمًا .

وكان مع الشَّيْخ هُنالِكَ بعضُ طلبته أي تلميذُهُ، وقال للشَّيْخ بعد انْصِرَافِ كَبَرَ فَرْمَ: لولا قَوْلُ الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ الآية،[1] لقتلتُ كَبَرَ فَرْمَ هذا اليوم بلا سيفٍ ولا حَرِيش. فقال له الشَّيْخ: إنَّما قال الله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾، ولم يَقُلْ: ومن قَتَلَ فَاسِقًا. وقال الطَّالبُ: هَلَكَ كَبَرَ فَرْمَ! وأخذ الطَّالبُ وَرَقَةً وكتب فيها أشياء وحروفًا، ثُمَّ طَوَاهُ وخَاطَهُ في خِرْقَةٍ سَوْدَاء وعَلَّقَهُ على عُنُقِ تَيْسٍ، ثُمَّ أخذ رمحًا وطَعَنه تحت إبطه، وسقَطَ التَّيسُ ومات. فَلَمَّا جاء مثلُ ذلك النَّهار مِنَ اليَوْم الَّذِي طَعَنَ فيه تَيْسَهُ، سَلَّطَ الله عليه بَلْمَع صادق وطَعَنَهُ تحت إبطه

[ص١٣١]

كذلك، ومات بقُدْرَةِ الله. انتهى.[2]

* * *

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣، وقد جاء في الكتاب خطأ بالماضي (ومن قتل)، ويغلب الظن أنَّه من خطأ الراقن، وليس من المخطوط الأصل.

(٢) لعل الكاتب لم يرد أن يشير هنا إلى نفسه أو إلى جدِّه محمود كعت في هذا الموضع صراحة، وإلاَّ فقد تقدَّم [ص١٠٩] أن أسكيا داود هو الَّذِي أهدى تِلْكَ المزرعة إلى الفقيه القاضي محمود كعت، واسم المزرعة زَنْكزع بأرض يُونَ.

فَلَمَّا دَفَنَ بَلْمَع أخاه كَنْفَارِ صالح قام بِفِتْنَتِهِ، ورجع إليه أصحاب كَنْفَارِ المقتول وجيشُهُ أجمعون وأطاعوه واتَّفَقُوا معه وضربوا عليه الطَّبل وجَعَلُوه سُلْطَانًا وسَمُّوه أسْكِيَ، وَوَافَقَهُم على ذلك عامَّةُ تُنْبُكْتُ وتجّارُهُم وبعْض عُلَمَائها وأصحابُ أسْكِيَ الذين كانوا سُكان تُنْبُكْتُ، ومُنْذُ، وتَصَرَ مُنْذُ، وعَمَدَهُ التُّجارُ بالأموال، وخَطَبَ به أئمَّةُ المساجد فوق المنابر يوم الجمعة.

وخرج قاصدًا مع قَوْمِه الكثير، وكانوا جيشًا عَرَمْرَما تَنِيفُ على ستَّة آلاف كثرة.[1] وصحِبَهُ خيَّاطون تُنْبُكْتُ يخيطُونَ له الملف وَيُصْلِحُونَ القُمُصَ والقَفَاطِين، وتَوَجَّهَ إلى كَاغُ لمضاربة أسْكِيَ وعَزْلِه وقَتْلِه، وما بَقِيَ أحْدٌ مِنَ السَّلاطين مِنْ إقليم أَتِرِمْ وأولاد الأساكي مَنْ لم يتبعه، إلاَّ بِنْكَفَرْمَ مُحَمَّد حَيْكَ بن هَارِفَرْمَ عبد الله بن أسْكِيَ مُحَمَّد وَحْدَه. بل فرَّ هاربًا عن بَلْمَع لما بَلَغَهُ جِنَايَاتُه إلى كَاغُ، ودَخَلَ في زُمْرَة أسْكِيَ وأعوانه.

وأسْكِيَ مُحمَّد بان في داره، وجَوَاسِيسُهُ يجيء ويَذْهَبُ ويَتَجَسَّسُون الأخبار، يَقْطَعُ كلَّ يومٍ مائة فارسٍ ويتَعَاقَبُونَهُ مائةٌ أخرى إلى بَنْبَ وتِرَكَ، ويَعْزِمُ على الخروج لِلقَائِهِ إذا دنا إلى كَاغ.

فَلَمَّا دنا وقَرُبَ إلى مَسَافَةِ يَوْمَيْن، خرج إليه أسْكِيَ مُحمَّد بان بجيشٍ يُضَاعِفُ جيشَهُ خمس مَرَّاتٍ، مجموع ذلك ثلاثون ألفًا. وخرج وقتَ صلاةِ الفَجْرِ، وكان

---

(١) إذا ثبت هذا التِّعداد للجيش الثَّائر، فإنَّ العدد التَّقريبي للفرسان الذين كانوا مع بلمع صادق قبل انضمام جيش أخيه المقتول إليه، يقدَّر بحوالي أربعمائة. بمقابل حوالي ستمائة وأربع آلاف فارس الذين كتَّبهم أخوه لنجدته. وهذا التَّفاوت في عدد الجنود بين تندرمَ وكَبَارا، أو بين الكنفاري وبلمع طبيعيٌّ معقول؛ لعلوِّ مرتبة الأوَّل على الآخر في نظام الحكم بصونغاي؛ بوصفه الرَّجل الثاني بالسلطنة بعد أسْكيا، وقد ألمح إلى ذلك ابن المختار في حديثه عن أسكيا داود، حين ذكر أنَّه لم يكن بصونغاي من يوازي نفوذه وقوَّته قوَّة الحكم المركزي إلاَّ الكورمينا فاري. قال: «ولا مَن يقابل جندَ سُنْغُيْ إلاَّ كرمِنَ فقط». [ص٩٣].

رجلاً جسيمًا سمينًا ذا بَطْنٍ، ونزل وقْتَ الزَّوال. وَنُصِبَ له الخِبَاءُ وفُرِشَ له تحتها، وَنَزَلَتِ المَحَلَّة، وأمَرَ حين نُزُوله بماءٍ باردٍ وصُبَّ في إنَاء واسعٍ واغتَسَلَ، ثُمَّ أتى مَضْجَعَهُ فاضْطَجع، وتَزَمَّل في ثيابه ونام إلى أن قرُب وقتُ الظُّهر. فجاء

[ص١٣٢]

غِلمانُهُ الخصْيَان الذين كانوا يُوقِظُونَهُ بوضُوءٍ وسِوَاكٍ، وحرَّكُوهُ فلم يَتَحَرَّك؛ فتأمَّلُوهُ، فإذا هو مَيْتٌ. وتَركوه، وغَطوْهُ بالملاحِفِ، ونَادوا كُبَرَاءَ القَوْمِ مِنْ أقْرِبَائه إلى أن دخَلُوا عليه وأخْبَرُوهُمْ بما جَرَى عليه.

ثُمَّ نادَوْا بارَيْكُيْ هُو كُرَيْكُيْ[1] وبطانتَهُ وبعضَ كُبَرَاء الجيْشِ، وكَتَمُوا موتَهُ على أولاد أسْكِيَ داوود، فَجَلَسُوا مُتَحَيِّرِينَ مُتَفَكِّرِينَ فيما يَفْعَلُون مِنَ الرَّأي والتَّدْبيرِ، إلى أنِ اتَّفَقُوا على تَوْلِيَةِ كَنْفَارِ محمود بن أسْكِيَ إسماعيل بن أسْكِيَ مُحَمَّد، وهو يَوْمَئِذٍ بِنْكَفَرْمَ، وكان شَيْخَهُم وأكْبَرَهُمْ سِنًّا.

ونادوه وهو في منزله من تِلْكَ المَحَلَّة، وأرسَلُوا إليه بأنَّ أسْكِيَ يناديه، وقام مُسْرِعًا مجيبًا إلى أن أتى إليهم، ووجدهم في خِبَاءِ أسْكِيَ، وأدخَلُوهُ وأخبروه بموته، وكَشَفُوا الثَّوْبَ له عن وجْهِهِ ورآه، وقالوا له: يا محمود هذه مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بنا وَبَلاءٌ عَظِيم شَمِلَتْنَا كُلَّنا، ونظنُّ هذا اليوم هو آخر أيَّام دَوْلَة أهل سُنْغُيْ ويوم فنائهم، وقد رأيْتَ بَلْمَع صادق قَتَل كَنْفَارِ صالح أخاه، وقتل كَبَرَ فَرْمَ عَلُوا، ثُمَّ جهَّزَ الجيْشَ إلى قِتَال أسْكِيَ مُحمَّد بان، وخرج هو بجيشه للقَائه، وها هو أسْكِيَ مُحمَّد بان قد نزل به قَضَاءُ الله وَقَدَرُه، وها هنا أبناء أبيهم كلُّهُمْ حَاضِرُون، ولا يُسْلِمُ أحْدٌ منهم لأحْدٍ في هذه السَّلْطَنَة، وألْقَى الله العَدَاوَةَ والبَغْضَاء بينهم. وما

(١) جاءت تهجئة هذا الاسم أيضًا على: هُكْ كُرَيْ كُي [ص٦٥]، وهو لقب كبير خدم القصر، وكان له نفوذ سياسيٌّ وعسكريٌّ ملموس.

كان لأحدٍ منهم لأخيه قُوَّةٌ إلاَّ قَتَلَهُ على هذه السَّلْطَنَة، وما كنَّا إلاَّ عبيدًا لهم فماذا ترى؟ وما رأيُكَ في هذا؟ فإنَّا كلّنا لا نَرْضَى إلاَّ عليك، ولا نَتَّفِقُ على أحدٍ سواكَ؛ لما فِيك مِنَ الصَّبْرِ والحِلْمِ وحُسْنِ التَّدبير، ومع ذلك كلّه إنَّكَ كبيرهُمْ وشَيْخُهُمْ، فنرى نحن أن تُوَلِّي السَّلْطَنَة السَّاعة قبل أن يَفْطنوا بموته وتنادي جميع المعانِدِينَ منهم وعَفَارِيتَهُمْ وأشْرَارَ النَّاسِ فيهم، وتُرْسِلَ لكلِّ واحدٍ منهم رسولاً ويقول أسْكِيَ هو الَّذِي يناديه، وكلُّ مَنْ جاء منهم تَأْمُرُنَا بِقَبْضِهِ وثَقْفِهِ بالحديد، ومَنْ

[ص١٣٣]

يَسْتَحقُّ القتلَ منهم فنقتلُهُ الآن بأمرك، حتَّى يَتِمُّوا، ثُمَّ نضرب عليك طبل السَّلْطَنَة فنطلعك، فتكون أسْكِيَ بلا مُنَازعة أحدٍ، ثُمَّ نَسِيرُ إلى قِتَال بَلْمَع صادق فَنَقْتُلُه. فهذا ما رأينا، وهو الصَّوابُ، وبذلك يكونُ سَلامَةُ أرْوَاحِنَا. وأمَّا أولاد أسْكِيَ داوود وحَفَدَتُه فلا نرضى بأحدٍ منهم أن يكون واليًا علينا أبدًا لشرِّهم وطُغْيَانِهِمْ ولِكَوْنِهِمْ قاطِعِين الرَّحم. وسكت محمود مليًّا، ثُمَّ أجاب وقَبِل راضيًا.

وأولادُ أسْكِيَ داوود وحَفَدَتُه وأسْبَاطُهُ الذين يحضُرُونَ هُنالِكَ حينَئذٍ أكثَرُ من سبعين فارسًا، وأكبَرُهُم إسحاق الزَّغْرَانيُّ، ومُحَمَّد كَاعُ، ونوح، والمصطفى. وإسحاق الزَّغْرَانيُّ أسنُّ منهم،(١) وهو يَوْمَئِذٍ فارِمُنْذُ. واتَّفَقُوا على هذا الرَّأي، وأرسلوا واحدًا من الخصيِّ المسمَّى تَبَكَلِ إلى إسحاق أوَّلاً، وأمروا المرسُولَ أنْ يقول له إنَّ أسْكِيَ مُحمَّد بان يناديه؛ فأتاه تَبَكَل، وألفَاهُ جالسًا على حصيرة صلاته. وخلا به ونمَّ له، وأخبره تَبَكَلِ المذكور بموت أسْكِيَ مُحمَّد بانَ، وأعْلَمَهُ بما كان عليه القَوْمُ، وبما يُنَادُونَهُ بسببه، وكشَفَ له أسْرَارَهُم، ووصَّاهُ بأن يحْذَرَهُم؛ فقال

(١) إسحاق الزغراني: سبب تلقيبه بالزَّغراني كون أمِّه زغرانيَّة، واسمها فاطمة بُص [ص٨١]، وقد يكون هذا اللَّقب تفريقًا بينه وبين إسحاق الأوَّل الملقب بإسحاق كَدِبِن، أي الحجر الأسْوَد.

له إسحاق: ارجِعْ إليهم وقُلْ لهم إنِّي أجيء؛ فرَجَعَ الرَّسُولُ وأخْبَرَهُم بأنَّهُ يأتي.

ثُمَّ أمَرَ إسحاق بإخوانه وأحبَّائه وأولاد إخْوَانِه وإخْوَتِه، وأخبرهم بما جرى وما كان عليه القَوْمُ لهم وبما عَزَمُوا عليه وهمُّوا به، ثُمَّ ركب وركِبَ أهَاليه معه، وهُمْ على نحو مائة بِسِلاحِهِمْ محزّمين بِتُرُوسِهِمْ؛ فَمَا رَاعَ القَوْمَ إلاَّ رَهْجُ خُيُولهم، فَدَاروا بخبَاء أسْكِيَ الَّذِي فيه القَوْمُ على جنازة أسْكِيَ مُحمَّد بان وَحَاطُوا بهم، ونادى هَيْكُيْ وشَعْ فَرْمَ وبَارَيْكُيْ، وأجابوهم في داخل الخِبَاءِ، ومحمود بن أسْكِيَ إسماعيل معهم؛ فخرجوا إليهم خَاضِعينَ طَائِعِين خَائِفِين مُرَوَّعين القلوب، وقد ضاق

[ص١٣٤]

بهم ذرعًا.

وقال لهم إسحاق: قد عَلِمْنَا ما جرى وسمعنا ما عَقَدْتُم عليه من عَدَاوَتِنَا وبُغْضِنا، فقد كشَفَ الله لنا السِّرَّ الَّذِي عقدتم عليه، فقد أفْضَحَكُم الله. إمَّا أن تُسْلِمُوا لنا، أو يكون هذا اليوم آخرَ أيَّامِكُمْ في الدُّنْيا يخرِبُ الله فيها بُيُوتَكُم ويصيروا أولادُكُمْ فيها يَتَامَى وأزْوَاجُكُم أرامل. وتعلموا أنَّ الله قد أخْزَاهُم له، ورَمَوا أنْفُسَهُم على الأرْضِ ورَجَعُوا نَاكصِينَ، يحملوا التُّراب على رُؤوسِهِمْ له، ومحمود معهم في ذلك. قالوا كلُّهُمْ: أمْرُ الله، ثُمَّ أمْرُكَ السَّمْع والطَّاعَةُ لله ثُمَّ لك، وأنتَ أمِيرُنَا وسُلْطَاننا، ولا نُطِيعُ لأحْدٍ إلاَّ أنت، وحَبْلُكَ في أعناقنا؛[1] فاعف عنَّا، ودَخَلْنا لك في حُرْمَة أسْكِيَ مُحَمَّد وبحرمة قَدَمِهِ التي وقَفَ بها على رَسُول

(١) تعبير محليٌّ كناية عن العبوديَّة والخنوع؛ إذ كان أرباب العبيد يضعون الحبال في رقاب العبيد مثل بهائم تجرُّ إلى السُّوق.

اللهِ ﷺ في رَوْضَتِه الشَّرِيفة.[١] انزلْ الآن على فَرَسِكَ فَنُطَلِّعَكَ ونَضْرِب عليك طبل السَّلْطَنَة وتكون سُلْطَاننا، فتَغْسِلَ جَنَازَةَ أخيك أسْكِيَ مُحمَّد بان الهالك وتَدْفِنَهُ، ونرحل غدًا لقتال بَلْمَع صادق أخيك، ونَدْفَعَ عليك بأسَهُ، فنزل ونزل أصحابُهُ، وحينَئذٍ تفَطَّنَ الجيْشُ بموت أسْكِيَ مُحمَّد بان، وحَضَرُوا جميعًا، وضربوا الطَّبْلَ على إسحاق، وأمَّرُوهُ وتَسَلْطَنَ، وحملوا له التُّراب على رُؤوسِهِمْ، وجاؤوا بالمصْحَفِ وحَلَفُوا له به بأنْ لاَ غَدْرَ ولا غِشَّ ولا خدع.

وأمر بِغَسْلِ جَنَازَة مُحمَّد بانَ، وغسلوه وكَفَنُوه، وإسحاق جالسٌ على سَرِير مُلْكِه، وأمر بحمله إلى كاع، وأتْبَعهُ بعضُ أعْيَانِهِ وبُكَر لَنْبَار أسْكِيَا أَلْفَعْ الَّذِي هو الكاتب، ودَفَنَهُ وراء جدِّه أسْكِيَ مُحَمَّد المرحوم، وكَرَّ راجعًا إلى المَحَلَّة في بقيَّةِ

[ص١٣٥]

تِلْكَ اللَّيْلَة. وفي بعض التَّوَاريخ أنَّهُ أقام في كَاعُ بعد دفْنِ أخيه يومًا أو يَوْمَيْن.

وقام أسْكِيَ إسحاق وبَكَّرَ وافْتَكَرَ، وتوجَّهَ إلى لقاء أخيه بَلْمَع صادق وأشْبَعَ الجيْشَ في تِلْكَ اللَّيْلَة، وقَسَّمَ لهم العَطَايَا وأفَاضَ عَلَيْهِمْ المنَحَ وأرْضَاهُمْ؛ فَرَضُوا. وكان أسْكِيَ إسحاق كريمًا جَوادًا.



(١) من الملامح الكاشفة عن مكانة المشاعر المقدَّسة في المخيال الأفريقيِّ كثرة استشفاعهم بها عند الخصومات، وقد ورد مثل هذا في عدَّة مواضع من هذا الكتاب، ومن ذلك توسُّل العجوز إلى أسكيا داود بمقام والده في الرَّوضة الشَّريفة. [ص ٩٩؛ ١٠٣].

الباب الرَّابع عشر

أسْكِيَ إسحاق الثَّاني(١)

وسَارَ إلى بَلْمَع صادق وذلك يوم ثالث عَشَرَ جُمادى الأولى عام ستٍّ وَتِسْعِينَ وتسعمائة، ولا عِلْمَ عند بَلْمَع صادق بموْتِ أسْكِيَ مُحمَّد بان، ولا بِطُلُوع إسحاق، وهو في البَيْدَاء بجيشه يَسِيرُ ويأتي وَيَحْسَبُ أنَّ قُلُوبَ أهل كَاغُ تميلُ إليه بالمحبَّة مع ما يَسْنِدُ إليه مِنْ كَثْرَةِ مَنْ معه ويعتقد أنْ لا غالبَ إلاَّ هو.

فما فاجَأَهُ إلاَّ بأربعمائة فارسٍ فرسان الشَّباب، ليس فيهم سوى لابِسِين القَلَنْسُوَةَ من أولاد الأساكي، وغيرهم يُهَرْوِلُ بهم خُيُولهم. فَلَمَّا أبْصَر بَلْمَع صادق وقَوْمُه؛ فَرِحُوا بهم وظنُّوا أنهم جاءوا إليه مُطِيعين خَارِجِين على أسْكِيَ مُحمَّد بان، حتَّى إذا دَنَوْا منهم نزلوا كلُّهُم وَوَقَفُوا على الأرض وحيَّوْهُ: تُنْكَرَ تُنْكَرَا! بَلْمَع تُنْكَرَ تُنْكَرَا! (٢) أسْكِيَ إسحاق أخوك يُسَلِّمُ عليك، ويقولُ إنَّ الله قَبَضَ أسْكِيَ مُحمَّد بان أمس بموت الفَجْأَة، وأعطاه الله دار أبيه، وجَعَلُوهُ كافَّةُ أهل سُنْغُيْ سُلْطَانًا، وتَوَلَّى بإذن الله. ومن أطاع فَلَيْسَ له عنده إلاَّ خيرًا ومحبَّة وصِلَة، ومن خَالَفَ فَقَد خَالَفَ أمْرَ الله وَعَصَاهُ، ومَنْ عَصى أمْرَ الله فَلا يَلُومُ فيما أصابه في ذلك إلاَّ نَفْسَهُ؛ فأمر

---

(١) يقال له أيضًا: إسحاق الزغراني، ينظر [ص١٣٣].

(٢) تُنكرَ: كلمة سوننكية تعني «مَلك» أو ما ينسب إليه، وهي هنا كلمة تبجيل. ومن مواردها القديمة اسم ملك غانة (تُنكامَنين) الَّذِي ذكره البكري (المسالك، ٢/ ١٧٤)، حيث المقطع الأول (تُونكا) يشير إلى لقب «ملك». ينظر: Dierk Lange, Ancient Kingdoms of West Africa, (J.H. Roll Verlag, 2004), p271. ويبدو أن استعمالها خصِّص في عهد الأساكي لمن يشغل منصب بَلمع وكورمينا فاري. كما جاء عند السعدي (ص١٢٨).

بَلْمَع صادق رجلاً من قومه أن يَسْأَلهم: أحَقٌّ مَا تَقُولُون؟ فَحَلَفُوا له بذلك. فدخل الرَّوْعُ والخَوْفُ والخشية في قلوب جَيْشِه، وضرب بَلْمَع صادق الطَّبْل، وأمَرَ تِلْكَ السَّاعة بالرِّحْلة والرُّكُوب

[ص١٣٦]

إلى مُلاقاة إسحاق ومحاربة أصْحَابه أربعمائة فارس الذين أَرْسَلَهُمْ مُنْذِرينَ به، وركب بَلْمَع صَادِق ومن معه مُنْكَسِرِينَ قلوبهم وأطْرَأ عَلَيْهِمْ غاية الفتور والكسل.

وساروا إلى أن أتَوْا مكانًا سمعوا فيه أصْوَاتَ طُبُول أسْكِيَ وعَايَنُوا رَهْجَ خُيُولهم وسمعوا بلغتاهم،[1] ورأوا شُجْعَان أسْكِيَ الذين كان يَصْطَفِيهم ويُقَدِّمُهُم أمام الجيش؛ ضَجَّ أصحاب بَلْمَع وأيقنوا أنْ قَدْ شَمِلَهُم الهلاكُ والتَّلف.

وَوَثَبَ بهم أصحابُ أسْكِيَ وثبة الذِّئب الضَّاري على الخروف، ونَظَرُوا إليهم نَظْرَةَ لَيْثِ العَرِين إلى الفريسَة ومثلوهم في أعْيُنِهم كأنَّهُمْ أفراخُ الدَّجَاجَة الْتَقُوا مع البَاز، وحملوا عَلَيْهِمْ وشتَّتُوا شملهم شَذَرَ مَذَرَ، وَوَلُّوا القوم مُدْبِرِينَ. وما منهم مَنْ وَقَفَ لِيَعلْمَ ما الخبر. بل كَسَّروا وفرَّقُوا عن بَلْمَع. وكثيرٌ منهم من نَزَلَ عن فَرَسِهِ ونَزَلَ في البحر وَعَامَ وقَطَعَ البحر عريانًا إلى كُرْمَ. ومنهم من دَخَلَ في حُفْرَةِ الثَّعالب، ومنهم مَنْ صَعِدَ فَوْقَ الشَّجر، وشَرَّدَ خُيُولَهُ؛ إذ لا قِبَلَ لهم بِجُنْدِ أسْكِيَ، ولا يَقْدِرون على مُبَارَزَةِ جَيْشِه، ولا يقف.

فَلَمَّا رأى ذلك بَلْمَع رمى نَفْسَهُ بين القَوْم يَتَتَبَّعُ الصُّفُوفَ يطْلُبُ إسحاق، ولا يبالي بمن لَقِيَ منهم ومَنْ أتاه منهم هرب منه ولا يَتَعَرَّضُ له، وصَاحَ به إخْوَانُهُ الذين كانوا

---

(١) بلغتاهم: كذا في الأصل، ولعله من (بُلغة، بُلغات)، وهو حذاء مغربيٌّ تقليديٌّ يصنع من جلد الغنم، ومراده: سمعوا أصوات أقدامهم وحركة بُلغاتهم.

[ص١٣٧]

مع أسْكِيَ: ماذا تَطْلُبُ يا عَدُوَّ نَفْسِه؟! اخْرُجْ مِنْ بيننا، ولا تَكُن قَاتِلَ النَّفْس! أيْنَكَ بأسْكِيَ الَّذِي تزعم أنَّكَ تَطْلُبُه؟ وهو في مَنْعَةٍ وثَوْرَةٍ أربعة آلافٍ من الرِّجال يحملون الحرِيشَ أمامه، وألْفَيْن مِنَ العَبِيدِ الخِصْيَانِ وراءه، وإنْ أَدْركَكَ خِصْيَانُهُ هنا قَتَلُوكَ وصَيَّروك غِذَاءَ العُقْبَانِ والنُّسُور. ثُمَّ أتاه ابنا أبيه لَنْتِنَ فَرْمَ بُكَر وأرْيَفَرْمَ هارون، ابنيْ أسْكِيَ داوود، وأخْرَجَاهُ كأنَّهُما يريدان طَعْنَهُ، ومُرادُهُمَا أن يُهَرِّباه، وخرج هاربًا، وتَبِعَهُ مِنْ قومه أحبَابُهُ إلى منزلة محلَّته، وهما معه يَطْرُدَانِه، وهو على فَرَسِه المعروف المسَمَّى بامَرْسَ في قوَّةٍ غَضَبٍ وغَيْظَة يَأنَفُ على الهروب، ولا يبغيان له الموت. فَلَمَّا أتى محلَّتَهُ، وله هُنالِكَ ثلاثةٌ مِنْ جَوَاريه أيْ سَرِيَّاته وأربَعَةَ عَشَرَ نِسوة من الحدَّادِيَّات الزَّامِرَات، وكان معه أربعٌ وثَلاثُونَ جمالاً، وحمل عَلَيْهِمْ سَرِيَّاتِهِ وحَدَّادِيَّاته ونَفَائِسَ بضاعاته وكِسْواتِهِ وشيئًا مما أتى به من الأزْوَاد،[1] وجعَلَهُمْ أمَامَه، ومعه من الفُرْسان سبعة عشر على خُيُولٍ مختَارِين، وخمسة خُيُولٍ عَلَيْهِمْ السُّرُوج يقودهم أمامه،[2] وتَأَخَّرَ عَلَيْهِمْ خَلْفَهُم مع بعض فُرْسَانِهِ يساقهم أمَامَهُ هاربين.

فَلَمَّا وصل أسْكِيَ إلى موضع محَلَّتِهِ الَّذِي خرج فيه هاربًا، نزل هُنالِكَ وبات فيه، واخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ خمسين فارسًا وأمَّرَ عَلَيْهِمْ حَصُلِ فَرْمَ عَلُوا وُلْد سَبِيل، وعَبْدَهُ الخَصِّيَّ أتَكَرُمَ زَكُتِ، وأتبعهم بَلْمَع صادق، وأمَرَهُمْ أن لا يرجعوا إليه إلاَّ بِنَفْسِهِ أسيرًا أو برأسه قتيلاً.

وتَبِعُوهُ يَقْتَفُونَ آثارَهُ وأين بات. وارْتَحل مِنْ عِنْدِهِ، فأتى حَصُلِ فَرْمَ تِلْك

(١) الأزواد هنا جمع زاد، ويجمع أيضًا على: أزْوِدَة.
(٢) في الأصل: (يقادهم).

الموضع عَشِيَّةَ يومه حتَّى أتاه إلى مكان يُقالُ له زَنْزَنْ في قِبْلَة مَنْزِلة بلد بَنْبَ، وأعيا عليه بَعْضُ جِمَالِهِ التي يحملون بعض نِسْوَتِهِ والرِّجَالُ يَمْشُون على أقْدَامِهِمْ مِنْ حَمَلَةِ الحَرِيشِ

[ص١٣٨]

وبعضُ الخُيُول ترَكَهُم هُنالِكَ، وأمَرَ بحمُولهم وعَدِيلاتهم، فَرُمِيَتْ في البَحْر وَمرَّ، ثُمَّ لم يزلْ في إدْلاجٍ وتأويبٍ وإيجافٍ وتقريبٍ حتَّى جاء تُنْبُكْتُ بعد صَلاة العِشَاء، وقد سَبَقَهُ الخبرُ بنعي أسْكِيَ مُحمَّد بانَ والأراجيف المكاذبة بأنَّ بَلْمَع صادق هو الَّذِي تَوَلَّى مَكانَهُ، وفَرِحَ به أهْلُ تُنْبُكْتُ فرحًا عظيمًا.

فَلَمَّا دخل تُنْبُكْتُ قَصَدَ دار السَّيِّد الفقيه مُحَمَّد بَغَيُغُ (رَحِمَهُ الله) ودخل عليه، وشاع إتيانه في البلد تِلْكَ اللَّيْلَة، وأرسل رُسُلَهُ إلى أحْبَابِهِ، وأتَوْهُ هُنالِكَ ومكَثَ عِنْدَهُ بقيَّة ليلته، ثُمَّ خرَجَ وقْتَ السَّحْرِ، وزَوَّدُوهُ بعضُهمْ. وأدْرَكَهُ اللَّيْلُ بقرية كَنْدَم، ونَزَلَ خَارِجَ البَلَد؛ فَعَقَّبَهُ حَصُلِ فَرْمَ في تُنْبُكْتُ، ودخَلَهُ وقْتَ المغْرِبِ، وأخذ تُنْبُكْتُ مُنْذُ وثقَّفهُ في الحديد، ومرَّ في تِلْكَ اللَّيْلَة وبات.

ثُمَّ قام بَلْمَع من مَبِيتِهِ آخِرَ اللَّيْلِ ودَخَلَ تَنْدِرْمَ وقْتَ الضُّحى ومرَّ، وما يراه أحدٌ، وقصد مرسى بلد سَنَ. وتلقَّى بالقَوَارِبِ هُنالِكَ، وأخذُوهَا وقَطَعُوا تِلْكَ البَحْر بهم. فَلَمَّا وَصَلُوا البَرَّ مرُّوا ولم يلبثوا، وساروا إلى أن نَزَلُوا ببلدة كُيِمَ تحت الشَّجَرَة الكبيرة الكائنة لها من ناحِيَةِ القِبْلة، وجاء أهل كُيِمَ، وسألهم عَلَفَ الخيل، وأتَوْهُم بصُنِيَّة الدُّخْنِ، وقطُعوها وقسَّمُوها على خُيُولهم العاجزين.

فعَقَّبَه حَصُلِ فَرْمَ في تَنْدِرْمَ، ودخله وقت الظُّهر، وسأل النَّاسَ عنهم؛ فأخْبَرُوا بأنَّهُ مرَّ عَلَيْهِمْ ضُحَى هذا اليوم، ومَرُّوا في إثره، وجازوا إلى مرسى كُرُم وقَطَعُوا بحْرَهَا ومَرُّوا راكِضِينَ حتَّى وصلوا إلى قُرْبِ كُيِمَ، ومعهم الدُّفُوفُ يَضْرِبُونها،

وسمع بذلك؛ نهض حينَئذٍ وركب وحدَهُ على فَرَسِهِ بامَرْسَ، ولحقهم حَصُلِ فَرْمَ هُنالِكَ وخيولُ أصحاب بَلْمَع في

[ص١٣٩]

المرعى يَأكُلُون الحشيش. ودخل حَصُلِ فَرْمَ وقَوْمُهُ بيْنَهُم وبين خُيُولهم وجِمَالهم، وهُنالِكَ أخَذُوا جَمِيع مَنْ مَعَهُ وما معه من الجواري والبُسُط، وقَبَضُوا جمِيعَ مَنْ تَبِعَهُ إلاَّ بَلْمَع وحده، فَإِنَّهُ رمى فَرَسَهُ في بُحَيْرَةِ كُيِم وقطعها، ثُمَّ وقف وراء البُحَيْرة على ضَفَّتِهَا وهم ينظرونه، وعليه دائِرَةُ مِلَف[1] الحمْراء وفَرَسُهُ هذا المسَمَّى بامَرْسَ، وهو ولد رمكة رجل من بلدة دَنْدَكُرَ اسمه مُحَمَّد سابُن، وقد بلغ ذلك الفَرَسُ في القُوَّة والجَرْيِ غايةً ونهَايَةً بحيث لا يُجَارَى ولا يُبَارى.

ثُمَّ قطع حَصُلِ فَرْمَ وقَوْمُهُ تِلْكَ البُحَيْرَةَ بعد ذَهَابِهِ بِقَلِيل، وسَبَقَهُم بَلْمَع إلى كُيْبَ، ورمى فَرَسَهُ في البحر الَّذِي كان هُنالِكَ، وَقَطَعَ به البَحْرَ عند غُرُوبِ الشَّمْسِ ذلك اليوم. وَوَصَلَ حَصُلِ فَرْمَ إلى كُيْبَ بعد العَشَاء وسَمع الخَبَرَ وأسْرَعُوا في طلب السُّفُن، وما حَصَلَ لهم السُّفُنُ إلاَّ الصُّبح، وقَطَعُوا البَحْرَ ودَخَلُوا في إثْرِهِ يَقْفُونَ آثارَهُ.

وجاء بَلْمَع إلى قرية تُسَمَّى لُنْفُ بقُرْب بُويُ وهناك ولَدُهُ أسْكِيَ مُحَمَّد بُنْكَنَ، وهو صغيرٌ عند أمِّهِ زَنَبَ كَاوَ، ووقف ببابها ونَاداها، وخرجت بوَلَدِهَا مُحَمَّد بُنْكَنَ المذكور ودفَعَتْهُ إليه، وأخَذَهُ ووَضَعَهُ معه في سَرْجِه، ووَضَعَ يدَهُ على رأسه وبَكى، ومضى وتوجَّهَ إلى بلد بُويُ، وهُنالِكَ أعْيَا عليه فَرَسُهُ بامَرْسَ وعَجِزَ ووَقَفَ، ونزل عنه. وكان هُنَاكَ فَرَسٌ حَمْدِي لبعض

[ص١٤٠]

---

(١) أي عمامة.

عَبِيد أسْكِيَ، أخَذَهُ هُنالِكَ وَوَضَعَ عليه سَرْجَهُ وركِبَ عليه وانْصَرَف، ولم يتَعَرَّضْ له أحدٌ هُنالِكَ، وتَوَجَّهَ إلى الحجَرِ وَحْدَه.

وبعد انْصِرَافِهِ دَخَلَ حَصُلِ فَرْمَ وقَوْمُهُ في ذلك البلد، وقد عَجِزُوا أفْرَاسُهُمْ وانْسَلَخَ ظُهُورُهم، ووقفوا ونزلوا بباب دار بَنَكُيْ وأخَذُوهُ وشَتَمُوهُ وسبُّوهُ، وكادُوا أنْ يَقْتُلُوه لِمَ تركَهُ حتَّى مرَّ عليه ولم يَقْبِضْه؟! ثُمَّ كرُّوا راجعين على آثارهم إلى كَاغُ حين عَلِمُوا مُتَحَقِّقِينَ أنَّهُمْ لا يدركونه، وأيِسُوا مِنْ لحُوقِه. انتهت القِصَّة.

تذييل: اسم مَنْ بنى بلد بُويُ هي امرأةٌ اسمها يانُو، وكانت تملكها قديمًا. وبَنَتْ أختها المسمَّاة بِبِيرَ بلد أنْكَنْدَ، وبلد أبيهما هُنْبُرِ، وبلد أمِّهما دَعْنَكَعْ، وجلست يانُو المذكورة أوَّلاً في تِلْكَ القرية، وقد كانت واصلاً في الحجر بين دَعْنَكَعْ وهُنْبُرِ. ووقع حربٌ وقتَالٌ بينَهَا وبين شِي عَالِ، وهَزَمَهَا شِي وسَبَى ابنة أختها جَتَ، ثُمَّ اسْتَجَاشَ مائتي سُفُن لقتال أهل أنْكَنْدَ، وحصرهم بتِلْكَ السُّفن، فلا يَدْخُلُ داخلٌ ولا يخرُجُ خَارِجٌ، إلى أن هَزَمَهُمْ شي.

ووجد يَوْمَئِذٍ في تِلْكَ البلد ثلاث قبائل: سُنْغُيْ وجَمْ كِرِيَ والزَّناجِيَّة، وقَتَلَ جميعَ مَنْ وجد مِنَ القَبِيلَتَيْنِ الأولَيَيْن إلاَّ قليلاً منهم، وأخذ ذلك القَلِيلَ وجميع مَنْ وَجَدَ مِنَ الزَّناجِيَّة، ثُمَّ أفْلَتَ مِنَ الأسَارَى سَبْعَةُ رجَالٍ

[ص١٤١]:

ثلاثَةٌ مِنَ الزَّناجِيَّة، وأربعةٌ مِنْ جَمْ كِرِيَ، وأسماؤهم: مُحَمَّد كِرُبَ، ومُحَمَّد تَيْ، وبُرَيْمَ، وكَبَرَ سَنْكُم، ومابَايَعْم سِبِرِي، وبُكَرْ مَيْكَ، وأنْكَنْدَ مَيْكَ. وهَرَبُوا إلى مكانهم أنْكَنْدَ، وجَلَسُوا هناك مُدَّةَ ثلاثَةِ أعْوَامٍ، وليس لهم زَوْجَاتٌ. ولما شقَّ عَلَيْهِمْ ذلك قامُوا إلى الإمام أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد (رَحِمَهُ الله)، وَوَافَقَ ذلك بدُخُولِهِ في السَّلْطَنَة، يطلبون عنده زَوْجَاتٍ؛ فزوَّجَهُم سبع إماءٍ من زنَاجِيَّتِهِ، وهنَّ: عائش

كَرَمَاتْ، وتَاتُ مَرْيَم، وزَنَبَ مَكَ، ولَمُيْ عَالِ، وخَدِيجَ سُرْكُ، وسَفِيَة جِنْجِنْ، وأمِنَة كَايَ. فَلَمَّا زَوَّجَهُم إيَّاهُنَّ شَرَطَ عَلَيْهِمْ غلَّةً مِنْ يَابِسِ الحِيتَانِ، على كُلِّ أحدٍ منهم حُزْمَةٌ منها، وألاَّ يتَزَوَّج ذريَّةُ بعضِهِم لذُرِيَّةِ بعضٍ؛ فقَبِلُوا ذلك ورَضُوا به، وذهبوا بزوجاتهم إلى أنْكَنْدَ.

ولْنَرْجِعْ إلى ما كُنَّا بصَدَدِه.

ثُمَّ لما سبى شي جَتَ المذكورة أعطاها لأهل بَلْدَةِ مُورْ كُيْرَ، وتَزَوَّجها أخو مُورْ هَوْكَارُ، ووَلَدَتْ له مَنْسَ عَلُوا مَيْدَعُ، ثُمَّ رَحَلَتْ يَانُو بعد انْقِراضِ شِي عَالِ إلى بُودَرَ وسَكَنَتْها، وعَظُمَ مُلْكُهَا هُنالِكَ. وكانت الفِتْنَة التي ذَكَرْنَاهَا بين يَانُو وشِي عَالِ عام سبع وَتِسْعِينَ مِنَ القَرْنِ التَّاسِع في اليوم الثَّاني عَشَرَ من المحرَّم.

وكان في أرض بَرَ حدَّادٌ اسمُه مِنْدِجَم مِنْ جهَّة كَرَنْكَن، قام على بَرَ كُيْ مَنْسَ مُسَ، وطغى وتغلب على تِلْكَ الجهَّة، حتَّى خَطَبَ على بَرَكُيْ ابْنَتَهُ؛ ليَتَزَوَّجها.(١) واسْتَعَان بَرَ كُيْ بيانو المذكورة بأنْ يُقَاتِلَه، وشَرَطَ عَلَيْهَا أن يُعْطِيَهَا مِنْ أرْضِه إنْ فَعَلَتْ ما شاءَتْ؛ فَأَتَتْهُمْ في خمسين

[ص١٤٢]

فارسًا فَقَاتَلَتْهُم وقَتَلَتْ مِنْدِجَم واسْتَأْصَلَتْهُمْ وتَبِعَهُمْ إلى بَرِكُبِ، وخيَّرها بَرَ كُيْ؛ فاخْتَارَتْ أرْضَ بُويُ فَسَكَنَتْهَا، ثُمَّ ماتت يانو، وما تَرَكَتْ ابنًا إلاَّ ابنَ أُخْتِهَا جَتَ مَنْسَ عَلُو، وذهبوا وحملوه من مُورْ كُيْرَ، وقدَّمُوه عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا. وكان بَنَكُيْ هو أوَّل من تسمَّى بنَكُيْ، ولذلك ينسبونهم إلى مَيْدَعَ .

وكان بين مَنْسَ عَلُو المذكور وبين كَنْفَارِ عمر صُحْبَةٌ، وكان يَزُورُهُ في تَنْدِرْمَ كلَّ

(١) تظهر جرأة هذا الرجل في إقدامه على خطبة حاكم بَر إذا عُلم أنه من قبيلة حدَّادية، أي من العبيد. ولا شكَّ أن هذه الخطبة تستفزُّ زعيم بَر مَنس موسى وتُشعره بالإهانة.

عيدٍ ويصلِّي العيد عِنْدَهُ وكان ذلك سببًا لملكه إيَّاهُم. انتهى.(١)

ولْنَرْجِعْ إلى مَقْصُودِنَا مِنْ كلام بَلْمَع.

وَرَأيْتُ بخطِّ خالنا الفَقِيه يوسف كعت بن ألْفَعْ محمود كَعْتٍ رحمهما الله أنَّهُ جاءه مَرْسُولُ الأمير عَشِيَّةَ الأربعاء يوم عيد الفِطْرِ إلى القَاضِي عمر بن محمود (رحمهما الله) بأنَّ الجبَلِيِّين وقعُوا على بَلْمَع صَادِق وأخَذُوهُ غِيلَةً. انتهى.(٢)

ومِنْ خَطِّه أيضًا قال: «وكانت هذه الفِتْنَة مِنْ أوَّلها إلى آخِرها أرْبَعَة أشْهُر. وأمَّا أسْكِيَ إسحاق متى انْصَرَفَ مِنْ قِتَال بَلْمَع ورجع إلى كَاغُ اجْتَمَعَ عليه جُنْدُ سُنْغُيْ، واتَّفَقُوا عليه وأسادوه،(٣) وأطَاعُوهُ؛ قَبَضَ كُلَّ مَنْ تَبعَ بَلْمَع صادق، وجاءوا

[ص١٤٣]

معه في عَسْكَرِهِ من كُرْمِنَ وبَلْمَعَي وبَرَ ودِرْمَ، وأُسِرَ مَنْ أسِرَ، وقُتِلَ مَنْ قُتِل، وضُرِبَ مَنْ ضُرِبَ، ومات أكثر المضْرُوبِينَ، وسُجِن مَنْ سُجِن، وعُزِل مَنْ عُزِل، ولم يبق بأرض بَرَ بَلَدٌ لم يَبْلُغْهُ شرُّهُ، إلاَّ أنْكَنْدَ؛ لأنَّ زَنَاجيَّتها مِلْكُ الشُّرَفَاء. وكانوا هؤلاء الزَّناجِيَّة وَدِيعةً في ذلكَ الزَّمَانِ لملِكِ فَاتِ وبَنَكُيْ عليّ. ومن الذين سجَنَهُم أسْكِيَ في ذلك الأمر بَرَ كُيْ عمر وأسْكِيَ بُكَر، وبُكَر بن ألفَكِ وغيرهم مما لا يحصى».

---

(١) إذا كان كنفار عمر قد توفي عام (٩١٩هـ/ ١٥١٣م)، وكان سبي أمِّ منس علو عام (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢)، فإنَّ سنَّ علو يوم وفاة كنفار عمر كانت عشرين سنة على أكبر تقدير؛ مما يدلُّ على أنَّه قد تملك في سنٍّ مبكِّرة، خاصَّة أنَّ سياق الخبر يفيد بأنَّ زيارته لكنفار عمر قد تكرَّرت لعدَّة سنوات.

(٢) هذا بخلاف ما ورد عند السعدي؛ إذ صرَّح بأن رجال أسكيا إسحاق قد لحقوا ببلمع صادق وأصحابه؛ فقبضوا عَلَيْهِمْ وقتلوهم بكَنْتَ. (ص١٢٨).

(٣) أسادوه: يريد (سَوَّدوه)، أي جعلوه سيدا عليهم.

وهذه الفتنة هي أوَّلُ خَسَارَتهم وهَلاكِهِمْ وفَنَائِهِم قبل مجيء جيش مولاي أحمد الذَّهبي، وهي سببُ خرابة بلد تَنْدِرْمَ. وكلُّ مَنْ خَرَجَ منها مع كَنْفَارِ صالح لم يرجع منهم إلاَّ قليلٌ من أسافلهم.

وكان أسْكِيَ إسحاق كريمًا سماحًا جوادًا جميلَ الوجه، بَلَغَ غايةً في التَّصدُّق والعطاء. وكان محبًّا للعُلَمَاءِ مُكْرِمًا لهم. ومِنْ إكرامه إيَّاهُم، وعدم مُبَالاته بالمال ما ذَكَر لي شيخي الفقيه محمود بن مُحَمَّد أنَّهُ كان جالسًا عشيَّة يوم السَّبْت بحذاء مَسْجِد كاع، إلى أن وَفَدَ إليه وَفْدٌ قَلِيلٌ من أرض بَرَ يريدون أن يُعْطُوهُ أنْفُسَهُم؛ فسألهم أسْكِيَ إسحاق مِنْ أين قَدِمُوا؛ فقالوا: بلد أنْكَنْدَ. فقال: فما أسماؤكم؟ قال كَبيرهم: أمَّا أنا فَاسْمي حَمْدُ بن بُكَرْ، وأمَّا هذه المرأة، وأشار إلى امرأةٍ من نِسَائِهِمْ، فهي زوجتي اسمها سونُ بنت سُرِ. وأمَّا صَاحِبي هذا فَاسْمُهُ حمدُ بن جُنْكُ كُو، وأمَّا زوجتُهُ هذه، فهي أختي اسمها بَنَا بنت تَيْ.[1] وأمَّا ثالثُنَا فاسمه صالح بن بَتَ، ثُمَّ قال لهم أسْكِيَ:

[ص١٤٤]

من أيِّ قَبِيلَةٍ أنتُمْ؟ فقال كبيرُهُمْ: وأمَّا أنا فمِنْ سُنْغُيْ، وأمَّا هذا فمِنْ زِنْجِ بَكَبِيرْ، وأمَّا هذا فَمِنْ جَمْ كِرِيَ. قال وَنْدُعُ: صَدَقْتَ ولكنَّ أمَّه زِنْجِيَّة من زناجيَّة أنْكَنْدَ.

ثُمَّ الْتَفَتَ أسْكِيَ إلى الجالِسِين حَوْلَهُ وقال لهم: هل تعرفونهم؟ أما كان أنْكَنْدَ مِلْكًا للشَّريف ابن القاسم. فقالوا: بلى. وقال: فهل بَقِيَ باقِيَةٌ سُنْغُيْ في أنْكَنْدَ؟ فقالوا: لا، أفناهم قتال شِي عَالِ، وإنما هذا الكذَّابُ غَاصِبٌ لنفْسِهِ مِنَ الشَّرِيف

(١) يمكن أن يرجع اختلاف اسم الأب بين الأخ وأخته إلى أنَّهما من أمٍّ واحدة وأبَوَين مختلفَين؛ لطبيعة الرِّق، ويمكن أن يكون راجعًا إلى أنَّ الأخت منسوبةٌ إلى أمِّها دون أبيها.

ابن القاسم، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى حمد جُنْكُ وقال له: ما حملك يا هذا على مُنَاكَحَة أهل أنْكَنْدَ؟ أما كان الجدُّ أسْكِيَ الحاج مُحَمَّد (رَحِمَهُ الله) شَرَطَ عَلَيْهِمْ ومَنَعَهُم عن مُناكَحَةِ غيرهم، وهل ما سمعتَ ذلك؟ قال: بلى، قد سمعتُ، تَمَلَ تَمَلَ. فقال لهم: أنتم عَاصُونَ لله وَرَسُوله، ثُمَّ أمَرَ بأخْذِهِم وسَجَنَهُمْ وثَقَّفَهُم في الحدِيدِ إلى الصَّبَاح، ثُمَّ أمَرَ بإطلاقهم وَرَدِّهِمْ إلى مَالِكِهِم.(١)

ومِنْ كَرَمه وَجُودِهِ أنَّهُ أفاضَ على أهل سُنْغُيْ كلِّهِمْ سَيْبَه وجُودَهُ، ويعطي ولا يبالي. وذكر عن أسْكِيَ ألْفَعْ بُكَر بن لَنْبَار كاتبهم أنَّهُ لما تَوَلَّى ودخل في دار المملكة وبات فيها أوَّلَ ليلةِ مُلْكِهِ، أمر بخصيٍّ هُنالِكَ الَّذِي كان عِنْدَهُ أثوابُ أسْكِيَ، وبيده مِفْتَاحُ بَيْتِ لِبَاسِهِ، ونُودِيَ بحَضْرَةِ أسْكِيَ ألْفَعْ بُكَرْ المذكور، وأمَرَهُ بإخْرَاجِ الأثْوَابِ جميعًا، وأخرج إليه سبعين شَكَارَة من جُلُود النَّمِر،(٢) في كلِّ واحِدَةٍ منها ثلاثون ثوبًا من كَتَّانِ دَبٍ والحرير والملف، وكلٌّ مع قميصه السَّرَاويل الكَبِيرة وعِمَامَة، وأمر ذلك الخصيَّ الخازن أن يَعُدَّ الشَّكارات، وعدَّها واحدًا بعد واحدٍ إلى عَشرة. فإذا بلَغَ العاشر، أمَرَهُ بانْعزَاله وإخْرَاجِهِ مِنْ جُمْلَتِهِمْ إلى سبعين، وجاءت عُشْرُهُ، سبع شكاراتٍ

[ص١٤٥]،

وأعطاها لأسْكِيَ ألْفَعْ المذكور، وقال: هذا زكَاتُهُمْ، خُذْهَا مَوْهُوبًا لله تعالى. فَلَمَّا تمَّت من مُدَّة مُلْكِهِ سَبْعَةُ أيَّامٍ أطلع محمود بن أسْكِيَ إسماعيل وجعله

(١) سبق في [ص١٤١] أن أسْكيا الحاج محمد زوَّج سبعة رجال ممَّن نزحوا إلى أنْكند، زوَّجهم إماءً له، وشرط عَلَيْهِمْ ألا تنكح قبائلهم بعضها من بعض؛ وذلك حفظا لهم ألا يختلطوا بعبيد أنْكند الذين هم خاصة الشريف المغربي ابن القاسم.

(٢) شكارة: جعبة مصنوعة من الجلد تحفظ فيها الملابس وغيرها؛ فلا تؤثر فيها الرُّطوبة، ولا تصل إليها دابة الأرض.

كَنْفَارِ. وأطلع أخاه مارَنْفَ مُحَمَّد كَاعُ وجعله بَلْمَع.

ومما يُؤْثَرُ مِنْ كَرَم أسْكِيَ إسحاق وجوده أنَّهُ قال في مجلسه يومًا، وهو يوم عيد الفطر وسُنْغُيْ كلُّه حاضِرُون، وأَعْيَانُ بَلَدِ كَاعُ وخاصَّتُها وعامَّتها، وقال لتُرْجُمَانه وَنْدُعُ: قُلْ لهذه الجماعة: هل بقي أحْدٌ مِنْ أهل كَاعُ مَنْ لم يدخل يَدَهُ إعطائي وصَدَقَتي في داره مِنْ هذه رمضان؟ وكلُّ مَن لم يَصِلْ إليه سَيْبي وإعطائي؛ فَلْيَقُمْ ويَذْكُر ذلك فنُعْطِيه الآن. فقالها وندع، وهو قائمٌ على رِجْلَيْه يُنَادِي به ويكرِّرُه، ولم يخرُجْ مِنْهُمْ أحْدٌ يَذْكُرُ أنَّهُ لم يَصِلْه مِنَحُهُ، وشَاع ذلك القَوْلُ في البلد، وكان النَّاسُ يَسْأَلُ بعضُهُمْ بعضًا عن ذلك، ولم يَقُلْ أحْدٌ إنَّهُ لم ير خَيْرَهُ ولا وصَلَهُ إعطاؤه في ذلك. وكفى بهذا كرمًا وحلمًا وجُودًا وسَعَة مُلْكِه وكثْرَةَ ذاتِ يَدِهِ. فانظر كَاعُ وعِظَمَهَا وكَثْرَةَ سُكَّانها! وقد حكى لي الشَّيْخ مُحَمَّد بن علي دَرامٍ أنَّ أناسًا من أهل السُّودَان تجادَلُوا مع أنَاسٍ من أهْلِ كَاعُ، وقال السُّودَانيُّون: كَنوا أعْظَمُ مِنْ

[ص١٤٦]

كَاعُ وأكبر منها، وبلغوا في أمر ذلك وَجِدَالِهِ نِهَايَةً وغَاية، وذلك في مُدَّةِ سَلْطَنَةِ أسْكِيَ الحاج. ودخل أولاد تُنْبُكْتُ المرجِفُونَ وبعضُ أهْلِ كَاع، وأخَذُوا وَرَقَةً ودَوَاة وقلمًا، ودخلوا بلد كاع، وابتدأوا مِنْ أوَّلِ بيْتٍ بمغربها يَعُدُّونَ القُصُور ويُزَمِّمُونَها واحدًا بعد واحد إلى ثلاثة أيَّام، دار فلانٍ ودَارُ فُلانٍ إلى انتهاء بُنْيَانِ البلد مِنَ المشْرِقِ. فجَاءَتْ سَبْعَةَ آلافِ دارٍ وستَّمِائة وسِتًّا وعِشْرين غير بُيُوتٍ مَبْنِيَّاتٍ بالحشِيشِ. وحَسْبُك هذا مِنْ كَرَمِهِ، وكَيْفَ يمكن مِنْ تَعْمِيم هؤلاء بالعطاء في شَهْرٍ وَاحِدٍ إلاَّ بالقُوَّة العَظِيمَة.

ومَكَثَ في السَّلْطَنَة ثلاث سنين. وفي أيَّامه ظَهَرَ النَّقْصُ بِدَوْلَتِهِمْ وتبيَّن فيه القَلَقُ والاضطراب، ثُمَّ نَزَلَ عليه جُيُوشُ أمير المُؤمِنِينَ مولاي أحمد الذَّهبي. وَقَدِمَ عَلَيْهِ

مَمْلُوكُه الباشا جَوْدَر مع ثَلاَثَةِ آلافٍ مِنَ الرُّمَاةِ. هذا ما قاله صاحب «دُرَر الحِسَان»، بابَ كُور بن الحاج مُحَمَّد بن الحاج الأمين كانو، وقيل أرْبَعَة آلاف.

وتحرَّكت المَحَلَّة وقامت وخَرَجَتْ من بلد مُرَّاكُش آخِرَ ذي الحجَّة من آخر الثَّامِن والتِّسْعين بعد تِسْعِمِائة، وقَدِمُوا كَاغُ في أوَّلِ جُمادَى الأولى سنة تِسْعٍ وَتِسْعِينَ بعد تسعمائة؛ يوم الجمعة لخَمْسٍ منه. ومُلاقَاتُهُمْ مع أسْكِيَ إسحاق كان يوم الثُّلاثَاءِ في مَوْضِعٍ يُسَمَّى سُنْكِيَ، قَرِيبًا من تُنْدِبِي، وهو مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ. وكان مع طراد الأيمن، وهو بندُ الأعْلُوج،[1] خَمْسمائة صُبَاحِيَّة مع كاهِيَتِهِمْ،[2] ومع طراد الأيسر، بندُ الأندلس، خَمْسمائة صُبَاحِيَّة مع كَاهِيَتِهِمْ. فَلَمَّا تقابل الجَيْشَان حَمَل عَلَيْهِمْ أصْحابُ الصُّباحِيَّة مِنَ اليَمِين والشِّمال وتلقَّاهم فُرْسَانُ سُنْغُيْ وتخالطا. وقتلوا مِنْ سُنْغُيْ

[ص١٤٧]

تِلْكَ أربعة وثلاثين، وطعن أهلُ سُنْغُيْ منهم ثلاثَةَ عَشَرَ، وسقَطَ منهم خَمْسَةٌ، وغَشِيَ القومَ الرَّهْجُ والدُّخان، وألقى الله الرُّعب والخَوْفَ في أهل سُنْغُيْ.

سمعتُ مِمَّنْ أثقُ به يحكيه عن مَنْ حَضَرَ هُنالِكَ يَوْمَئِذٍ، فقال إنَّ أسْكِيَ لَقِيَهُمْ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ ألْف فارِسٍ مُقَاتِل، فيهم كَنْفَارِ وبَلْمَع وبِنْكَفَرْمَ وجُنُودُهُم، وتِسْعَةِ آلافِ رَاجِلٍ وسبعمائة، منهم اثنيْ عشر سُونة بعصِّيهم.

فَلَمَّا دنا منهم رجلية الرُّمَاة جَثُوا على رُكْبَتِهِمْ يَرْمُون بالرَّصَاص، وقد ساقَ ألْفَ بَقَرَاتٍ معه حين صفَّ لِقِتَالهم، وجَعَلَها بينه وبين القَوْم، وينْزِل عَلَيْهِمْ

(١) أي العلوج، ويطلق العِلج على الرَّجل الشديد الغليظ. كما يطلق على الرَّجل عامَّة من كفار العجم. وقد أطلق هنا على الأعاجم من المحاربين في صفوف الجيش المغربي.
(٢) الصُّباحية: الأسنة العريضة، وهي هنا تشير إلى فرقة من الجيش تحمل الأسنة العريضة.

الرَّصَاصُ ويتبع رجَالُه البَقَرَات حتَّى تخالطوا بهم، فَلَمَّا أَحَسَّ البَقَرَاتُ بأصْوَات مَدَافِعِهِمْ؛ وَلَّوْا عَلى أصْحَاب أَسْكِيَ حَازِمِين مُتَحَيِّرين، وصَدَمَ منهم كثيرًا ومات أكثَرُهُم.

وعند ذلك نزل أسْكِيَ أَلْفَعْ بُكَر لَنْبَار وأخَذَ بِلِجَام أسْكِيَ وقال له: اتَّقِ الله يا أسْكِيَ! فقال له: كأنَّكَ تَأمُرُنَا بالهروب والهزيمة، فحاشا؛ فلَسْتُ مِمَّنْ يُولِي ظهره، ومن أراد أن يَفِرَّ بروحه فَلْيَهْرُبْ. ووَلَدُ بانَ يمسِكُ بِركَابِه، وقد عَلَّقَ بسَيْفِه وترسه يريد وَسَطَ القَوْم، ودارَ بهم خُيُول الرُّمَاة وأرادوا أنْ يُحَاطُوا بهم، ثُمَّ قال أسْكِيَ أَلْفَعْ المذكور: اتَّقِ الله ولا تَقْتُلْ نَفْسَكَ وتَقْتُل إخوانَكَ وَتُهْلِك سُنْغُيْ كُلَّهَا مَرَّةً واحِدَةً في مَوْضِعٍ واحِدٍ، ومَنْ هَلَكَ هنَا اليَوْم يُحَاسِبُكَ الله بأرْوَاحِهِمْ؛ لأَنَّكَ سَبَبُ هَلاكِهِمْ إنْ لم تَهْرُبْ بهم. ولا نأمُرُكَ بالهروب وإنَّما نقولُ لَكَ أن تخرُجَ بهم مِنْ مُقَابَلَة هذِهِ النَّار اليوم، ثُمَّ نَنْظُرْ في الرَّأي ما نَفْعَلُ ونَرْجِعُ إليهم غدًا بِعَزْمٍ وحَزْمٍ

[ص١٤٨]

إنْ شاء الله. فاتَّق الله!

وهُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ شُجْعَانه ورُؤَسَاء قَوْمِهِ يَأبَوْنَ إلاَّ القِتَال والهجُومَ فيهم والمخَالَطَةَ معهم، ويموتُ مَنْ تَمَّ أجَلُه، وينجُو مَنْ لم يَقْرُبْ أجَلُه، ثُمَّ لم يَزَلْ أسْكِيَ أَلْفَعْ به حتَّى غلبه وبيده عِنَانُ فَرَسِ أسْكِيَ يَقُودُهُ ويُهَرِّبُه. فَلَمَّا رأى أصحابُ أسْكِيَ أنَّهُ أدْبَرَ وتَوَلَّى؛ لم يقف بعْدَهُ أحْدٌ منهم. بل اتَّبَعُوه سوى الذين يُقالُ لهم سُونَة، وهُمْ تِسْعَةٌ وتِسْعُون لم يَتَحَرَّكْ أحْدٌ منهم وبقوا جَالِسِين تحتَ تُرُوسِهِمْ، وأدْرَكَهُمْ أصحَابُ جَوْدَر قَاعِدِينَ وقَتَلُوهُمْ أجمعين.[1]

---

(١) السونة: مجموعة من المقاتلين الأشداء، كانوا يقاتلون بالعصيِّ، ويحلِّفون حلفًا خاصًّا يحرِّم عليهم الانسحاب من مبدان القتال مهما اشتدت الحال. ينظر: UNESCO, General History of Africa, iv, p208

وحين أبْصَرَهُم أصحابُ جَوْدَر يَتَهَيَّأون للهُرُوبِ وعَرَفُوا ما حَاقَ بهم مِنَ الرُّعْبِ والاضطراب؛ وَقَفُوا وصَاحُوا ورَفَعوا عَقِيرَتَهُمْ بلا إله إلاَّ الله! اشْكُرُوا الله الدَّائم الدَّوْم.

وأشْجَعُ أهل سُنْغُيْ يَوْمَئِذٍ وأجْرَأهم وأقْوَاهُم قلبًا بَلْمَع مُحَمَّد كَاعُ بن أسْكِيَ داوود، وعمر بن أسْكِيَ إسحاق بن أسْكِيَ مُحَمَّد، وكُرَيْ فَرْمَ عَلُو بن دَنْدِفَارِ بكر بن سيلى، وبَارَيْكُيْ تَبَكَل الخَصِّي، وما زالوا بعد هُرُوبِ القَوْم يَرْمُون أنْفُسَهُم في المهالك ويَدْخُلُون ويخْرُجُون ويحْمُونَ وراء قوم أسْكِيَ وَيُدَافعُون عنه مَنْ أرَادَ لحوقَهُمْ، والرَّصَاصُ يَطِيرُ على رؤُوسِهِمْ ويَضْرِبُ النَّاس أمَامَهُمْ ووَرَاءَهُمْ ويمينهم وشِمَالَهُم حتَّى خرجوا سالمين.

وهم يحسبون أنَّ الرُّمَاةَ يَتْبَعُونَهُم. بل

[ص١٤٩]

نزلوا هُنالِكَ وما جَاوَزُوهَا، ونَصَبُوا خِبَاءَهُم وضَرَبُوا العَطَن بها، ورجع أسْكِيَ إسحاق حتَّى دَخَلَ مَدِينَةَ كَاعُ مَهْزُومين، واجْتَمَعَ به قومُهُ كأنَّهُ لم يمتْ أحدٌ منهم، وَدَخَلَ في أهْلِ كَاعُ في تِلْكَ اللَّيْلَة مُصِيبةٌ وكربٌ وبلاءٌ ضَاقَ بهم ذَرْعُهم، لا مَقْعَدَ ولا مَفرَّ.

وفي تِلْكَ الحالة أرْسَلَ الأميرُ مولاي أحمد الذَّهبي رسُولاً إلى أخيه الشَّرِيف مُحَمَّد بن القاسم يَأمُرُهُ بالرِّحلة مِنْ تِلْكَ الأرض؛ إذ لا يَليقُ بأمْثَالِهِ الجلُوسُ بأرض الفِتَن، فَأرْسَلَ هو إلى جميعِ عَبِيدِه الزَّناجِيَّة الَّذِين بكُويَ وكان له هُنالِكَ يَوْمَئِذٍ سَبْعُون بيتًا، وإلى الذين بِكُيْنَ وهو يَوْمَئِذٍ أربَعُونَ بيتًا وغَلَّةُ كلِّ بيتٍ ثلاثةُ آلافٍ كلَّ عامٍ، وإلى الذين بطَوْتَلَ وهم يَوْمَئِذٍ خمسةٌ وسِتُّونَ بيتًا وغلَّتُهُم بعد كلِّ ثَلاثَةِ أشْهُرٍ أن يُعطِيَ كُلُّ بَيْتٍ حُزْمَةً مِنَ الحيتَان اليَابِسَات، والذين بِكُومَ وهم يَوْمَئِذٍ اثنان

وسبعُون بيتًا وغلَّتُهُمْ في كلِّ عامٍ أن يُصْلِحَ بعضُهُمْ سُفُنًا، وغَلَّةُ باقيهم العاج، والذين بأنْكَنْدَ وهم يَوْمَئِذٍ ثلاثون بيتًا غلَّة كلِّ أحدٍ منهم كُلَّ عَام حُزْمَةً مِنْ يَابِسِ الحِيتَانِ، والذين بِدُمْبِ وهم يَوْمَئِذٍ عِشْرُون بيتًا وليس عَلَيْهِمْ غَلَّةٌ إلاَّ مِلاحَةُ السُّفُن.

فَلَمَّا قدِمُوا إليه أمَرَهُمْ بالرِّحْلة جميعًا؛ فاسْتَشْفَعُوا بأعْيَان ذلك البلد، فَقَبِلَ شَفَاعَتَهُم فيهم كلِّهِم إلاَّ أهل أنْكَنْدَ؛ فقال: يا أهلَ أنْكَنْدَ إني أحِبُّ أنْ تَرحَلُوا مِنْ مَكانَتِكُم؛ لأنَّ ذلك المكان جزيرة ضَيِّقَةٌ بالماء، وفيه مَرَدَةُ الجِنِّ والشَّيَاطِين، ومع ذلك كُلِّهِ لم يَرْضَوا بتِلْكَ الرِّحْلَة، وقال لهم الشَّرِيف: اذهبُوا فلَعَلَّ الله أنْ يُرِيَكُمْ ذلك بغَيْرِ هلاك، فكان كما قال (رَحِمَهُ الله) كلُّ مَنْ وُلِدَ بذلك البلد فَإنَّهُ يَكُونُ مجنُونًا، والعياذُ بالله!

وكان أسْكِيَ يومَ عَزَمَ على الخروج لملاَقَاةِ جَوْدَر وقِتَالهم، جَمَعَ أشْيَاخَ كَاعُ وأعْيَانَ جَيْشِهِ والقَاضِي

[ص١٥٠]

الخطيب وكبراء شُهُودِه، وسَأَلَهُمْ عن الرَّأي والتَّدبير، وحَضَرَ هُنالِكَ بَعْضُ عُلماء تُنْبُكتُ، وأشار له بَلْمَع مُحَمَّد كَاعُ: إنِّي أرى مِنَ الرَّأي أنْ تَقْطَع لي مِائةَ فَارِسٍ ومائة عبْدٍ ونَصْعَدَ ونَعُور كُلَّ بئر كان لهم في الطَّرِيقِ ونَدْفنه، ثُمَّ نَرْجِعُ ونقوم لِلِقَائِهِم، تجِدُهُمْ ظَمْآنين قد أشْرَفُوا عَلى الهلاَك، ونَقَعُ عَلَيْهِمْ. هذا هُو الرَّأيُ. وصوَّبَهُ بعضُهم وأبى عليه البَعْضُ، وكلُّ مَنْ ذكَرَ مَا عِنْدَهُ رَدُّوه.

وقال العالم التُّنْبُكْتِيُّ: وأحسنُ ما رأيْتُ وأقُولُ به وأظُنُّه هو أصْوَب، أنْ تَأمُرَ أهلَ هذه المدينة بالانتقال والارتحال إلى وَرَاءِ هذَا البَحْر وتَبْقَى أنت وجَيْشُكَ هنا، وإنْ جاء وأنتَ على بَصِيرَتِك إنْ غَلَبْتَهُم؛ فالحمْدُ لله، وإنْ غلَبُوكَ فَاخْرُجْ إلى المغرب فتَحْمِلِ مَنْ كان هُنالِكَ يَتْبَعُكَ منهم أكثَرُ مِنْ مِائة ألْفٍ وتُقَابِلُهم بهم، وأنْتَ

في وُسْعٍ وأهْلُكَ وأوْلادُك ومَالُك في وَرَاءِ البحر مكان المنع حتَّى يَنْصُرَكَ الله عَلَيْهِمْ.

وكاد أن يميل إلى قوله، وقام سَعُ فَرْمَ وقال: تَمَلَ تَمَلَ أصْلَحَ الله أمْرَك! الفُقَهَاء لا يعرفون أمور الحرْبِ ولا يَعْرِفُون إلاَّ الكتَابَ والقِرَاءة. فكيف يمكنُ تَرْحِيلُ كَاعُ بِعِظَمِهَا وكَثْرَةِ سُكَّانها؟ أين السُّفُن يحْمِلُهُم إلى وراء البحر؟ لا يَتَّفِقُ ذلك إلاَّ بعد ثَلاثَةِ أشْهُرْ. وقام كُيْمَكُيْ داوود بن إسحاق وقال: فكيف لا؟ يمكن في ثلاثَةِ أيَّامٍ. بل يمكن فيه بلا شَكٍّ. والَّذِي عندي لأسْكِيَ من قَوَارِب

[ص١٥١]

كَنْتَ التي هي سُفُنُ السَّفَر والسَّيْر أرْبَعُمِائَة كَنْتَ، يحْمِلُون دار أسْكِيَ وأمْتِعَتَهُ ونساءه وبضَاعَاته ومَالَه ثلاثة أيَّامٍ. وأمَّا غير كَنْتَ من السُّفن الكبار من مماليك أسْكِيَ من كُيَمَ إلى كَدَيْ تكون ألْفَ سَفِينَةٍ، ما عدا سُفُنِ التُّجَّار وسُفُن بنات أسْكِيَ وسفن سُكَّانِ البلد ومن السُّفُنِ الصِّغَار الكَائِنين هُنالِكَ، يَبْلغ عَدَدُهَا سِتَّمِائة أو سَبْعَمِائة على ظنِّي. بل لم أر الرَّأيَ أحْسَنَ مِنْ رأْيِ هذا الفقيه، فلا تُعْرِضُوا عنه.

فقال ذلك الفقيه: إن أعْرَضُوا عن رأيِي هذا ونَبَذُوهُ؛ سَيَأتِيهِمْ يَوْمٌ عَبُوسٌ، ترى امرأةً تأخُذُ بِيَدِ ولَدِهَا وبيَدِهَا طَسْتٌ مُلِئ من الذَّهب، تَطْلُب مَنْ يحْمِلُهَا وأولادَهَا بتِلْكَ الذَّهَبِ ويرميها وراء البحر، ولا تجد مَنْ يَحْمِلُها.

فكان ذلك يومَ رَجَع إلَيْهِمْ أسْكِيَ من قِتَالهم هَازمًا، ترى امرأةً وبِيَدِها طَسْتٌ مُلئ من ذَهَبٍ وغيره تُنَادِي صاحبَ سَفِينَةٍ باكيةً: احمِلْنِي ولك هذا، ولا تَجِدُ مَنْ يَلْفِتُ إليها.

وأخبرني الشَّيْخ مُحَمَّد زَغِيتِ حفيدُ الخطيب مُحَمَّد زَغِيتِ: إنَّ هذا الفقيه المشار إليه الَّذِي أمر بانتقال أهْلِ كَاعُ إلى وراء البَحْرِ هُو ألْفَعْ كعت. فَلَمَّا أعْرَضَ

القومُ عن اسْتِعْمَال رأيه، بَكَّرَ في غَدِهِ قافلاً إلى بلده، وزَوَّدَهُ أسْكِيَ مائة ألفٍ وَدْعًا وعشر خُدَّام، ومشى بَعْدَما ألَحَّ أسْكِيَ عليه أن يصبر حتَّى يَرْجِعَ مِنْ قِتَال القوم فلم يرْضَ، وأدْركه الخبر بهزيمة جيش أسْكِيَ

[ص١٥٢]

ببلد كَنْتَ. وذَكَر الشَّيْخُ مُحَمَّد زَغِيتِ أنَّهُ أتاه في بُكْرَة ذاك اليوم وقال لي: يا مُحَمَّد لو أخَذَ أسْكِيَ بِقَوْلي لا يكونُ عليه مِثْلُ هذه الخسَارَة، ثُمَّ بكى وحَوْقَلَ واسْتَرْجَع.

ورأيتُ بخطِّ الفقيه الإمام أبي بكر سُن بن عمر أن القتال بين أسْكِيَ إسحاق وأهل مُرَّاكُش في سُنْكِيَ في طَرَف تُنْدِبِي ضُحَى الثُّلاثاء سَادسَ عَشَرَ جُمادى الأولى عَامَ تِسْعٍ وتِسْعِين وتِسْعِمائة، قائلاً من خطِّ القَاضِي محمود بن الحاج المتوكِّل كعت (رَحِمَهُ الله) أنَّ أول القِتَال والمضَارَبَة بَيْنهُما كان في سُنْكِيَ وهو أوَّلُ المواضِعِ الثَّلاثة الذين تَضَارَبَا فيها. والَّذِي في حِفْظِي قبلُ: سُنْكِيَ هو مكان المضاربة الثَّانِيَة التي وقع عَلَيْهِمْ باللَّيْل.

ولما فُسِدَ أمْرُ سُنْغُيْ وشتَّتَ الله شملَهُمْ وحَاقَ بهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئُون؛ بتَضْيِيع حُقُوق الله وظُلْم العِبَاد والتَّكَبُّر وشموخ الأنف، وكانت بَلَدُ كَاغُ في أيَّام إسحاق في غايَةِ الفِسْقِ وإظهار الكبائر والمنكرات وفُشُوِّ القَاذُورات، حتَّى اتَّخَذُوا للزُّناة رئيسًا، وصَنَعُوا له طبلاً ويتَحَاكَمُون فيها، وغير ذلك مما يَعِيبُ به ذاكِرَه والمُحَدِّثَ به ذَوو المرُوءات. فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون![1]

---

(١) كانت تلك المنكرات نتيجة طبيعيَّة للواقع الاجتماعي الطارئ بصونغاي وفي العاصمة كاغ بالذات، وقد تقدَّم في أكثر من موضع أن أسْكيا قد جلب إليها الرقيق إثر غزواته، وأنَّ ابنه أسكيا داود غزا أرض باغَن (عام٩٥٧هـ)؛ فجاء بالقينات الكثيرات، وجعل لهن حارة في كاغ مثلما جعل والده أسكيا الحاج حارة للموشي (السعدي، ص١٠٢).

ثُمَّ هَرَب أسْكِيَ إسحاق [إلى أنْ نَزَل بمكانٍ يُقالُ له بَرْهَة]، وأراد أن يَتَوَجَّه إلى دَنْدِ. فخَالَفَهُ قَوْمُه، ورجع وقَطَعَ البَحْرَ ومعه جَيْشُهُ إلى أن نزل بمكانٍ يُقالُ له بَرْهَة،[١] وأخْرَجَ ألف فارسٍ وأمَّر عَلَيْهِمْ أخَاهُ بَلْمَع مُحَمَّد كَاعُ، وأمَرَهُمْ بالوُقوعِ على جَيْشِ جَوْدَر. فَلَمَّا خَرَجُوا من

[ص١٥٣]

عنده بيومٍ ولَيْلَةٍ عَزَلُوا أسْكِيَ إسحاق، وطلَّعُوا مُحَمَّد كَاعُ وجَعَلُوهُ سُلْطَان سُنْغُيْ. وتَسَلْطَنَ ومَكَث هُنالِكَ.[٢]

ولما وصَلَ الخبر إلى أسْكِيَ إسحاق بأنَّهم عَزَلُوهُ وطَلعُوا مُحَمَّد كَاعُ، خَرَجَ مُتَوَجِّهًا نحو كُرْمَ، ومعه شِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ أحبَّائِهِ، مِنْهُم وُلْدُ بَعَنَ، وحمل مِنْ مَالِ السَّلْطَنَة الَّذِي كان معه هُنالِكَ من الذَّهَب والفِضَّةِ كثيرًا، واخْتَارَ مِنْ أفْرَاسِ السَّلْطَنَة ثلاثين فرسًا مختارين ما بين بَرِ والحمْدِيَّة تُقَادُ مَعَهُ،[٣] وأرْبَعِين عَبْدًا مِنَ الخِصْيَان، والعَلامَات، وهنَّ اثْنَا عَشَر: بَنْدُ السَّلْطَنَة، وطَبْلُ السَّلْطَنَة، وسيف أسْكِيَ مُحَمَّد الَّذِي أتى به من حجِّه. وقد قدَّمنا أصْلَهُ وما قيل فيه واختلاف

(١) يبدو أن الجملة الأولى: «إلى أن نزل بمكان يقال له برهة» جملة زائدة؛ لذلك وضعناها بين سهمين معقوفين.

(٢) الواضح أن عزل بلمع محمد كاغ لأخيه أسكيا إسحاق في هذا الوقت الحرج كان بسبب سوء إدارة أسْكيا للحرب، وعدم حزمه في اتِّخاذ القرارات، وقد تقدم أعلاه أنه لم يأخذ بعدة اقتراحات كان يحتمل أن يكون لها مفعول في دفع الجيش المغربي، والحدِّ من زحفه على صونغاي، ثُمَّ إن بلمع مُحَمَّد كَاعُ - لطبيعة منصبه العسكري بالدولة - كان من الصعب عليه قبول هذه الهزيمة النكراء على صونغاي. ولكن تصرف أسكيا محمد كاغ ومبادرته إرسال رسول إلى القائد جودر؛ طلبًا للصلح يدل على سوء تصرُّفه وتخاذله أيضًا. هذا، ولم يمكث في السلطنة إلاَّ أربعين يوما.

(٣) برِ: الفرس بلغة الصونغاي، والحمدية هي العتيقة من الخيول.

أقاويل النَّاس فيمَنْ صَارَ بِيَدِهِ مِنَ الأَسَاكي.(١)

فَلَمَّا خرج هاربًا شيَّعه مَنْ مَعَهُ هُنالِكَ من أهْلِ جُنْدِه حتَّى بَعُدُوا معه، فَلَمَّا أرادوا الانصراف والرُّجُوعَ نزلوا على أفْرَاسِهِمْ يتَبَاكون على ذَهَابِهِ وودَّعوه، ثُمَّ قال له هَيْكُيْ: يا أسْكِيَ إنَّك تَذْهَبُ بمال أسْكِيَ الجديد وتَذْهَبُ بأشْيَاءَ لم يَذْهَبْ بها مَلِكٌ عُزِلَ أو طُرِدَ قَبْلَكَ مِنَ الأسَاكي، ونحنُ مَسْؤُولُونَ به وَمُعَاقَبُونَ على ذلك مِمَّنْ يَتَوَلَّى بَعْدَكَ؛ فقال: وما هي؟ قال: هؤلاء البُنُود. فقال: صَدَقْتَ، وردَّها، ثُمَّ قال: هل بَقِيَ عِنْدي شَيْءٌ؟ فقال: هؤلاء الخيول، وهم خُيُولُ سَرْجِ أسْكِيَ؛ فردَّ منها خمْسَةَ عَشَرَ، وأمْسَكَ خمْسَةَ عَشَر، ثُمَّ قال: فما تريد بعد ذلك؟ فقال: هذا دِنْتُورِ، فردَّها.(٢) ثُمَّ سأله: هل بقِيَ شيء؟ فقال: ولدُك ألْبَرْكَ، فلا لك أن تَذْهَبَ به، ولم يَكُنْ ذلك عادةً؛ لأنَّ كلَّ مَنْ عُزِل إذا هَرَبَ فلا يَهْرُبْ بِوَلَدِه، بل يتركه لأَنَّهُ مِلْكُ السُّلْطَان الَّذِي يَتَوَلَّى بَعْدَهُ، وهو وَلَدُه. فقَالَ له أسْكِيَ إسحاق: هذا الَّذِي تَذْكُرُهُ

[ص١٥٤]

ما خَفِيَ عليَّ، ولا أجهلُ أنَّ أسْكِيَ المعْزُول لا يذهبُ بِوَلَدِه، وذلك إذا كان

---

(١) ذكر ابن المختار هنا أن شارات السلطنة الصنغائية اثنا عشر، ولكنَّه لم يذكر إلا ثلاثة، ويمكن جمع النصوص بعضها ببعض للخروج بمعظم تلك الشارات، ومنها: الرَّاية، والسيف، والقميص، والخاتم، والعمامة الزرقاء، القلنسوة الخضراء، والطبل، ودِنْتور، وهذه كلها مذكورة في هذا الكتاب بين أيدينا، ينظر [ص٨٦؛ ٨٧]، ومنها أيضا: المصحف الذي كانوا يزعمون أنَّ الخليفة العباسي أرسل به إليهم. ويبدو أن تلك الشارات قد ازدادت بشكل فاحش في عهد السلاطين الدُّمى تحت الغزو المغربي؛ حتى بلغت أربعا وأربعين علامة، ومعظمها ذهبية (تذكرة النسيان، أحداث عام١١٠٦هـ).

(٢) دِنْتور: بقية عود محترق يُعتقد أنه أول حطب أشعله الأسلاف بالمملكة، وتوجد في كثير من التَّجمعات الأفريقيَّة وممالكها مثل هذه العلامات، تتوارثها الأسر الملكيَّة كابرا عن كابر؛ دلالة على أحقيَّة الأسرة للزعامة وملكية الأرض دون غيرها بوصف أسلافها أوَّل القاطنين بتلك الممالك.

لا يَتَوَلَّى بعدَهُ إلاَّ أحدُ أولاد أبيه فيَبْقَى عِنْدَهُ وهو وَلَدُهُ، واليَوْمَ لا يَتَوَلَّى بعدي إلاَّ جَوْدَر، ولا أتْرُكُ وَلَدِي له لِيَمْلِكَهُ أو يَبِيعَه، وإنْ طَلَبْتَ أنْ تَغْصِبَ منِّي ولدي وتُعْطِيَهُ لجَوْدَر فقد رُمْتَ شططًا. إمَّا أنْ تَقْتُلَني أو أقْتُلَكَ.

فسكت هَيْكُيْ ثُمَّ قال: فهذه خَاتَم أسْكِيَ مُحَمَّد وسَيْفُهُ وعِمَامَتُهُ. فقال: أمَّا الخاتم لا يُصِيبُهُ إلاَّ مَنْ كسَّرَ إصْبعي، وكذلك تِلْكَ العِمَامَةُ لا يَنَالهَا إلاَّ مَنْ قَطَعَ رأسي، والسَّيْفُ سيفي، فليس بِسَيْفِ أسْكِيَ، وانْصَرَفَ وانْصَرَفُوا.

ومَضَى إلى كُرْمَ، وقصَدَ مدينَةَ بِلَنْكَ التي هي دارُ مملكة سُلْطَان كُرْمَ حتَّى نزل بخارج المدينة، وأرْسَلَ إلى سُلْطَان البلد بمكانه وَحَالِه ومَا جَرَى عليه وأنَّهُ قَصَدَ حُرْمَتَه، وكان إسحاق حاربهم مَرَّتَيْن وغَارَ عَلَيْهِمْ وقْتَ سَلْطَنَتِه، وقَتَلَ مِنْ جُنْدِه أكثَرَ رِجَالهم حتَّى كاد أن يَسْتَأْصِلَهَم، ثُمَّ سَاقَهُ قَدَرُ الله وقضَاؤُهُ إليهم، فَرِحُوا بإدْرَاك ثأرِهْمْ منه.

وخرج سُلْطَان البلد إليه في جمٍّ غَفِيرٍ وتَلَقَّاهُ بالتَّرحيبِ والتَّعْظِيم، وهُمْ كُفَّارٌ، وساقَهُم إلى وسَطِ البلد وأنْزَلُوهُم في دَارٍ واسِعٍ هُنالِكَ، وأضَافُوهُم ضِيَافَةً عَظِيمَةً في تِلْكَ اللَّيْلَة، ثُمَّ رجَعُوا إليهم وقْتَ السَّحْرِ (وهم) نائمُونَ وصَعِدُوا فَوْقَ تِلْكَ الدَّارِ بالنِّشَابِ عَلَيْهِمْ، وصاحُوا عَلَيْهِمْ، وما أيْقَظَهُم إلاَّ نُزُول النِّشَابِ عَلَيْهِمْ كالمطر، وهَدَمُوا بعْضَ جِدَار البيت عَلَيْهِمْ وقَتَلُوهم، وقُتِلَ وُلْدُ بَعَنَ معه وجميع أتباعه.

وقيل لما نزل النَّبْلُ على إسحاق وأخَذَ يَتَمَضْمَضُ لسَانَهُ، أتاه وُلْدُ بَعَن وَوَقَف [ص١٥٥]

عليه، وكان ولدُ بَعَنَ علَّق السِّكين على سِرْوَاله، سلَّ ذلك السِّكِّين وقال: آلَيْتُ وحَلَفْتُ لأسْكِيَ إسحاق إنْ أتاه الموتُ وأنَا حَاضِرٌ إلاَّ أنْ أموتَ لهُ قَبْلَه، ثُمَّ أخذَ حُلْقُومَهُ بِيَدِهِ وذَبَحَ نَفْسَهُ وسَقَط ومات قبل مَوْتِ إسْحَاق. وهذا ما نَقَلتُه مِنْ كِسِرْدُنْكِ بُكَارِ، حَدَّثَني ببعض القِصَّة، وحَدَّثَني به غيره مِمَّنْ أثقُ بِروَايَتِه.

الباب الخامس عشر

أَسْكِيَ مُحَمَّد كَاعُ وانْقِرَاضُ دَوْلَة كَاعُ

فَلَمَّا تَسَلْطَنَ أَسْكِيَ مُحَمَّد كَاعُ بعث رسولاً إلى جَوْدَر سرًّا يطلُبُ المصَالَحَةَ مَعَهُ وبِدُخُولِهِ في طَاعَة السُّلْطَان مولاي أحمد الذَّهبي وَيُعْطِيه الجِزْيَةَ والغَرَامَة، وأجابه جَوْدَر وكَتَبَ له أَنَّهُ عَبْدٌ مَأْمُورٌ لا يَقْدِرُ أن يَفْعَلَ ذلك إلاَّ بِمُشَاوَرَة السُّلْطَان مولاي أحمد (نَصَرَهُ الله) واسْتِئْذَانه.

وبعد هُرُوب إسحاق، دَخَلَ الباشا جَوْدَر وجَيْشُهُ في وَسَط كَاعُ ومكَثَ فيها خَمْسَةَ عَشَر يومًا، ثُمَّ ارْتَحَلُوا في اليَوْم...[1] من جُمادى الآخرة وقصَدُوا بلْدَةَ تُنْبُكْتُ (حَرَسَهَا الله) وقَدِمُوا صَبيحةَ الخَمِيس في اليوم الأوَّل من رجب، ومَكَثُوا على رَبْوَةِ تُنْبُكْتُ شهرًا، ثُمَّ دخَلُوا دِيَارَ البَلَدِ وبَنَوْا القَصَبَة.

وفي «دُرَر الحِسَان» لبابَ كُور بن الحاج مُحَمَّد بن الحاج الأمين كانو: أَنَّهُم نزلوا بخارج مدينة تُنْبُكْتُ في الجانب الشَّرقيِّ صَبيحةَ الخميس غُرَّة رجب عامَ تِسْعَةٍ وتِسْعِينَ وتسعمائة؛ فَتَلقَّاهُم أعيانُ البلد بالتَّرحيب، وأطَاعُوهُ في البَيْعَةِ وضيَّفوه، ثُمَّ دبَّر في تحصيل القَصَبَةِ داخِلَ المدِينَةِ فَحَصَلَها، ثُمَّ دخلها بجُنْدِه، انتهى.

ورُوِيَ أنَّ جَوْدَرًا أتى إلى الفَقِيهِ القَاضِي عمر بن محمود، ودَخَلَ عليه وَقَبَّلَ رَأْسَهُ ورِجْلَيْهِ وجلَسَ تجَاهَهُ مُتَمَلِّقًا وقال: جئتُك أطْلُب منك أن تَسْتَعِيرَ لنا دارًا نَسْكُنُ فيها، وقد قرُبَتْ وقتُ المطَرِ، ومَعَنَا بَارُودُ السُّلطان مولاي أحمد (الله

---

(١) اليوم غير مذكور في الأصل، لكن يظهر أنه في أواخر الشهر.

ينصُرُه)، دارًا أو رَحْبَةً واسِعَةً فنَبْني بها

[ص١٥٦]

قصَبَتَنا وندخل فيها، إلى أن يأتيني أمْرُ السُّلْطَان بالرُّجُوعِ إليه؛ فَنَرْجِعَ فَنَتْرُكَهُ لمواليه، فأطْرَقَ القَاضِي مليًّا، ثُمَّ قال: إنِّي لستُ بِمَلِكٍ ولا أَقْدِرُ على إعْطَاءِ دارِ أحدٍ، فادْخُلْ داري فانْظُرْها، إنْ كان مُرَادُك فيها فَنَخْرُجَ منها وتَدْخُلُون فيها كرامَةً وطَاعَةً للسُّلْطانِ (نصرَهُ الله)، وإلاَّ فَادْخُلْ في البلد وانْظُرْ أيَّ المواضِعِ منْهُ أَحَبُّ إلَيْكَ ويُوسِعُكَ وقومَكَ فافْعَلْ.

ثُمَّ خرج وطاف في البلد وَمَعَهُ نفرٌ من قومه، حتَّى وصل إلى مَوْضِعِ هذه القَصَبَة، وألفَاها مُعَمَّرًا، بل هُوَ أعْمَرُ دِيَارِ تُنْبُكْتُ، وفيها بُيُوتُ التُّجَّارِ الكِبَار والأعْيَانِ، وفيها هذا المسجد الَّذِي يُقَالُ لَهُ مَسْجِدُ خالد. ودَار تباشات هذه هي طرفُ دَارِ تَاجِرٍ اسمه الحاج أكُرْجُوم، وهذي الهرى[1] هي دار تاجِرٍ كذلك يُسَمَّى سَنْ سِمُووَع، معناها: سَنْ لا يأكل الأرزَّ.

وطافوا بذلك المكان وقَلَّبُوهُ وعَجِبَهُم وقَطَعُوا منه مِقْدَارَ هذه القَصَبَة، ثُمَّ أَمَرُوا أرْبَابَ تلكُمُ الدِّيَارِ بالانتقال والرِّحْلَة والخروج. ولا دَار هُنالِكَ إلاَّ وهي مملُوءةٌ بالمال العَظِيمِ من الملح والصُّنِيَّاتِ وغيرهما مما لا يَدْخُلُ تحت حَصْرٍ ولا يَعْلَمُهَا إلاَّ مَالِكُهَا، واشْتَكى أهلُ المكان إلى القَاضِي عمر (رَحِمَهُ الله) يَسْتَشْفِعُون به؛ لِيَطْلُبَ منْ جَوْدَر التَّأخِير لهم حتَّى يَطْلُبُوا من البلد بيوتًا ينتقلون فيها؛ فأرْسَلَ القَاضِي خَدِيمَهُ أشَرَعَ مُنْذُ عُمَر؛ لِيُكَلِّمَه ويَصْبِرَ لهم في

[ص١٥٧]

ذلك. وركب هو بِنَفْسِه مع نَفَرٍ معه وأتى القَاضِي وقال: سمعًا وطاعة لأمْرِكَ،

(١) الهرى: مخزن الحبوب والأطعمة، ويجمع على: أهْراء.

ولَكِنْ إلى كَمْ من الأَيَّام؟ فقال الشَّهر، وإنْ منهم مَنْ يَكُونُ الشَّهْرُ في انْتِقَالِهِ قَلِيلاً. فقال: لا نَقْدِرُ على صبر شَهْرٍ، وقد ضَاقَتْ عَلَيْنَا الوَقْتُ، بل نَصْبِرُ خمْسَةَ عَشَرَ يومًا، فيُبَادِرُونَ بالخرُوج، ثُمَّ خرج فأخبر القَاضِي أولائك القوم بما قال.

وشَرَعُوا يُصْبِحُونَ وَيمسُونَ في طلب الدِّيَار، ويُخْرِجُون ما قَدرُوا على حمله. فما راعَهُمْ في صُبْح اليوم السَّابع إلاَّ وَهُمْ نَازِلُونَ لبابهم بِحَمُولِهِمْ وخُيُولهم، وهَجَمُوا عَلَيْهِمْ بالكلام القَبِيحِ والانْتِهَارِ والضَّرْب، وأَخْرَجُوهم بالرُّغْم والقَهْر وقسَّمُوا دِيَارَهُمْ، وهم داخِلُونَ وأَرْبَابُهُمْ خَارِجُون. فإنَّا لله وإنَّا إليْهِ رَاجِعُون!

وبَقِيَ جُلُّ أموالهم هُنالِكَ في دِيَارِهِم، ثُمَّ بعد خُرُوجِهِم ما اسْتَطَاعَ أحْدٌ أن يَرْجِعَ إلى حمل ما بقي له، وشَرَعُوا في تَلْفِيقِ الدِّيَارِ والطُّرُقِ وهَدْمِ بعض الدِّيَار، ولا فِتْنَةَ أَعْظَمُ ولا أكْبَر على أهل تُنْبُكْتُ ولا أَمَرُّ منه.

نادَى الباشا جَوْدَر عُلَمَاء تُنْبُكْتُ وتجَّارَهَا ووَظَّفَ عَلَيْهِمْ العَبِيدَ والُخدَّام لِبنَائِهَا، ونفقَة العبيد. منهم مَنْ كُتِبَ عليه عَشَرَةُ عبد، ومنهم من وُظِّفَ عليه سبعةٌ، وخمسة عشر وثلاثةُ عَبيد، وزَمَّمُوا على كُلِّ منهم عَدَدَ مَنْ يأتي به وأسماءهُمْ، ويخدمون إلى صلاة العصر، وبعد صلاة العصر يُنَادَى: أيْنَ الشَوَّاش؟ ويأتيه مِنْهُمْ أكثرُ مِنْ أربعين شَاوِشًا، ويأمُرُهُم بِسَوْقِ كلِّ عَبْدٍ إلى مَوْلاَهُ، ويقول: قُلْ لأَرْبَابهم أن يَعْشَاهُمْ حتَّى يَشْبَعُوا ويُبَكِّرُوا بهم، ويكون مع كُلِّ أَحْدٍ مِنْهُمْ غذاه، بحيث لا يطلع شمس على أحْدٍ إلاَّ وهو عِنْدَنَا. ويُشَيِّعُونهم

[ص١٥٨]

الشَّوَّاش إلى سيِّدِهِمْ ويَعُدُّهم له، ويجعل أيْدِيهِمْ في يَدِ السَّيد، ويُبَكِّرُونَ بهم قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْس، ومعهم نَفَقَتُهُم حتَّى يقفون بهم عليه، ويَعُدُّونهم له واحدًا بعد وَاحِدٍ، ومع هذا كلِّهِ شَوَّاشُهُمْ يَطُوفُونَ في البلد، وكلُّ مِن الْتَقُوا بهم قَبَضُوهُمْ

وسَاقُوهُمْ إلى حمل طين البناء من الصُّبح إلى العَشِيِّ، حتَّى تمَّ البناءُ، انتهى.

وأخبرني بعضُ شُيُوخ تُنْبُكْتُ (حرسها الله) أنَّ الباشا جَوْدَر قَطَعَ على تُجَّار تُنْبُكْتُ وقت البناء ألفًا ومائتين صُنِيَّةً عند استهلال كلِّ شَهْرٍ، يأتون بها في غَدِهِ، ويُفَرِّقُهَا على جنده تفْرِقَةَ المؤُونَة، والمخبر المذكور أظُنُّه المعَلِّمَ بُصَ الخيَّاط مولى زين بن بنأ. انتهى باقتصار.

ولا يحاط باطِّرادٍ ما نَزَلتْ بتُنْبُكْتُ منَ المصائب والإتْلافِ عند نُزُولهم بها، ولا يحصُرُوا مما أحدَثُوهُ فيها من الزُّورِ والكَبِيرة، وقَطْعِ أشْجَارِهَا ليَسْتَعْمِلُوها سفِينَةً، وبعد صنع ذلك أمروا بجرِّ تِلْكَ السَّفِينة مِنْ تُنْبُكْتُ إلى البحر. انتهى.(١)

فَلَمَّا تمَّت بناء تِلْكَ القصبة، وارْتَحَل بجيشه كلِّه إليها. فما لبِثَ إلاَّ قليلاً حتَّى نَزَل عليه الباشا محمود بن علي بن زرقون في نَفَرٍ قَليلٍ؛ فارْتَحَل مع جَوْدَر بجنُودِهِمَا إلى كاع، وقاتَلُوا أهلَ سُنْغُيْ وفتَحُوا بلادَهُم، وقَبَضُوا على أولاد السَّلاطِينِ منهم، وهرَبَ عامَّتُهُمْ إلى بلاد دَنْدِ، فسَكَنُوهَا إلى هَلُمَّ جرًا. ونزل الباشا جَوْدَر في مدينة كَاعُ بِبَعْضِ الجُنْدِ، ونزل محمود بالبعض في تَنْشٍ، وضربوا العَطَنَ فيه، وأرسل أسْكِيَ مُحَمَّد كَاعُ إليه، وهو نازلٌ بجنْدِهِ في مَكَانٍ يُسَمَّى بَرْهَة كما تقدَّم، يرُومُ عَقْدَ الصُّلْح

[ص١٥٩]

بينه وبينهم، ورَضِيَ محمود، وتَغَفَّلَ بالغُرُور، وفَرِحَ بِرُسُلِهِ وأعطاهم الهدايا، وكتب إلى مُحَمَّد كَاعُ بأنَّهُ على ذلك الصُّلْح، وأمَرَهُ أن يأتيه بِنَفْسِهِ حتَّى ينظرا ما هو الرَّأيُ وما يَعْقِدَان الصُّلح عليه.

فبعث أسْكِيَ مُحَمَّد كَاعُ إليه أسْكِيَ ألْفَعْ بُكَر لَنْبَار وهَيْكُيْ، ومتى وصَلاَ إليه؛

(١) يبعد نهر النيجر عن مدينة تمبكتو بثمانية أميال (=١٣كلم).

لقِيَهُمَا بالتَّرحيب والتَّعْظيم، وضرَبَ لهما الفُسْطَاط، وبَسَطَ لهما الفُرُشَ وضَيَّفَهُمَا، ومكثا عنده ثلاثَةَ أيَّامٍ، ثُمَّ كَسَاهُمَا بأحْسَنِ الكِسْوَة والهدَايَا، وبعث لأسْكِيَ مَا بَعَثَ، وكتب له يأمره بالمجيء بنفسه، وحَلَفَ له بالأمَانَة التَّامَّة، وأمَرَهُ بالتَّعجيل والإسْرَاع بالقُدُوم، وأنَّهُ لا ينتظر إلاَّ قدُومَهُ، وأنَّهُ مُسْتَعْجِلٌ يريد الرُّجُوع، ورَجَعَا إلى أسْكِيَ بكتَابِ البَاشَا محمود وقَرَأهُ، وحثَّهُ أسْكِيَ ألْفَعْ على الذِّهَاب وحَضَّهُ عليه، وأنَّهُ لا يَغْدِرُه وغرَّه بأنَّ الباشا حَلَفَ بالمصحف بأنَّهُ ليس له عنده إلاَّ أمَانَةُ الله. قِيلَ إنَّه أطلع أسْكِيَ ألْفَعْ على جميعِ أسْرَارِهِ وجَعَلَهُ حَبِيبًا وخَلِيلاً، وباع له أسْكِيَ مُحَمَّد كَاعُ، وَوَعَدَهُ له بِأُمُورٍ أنْ يَتَسَبَّبَ لإتيان أسْكِيَ إليه.

وبعد سبعة أيَّام بعد قُدُوم أسْكِيَ ألْفَعْ من عند محمود جمع أسْكِيَ أهل سُنْغُيْ وشَاوَرَهُمْ وأعْلَمَهُمْ بأنَّهُ ذاهبٌ غدًا إلى مجيبة الباشا محمود، وما فَاهَ أحدٌ منهم بكلمة: «لا» ولا «نَعمْ»، ثُمَّ قال له هَيْكُيْ: أنتَ ما رأيتَ محمود ومَا عَرَفتَهُ، وما رآه إلاَّ أنا وأسْكِيَ ألْفَعْ، وإنَّا ما نَظُنُّ معه إلاَّ الشَّرَّ، وما ترك لنا من التَّعظِيمِ والتَّملُّق شيئًا، وإنَّهُ كانَ يُقَبِّلُ رأْسَنا ويحمل لنا المأكول بنفسه ويَخْدُمُنا ويأتينا

[ص١٦٠]

بالماء ويَقِفُ بها على رُؤُوسِنَا حتَّى نَفْرَغَ مِنَ الأكل، وحين رأيتُ ذلك تحقَّقْتُ أنَّ له مُرَادًا. إيَّاكَ إيَّاكَ ثُمَّ إيَّاكَ! فلا تذهب، فإنْ خَالَفْتَ وذَهَبْتَ والله لا تَرْجِعُ أبدًا. هذا ما ذَكَرْتُ لك؛ فالْتَفَتَ إلى أسْكِيَ ألْفَعْ فقال: ما تقولُ أنت يا الفَقِيه؟ فقال: والله ما نرجو فيه أنا إلاَّ خيرًا ووفاءً. وسكت أسْكِيَ، وانْصَرَفَ كُلٌّ من الجماعة إلى مَنْزِلِه.

فَلَمَّا أصبح ضَرَبَ طَبْلَه ورَكِبَ مع مَنْ معه وأسْكِيَ ألْفَعْ، وكان أخوه أسْكِيَ سليمان وطائفةٌ مِنْ قَوْمِهِ هَرَبُوا منه إلى المَحَلَّة ودَخَلُوا على محمود وأطَاعُوهُ ونَزَلُوا عِنْدَهُ في المَحَلَّة، وأعطاه الخباء، وأسْكِيَ مُحَمَّد كَاعُ لا يَشْعُرُ بذلك، فَسَارَ مُحَمَّد

كَاعُ وجَيْشُهُ كُلُّه متزيِّنًا بأنواع اللِّبَاسِ حتَّى وصل أثْنَاء الطَّرِيق، وكان معه كَنْفَارِ محمود بن أسْكِيَ إسماعيل وبِنْكَفَرْمَ تُمَنْ دَرْفَنَ، لحقه كَنْفَارِ محمود وَنَزَلَ عن فَرَسِهِ وقال: اسْمَعْ وَصِيَّتِي وَوَعْظِي واتْبَعْ قولي، فإنِّي لك ناصِحٌ أمِينٌ؛ فقال له: بماذا توصيني وتَعِظُ وتَنْصَح؟ فقال: إنْ كنتَ عَزَمْتَ على الذِّهَاب وحَمَلَكَ الجرْأَةُ عليه؛ فاذهَبْ أنت وحْدَكَ ويَتْبَعُكَ أربَعُون فارسًا، وإن رَجَعْتَ فللَّهِ الحمْدُ، فقد رأيتَ من محمود ما رَأَيْتَ، فإن قَبَضَكَ فذلك قَضَاءُ الله وَقَدَرُه، وإنْ شِئْتَ فاجْلِسْ أنْتَ وأَذْهَب أنا وكَافَّةُ كُرْمِنَ، فإنْ قَبضُونَا فذَاك قِسْمَتُنا، وتَسْلَمُ أنت وتنجو أنت ومن معك، فهو خيرٌ مِنْ ذهابنا كلِّنَا صَغِيرنا وكبيرنا، وَنَصِلُ في أيدي العِدَى ويَسْتَأْصِلُونا، فنَفْنَى مَرَّةً واحِدَةً في مَوْضِعٍ واحدٍ؛ فنَصِير أثرًا بعد عَيْنٍ. فهذا قولي؛ فالْتَفَتَ إلى كاتبه أسْكِيَ أَلْفَعْ المذكور فقال له: ما تَقُولُ أنت؟

[ص١٦١]

فإنِّي أظنُّ أن قَوْلَهُ هذَا صَوابًا؛ فقال أسْكِيَ أَلْفَعْ بُكَر: لا تَسْأَلْني، فَانْظرْ في رَأْيِكَ، فقد كثُر الكلامُ في حَلٍّ ورَبْطٍ،[1] وذلك لا يليقُ بالسَّلْطَنَة.

فَوَقَفَ قليلاً، ثُمَّ مضى على وَجْهِه، وقد سبَقَ من أمْرِ الله ما سَبَقَ، وركب كَنْفَارِ محمود وتَبِعَهُ وساروا، فلم يكن إلاَّ قليلاً حتَّى تلَقَّوْا بالقائد الحروشي، ومعه ثلاثُونَ خيلاً من أصحاب صَبَاحِيَّة، فَلَمَّا الْتَقَوْا بهم حَمَلَ عَلَيْهِمْ القائِدُ الحروشي وأصحَابُهُ ودَفَعُوا عَلَيْهِمْ بمكان مَحَلَّتهم وضربوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ نزلوا على الأرض، وبايَعُوا أسْكِيَ وتَبَنْدَقُوا له قائلين: بِسْمِلَّ بِسْمِلَّ يا أسْكِيَ مُحَمَّد، الفَرَح بك، يُسَلِّمُ عليك الباشا، ثُمَّ ركبوا، ودفع عَلَيْهِمْ بعضُ أولاد أسْكِيَ اللاَّعبين بهم كذلك، ثُمَّ كَرَّ الحروشي وقَوْمُهُ راجِعِينَ إلى مَحَلَّتِهِم.

---

(١) تعبير محلي عن كثرة الخلاف في الأمر، فكأن بعضهم يقول: اربطوا (الدابة)، وآخرون يردون: لا. بل حلُّوها!

وركب كَنْفَارِ محمود يُهَرْوِلُ حتَّى وَصَلَ أَسْكِيَ، ونزل على الأرض وقال: يا أَسْكِيَ ليس الخبر كالمعَايَنَة، فاعْلَمْ أنَّ هؤلاء الفُرْسَان ما جاءوا إلاَّ للتَّجَسُّس، فإنْ كُنْتَ لا تحبُّ لنا الموت والفَنَاءَ فقد رَضِينَا بأنَّا لا نَهْرُبُ، فَدَعْنَا ندفع على هؤلاء الفُرْسَانِ ونَقْتُلُهُمْ ونَمُرُّ إلى محلَّتِهِم ونَقَعُ عَلَيْهِمْ؛ لأنَّهُم إذا رَأَوْنا يَظُنُّونَنَا فُرْسَانَهُم أصحابَ الحروشي، حتَّى نَخْتَلِطَ بهم، ومن يموت فَلْيَمُتْ على مَتْنِ فَرَسِه، وهو أَحْسَنُ مِنْ دُخُولنا في أَيْدِيهِمْ هكذا، ونَحْصُل بحيث لا رُجُوعَ لنا؛ فقال أَسْكِيَ: حاشا ما نَبْتَدِئُ بالخيانة والخداعة ونَقْضِ العَهْدِ بعد إبْرَامِهِ. ومضى فلم يقف، وتَبِعَهُ كَنْفَارِ محمود حتَّى عَثَرُوا على المَحَلَّة وطَلَعُوا عَلَيْهِمْ وعلى خباياتهم الكبيرة.

وحين وَصَلَهُمْ الحروشِي وبلَغَ إليهم وأخْبَرَهُم بمجيئهم، دَخَلُوا في الحزامة وصَفُّوا

[ص١٦٢]

باليمين والشِّمَال، وما مِنْهُم أحدٌ إلاَّ واقِفٌ مُسْنِدٌ على مِكْحَلَتِهِ ممتلئ الفم بالرَّصَاص، وحين وصَلَ أَسْكِيَ وقومُه؛ خَرَجَ محمود والقائد مامي ماشيَيْن على رِجْلِهِمْ مُسْرِعِين، ونزل أَسْكِيَ مُحَمَّد، وعانَقَهُ محمود والقائدُ مَامي والكُبَرَاءُ كَافَّةً، ورَحَّب بهم، وأخذَا بيده وسَاقَاه إلى خَبَايَا وأَجْلَسَاهُ على مَرْتَبَتِهِمَا بين نُمْرُقَته وجلس تحته، وحيَّاه الجيش كافَّةً اثنين اثنين يأتيان ويَتَبَنْدَقَانِ له السَّلام ورحمة الله، وأصحاب الشُّغْل والرَّباب والنَّزْوَا والغياط جالسين وراءهم تحت خبَايَاهُ يَشْتَغِلُونَ، ولم يَبْقَ أحْدٌ من أصحاب أَسْكِيَ إلاَّ نزل عن فرسه ودخل في حَلَقَتِهِمْ، وجَلَسُوا مَدْهُوشِين من حيثُ رَأَوا قومًا وُجُوهُهُم لا يشبه وجُوهَهُمْ بعدٌ غَفِيرِهِم وزِيِّهِمْ الرَّقْطي،[1] وقد دَخَلَهُم الوَجَلُ والرُّعْبُ والخوف.

---

(١) الرُّقطة: سواد يشوبه نقطُ بياض، أو بياض يشوبُه نقط سواد، ويقال: شاة أو حيَّة رقطاء أي التي فيها سواد وبياض.

وأمر محمود ومَنْ معه مِنْ سِلْسِلَتِه وأهْلِ الدَّائِرَة وحلُّوا غَرَائِرَ التَّمر والزَّبِيبِ والكُورُ، وفي أيدي بَعْضِهِمْ طَيْفُور،[1] وبعضُهُمْ في أيديهم المناديل، يَتْبَعُونَ صُفُوفَ أصحاب أسْكِيَ، ويُنَاوِلُهُمْ، ثُمَّ أخرجوا إليهم الموائد واللُّحُوم المشْوِيَّات وأكلوا، وبَعْضُهُمْ واقِفُون على رؤوسِهِمْ بالماء في طَسْتٍ، ومنهم من يُنَاوِلُهُم الماء بعد الفَرَاغ من الأكل، ومنهم مَنْ يَحْمِلُ الماء لغَسْلِ الأيْدِي، والمنَادِيلَ يَمْسَحُونَ أيْدِيَهُمْ فيها.

ثُمَّ قام محمودٌ ودخلَ تحت خِبَاءٍ كَبِيرَةٍ مَضْرُوبة وراء الخبايا التي تجمع فيها، ثُمَّ

[ص١٦٣]

أَمَرَ بالقائد مامي ونُودِيَ وخَرَج إليه وقال: ما تَقُول في هَؤُلاء القَوْم؟ وقد جاءونا بأمانة الله، دَعَوْنَاهُمْ؛ فَأَجَابُونا طائعين، وما كانَ مع أحْدٍ مِنْهُمْ سِلاَحٌ، فالَّذِي كان عندي أن نَتْرُكَهُمْ اليوم ويَرْجِعُون، وهُمْ قومٌ حَمْقَاء لا يَعْرِفُونَ الشَّرَّ، ومتى أرَدْنَاهُمْ ما نريد يأتون، ويَأتُونَا إنْ دَعَوْناهُم، فما تقولُ أنت؟ وقال مامي: نادوا الكَوَاهِي والبَاشُوطَات، وجاءوا. وقال مامي لمحمود: أعِدْ عَلَيْهِمْ كلامَكَ التي قُلْتَ في هؤلاء القوم، وأعَادَهُ عَلَيْهِمْ. وقالوا كلُّهُمْ لمامي: إيشْ قلتَ أنتَ يا القائد؟ ومولانا أحمد (نصره الله) ما أرْسَلَكَ مَعْنَا إلاَّ للحَرْبِ والرَّأي والمكيدَة؛ فقال: الله ينصر السُّلْطَان، ما بعثني إلاَّ لذلك، ولكنْ يا الباشا الله يُقَوِّيكَ ويعمل البركة فيك، كلامُكَ هذا مَا فِيه بَأسٌ، ولكنَّ هذا النَّاس قد دُهِشُوا وخافوا ودخَلَ فيهم الرُّعْب، وإنْ خَرَجُوا في أيْدِينا اليَوْم لا يرجِعُون إلينا أبدًا؛ لما خَامَرَهُمْ من خَوْفِنَا، ولا يجيبُون بعد هذا اليَوْمِ إنْ دَعَوْنَاهُم. ما جاء بهم غيرُ سَعَادَةِ السُّلطان

(١) طيفور: ذكر صاحب الترجمة الفرنسية أنها تعني أطباق الطَّعام.

(نصَرَهُ الله). ومَنْ دَخَلَ عَدُوُّه في يَدِهِ فلا بُدَّ ضَمَانٌ يقوته، فلا يَتْبَعُ العَاقِلُ الأثَرَ بعد العَيْنِ، وإن فاتَنَا فِيهِمْ هذَا اليَوْمُ لا نُصِيبُ مِثْلَهُ أبدًا.

فَقَبَّلَ الباشا محمود يد القائد مامي وصَوَّب رَأْيَهُ، ثُمَّ قال القائد مامي: إنْ قَبَضْنَاهُمْ نُشَاوِرُ في أمْرِهِمْ السُّلْطَانَ ونُعْلِمُهُ بِحَالِهِمْ، وإنْ أمَرَ بإطْلاقِهِمْ طَلَّقْنَاهم ولا نَقْتُلُ وَاحِدًا منهم، وإن أمَرَ بِقَتْلِهْمْ قَتَلْنَاهم. واتَّفَقُوا على رأيه.

ورجع القُيَّادُ والكَوَاهِي

[ص١٦٤]

والباشُوطَات إلى مَكانهم من ذلك المجلس، وبقي هناك محمود ومامي، ونادَوْا شَاوِش بَاش وأمَرَهُ أن يُنَادِيَ أسْكِيَ وحده، وأتاه شاوش باش وقَبَّلَ رُكْبَتَيْهِ وقال: أجِبْ الباشا، ونهض أسْكِيَ قائمًا وَحْدَهُ وذَهَبَ إليه مَعَهُ حتَّى دَخَلَ عَلَيْهِمْا، وقاما له وأجْلَسَاهُ مَعْهُما، وأتَوْهُ بِقَمِيصِ الحَرِيرِ، وأمَرَهُ أن يخلَعَ عِمَامَتَه؛ فَخَلَعَهَا كأنهما يُنْزِلانِ القَمِيصَ في عُنُقِه، ورَمَوْهُ على رأسه وكَبُّوا عليه، وقَبَضُوهُ وجَعَلُوا طَرَفَ عِمَامَتِهِ في عُنُقه، وأمْسَكَهُ شَاوِش باش.

ثُمَّ أمَرَ الباشا محمود أن يُنَادِيَ الرُّماةَ ويَصِيح بهم: ما أيْنَه! ما أَيْنَه!. وقَلَعُوا أوْتَادَ الخبايات اللَّوَاتي تَحْتَهُنَّ أصْحَابُ أسْكِيَ وكُبَّتْ عَلَيْهِمْ، وقَبَضُوهُمْ أجمعين، ثُمَّ نادى المنادي وقال: كُرْلي كَبِيس! ومعنى: كُرْلي كَبِيس في اصْطِلاَحِهِمْ على ما فَسَّرَهَا لنا الكَاهِيَة مُحَمَّد بن المصطفى الهندي[1]: مَنْ رَفَعَ يَدَهُ فَاقْتُلُوه، ثُمَّ أمَرُوا بهَدَرْبَاشِ على القوم الَّذِي بقوا عند خُيُول أصْحَاب أسْكِيَ يُمْسِكُونَهُم من خُدَّامِهِم وصِبْيَانِهِمْ، وركبوا خُيُولَهُم وهربوا، وتبعهم فُرْسَانُ الرُّمَاة وأدْرَكوا بَعْضَهُمْ ولَحِقُوا بهم، ونَجَوْا بَعْضُهم

(١) الكاهية محمد الهندي، عمل بمدينة جيني في فترة (١٠٤٢هـ).

[ص١٦٥]

وانصرفوا.

ثُمَّ جاءوا بِسِلْسِلَتِهِم الكبيرة الطَّويلة وجَعَلوا فيها أَعْنَاقَهُمْ، وهي سلْسِلَةٌ واحِدَةٌ اشتمل الكلَّ إلاَّ أَسْكِيَ وَحْدَه، ما وَثقوه وما ربَطُوهُ وما مَسُّوهُ بحديد، بل فَرَشُوا لَهُ تحت خُبَيْئَة هُنالِكَ، وجَعَلُوا عليه الحرَسَ والحَفَظَة، ثُمَّ ما قَلَعَ مِنْ أحدٍ لباسًا لا قميصًا ولا سروالاً ولا عمامة ولا قَلَنْسُوَة، وجَعَلُوا عَلَيْهِمْ قومًا كثيرًا يحرسُونَهُم، وإنْ قام أحْدٌ منهم لِلْبَوْلِ قام الكلُّ معه. فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!

وفَرَّقُوا بينهم وبين أسْكِيَ، ولا يعرف أسْكِيَ لهم الخبر، ولا يَعْرِفُونَ لَهُ خَبرًا، وأسْكِيَ سليمان في المَحَلَّة، ثُمَّ الباشا يخفيه.

بعد عَشَرَةِ أيَّامٍ أخْرَجُوهُم، وهم في تِلْكَ السِّلْسِلَة -والعياذُ بالله مِنْ غَلَبَة الرِّجَال وصَوْلَةِ الزَّمان- إلى سفينةٍ هُنالِكَ، وفَرَشُوا لهم فيها، وذُبِحَ لهم بَقَرات، وأدْخَلُوا لحومها معهم، وزَوَّدُوهُم. فَلَمَّا حَصَلُوهُمْ في تِلْكَ السَّفِينة، أخْرَجُوا أسْكِيَ ورَكَّبُوهُ على بِرْذَوْن، ومحمود يمشي معه ويُحَدِّثُه ويَحْمِل معه عُودَ الكُورُ إلى أنْ وصَّله إلى السَّفِينَة، وأمَرَ بِفَرْشِ زَرْبِيَّتَيْنَ والحيفة من الحرير والوَسَائد، وأنْزَلَهُ على فَرَسِه، وأمَرَ بِحَمْلِه إلى الفِرَاشِ تحت هَنَك،[1] وودَّعَهُ وعانَقَهُ، وجَعَلَ عَلَيْهِمْ شاوشًا واحدًا يَتْبَعُهُم ويَخْدُمُهُمْ إلى أن يُمَكِّنَهُمْ بِيَدِ الباشا جَوْدَر، وهو في مدينة كاع.

[ص١٦٦]

وسار مَعْهُم، وإذا أصْبَحَ يأتي ذلك الشَّاوِشُ إلى أسْكِيَ ويُخْرِجُهُ من السَّفِينَة

(١) هنَكَ: بلغة صونغاي، هو سقف القوارب، ويُصنع من القش؛ للتظليل من الشمس، والوقاية من المطر.

إلى البَرِّ، ويأتيه بالوُضُوء ويُصَلِّي ويُسَلِّمُ على أصْحَابِه، ويَأتِيهِ الشَّاوِشُ بالفطُورِ ويُفْطِرُون، ويَقْسِمُ عَلَيْهِمْ الكُور.[(١)] ومِنَ القَوْم مَنْ ما أكَلَ وما شَرِبَ مُنذ قُبِضَ إلاَّ يسيرًا يَسُدُّ به الرَّمَق، فَلَمَّا كانوا في أَثْناء طَرِيقِهِم بلَّغُوا لأسْكِيَ رِسَالَةَ إسحاق يومَ يَذْهَبُ بأنْ أمَرَهُم أنْ يَقُولُوا له: هذه المصيبة التي نَزَلَتْ بنَا تَكُونُ -إنْ شاء الله- أفْضَلَ مِنَ المصِيبَةِ التي سَيَأتِيه، فَلَمَّا بلغوا إليه الرِّسَالة بكى.

ثُمَّ قال أصحابُه له: فما رأيُكَ، فلا بُدَّ أن نَسْأَلَك بها: نحنُ بِجَمَاعَتِنَا يَسُوقُنا شَاوِشٌ واحدٌ، وإنْ كنَّا في سِلْسِلَة إنْ شِئْنا نَقْتُلُه وَنُدَبِّرُ في إخْراجِ هذه السِّلسِلَة في أعْنَاقِنا ونهرب على أرْجُلنا، فما تَقُول أنت؟ فقال: ما وَافَقَتْ رأيي ولا كان الصَّوَابُ في فَمي، فَكُلُّ ما عَمِلْتُه مِنَ الرَّأي ما نَفَعَ مِنْهَا وَاحِدٌ، ما تَتْبَعُوا قَولي. وأمَّا أنا إنْ سَألْتُمُوني بهذا الرَّأيِ لا آمرُكُمْ به، وأظُنُّهُ لا يَصْلُح، إنْ فَعَلْتُم ذلك وهَرَبْتُمْ على أرْجُلكُم أدْرَكُوكُمْ فَيَفْعَلُونَ بكم ما هو أقْبَحُ مِنْ هذا؛ فَاصْبِرُوا، وما في ظَنِّي أنَّ السُّلْطَانَ مولاي أحمد لَعَلَّهُ إنْ سَمِعَ بِخَبَرِنا ودخُولِنَا تحتَ طاعَتِهِ طَوْعًا ومجيبًا دَعْوَتَهُ وإتْيَانِنَا لِقَوْمه، عَسَى أنْ يَأمُرَ بإطْلاقِنَا وتَسْرِيحِنَا؛ فتبِعُوا قَوْلَهُ وصَوَّبُوه.

ثُمَّ بكَّر عليه ذلك الشَّاوشُ يوم دُخُولهم في كَاعُ، ومَعَهُ كَبْلٌ، وقال لأسْكِيَ: هات بِرِجْلِكَ وقد أمَرَنَا الباشا بِقَيْدِكَ يومَ دُخُولك في البلد، ومَدَّ رِجْلَيْه إليه وكبَّله في حضرة قومه، وحينَئذٍ كُسِّر قَلْبُه وَيَئِس مِنْ نفسه وَقَطَعَ رجَاءَهُ منَ

[ص١٦٧]

النَّجاة. وحين رَسَوْا في المرْسَى عَشيَّةَ يوم الثُّلاثاء بأكْبَالِهِمْ ولبُوسِهِمْ، وهم

(١) الكور: أي ثمرة الغور/ الكولا. سبق التفصيل عن هذه الثمرة، في هامش [ص٣٩].

ثلاثةٌ وسِتُّون،[١] سَاقُوهُمْ مُوَثَّقِين في القُيُودِ والسَّلاسِلِ مِنْ تَنْشِ إلى كاع، وسَجَنُوهم هُنالِكَ نحو شَهْرٍ، ثُمَّ حَفَرُوا في تِلْكَ الدَّار جُبًّا عميقًا واسعًا، وقَتَلُوهُم جميعًا، ورَمَوْهُمْ في تِلْكَ الجبِّ أجمعين، وردُّوا عَلَيْهِمْ التُّراب، (رَحِمَهُم الله).[٢] وما قَتَلُوهُمْ إلاَّ حين قَتَلَ ابنُ بَنْشِ أهلَ مَحَلَّتِهِمْ الذين يَخْرُجُون مِنْ مُرَّاكُش، فيهم القائد يُقالُ له قَنْدَبُور، يقول أهلُ سُنْغُيْ: يوم قَنْدبور، وفيهم أرْبَعُمِائة رَام، وقَعَ عَلَيْهِمْ ليلاً واستَأْصَلَهُم، ولولا ذلك لم يَقْتُلْهُم؛ لأنَّهُمْ أرْسَلُوا للسُّلْطانِ مَوْلاَهُمْ يُشَاوِرُونَهُ في أمْرِهِمْ: هل يقتُلُوهُمْ أو يَتْرُكُوهم، ولم يَرْجِعْ المرسُولُ حتَّى كان هذا الأمر، وَقَنْدَبُور في لُغَتِهِمْ: عَظِيمُ البَطْن، كان بطنُ ذلكَ القَائِدِ عَظِيمًا.



(١) صرح السعدي (ص١٥٢)، أن «جملة من قبض الباشا محمود مع أسكيا محمد كاغ ثلاثة وثمانون رجلا ما بين أولاد الأمراء وغيرهم» (ص١٥٢). ولعل هذا التفاوت في العدد بين المؤرِّخين مرجعه إلى أنَّ الباشا محمود بعد قبضه لمحمد كاغ وأصحابه، أطلق سراح بعضهم، من أولئك: أسكيا سليمان، وباركي ملك، ومحمد ولد بنش [ص١٥٢] فالسعدي يتحدَّث - إذن - عن الفترة الأولى من إلقاء القبض على المجموعة، وابن المختار يتحدث عن المجموعة الأخيرة التي اقتيدت إلى كاغ مع أسْكيا؛ فقتلوا بها، وردم عَلَيْهِمْ البيت.

(٢) سبق [في ص١٢٠] أن أسكيا الحاج الثاني قد تنبَّأ بهذه النهاية المأساويَّة لأخيه محمد كاغ.

الباب السَّادِس عشر

الباشات في تُمْبُكْتُ ونوح أسْكِيَ دَنْدِ

ثُمَّ بعد ذلك ارْتَحَل الباشا محمود وجيشُهُ من كَاغُ إلى دَنْدِ في طَلَبِ أسْكِيَ نوح ومَنْ بَقِيَ معه من أولاد أبيه وأتْبَاعِهِمْ.

وكان أسْكِيَ نوح مِنْ عَفَاريتِ أولادِ أسْكِيَ داوود، وكانَ مَسْجُونًا حين نزل محلَّة جَوْدَر إلى سُنْغُيْ، سجَنَهُ أخوه أسْكِيَ إسحاق. فَلَمَّا هرب أسْكِيَ إسحاق خَرَجَ بنفسه وذَهَبَ وجمع إخْوَتَهُ وصارُوا جمَاعَةً كثيرةً، وكان رجُلاً فارسًا جسيمًا بطلاً طويل القَامَةِ جميل الوَجْه .

وقد كنتُ أنا يومًا عند شَيْخِنا الفقيه مُحَمَّد بن المختار الملقَّب مُحَمَّد بن كُرْتَمْ في مدينة تُنْبُكْتُ (حرسَها الله)، ووَقَعَ في مجْلِسِه ذِكْرُ أسْكِيَ نوح وقِصَّتُه. أثْنَى عليه بعضُ من حضر هُنالِكَ بخيرٍ وصِيتٍ،[1] فقال شيخنا المذكور: «أنتم لا تَعْرِفُونَ قَدْرَ نوح ورفعته، فهو أكْرَمُ بني أسْكِيَ داوود وأجلُّهُم»، ثُمَّ نهض ودخل في داخل بيته، وأخرج إلينا وَرَقَةً مَطْوِيَّةً في جَعْبَة نُحَاسٍ، فإذا فيها مكتُوبٌ كتَبَهُ الوليُّ الصَّالِح العَارف بالله العالم العَلاَّمة السَّيد المكاشِفُ زينُ العَابِدِينَ الشَّرِيف الحسني بن الوليِّ

[ص١٦٨]

الصَّالِح العالم سيِّدي مُحَمَّد البكري، كتبه لأسْكِيَ نوح بخطِّ يده الكريمة

(١) الصِّيت: أصله واو انقلبت، وهو الذِّكر الجميل الذي ينتشر عن الشَّخص بين الناس.

(رضي الله عنه)، بأحْسَنِ التَّحيَّة والإعْزَازِ والإكرَامِ والدُّعَاء له بخَيْرَيْ الدُّنْيا والآخرة. ومما بقي في حِفْظِي مِنْ تِلْكَ الأدْعِيَة قوله: «وكنَّا نَدْعُو الله لكم في أوْقَاتِ الإجَابَةِ في ليلٍ ونَهَارٍ وفي ظُلَم اللَّيالي».

قال مُحَمَّد وُلْد كُرْتَمْ (رَحِمَهُ الله): جاء بهذا الكتاب والدي الحاج المختار مِنْ حِجَّته. قال: ناوَلَنِيه زينُ العابدين في بلدِ مصر، وأمَرَني بإيصَالِهِ لأسْكِيَ نوح، ومَتى قَدِمَ وَجَدَ نوحًا قد ذهب وهَرَبَ إلى دَنْدِ. فَلَمَّا تَبِعَهُ الباشا محمود وجَوْدَر وَجَيْشُهُمَا يَقْتَفُون آثاره، وهم لا يَشْعُرُون بأنَّهُم على آثارِهِمْ، نَزَلُوا بمكانٍ يُسَمَّى وَامِ، ومعه جَمٌّ غَفِيرٌ من أهل سُنْغَيْ والرِّجَالُ والأطْفَالُ والعَبِيدُ والإماء ينْتَجِعُون معه مِنْ أهالي كَاغُ ونَوَاحِيها، وأدْرَكَهُمْ محمود بن زرقون هُنالِكَ نازلين وقت القَيْلُولة، فما نبَّهَهُم إلاَّ رَهْجُ الخُيُول، ونهضوا إلى خُيُولهم وركبُوا ووَقَفُوا يَنْتَظِرُونَهُمْ، وما كان إلاَّ كَلَمْحِ البَصَر، ونوح جالسٌ؛ فأمَرَهُ أصحَابُهُ بالرُّكوبِ والهرُوب. فقال: إلى أين؟ قد هربنا إلى أن عَجَزْنَا، ونَصْبِرُ اليوم حتَّى نموتَ على دِينِ الإسْلاَمِ ونَسْتَريح، فَحَمَلُوه إخْوَانُهُ وأرْكَبُوهُ وفَرُّوا به.

وهُنالِكَ وجد محمود كافَّة مَنْ تَبِعُه مِنْ إخْوَتِه، وهي آخرُ المصائب نزلت بهم، وشتَّت شملَهُمْ وفرَّق جمعَهُمْ شذَرَ مَذَر، ويُسَمَّى هذا اليومُ الَّذِي لَحِقَهُم فيه الباشا محمود يوم وَامِ، يَوْمَ سَفَكُوا دِمَاءَهُم وسَبَوْا ذَرَارِيهم.

وأوَّلُ خَسَارَتهم يومَ القِتَال والمضاربة يوم سُنْكِيَ، وماتَ فيهم مَنْ مَات، ثُمَّ يَوْمُ فرار أسْكِيَ إسحاق الزَّغْرَاني إلى كُرْمَ، تَبِعَهُ جمَاعَةٌ وقتْلهمْ معه، ثُمَّ يوم تَنْشِ، يوم أُسِرَ فيه

[ص١٦٩]

أسْكِيَ مُحَمَّد كَاغُ وجَمْعُه الغَفِير، ثُمَّ يوم وامِ، وذهاب مَنْ ذَهَب مِنْ أبْنَاء أبيه وبَعْضِ بَنَاته.

وهذه النَّوازِلُ هي التي أفنى سُنْغُيْ وأبَادَهُم بالكُليَّة، بحيْثُ ما جَاءَ مع أسْكِيَ سليمان بن داوود إلى تُنْبُكْتُ مِمَّنْ هو من أصُولِ جُنْدِ أسْكِيَ إلاَّ نفَرٌ قَلِيلٌ، ما جاوَزُوا سَبْعًا وأربعين، ما بين الفارس والرَّاجِل، وعَظَّمَهُمْ هَيْكُيْ عبد الرحمان وهَيْكُيْ بَرَهِمَ. فَلَمَّا قَدِمَ أسْكِيَ سليمان إلى تُنْبُكْتُ وتَوَطَّن منهم، جَعَلَ يَلْتَقِطُ رجالاً من أهل كُرْمِنَ وبَلْمَعَي وبِنْكَ وبَرَ حتَّى أحصل له من الجنْدِ نحو مائة رَجُلٍ، انتهى.

والباشا محمود لم يزل في كُوكِيَة وجَيْشُهُ حتَّى أتاه هُنالِكَ بَراءَةُ القائد المصطفى التُّركي ورسُولُه يطلبُ منه الإغاثة، وأخْبَرَهُ بما جرى بينه وبين أهل تُنْبُكْتُ من القِتَالِ والمضاربة، وأنَّهُمْ قَتَلوا من رُمَاتِهِ ستًّا وسبعين، وأعْلَمَهُمْ بأنَّهُ في الحصران ويَطْلُب الغَوْثَ منهم، واكْتَرَى ذلك الرَّجُلُ لهم تارِقًا، وأعْطاه فرسًا حرًّا أي رُمْكة كانت له، ولما وصل الرَّسُولُ إليه أغضبه ذلك وغاظَهُ، وألقاه عازمًا على الرُّجُوع إلى دَنْدِ؛ ليَسْتَأصِلَ أولادَ أسْكِيَ الذين كانوا مع نوح، فَعَمِلَ ديوانًا وشاوَرَ جيْشَهُ على أن يَرْجِعَ إلى تُنْبُكْتُ لِغَوْثِ القائد المصطفى، واتَّفَقُوا على أن يقطع لهم جيشًا من يغِيثُهُم، وأشار إلى القائد مامي، وقلَّدُوهُ ذلك وعيَّنه، وقَطَعَ له سبعمائة راميًا، وسيَّره من غده.

وسأله القائد مامي عمَّا يَفْعَلُ بأهل تُنْبُكْتُ؛ فقال له الباشا: إذا وصَلْتَ فَاعْمَلْ فيهم السَّبيل سبعَةَ أيَّام، وعَمَلُ السَّبيل في عِبَارَتِهِمْ إذا غضِبَ السُّلْطَانُ على أهْلِ بَلَدٍ أو خَرَجُوا

[ص١٧٠]

عن طاعَتِهِمْ أو خَالَفُوهُمْ، ينْزِلُ عَلَيْهِمْ جيشُه فيَدْخُلُ عَلَيْهِمْ في بِلادِهم فيَقْتُلُون

منهم كلَّ مَنْ لَقُوا بهم، وكلَّ مَنْ رأَوْهُ إلى أيَّام، إمَّا يوم أو يَوْمَيْن، وإن كان بلدًا كبيرًا اسْتَمَرُّوا على قَتْلِهِمْ إلى سبعة أيَّام؛ فقال مامي: بلد تُنْبُكْتُ لا يوسع للسَّبيل ساعةً وهمْ ألْطَفُ النَّاس وأرقُّهُمْ قلبًا. إنْ قتَلْتَ منهم ثلاثةً يموت سَبْعَةٌ بالفَزَع والرَّوْع بلا مَسِّ الحدِيد، ومع ذلك السُّلْطَانُ (نصَرهُ الله) ليس مُرَادُه في خَسَارة تُنْبُكْتُ ولا خَرَابَتُه، ومُرَادُهُ أن يُبنى عليها قَصَبَتُه ويجْلَبَ مِنْهُم الأمْوَالُ. وقال محمود: نَعَمْ عَرَفْنَا هذا هو مرادُه، ولكنَّ الأمر بِيَدِكَ، فَافْعَلْ برأيك، وتَنْظُر ما يمكن فيهم. وقال: اذهبْ إن شاء الله ونُعَامِلُهُمْ بالهداية والإسْكَان حتَّى تأتي أنت، وقرأوا الفاتحة على ذلك، وارْتَحَل مامي وسار ومَضَى حتَّى نزل بخارج البلد، وَوَجَدُوا أهل تُنْبُكْتُ قد تَصَالحوا مع القَائِد المصْطَفَى، وانقَطَعَت الفِتْنَةُ والقتال، وَوَافَقَ مجيئُهُ هُنالِكَ بِلَيْلَةِ المولد الشَّرِيف ثاني عشر من ربيع النَّبويِّ من الحادي بعد ألف، في لَيْلَةٍ ما أعْظَمَهَا، وأعْظِمْ برَوْعةٍ كانت فيها. هرَبَ أهلُ تُنْبُكْتُ، ودخلَ البَحْر، وحَسِبَ النَّاسُ أنَّ الفَنَاء يَكُونُ في غدها. وكَمْ مِنْ رجَالٍ خَرَجُوا منها في تِلْكَ اللَّيْلَة وتركُوا أمْوالهم وأوْلادَهُم وأزْوَاجَهُم، وما حملوا من ديارهم حتَّى العَصَى، ومَضَوْا وما رجَعُوا إليها بعد ذلك. واكْتَسَبَ بعضُ سُفَهَاء البلد في تِلْكَ اللَّيْلَة أموالاً، وترى رَجُلاً يَدْخُلُ على قَوْمٍ في ديَارِهِمْ ويَرْفَعُ منها مَا شَاءَ ويخْرُجُ به، وَرَبُّ الدَّار وذَوُوه ينْظُرُونَ إليه ولا يقولُ له

[ص١٧١]

أحْدٌ منهم شيئًا.

ودخل القائدُ القَصَبَةَ في تِلْكَ اللَّيْلَة، وتلقَّاهم القَائِدُ المصطفى، وبات النَّاسُ مفْزِعِين سَاهِرِينَ يَتَوَقَّعُون الشَّرَّ الَّذِي يكون غدًا، وأصبح أهلُ تُنْبُكْتُ لم يَفْتَحَ أحْدٌ منهم بُيُوتَهُمْ صامتين، ولم يخْطُ أحدٌ في طُرُقٍ خَطْوَةً واحِدَةً، إلاَّ بعد صلاة العصر أمَرَ الفقيهُ القَاضِي عمر أن ينادَى أعْيَانُ البَلَد؛ فنَادُوهم، وأتَوْهُ أجمعُون، مِنْهُم

الفقيه مُحَمَّد بَغَيُغُ (رَحِمَهُ الله)، يُشَاوِرُهُمْ على ما يفعلون. وما شرعوا في الكلام حتَّى دخل عَلَيْهِمْ غلامُ القَاضِي الموكلُ بالباب، وأخبرهم بأنَّ القائد مامي واقفٌ بالباب، ومَعَهُ طائِفَةٌ منْ قَوْمِه يَسْتَأذِنُ بالدُّخول؛ فتغيَّر الجالسُونَ لذلك، وغيَّر وجُوهُهُم، ثُمَّ أذِنَ له بالدُّخول؛ فَدَخَلَ ومَعه أصْحَابُهُ.

فدخل، وأراد القَاضِي أن يقُومَ له، وعَزَمَ عليه بأن لا يَقُومَ ونَهَاهُ عن القيام. فمتى دخل انْكَبَّ على رأس القَاضِي فَقبَّله وعلى رِكْبَتَيْهِ وعلى قَدَمَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا وقبَّل يديه، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى الفُقَهَاء والرُّؤَسَاء وحيَّاهم وسلَّم عَلَيْهِمْ، ورَدُّوا عليه وجلس قبالَةَ وجْهِ القَاضِي مُسْتَوْفِزًا،[١] وقال: إنَّ الباشا محمود والقُيَّاد والكواهي يُسَلِّمُون عليك، وهو الَّذِي أرسلني متى بَلَغَهُ ما عَمِلَ فيكم سُفَهَاؤُنَا، وساءه ذلك؛ فَيَطْلُبُ منكم العَفْوَ والغُفْرَان، وأنْ لا تأخُذُونا بذُنُوب ذلك، فَبِالله العَظِيم ما عَمِلُوا ذلك برأيِنَا ولا بمشَاوَرَتِنا، فَاغْفِرُوا لنا، (غفر الله لنا ولَكُمْ)، ونحن حَفَرْنَا ورَدَمْنَا،[٢] ونحنُ وإيَّاكُم اليوم إخْوَةٌ، والسَّلام. لا شكَّ بعد هذا اليوم ولا غَدْرَ.

[ص١٧٢]

وكان رجالُ تُنْبُكْتُ المقاتلين، متى رَأَوْا القَائدَ مَامِي يذْهَبُ إلى دار القَاضِي يَوْمَئِذٍ، ظنُّوه لا يَذْهَبُ إلاَّ للشَّر، اجتَمَعُوا وجاءُوا إلى جَامِع سَنْكُرَيْ، ورَقُوا في سَطْحِهِ بِسِهَامِهِمْ وسِلاحِهِمْ، وارْتَقَى بعضُهُمْ فوقَ بُيُوتِ ذلك المكان. فَلَمَّا تَكَلَّم مامي لدى القَاضِي بكلامه اللَّيِّن وتلطَّفَهُ وتملَّقَهُ؛ أرسل القَاضِي الفقيه مُحَمَّد بَغَيُغ

---

(١) مستوفزًا: وضع ركبتيه على الأرض، ضاغطًا على أطراف قدميه، وإليتاه مرتفعتان، وهي جلسة غير مستقرة، ويبدو أنَّها كانت دلالة على التذلل والاستعطاف، وقد جلس الجلسة نفسها أسكيا داود أمام قاضي تمبكتو، ينظر هامش [ص١٠٩].

(٢) تعبير محلِّي يقوله الَّذِي يدبِّر مكيدةً لغيره، ثم يرجع عن مكيدته ويبطلها بنفسه، وقد لا يكون هذا الأسلوب قد جرى حرفيًّا على لسان القائد المغربيِّ، وإنما هو من أسلوب المؤرخ.

(رَحِمَهُ الله)؛ لِيُنَادِيَهُمْ، وأتاهم وَوَجَدَ كُلاً منهم كميًّا في سِلاحِهِ، نَادَى كُبَرَاءَهُم فقال لهم: هَلْ تَعْرِفُوني؟ قالوا: بلى. فقال: انزلُوا كلُّكم فائْتُونا؛ فَنَزَلُوا فَأَتَوْا مُسْرِعِين؛ فقال: القَاضِي عُمَر يَدْعُوكم فاتْبَعُوني إليه، ثُمَّ قال لهم: قد قطع الله تِلْكَ المحنة وعَافَانَا من تِلْكَ البليَّة، فها هو القَائِدُ الأكْرَمُ مامي بن بِرْوُن قد أتانا بالصُّلْح والعَفْوِ، وبِسَلامِ الباشا محمود وتحيَّاته، فلا شرَّ بعد اليوم؛ فَقُولُوا أنْتُم أجْمَعُون: الله يَنْصُرُ مَوْلانَا أحمد!

ثُمَّ سلَّم عَلَيْهِمْ مامي وردُّوا عليه السَّلام، وخرج مامي وركب وتَوَجَّهَ إلى القَصَبَة. ولما وصل إلى بَعْكِنْدِ[1] التقى مع رُمَاةٍ يَسْلُبُون ثَوْبَ رَجُلٍ هُنالِكَ؛ خَطَفَ خَيْلَهُ إليهم وسلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ مِنْهُمْ رَجُلاً عَلَى عَاتِقِه حتَّى شقَّ كَتِفَهُ وَسَقَطَ وَمَاتَ، وأَمَرَ بِرَأْسِهِ فعُلِّق. وسار ذلك في البلد، وسَرَى فيه وَفَرِح النَّاسُ به، واعْتَقَدُوا أنَّهُ سَيُوفي ما وعد، ووَثِقُوا بِقَوْلِه وظَنُّوا فيه خيرًا.

فيُبَكِّرُ عُرابُ أهل القَصَبَة خارجين إلى السُّوق بِبِضَاعَتِهِمْ، ومَنْ كان جَزَّارًا منهم خرج ببقرته فيَذْبَحُهُ وأقام يَبِيعه، ومن كان خَرازًا أتى

[ص١٧٣]

بجلُودِهِ يُفَصِّلُ منه نعالاً يبيعها، وكذلك خَيَّاطُهُم يخيطُونَ للنَّاس، ومن اشْتَرَى مِنْهُ شيئًا اسْتَتْبَعَهُ صاحبُه إلى القَصَبَة؛ فَيَتْبَعُهُ فيَعُدُّ له الوَدَع فَيَرْجِعُ. وهم كذلك يَتْبَعُون النَّاسَ إلى ديَارِهِمْ ليَأْخُذُوا ثمن مَبِيعِهِمْ، وما تَمَّتْ ثلاثة أيَّامٍ حتَّى خالَطُوا وامْتَزَجُوا، واتَّخَذَ بعضُهُمْ من بعضٍ أحِبَّاءَ وأصْدِقَاء ويَتَزَاوَرُون في بُيُوتهم.

ثُمَّ قدِمَ الباشا محمود من كَاغُ وجَهَّزَ جيشًا إلى رأس الماء ومَشَى هو بنفسه معهم، ثُمَّ رجع في شَهْرِ المحرَّم فاتح اثنَيْنِ وألفٍ وطلب تجدِيدَ البَيْعة للسُّلْطَانِ في

---

(١) من أحياء تمبكتو.

مَسْجِد سَنْكُرَيْ؛ فجمع كافَّةَ أهل تُنْبُكْتُ بالمسجد المذكور، وأحْضَرُوا المصْحَفَ والبُخَاريّ ومُسْلم ضَحْوَةَ يوم الأربعاء أربع وعشرين منه. فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ غُلِّقَتْ أبْوَابُ المسجد وَوَقَفَ الرُّماةُ على الأبواب والسُّطُوح، فكان مِنْ أمْرِ الله مَا كَانَ ممَّا لا يَنْبَغي ذِكْرُه، ولا يَحْتَمِلُ القَلْبُ جَلْبَ ما كان هُنالِكَ، وَسَرْدَ أقاصِيصِ قَبْضِ القَاضِي عمر وإخْوَتِهِ، فإنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُونَ! أعْظِمْ بها رُزْءًا عَمَّتْ الإسلام.

ثُمَّ أخرجُوهُمْ وسَاقُوهُمْ إلى قَصَبَتِهِمْ مُشَاةً إلاَّ القَاضِي عمر (رَحِمَهُ الله) وحدَه، فَإنَّهُ ركَّبُوه برذَوْنًا صَغِيرًا وأتْبَعَهُم شَوَاشي. وأُسِرَ معهم رَجُلانِ مِنَ الوَنْكَرِيِّين، فَلَمَّا أرادُوا أنْ يَجْعَلُوا في أعناقِهِمَا حَبْلاً امْتَنَعَا أن يُدْخَلَ في أعْنَاقِهِمَا حبل، ولَطَمَ أحْدُهما رَامِيًا منهم، وسلَّ سيفه وضربه به، وأخَذَ أخُوهُ السَّيْفَ منه وضَرَبَ به الضَّارِبَ؛ فَكَانَ سَبَبًا للقتل.

وحَدَّثَني شيخُنَا مُحَمَّد وُلْد كُرْتَمْ

[ص١٧٤]

أنَّهُم قتَلُوا من أهل تُنْبُكْتُ أرْبَعَةَ عَشَرَ نَفْسًا: اثنان من وَنْكَرَ، واثنان مِنَ السُّودَان،[١] وَوَاحِدٌ من الحدَّادِين يُسَمَّى عَبْدَلْ يَبَالِ، وتسعةً مِنْ سَنْ، منهم العالم الوليُّ العارفُ بالله الفَقِيهُ أحمد مَعْيَا، ومُحَمَّد الأمين بن القَاضِي مُحَمَّد بن محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ، وغيرهم (رَحِمَهُم الله)، ومُحَمَّد المختار (رَحِمَهُ الله).[٢]

---

(١) مدلول السُّودان في معظم مواردها في هذا الكتاب [ص٢١؛٣١؛١٠٥؛١٤٧؛١٧٥؛١٨٠]، يعني المناطق الواقعة شرقي صونغاي، أي: بلاد وسط أفريقيا الحاليَّة التي تشمل نيجيريا، وتشاد، والنيجر، ويقابل ذلك مدلول «المغرب» الذي يعني المناطق الواقعة في السَّاحل من المحيط الأطلسي أي منطقة سنيغامبيا الحاليَّة.

(٢) هنا اتفاق تام بين ابن المختار والسعدي في الإطار العام لحادثة مقتل علماء سنكري وفي عدد المقتولين. لكن السعدي أكثر تفصيلا من ابن المختار. (ينظر: تاريخ السعدي، ص١٥٢).

وأخبرني وُلْد وَعْدَ بن مُحَمَّد بن أيَدِ المختار أنَّ القَاضِي عمر (رَحِمَهُ الله) لما أخْرَجَهُ الرُّماة من المسجد، وكان معه غُلامُهُ يُمْسِكُ مَقَاليد داره وَجَعَلَ الغُلامُ يَبْكِي حين رأى ما جرى عَلَيْهِمْ؛ فضَرَبَهُ أحدٌ مِنَ الرُّماة بالسَّيف فَقَتَلَهُ، وضحك القَاضِي عمر؛ فقيل له في ذلك، فقال: كنتُ أحسب أنا خيرٌ من هذا الغُلام فَظَهَرَ فضلُهُ عليَّ الآن، وقد سَبَقَني إلى الجنَّة.

ثُمَّ بعثَهُمْ الباشا محمود إلى مُرَّاكُش، وطَائِفَةً من أولادِهِمْ ومَوَاليهم من النِّسَاء والرِّجَال وهم على نَيِّفٍ وسَبْعِين، ولم يرجع منهم سِوَى سيِّدِي أحمد بابا (رَحِمَهُم الله)، رَجَعَ بعدَما مَكَثَ هُنالِكَ عِشْرين سَنَةً غير سِتَّةِ أَشْهُر، ومكَثَ في تُنْبُكْتُ بعد رُجُوعِهِ عِشْرين سَنَةً، [(١)] ومات (رَحِمَهُ الله). هكذا نقلتُ من شيخنا مُحَمَّد وُلْد كُرْتَمْ (رَحِمَهُ الله)، وحَدَّثَنِي مُحَمَّد بن كُرْتَمْ المذكور أنَّهُ سمع سيِّدي أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد يَذْكُرُ بأنَّ الفقيه القَاضِي

[ص١٧٥]

عمر (رَحِمَهُ الله) مَرِضَ في سَفَرِهِمْ وذهابهم إلى مُرَّاكُش مَرَضًا شدِيدًا، وأصْبَحَ لا يَسْتَطِيعُ الرُّكُوب، وطلبوا من ذلك القَائِدِ الَّذِي يَذْهَبُ بهم، وهو أميرُ تِلْكَ الرُّفْقَة، أن يُؤَخِّرَ له ويجلس لهم في ذلك اليوم وَحْدَهُ؛ فقال لهم: لا نَلْبَثُ له ولَوْ سَاعَةً واحِدَةً. إمَّا أنْ تتركُوهُ أو تَحْمِلُوه على بَعِيره أين أدْرَكَهُ الموت فَنَطْرَحُه، وأبى على انتظار حاله؛ فركب ورَجَعُوا ووَضَعُوهُ على بعيره وساروا. قال مُحَمَّد وُلْد كُرْتَمْ، قال أحمد بابا: فَوَالله ما وَصَلْنَا مِيلاً واحدًا في السَّيْرِ حتَّى أتينا إلى مكانٍ فيه حِجَارَاتٌ كثيرة، ما يَصْعَدُ الخيُولُ عليها إلاَّ بمشَقَّةٍ عَظِيمَة؛ فتَقَدَّمَ ذلك القَائِدُ

(١) رجع إلى تمبكتو عام (١٠٢٠هـ/ ١٦١١م).

أمام الرُّفْقَة، فما كان إلاَّ أن تزلف حَافِرُ فَرَسِه فَسَقَط،[(١)] وسَقَطَ هو على عُنُقِهِ؛ فانْدَقَّتْ عُنُقُه بِقُدْرَة الجبَّار تعالى ومات، ونَزَلَت الرُّفْقَة لتَجْهِيزه، وقالوا هُنَالِكَ وباتوا، وفَرَّجَ الله تعالى على القَاضِي عمر وأصْبَح مُعَافًى، وقد شَفَاهُ الله، ومَكَثُوا هُنالِكَ يَوْمَيْن، ثُمَّ سَارُوا.[(٢)]

ولما أجْلَاهُم القَوْمُ وارْتَحَلُوا صارت تُنْبُكْتُ جِسْمًا بلا رُوحٍ، وانْعَكَسَ أمُورُها وتغيَّر حالها وتبَدَّلَ عوائِدُها، ورجَعَ أسْفَلُها أعْلاهَا وأعْلاهَا أسْفَلَهَا، وسَادَ أرْذَالُهَا على عُظَمَائِهَا، وباعوا الدِّينَ بالدُّنْيا واشْتَرَوْا الضَّلالَةَ بالهدى، وعُطِّلَ أحكامُ الشَّريعة، وأُمِيتَتِ السُّنَة وأُحْيِيَت البِدَعُ، ولا بَقِيَ فيها مَن يَتَمَسَّكُ بالسُّنة، ولا مَنْ يَسيرُ على مَنْهَج التَّقوى في ذلك الوقْتِ، سوى مُحَمَّد بَغَيُغُ بن أحمد وَحْدَهُ (رَحِمَهُ الله).

وحكى لي سِبْطِي مُحمَّد بانَ بن يوسف كعت (رَحِمَهُ الله)،[(٣)] أنَّ الباشا محمود مرَّ بمُحَمَّد بَغَيُغ يومًا فناداه وأحْضَرَهُ، فوَجَدَهُ في مجْلِسِ سَلْطَنَتِه ودائِرَتِه وبين

(١) في الأصل (تزلف)، ومعناه: تقرَّب وتقدَّم إليه، ويقال: تزلَّف إلى السُّلطان بكلامه: أي تقرَّب منه مادحًا على وجه التَّملُّق والنِّفاق، وهذا المعنى غير مرادٍ هنا. والظَّاهر أنَّه استعمل (تزلَّق) بالقاف الذي يعني: تَزيَّن، وهو يريد معنى (انْزلق)، أي: زلَّت قدمُه؛ فاستعمل صيغةً في غير موضعها.

(٢) ذكر السعدي عن سبب موته أن الرفقة نزلت بموضع، وحين قام الناس للرحيل، وكان الشيخ جالسا يتوضأ، أقبل القائد باحسن فريد، وركله برجله وأمره بالقيام؛ فلم يقم حتى أتم وضوءه، فما ساروا إلا قليلا حتى رماه الجمل؛ فانكسرت رقبته. (تاريخ السودان، ص١٢٣).

(٣) هنا شيء من الغموض؛ لأن محمد بان المذكور هو ابن خال مباشر لابن المختار، وليس سبطا له. وقد يزول الإشكال إذا اعتبرنا أن الكاتب قد استخدم كلمة «سبط» استخداما خاطئًا، ولكن هذا الاحتمال ضعيف، فقد استخدم المؤلف هذه الكلمة استخدامًا صحيحًا في عدَّة مواضع، (ينظر: ص٢٩؛ ٥٩؛ ٧٥؛ ١١٣؛ ١٧٨). والظاهر كما سبق في المقدمة، أنَّ ابن المختار كان اسمه: محمود، سميًا لجدِّه محمود كعت؛ فأشار إلى ابن خاله بحسب العُرف الأفريقيِّ.

كَوَاهِيه وبَاشُوطَاتِه واقِفِينَ على رؤُوسِ القُيَّادِ والكَوَاهِي، ولما وصَلَ إليه الشَّيْخُ مُحَمَّد

[ص١٧٦]

بَغَيُغْ نهض قائمًا وتلقَّاهُ وقبَّل أطرافَ يَدَيْهِ وأجْلَسَهُ قُدَّامَهُ وأعْطَاهُ الوِسَادَةَ، ثُمَّ نَاوَلَهُ كتابًا مَطْويًّا ومَدَّ له دواةً وقلمًا فقال: اكتُبْ شَهَادَتَكَ فِيه.

وفَتَحَ الشَّيْخُ الكتابَ وتأمَّلَهُ، فإذا فيه ما صُورَتُه: «ولْيَعْلَمْ أميرُ المُؤمِنِينَ السُّلْطَانُ بن السُّلْطَان مولانا أبا العَبَّاس أحمد (الله ينصره ويُخْلِد ملكَه)، أنَّنا ما قَبَضْنَا هؤلاء الفُقَهَاء القَاضِي عمر وإخْوانَهُ وأتْبَاعَهُ إلاَّ أنْ ظَهَرَ لنا ما في نُفُوسِهِمْ منْ عَدَاوَةِ السُّلْطَانِ وبُغْضِه. وتحقَّقْنَا أنَّ قُلُوبهم مع أسْكِيَ، وهم على كَيْدِهم، ويَجْمَعُون لهم الرِّجَالَ لمحارَبَتِنَا، ومُتَّفِقِين على الفَسَاد، بعد أن قَتَلُوا مِنْ جَيْشِ السُّلطَانِ ثَلاثَةً وسَبْعِينَ رجُلاً. وفيه شَهَادَةُ جُلِّ أعْيَان تُنْبُكْتُ وكبرائها على ذلك، وأعلام القَاضِي مُحَمَّد».

وقال له الباشا: اكتُبْ شَهَادَتَكَ تحت هذا السَّطْر، وأشَارَ إلى المَوْضِعِ مِنَ الكِتَابِ يَضَعُ شهادَتَهُ فيه. فَتَعَوَّذَ الشَّيْخُ بالله من ذلك، أيْ مِنْ أن يَضَعَ شَهَادَتَهُ؛ فقال: لا بُدَّ من أن تكتب، وكُلُّ مَنْ أبى على الكِتَاب قَطَعْنَا يده مِنْ مَنْكِبِه، فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ ضَاحِكًا وقال: قَطْعُكَ اليدَ أفْضَلُ وأوْلى مِنْ كَتْب شهَادَةِ الزُّور، فالعِيَاذُ بالله، فأنا - والله - أخْتَارُ قَطْعَ الرَّأس عليه. فقال: إيشْ هل أنْتَ أفْضَلُ

[ص١٧٧]

مِنْ هؤلاءِ الشُّهُودِ الصَّالِحين؟ أو أنْتَ خيرٌ من القَاضِي؟ قال: لا شكَّ في أنَّ كُلَّهُمْ خَيْرٌ مِنِّي، ولكنْ لَعَلَّهُم اطَّلَعُوا على فَسَادِهِمْ وعلى ما شَهِدُوا عليه، وأنا - والله - ما أطْلَعَني اللهُ على ذلك، ومَا عَلِمْتُ به، والشَّهَادَةُ لا تَكُونُ إلاَّ بالمعَايَنَةِ

والعِلْمِ والشَّهَادَة، وأنا ما عَايَنْتُ وما عَلِمْتُ وما شَهِدْتُ؛ فقال الباشا: ونحن نَعْرِفُ نيَّتَكَ، وأنْتَ مع القَاضِي في مَكْرِهِ وكَيْدِه، وما أنتَ إلاَّ واحدٌ مِنْ قَوْمِه، ورأيْنَا خَطَّك في كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَهُ لأسْكِيَ نوح، ثُمَّ الْتَفَتَ الباشا محمود إلى أسْكِيَ أَلْفَعْ بُكَر لَنْبَار، وهو جَالِسٌ عنده في وَسَطِ الجالِسِينَ، وقال: يا أَلْفَعْ بُكَرْ أما رأيتَ الكتَابَ؟ قال: بلى، رأيْتُهُ بخطِّ يَدِهِ. وما الْتَفَتَ الشَّيْخُ ولا رَفَعَ رأسَهُ إليه وما ردَّ له جَوابًا.

ووافَقَ ذلك بين الظُّهر والعصر، وما صلَّى الشَّيْخُ العصر حين خُرُوجِه، وسَكَتَ الباشا طويلاً ولم يَتَكَلَّمْ منْهُمْ أحدٌ بِلاَ ولا بِنَعَمْ، والشَّيْخُ مُطْرقُ الرَّأس ساكتٌ، ثُمَّ رَفَعَ الشَّيْخُ رأسَهُ إلى السَّماء ينْظُرُ حال الغُرُوب، وَوَجَدَهُ قد قَرُب، وقَامَ يُصَلِّي العصر، وصلَّى بخشُوعٍ وَوَقَارٍ وطُمَأنينَة حتَّى أتمَّها، ثُمَّ سلَّم، ثُمَّ قام إلى مَوْضِعِ جُلُوسِهِ الَّذِي قام فيه.

وأخذ الباشا بِيَدِهِ وقبَّلَهَا وقال له: ارْجِعْ إلى دَارِكَ بالسَّلام. كثَّر الله أمثالَكَ! ادعُ الله لنا وللسُّلْطَانِ (الله يَنْصُرُهُ بالنَّصر العزيز)، وخَرَجَ الشَّيْخُ ﷺ. فَلَمَّا رجَعَ إلى دَارِه أتَاهُ أسْكِيَ أَلْفَعْ بُكَر لَنْبَارُ المذكور، ووَقَفَ ببَابِهِ وسلَّم. وقيل: مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا أسْكِيَ أَلْفَعْ بُكَر بن لنْبَار المذْنِبُ الفَاجِرُ الأثِيمُ، وتَبَسَّم الشَّيْخُ وأمَرَ بالباب؛ ففُتِحَ له، ودخَل وكبَّ

[ص١٧٨]

على رأسِهِ يُقَبِّله، ثُمَّ قال: اغْفِرْ لي واعْفُ عَنِّي، وما رأيْتُ خطَّكَ ولا كِتَابَكَ إلى أسْكِيَ نوح، وقد كَذَبْتُ وافترَيْتُ عليك خَوْفًا مِنَ الباشا مِنْ سَطْوَتِهِ، وما كان في صَدْرِي مِثْلُ قَلْبِكَ الَّذِي ما خَلَقَ اللهُ فيه خَوْفًا غَيْرَ الله؛ فَضَحِكَ الشَّيْخُ، فقال: غَفَرَ الله لي وَلَكَ وعَفا عَنِّي وعَنْك، وإنَّا ما أخَذْنَاك به، فخَرج أسْكِيَ أَلْفَعْ بُكَر إلى داره باكيًا. فَانْظُرْ إلى هذا الشَّيْخِ معَ البَاشَا وَمَعَ أسْكِيَ أَلْفَعْ أيضًا. إذا علِمَ اللهُ مِنْ

قَلْبِ عَبْدِهِ الحقَّ سخَّرَ لهُ الخَلْقَ.

ثُمَّ لم يَزَلِ الشَّيْخُ يَسْعَى ويمشِي إلى الباشا في طَلَبِ الشَّفَاعَةِ لِلنَّاسِ، فَقَلَّ أنْ يَرُدَّهُ في طلبٍ مَّا مِنْ ذلك. وما طَلَبَ شيئًا مِنَ الشَّفَاعَة إلاَّ شَفَّعُوه (رَحِمَهُ الله). ومَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الشَّيْخِ مُحَمَّد بَغَيُغْ (رَحِمَهُ الله) فَلْيَقِفْ على تَرْجَمَتِه مِنْ «كِفايَة المُحْتَاج في مَعْرِفَةِ مَنْ ليس في الدِّيبَاج» تأليف تلميذه العلاَّمة سيِّدِي أبي العَبَّاس أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن مُحَمَّد أقِيتْ.[1] ومنه يُعْلَمُ مَنَاقِبُه ومنه يَظْهَرُ له كَرَامَتُهُ وبُلُوغُه غَايَةً ونهايَةً في تَقْوَى الله ومخَافَتِهِ إيَّاهُ في السِّرِّ والعَلانِيَّة بحيْثُ لا تَرَى له نَظِيرًا في مُرَاقَبَة رَبِّهِ، انتهى.

فكانت تُنْبُكْتُ قبل نُزولِ هذه المَحَلَّةِ بها وَقَبْلَ إجْلاءِ أوْلاَدِ القَاضِي محمود بن عمر وحَفَدَتِهِ وأسْبَاطِهِ، في غَايَةِ الحسْنِ والجَمَالِ وإقَامَةِ الدِّينِ وإحْيَاءِ السُّنَة. بها ما شِئْتَ مِنْ دِينٍ ودُنْيًا، وجِيرانٍ تَنافَوْا في المعاني، وهيَ يَوْمَئِذٍ مَوْصُوفَةٌ ببعْضِ ما وَصَفَ الحرِيرِيُّ البصرة في المقامة الثَّامِنة والأربعين التي تُعْرَفُ بالحرامِيَّة،

[ص١٧٩]

ولما وَصَفَ بها البَصْرَةَ في المقَامَةِ الخمْسِين البَصْرِيَّة مِنْ قوله: «يا أهْلَ البصرَةِ! رعاكُمُ اللهُ ووقاكُمْ، وقوَّى تُقاكُمْ، فما أضْوَعَ ريَّاكُمْ، وأفضلَ مَزاياكُمْ! أوْفَى البِلادِ طُهرَةً، وأزْكاها فِطرَةً، وأفسَحُهَا رُقعَةً، وأمرَعُها من نُجعَة، وأحقُّ بها قِبلَةً، وأوسَعُها دِجلَةً. إلى قوله: ولهُ عماية المدِّ الفائِضِ، والجزْرِ الغائِضِ» انتهى.[2]

---

(١) محمد بغيغ الونْكَري: هو شيخ شيوخ تمبكتو، تولى القضاء بها، وكذلك أبناؤه، وقد تولى ذريَّته من بعده الإمامة والمشيخة في معظم أرجاء بلاد السُّودان.

(٢) في هذا النص المقتبس من المقامات كلماتٌ ساقطة: سقطت كلمة «بلدُكُم» قبل: «أوفى البلاد طُهرةً»، وكلمة «مِنْ» زائدة قبل «نجعة» ليست في الأصل، وقوله: «وأحقُّ بها قبلة» ورد في =

فتُنْبُكْتُ يَوْمَئِذٍ لا نظير لها في البُلْدَانِ مِنْ بلاد السُّودَان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مَلِّ: مُرُوءَةً وحُرِيَّةً وتَعَفُّفًا وصيَانَةً، وحِفْظِ العِرْض ورأفةً ورَحْمَةً بالمسَاكين والغُرَبَاء، وتَلَطُّفًا بطَلَبَةِ العِلْمِ وإعَانَتِهِمْ.

وأمَّا سَنْ (بسينٍ مَفْتُوحةٍ فنون ساكنة)،(١) فَهُمْ أجَلُّ عباد الله في زمانهم كَرَمًا و(في) حِفْظِ المروءة والسُّكوت، وتَرْكِ ما لا يَعْني، ولُزُومِ بُيُوتهم، ونَفْعِ المسْلِمِين، وَرَفْدِ محتَاجِهِمْ، وتِلْكَ فيهم خِلْقَةٌ وجِبِلَّة، (رَحِمَهُم الله ورضي عنهم ورَحِمَ أسْلافَهُمْ وأبْقَى مخْلُوفَهُمْ في سَلامَةٍ وسِتْرٍ واقْتِفَاء آثارِهِمْ).

وهي، أي: تُنْبُكْتُ يَوْمَئِذٍ لَيْسَ فيها حُكْمٌ إلاَّ حُكْمُ مُتَوَلِّي الشَّرْع، ولا سُلْطَانَ فيها، والقَاضِي هو السُّلْطَانُ وَبِيَدِهِ الحَلُّ والرَّبْطُ وَحْدَه.

ومِثْلُها في أيَّام سَلْطَنَةِ سُلْطَان مَلِّ: جَعْبَ بَلَدُ الفُقَهَاء،(٢) وهي في وَسَطِ أرْضِ مَلِّ، لا يَدْخُلُهَا سُلْطَانُ ملِّ، ولَيْسَ لأحدٍ حُكْمٌ فيها إلاَّ قَاضِيه، ومَنْ دَخَلَهُ كان آمِنًا مِنْ ضَيْمِ السُّلْطَان وجَوْرِهِ، ومَنْ قَتَل وَلَدَ السُّلْطَانِ لا يَسْأَلُهُ السُّلْطَانُ بِدَمِهِ، يُقالُ له: بَلَدُ الله.

ومثلُهَا أيضًا بَلَدٌ يُقالُ له كُنْجُور، وكُنْجُور (بكاف مَضْمُومةٍ فنون ساكِنَة فجيم ممدودة فراء مهملة) بلدٌ بأرض كَيَّاكَ، بَلَدُ قَاضِي تِلْكَ الإقْلِيم وعُلَمَائها. لا

= الأصل: «وأقْوَمها قبلة»، وقوله: «وله عماية المدِّ»، ورد في الأصل: «وله آية المدِّ». الشريسي، أبو العباس أحمد عبد المؤمن القيسي. شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (سيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ٥/ ٣٤٤.

(١) سَنْ: طبقة العلماء، ورد في [ص١١] أن أسكيا الحاج محمد كان يجلُّهم ويخصُّهم بالجلوس معه والأكل معه، ولو كان صبيًّا.

(٢) جعب: مدينة على مشارف نهر النيجر في الجزء الجنوب الغربي من ماسينا. ذكرها ابن بطوطة مقرونة بجارتها كابورا (Diafarabe)، قال: «وأهل زاغة قدماء في الإسلام، لهم ديانة وطلب للعلم» (تحفة النظار، ٢/ ١٩٣).

يَدْخُلُهَا جُنْدِيٌّ،

[ص١٨٠]

ولا يَسْكُنُهَا أحدٌ مِنَ الظَّلَمَة إلاَّ سُلْطَانُ كَيَّاكَ يَزُورُ عُلَمَاءَهَا وقَاضِيهَا في شَهْر رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ عَام على عَادَتِهِمْ القَدِيمة بِصَدَقَاتِهِ وهِدَايَاتِهِ ويُفَرِّقُها عَلَيْهِمْ. وإذا كانَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ يَأْمُرُ بِطَبْخِ الطَّعَام، ثُمَّ يجعَلُ المطْبُوخَ في المائِدَةِ أيْ القَدْح الكَبِير، ويحْمِلُهَا فَوْقَ رأْسِهِ، ويُنَادِي قُرَّاءَ القُرْآن وصِبْيَانَ المكْتَبِ ويَأكُلُونها والقَدْحُ على رَأْسِهِ يحْمِلُهَا وهُوَ قَاعِدٌ وهُمْ قَائِمُونَ يأكُلُونَ تَعْظِيمًا لهم، وهُمْ على ذلك إلى هَلُمَّ جرًّا. كذا حَدَّثَني به الحاج مُحَمَّد سِرِ الكَجَاكَوِيّ.[1] انتهى.

مع العَافِيَة والهنَاءِ والأمْنِ الَّذِي خَصَّ اللهُ به أهْلَ تُنْبُكْتُ، وتَرَى مِنْهُم مِائَةَ رَجُلٍ ليس لأحدٍ مِنْهُمْ حَريشٌ ولا سَيْفٌ ولا مُدْيَةٌ إلاَّ المنْسَأَة. وأخبرني مُحَمَّد بن المولود أنَّهُ رأى منها سِتَّةً وعشْرين بيتًا من بُيُوتِ الخَيَّاطِينَ المسَمَّاة بتِنْدِ - (بتاء مكسورة) ولِكُلِّ واحدةٍ من تِلْكَ البُيُوت شيخٌ رئيسٌ مُعَلِّمٌ، وعِنْدَهُ مِنَ المتَعَلِّمِين نحو خمسين، وعند بَعْضِهِمْ سَبْعِين إلى مائة. وفيها مَدَارِسُ مُعَلِّم الصِّبْيَانِ الذِينَ يَقْرَأُونَ القُرآنَ مِائَةٌ وخمْسِينَ أو ثمانِينَ مَكْتَبًا، على ما ذَكَرَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّد بن أحمد. ذكر أنَّهُ حَضَرَ مَكْتَبَ المعلِّم عَلِيّ تَكَرْيَا يَوْمَ الأرْبِعَاء بعد صَلاةِ الظُّهْرِ، وَجَعَلَ صِبْيَانُه يأتُونَهُ بخمْسِ وَدَعَاتٍ وبعضُهم عَشَرَ وَدَعَاتٍ، على عَادَتِهِم المسَمَّاة

---

(١) الكجاكَوِي: نسبة إلى غاجاغا (Gadiaga)، وكانت إمارة سوننكية بمنطقة غالامْ على نهر بافينغْ (Bafing)، عند نهر السنغال، يطلق على ملكها لقب «تُونكا» السوننكي القديم. من حواضرها الشهيرة آنذاك: مدينة كُنجور المذكورة هنا في الفتاش [ص١٧٩]، واشتهرت بنماء حركة التجارة وانتشار الإسلام بها. أطلق عليها الرَّحالة الفرنسي Andre Bru)ح(لقب (La Republique des Marabouts) أي: مملكة الفقهاء. سقطت إمارة غاجاغا بعد قيام حركة الإمام مالك سي الجهاديَّة بالمنطقة، وهُزِم آخر ملك بها في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي على يد ماكا جيبا (Maka Jiba) حفيد مالك سي.

الأرْبَع، حتَّى تحصَّل قُدَّامَهُ ألْفٌ وسَبْعُمِائَةٍ وخَمْسَةٌ وعِشْرُون ودْعًا. قال الرَّاوي المذكور: أسْرَحْتُ نَظَري إلى ألْوَاح الصِّبْيَان المتَّخذَةِ في عَرَصَةِ

[ص١٨١]

داره، وعدَدْتُ منها مائةً وثلاثةً وَعِشْرين لَوْحًا، وظَنَنْتُ أن تكُونَ جُمْلَةُ القُرآنِ مُحَصَّلَةً في تِلْكَ الألْوَاح. وغَرائبُ تُنْبُكْتُ وعَجَائِبُهَا يَوْمَئِذٍ لا تَدْخُلُ تحت حَصْرٍ ولا يُحِيطُ بها حِفْظُ حَافِظٍ.

ثُمَّ جَبَرَ اللهُ كَسْرَ تُنْبُكْتُ، وكثُرَ قُرَّاؤُهَا وأدَبَاؤُهَا مِنْ كُوكِيَ إلى جِنٍّ، وجمع شملَهَا، وأقَامَهَا أتَمَّ قيامٍ وعَمَّرها، وأفَاضَ اللهُ البَرَكة في بَرِّهَا وبحْرِهَا في أوائل دَوْلَةِ جيش مولانا أحمد، وأكْثَرَ الخَيْرَ فيها حتَّى كاد النَّاس يَنْسَوْن دَوْلَةَ سُنْغِيْ.

وأخبرني شَيْخُنا الفقيهُ الصَّالِح بَرَ السِّلَنْكِيُّ أنَّهم اشْتَرَوا مَعْزَةً واحِدَةً حلاَّبَة وتَعِيشُ بلَبَنِها جميعُ أهْلِ بَيْتِهِمْ، وهمْ خمْسَةَ عَشَرَ نفسًا، ورُبَّما تَبَقَّى مِنْ لَبَنِهَا شَيْء، فَتَبِيتُ فَيَضْرِبُونه ويخْرِجُون الزَّبَدَ منها، وأكْثَرَ اللهُ الحِيتَانَ في البُحُورِ، وَيَتَصَيَّدُ فيهَا الصَّيَّادُونَ ما لا يُحْصَى من الحيتَانِ، وأثْمَرَ أشْجَارُ الفَيَافِي واعْشَوْشَبَتْ، وعاشَ النَّاسُ مِنْ ثِمَارِهِنَّ سِنينًا؛ حتَّى دخل النَّاس في الحَرْثِ وَاشْتَغَلُوا به. وأكثَرَ اللهُ الغَيْثَ وأَنْبَتَ الزُّرُوع، وحَصَدُوا مِنْهَا كثيرًا، ورَخُصَ الطَّعَامُ من كلِّ جَانِبٍ ومَكَان.

وأطْفَأَ اللهُ نِيرَانَ الفِتَنِ بين النَّاسِ والرُّمَاةِ والحِقْدِ إلاَّ ما خَسَّرَهَا الفُلانِيُّونَ المحارِبُون وخَرَّبُوهَا مِنَ البُلْدانِ، وسَلَبُوهُ

[ص١٨٢]

منَ الأمْوال ومَا سَفَكُوهُ مِنْ دِمَاء المسْلِمِين والتَّوارق من كَاغُ إلى جِنٍّ، حتَّى الزَّغْرَانيُّون دَخَلُوا مَعَهُمْ في الفَسَاد والإفْسَاد. وأمَّا الرُّمَاةُ فَمَا خَسَّرُوا بعد جمُودِ

نيران فِتَنِهِمْ شيئًا، ومَا أخَذُوا بِأيْدِيهِمْ نَفْسًا واحدًا،[١] إلاَّ مَا سَاقَهُ إليهم أيدِي الأساكي وأربَابُ البِلاد، إلاَّ ما وظَّفُوهُ على النَّاس من الغَرامَات والزَّكَاةِ ومُكْسِ النَّبكات، انتهى.[٢]

وتَوَلَّى القضَاءَ القَاضِي مُحَمَّد بن القَاضِي عبد الرَّحمن في أوائل صفر الخير فَاتِح عام اثنين وألف، قدَّمَهُ الباشا محمود والجيشُ بَعْدَ ذهَابِ الفَقِيه القَاضِي عمر، ومَكَثَ فيها أربعةَ عشَرَ سنةً وعشرةَ أشْهُرٍ وسَبْعَةَ أيَّامٍ، وتُوفي يوم الثُّلاثاء لستٍّ بَقَيْنَ مِنْ ذي القَعْدَة عامَ سَادِسَ عشَرَ بعْدَ ألف. والقَاضِي هذا كان مِنْ أجْوَدِ النَّاس وأكْرَمِهِمْ وَأَوْسَعِهِمْ قَلبًا وَجُودًا وكَرَمًا (رَحِمَهُ الله)، وَجَدَهُ سيِّدي أحمد بابا حيًّا حين قَدِمَ مِنْ مُرَّاكُش، وأتَاهُ يُهَنِّئُه بمجيئه وَسَلَّمَ عَليْهِ وحَيَّاهُ، ثُمَّ خَرَجَ ورَجَعَ إلى بَيْتِه، ثُمَّ لم يخرجْ مِنْ بَيْتِهِ إلى أنْ ماتَ في تِلْكَ الأيَّامِ.

وفي سَنَةِ ثَالِثٍ وَأَلْف، جاء القائدُ مَنْصُور بن بك مِنْ مُرَّاكُش بمَحَلَّةٍ كَبِيرةٍ، فيها ثلاثةُ آلافِ مُقَاتِلٍ وألفُ خَيْلٍ. قاله بابَ كُور بن الحاج مُحَمَّد في «جواهر الحسان» انتهى.[٣]

وَقَدْ سَمِعتُ العلاَّمَةَ أبا إسحاقَ إبْراهيم بن أحمد بَغَيُعُ (رَحِمَهُ الله) كان يُقْرِئ

---

(١) خسروا: يعني هنا: أتْلفوا، أي ما أتلفوا شيئا من ممتلكات الناس.

(٢) النبكات: النَّبْكة، والنَّبَكة، هي الأرض المرتفعة من التِّلال والهضاب، ومعنى هذه الجملة غير واضح، وقد ذهب مترجما الفتاش إلى احتمال وقوع تصحيفٌ هنا من كلمة «النَّفقات». لكن أخذ الضَّرائب على النَّفقات فيه نظر. كما احتملا أن تكون «نبكات» لغة محليَّة معرَّبة. وبالرُّجوع إلى «تاريخ السودان»، و «تذكرة النسيان»، نجد أن الكلمة قد تكررت عندهما بالمعنى المذكور، أي الأرض المرتفعة. ينظر السعدي: (ص١٤٧؛ ٢٣٠) و(فقرة: سنتاع بن فارس، وسعيد بن القائد، وأحمد بن القائد سنيبر...).

(٣) سبقت الإشارة مرارا إلى هذا الكتاب بـ«درر الحسان»، ينظر مثلا: [ص٤٥؛ ٥٣؛ ٨٦؛ ٩٣؛ ٩٤].

بعض الطَّلبة قَصِيدةَ ابنِ دُرَيْدٍ،[١] ومتى وصلَ القارِئُ قَوْلَ ابنِ دُرَيْدٍ: وربأ خيل إلخ، وشَرَعَ في ذِكْر أنْوَاعِ الخيْلِ وصِفَاتِ أقْوَاهُمْ،

[ص١٨٣]

حتَّى أوْرَدَ فيه خُيُولَ القائد مَنْصُور المذكور الذينَ أتَوْا رَاكِبِينَ عَلَيْهِمْ في هَذِهِ المَحَلَّة المذكورة. وقال إنَّ أكثرَ خُيُولِ القائِدِ مَنْصُور الأشْهَبُ، والأشهَبُ الَّذِي فيهم تَكُونُ ثُلُثَيْ خُيُولهم أو أكْثَر، ثُمَّ قال: وأظنُّ إنما اخْتَارَهُم لِقَطْعِ هَذِهِ المسَافَةِ البَعِيدَةِ، لأنَّهم أقْوَى الخُيُولِ وَأمْتَنُهُمْ وأَصْبَرُهُمْ عَلى العَطَشِ.

وعاشَ القائدُ مَنْصُور بعد قُدُومِهِ سَنَتَيْن، ونَفى الظُّلمَ مِنْ بلد تُنْبُكْتُ، وبَلَغَ صَرْفُ المثقال ثلاثةَ آلافٍ وَدَعًا، ورَخُصَ سِلَعُ الغَرْبِ حتَّى بِيعَ طَرِينَهْ بَاجِيهْ،[٢] والكُرُحِهْ أي: الجلد المدبُوغُ بخمْسَةِ مَثَاقِيل، وبِيعَ الكَمَلِيَّة مِنَ الملْحِ بستَّةِ مَثَاقِيل إلى سبعة مثاقيل غير ثُلُثِ المثقَال. ويُصَفَّفُ التَّمر بُوسْكِرى[٣] على الحصير عشر تمراتٍ بخمس ودعاتٍ.

وكان كلُّ مَنْ أتِيَ به إليه سَارقًا أو طارقًا ضَرَبَ عُنُقَه وعَلَّقَهُ في سُوق

---

(١) ابن دريد: أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ولد بالبصرة، (ت٣٢١هـ)، من مصنفاته: كتاب الاشتقاق، وكتاب الجمهرة. ويبدو أنَّ المراد بقصيدة ابن دريد هنا قصيدته الشَّهيرة المقصورة، ومطلعها:

يا ظَبيَةً أشبَه شَيءٍ بِالمَها ... تَرعى الخُزامى بَينَ أَشجارِ النَقا.

ولكنْ لا توجد بها الكلمة المشار إليها. بل إنَّ كلمة «خيل» الواردة في تلك القصيدة هي في البيت الذي خلص فيه من النسيب إلى المديح بقوله:

بذاكَ أمْ بالخَيْلِ تَعدُو المرَطى ... ناشِزَةً أكْتَادَها قُبَّ الكُلى.

(٢) طرينة باجيه: قماش قطني واسع صقيل يستخدم لحافا.

(٣) نوع من التمر الجاف.

المسلمين. وفي أيَّامِهِ احتَطَبَ كثيرٌ من الرُّماة ويتكفَّفُون باللَّيل على الأبْوَاب، وكان (رَحِمَهُ الله) لا يَتَخَلَّفُ عن الجمعة، ومَوْضِعُ سُكْنَاه بمغرب الجامع الكبير. وغزا إلى جَبَلِ هُنْبُر وما وَالاهُ، ثُمَّ رجَعَ فمات (رَحِمَهُ الله) في العام الخامس بعد ألف، ودُفِن بمَقْبَرَة سيدي يحيى، ثُمَّ نُبِشَ قَبْرُهُ ونُقِلَ جُثَّتُهُ في التَّابُوت وَحُمِلَ إلى مُرَّاكُش. وفي أيَّامه ظَهَرَ طابَعَ وانْتَشَرَ استعمالُ شُربه.[1]

وفي العام الثَّالِثِ وألْفٍ، تُوفِّيَ الباشا محمود بن علي بن زرقون في غَزْوَتِهِ إلى الجبَل، ومَاتَ ولم يَلْتَقِ مَعَ القَائِد مَنْصُور، وبعد موته انْفَرَدَ الباشا جَوْدَر بِولايَةِ تُنْبُكْتُ إلى أنْ قَدِمَ عليه الباشا عمر يأذَنُهُ بِقُدُومِهِ إلى مُرَّاكُش بأمْرِ السُّلْطَانِ؛ ارْتَحَل قافلاً يوم

[ص١٨٤]

الخميس سلخ شعبان المنير عَامَ سَبْعٍ وألْف.

ثُمَّ وَلِيَ الأمرَ بَعْدَ رُجُوعِ جَوْدَر الباشا عمر، وتَسَلْطَن ومَكَثَ سنةً واحدةً وأشهرًا، ثُمَّ رجع إلى مُرَّاكُش بأمر السُّلْطَان.

تمَّت تَوَاريخُ السُّودَان من أخْبَار الأسَاكي. انتَهَت المقابَلَةُ بِقَدْرِ الطَّاقَة، فَللَّهِ

---

(١) كان إدخال التبغ إلى تمبكتو بين عام (١٥٩٤-١٥٩٦م)، وكشفت الحفريات الأثرية عن (٣٠٦) قطعة من الغلايين في تمبكتو، وهي محلية الصنع لم تتجاوز أعمارها التاريخ المذكور. وقد احتدم الخلاف بين العلماء في بلاد السودان بعد ظهور التبغ بها. ومن الكتب والرسائل المصنفة في ذلك كتاب: عين الإصابة في حكم طابَغْ، لأحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد التمبكتي، وله أيضا: اللمع في الإشارة إلى حكم التبغ. ينظر: J. Hunwick, Arabic Literature of Africa, Vol. (4/13), p24. لكن بقيام الخلافة الإمامية بمدينة «حمد الله» حرم التبغ، وأصبح من البضائع المحظورة في نطاق سلطة الشيخ أحمدو لوبو. ينظر: Insoll, Timothy. Timbuktu the Less Mysterious? p84.

الحمْدُ وله المنَّةُ على ما وَلِيَ من النِّعم بإتمام خَطِّ هذه الكتُبِ المبَارَك على يَدِ عُبَيْدِ ربِّه الذَّليل الحقير الرَّاجي عَفْوَ مَوْلاهُ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ، ذَيَّاكَ أبُو بَكْرٍ بن الفَاهِم عُمَر بن الأمين الدَّرَامِي لقبًا الدِّيواني نسبًا المالكيّ مَذْهبًا التِّجاني طَرِيقةً، في إحْدَى وعشْرين من شَهْرِ الله جمادى الأولى، يوم الخميس قُبَيْلَ صلاةِ العَصْر بَعْدَ صَلاةِ الظُّهْرِ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَيَّ ولِوَالِدِيهِمْ إلى مُنْتَهَى الإسلام. كَتَبتُهُ لِشَيْخ الشُّيُوخ الفَقِيه الماهِرِ البَاحِثِ عَنِ الأمُورِ، الفائق والِ بَدْ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ولَهُ ولمنْ نَظَرَ فيهِ إلى آخِرِ الزَّمَانِ. وإنْ وَجَدْتَ العَيْبَ فِيهِ فَسُدَّ الخَلَلَ، فَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيهِ وعَلا. انتهى عام ١٣٣٥ من الهجرة المُحَمَّديَّة أفْضَلُ الصَّلاةِ وأتمُّ السَّلامِ عَلَى صَاحِبِهَا.

الحَمْدُ لله عَلى مَا أَوْلى ... فَنِعْمَ ما أَوْلى وَنعْمَ المولى
ثُمَّ الصَّلاةُ بَعْدَ حَمْدِ الصَّمَد ... على النَّبي المصطفى مُحَمَّد



ذيل

...[ص١٨٥] عَمَرْ، نبش قبره أي: عَمَر، وطرحه في البحر. وقال إنَّهُ يُفْزِعُه في النَّوم كلَّ ليلةٍ. ولما سمع مُحَمَّد بُنْكَنَ بذلك مشى إلى قَبْرِه لِيَنْظُرَ صِدْقَ ذلكَ وكَذِبِهِ. فأمَرَ بقَبْرِهِ فَنُبِشَ، فَوَجَدَهُ بعد ثمانِ (كذا) سِنِين على حَالِهِ كأنَّهُ مَاتَ بالأمْسِ. ولم يَنْزِلْ على قَبْرِهِ وَلَوْ غُبَارَة.[١]

- ثُمَّ بعد عمر: يَايَ، وقبره في كاع، قتَلَهُ أولادُ أسْكِيَ مُحَمَّد في موضعٍ يُقَالُ لَهُ رأس أرِزُرْ، ودُفِنَ هُنالِكَ، وأسْكِيَ مُحَمَّد حيٌّ. وقيل إنَّه رَبِيبُ أسْكِيَ مُحَمَّد، تَزَوَّج بأمِّهِ. وقد قَدَّمْنَا تفصيل ذلك.[٢]

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ عثمان ابن أسْكِيَ مُحَمَّد، وقبره في الحجَر.[٣] هَرَبَ هُنالِكَ حِينَ طَرَدَهُ إخوانُهُ يوم طوية.

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ مَرْ بُنْكَنَ بن عمر، انتقَلَ مِنْ كَنْفَارِوِيَّة إلى أسْكِيَوِيَّة، وعُزِلَ

---

(١) هنا إشكال يصعب حلُّه: ترى من النابش؟ فالمعلوم أن عمر توفي عام (٩٢٥هـ/ ١٥١٩م)، فإذا كانت حادثة النبش قد وقعت بعد ثماني سنين من وفاته، فهذه تصادف العام (٩٣٣هـ)، ومعلوم أن يحيى هو الذي استخلفه في منصب كورمينا فاري، وأنه مكث في هذا المنصب تسع سنين [ص٧٨]، وعليه، تكون هذه الحادثة قد وقعت في عهده وبمدينة تندرم، فهل هو النابش؟ ولم صدر منه هذا الفعل؟ وهل أقدمَ على النبش فعلاً. أم أنه عزم عليه؛ فجاء ابنه محمد بنكن بن عمر قبل أن يقدم على هذا الفعل؟ كل هذه أسئلة لا توجد عنها أجوبة في هذا النص.

(٢) ينظر [ص٧٨].

(٣) يطلق «الحجر» أو بلاد الحجر، على المنطقة الجبليَّة الواقعة في الشمال الشرقي من تمبكتو بمنطقة همبوري، وتعرف الآن ببلاد الدُّغون (Dogon)، الواقعة في محافظة بانْجاغارا بمنطقة (Mopti)، وهي هضابٌ جبلية وسهول في الشمال الشرقيِّ من جمهورية مالي الحاليَّة، تمتد حتى بوركينافاسو الحالية.

وطُرِدَ، وهَرَبَ مع أخيه كُرْمِنَ فَارِ عُثمان تَنْفَرِيَا، وماتا في سُورَ بَنْتَنْبَعَ.

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ حماد بن أَرْيَوْ بنت أسْكِيَ مُحَمَّد. أخذَهُ أسْكِيَ وقَتَلَهُ في كاع، وقبره هُنالِكَ.(١)

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ عليّ كُسُل، طَرَدَهُ أسْكِيَ إسحاق الكبير أخوه، وخرج هاربًا يُريد بيرُ، وتلقَّاهُ هُنالِكَ في طريق الأعْرَاب، ومَعَهُ طائِفَةٌ من أحْبَابِهِ، وأخذُوهُ وذَهَبُوا به وباعوه للعرب في المغافر، وعَمِلَ عَليْه الكَبْلُ وجَعَلَهُ في بُسْتَانِهِ يَسْقِي زَرْعَهُ، ومَاتَ هُنالِكَ.

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ داودَ، عقَّبَ عليّ كُسُل في كَنْفَارِيَّة، وخلَّصَهُ الله حتَّى انْتَقَلَ إلى كَاعُ ودخل في سلطنة أسْكِيَوِيَّة.

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ كَسْيَة بن حُولِمْ، وهو

[ص١٨٦]

زَغْرَانيُّ الأصل، وكان من أحباب أسْكِيَ داوود وأحظى النَّاس عنده. فَلَمَّا تَوَلَّى داوود أسْكَوِيَّة، وكَسْيَة حينَئذٍ يكون بَلْمَع، وجعله كَنْفَارِ. ومات في كَنْفَارِيَّة في بلد بونِيُ، وقبره هُنالِكَ.(٢)

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ يعقوب بن أسْكِيَ مُحَمَّد، تَوَلَّى بعده ومكثَ فيها خمسةَ عَشَرَ سنة، ومات في تَنْدِرْمَ، وقبره في مسجده الكبير. ولم يمتْ في كَنْفَارِيَّة في تَنْدِرْمَ في زمَنِ سُنْغُيْ غَيْرُهُ وكُرْمِنَ فَارِ عمر.

---

(١) أبوه محمد كِرَيْ ابن أخت صن علي، فهو - إذن - حفيد الزَّعيمين: صن علي وأسكيا محمد، وقاتِله أسكيا إسحاق الأول.

(٢) هو الوحيد الذي شغل منصب كورمينا فاري من خارج الأسرة الملكية، وكان ذلك بسبب علاقته الخاصَّة بأسكيا داود كما هو مذكور.

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ مربُنْكَنَ بن داوود، عقب يعقُوب، ثُمَّ عُزل حين مات أبوه أسْكِيَ داوود، وتَوَلَّى أخوه الحاج أسْكَوِيَّة. أخَذَهُ في بلد تُنْبُكتُ في دار القَاضِي العاقب (رَحِمَهُ الله) ليلة ثانية عَشَرَ مِنْ ربيع الأوَّل وَقَتَلَهُ، وقيل إنَّهُ رَمَاهُ في البَحْر حيًّا.

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِي الهادي بن أسْكِيَ داوود، تَوَلَّى كَنْفَارِوِيَّة بعد مر بُنْكَنَ المذكور، ثُمَّ خرج على أسْكِيَ الحاج[1] وخَالَفَهُ وأرَادَ أنْ يَعْزِلَهُ ويُدْخِلَه، فَظَفِرَ به الحاجُّ وأخَذَهُ وسَجَنَهُ شُهُورًا في بلد كَنْتُعُ، ثُمَّ أمَرَ به فَقُتِل وَدُفِنَ وفي رِجْلِهِ كَبْلانِ، لم يُغْسَلْ ولم يُصَلَّ عليه، ثُمَّ نُبِشَ في زمن عليّ بن عَبْدِ القَادِر، فَوُجِد كأنَّهُ ماتَ أمْسِ.

- ثُمَّ تَوَلَّى بعده كَنْفَارِ صالح بن أسْكِيَ داوود. واتَّفَقَ مع بَلْمَع صادق على عَزْلِ أسْكِيَ مُحمَّد بان، وخَرَجَ إلى بَلْمَع وجَعَلَ اللهُ بأسَهُمْ بَيْنَهُمْ، وسَعَى الوُشَاةُ بينهم، حتَّى تقَاتَلا، وَقَتَلَه بَلْمَع. دَفَنَهُ في مسجد كَبَر. وقيل نُقِل إلى تُنْبُكْتُ، والأوَّل أصَحُّ.[2]

- ثُمَّ كُرْمِنَ فَارِ محمود بن إسماعيل، تَوَلَّى كَنْفَارِوِيَّة بعد صالح، وهو آخر كرَامِنَ فاري. أخَذَهُ الرُّمَاةُ يوم تَنْشِ وقُتِلَ في كاع.

وأمَّا البلامع فقد ماتَ أكثَرُهُمْ في البَلْمَوِيَّة. فأوَّلُهم مُحَمَّد كُرَيْ بن علي كُوكِيا ابن أخت شِي عَالِ. وكان بَلْمَع قبل سلطنة أسْكِيَ مُحَمَّد، وقد سَبَقَ اسْمُ بَلْمَع اسمَ أسْكِيَ بزمنٍ قديم، وكان في زمن شي كذلك...

---

(١) أي أسكيا الحاج الأصغر بن أسكيا داود.

(٢) هنا شيء من الإشكال في قوله بأن دفنه بمسجد كَبَر أصحُّ؛ إذ قد سبق التصريح [في ص١٣٠] بأن بلمع نقل أخاه إلى تمبكتو، وأن ذلك أصح الأخبار. ولا يفسر هذا التباين بين الرأيين إلاَّ التذكير بأنَّ هذا الجزء من الكتاب تذييل وضعه ابن المختار على الكتاب. أما ما سبق في [ص١٣٠] فهو رأي محمود كعت نفسه.



القسم الثالث

ملاحق وكشافات

٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م.	تولِّي عمر كُمْزَاغُ شقيق أسكيا الحاج محمَّد منصب كَنْفاري، وهو منصبٌ مستحدَثٌ بمثابة ولاية العهد.
٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م.	تأسيس مدينة تِنْدِرْمَ مقرِّ كورْمينافاري/ كَنْفاري عمر كُمْزَاغُ.
٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م.	خروج أسكيا الحاج محمد للحجِّ في شهر صفر.
٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م.	تولِّي الشَّيخ القاضي محمود بن عمر القضاء بتمبكتو.
٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م.	غزوة أسكيا الحاج محمَّد لأهل باغُن.
٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م.	غزوة أسكيا الحاج محمَّد لأهل آيِرْ.
٩٠٧هـ/ ١٥٠١م.	غَزْوَة أسكيا الحاج لمالي، وفيها سبى مريم دابُ، أمِّ ابنه أسكيا إسماعيل.
٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م.	مقتل المتنبي تَنْبِضَ، قتله كُورمينافاري عمر كُمْزَاغُ.
٩١١هـ/ ١٥٠٥م.	مقتل الشَّريف محمد بن مزاور خطأ على يد أسكيا داود.
٩١٥هـ/ ١٥٠٩م.	حجّ الشيخ الفقيه محمود بن عمر بَيْت اللهِ الحَرَام.
٩١٨هـ/ ١٥١٢م.	غارة كورمينافاري عمر كُمْزَاغُ على الزَّعيم الفولاني تَنْبِض بفوتَ، وقتله إيَّاه.
٩١٩هـ/ ١٥١٣م.	وفاة كورمينافاري عمر كُمْزَاغُ، وتولِّي شقيقه يحيى «يايَ» منصبه.
٩٢٥هـ/ ١٥١٩م.	بداية تأليف كتاب «تاريخ الفتاش» على يد الفقيه القاضي محمود كَعْتِ الجد.
٩٢٥هـ/ ١٥١٩م.	وصول الشَّريف مولاي أحمد الصِّقْلِي إلى تمبكتو في العاشر من ذي الحجَّة.
٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م.	عزل موسى أباه أسكيا الحاج محمَّد عن السُّلطة، ونصب نفسه ملكًا يوم عيد الأضحى.

الملحق الأول: جداول وأشكال

جدول (١): ترتيبٌ زمنيٌّ لأهمِّ الأحداث بصونغاي

العام	الحدث
ما قبل الهجرة	قيام دولة كَيَمغ، وظهور **٢٠** ملكًا منهم.
عصر النَّبي ﷺ	فترة حكم الملك كَيَمغ كَنسعَيْ.
القرن الأول الهجري	انقراض دولة ملوك كَيَمَغ.
١٤٣٢م.	خروج مانسا موسى للحج.
٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م.	مولد الشَّيخ القاضي محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقِيت.
٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م.	مولد القاضي محمود بن عمر آقيت.
٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م.	تولي سن علي السَّلطنة بكاغ.
٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م.	اجتياح سن علي لمدينة تمبكتو في الرَّابع من رجب.
٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م.	رجوع الفقيه العلاَّمة محمود بن عمر بن محمد آقيت من ولاتة إلى تمبكتو.
٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م.	موت سن علي، أو في شهر محرم (**٨٩٩م**) كما في «الدُّرر الحسان».
٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م.	معركة بين يَانُو زعيمة بلدة بُويُ، وبين سُن علي في الثَّاني عشر من محرَّم.
٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م.	تولِّي سن أبي بكر بارو بن سُن علي السُّلطنة في الثَّاني من ربيع الآخر.
٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م.	فتح أسكيا الحاج محمد لمدينة زاغ.

٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م.	تولِّي القاضي محمَّد بن محمود القضاء خلفًا لوالده، في الخامس عشر من شوال.
٩٥٥هـ/ ١٥٤٩م.	تولِّي أسكيا داود بن أسكيا الحاج محمَّد السَّلطنة في الثَّاني والعشرين من صفر.
٩٥٥هـ/ ١٥٤٩م.	تولِّي كسية الزَّغراني منصب كَنْفاري في تَنْدرْمَ خَلفًا لداود. مكث فيه (١٣) سنة.
٩٥٦هـ/ ١٥٥٠م.	وفاة أسكيا إسحاق بعد تسع سنين من السَّلطنة.
٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م.	تعيين أسكيا إسحاق الثَّاني مارَنْف محمد كاغ في منصب بَلْمَع في كابَارا.
٩٦٨-٩٦٩هـ/ ١٥٦١م.	وفاة الكنفاري كسية الزَّغراني، وتولِّي أخيه يعقوب منصبه. مكث فيه (١٧) سنة.
٩٨٥-٩٨٦هـ/ ١٥٧٧م.	موت كنْفاري يعقوب بتندرم، وتولِّي محمَّد بنكن بن أسكيا داود منصبه.
٩٨٩-٩٩٠هـ/ ١٥٨١م.	تحرُّك الجيش المغربي من مُرَّاكُش للإغارة على تمبكتو في آخر ذي الحجَّة.
٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.	شروع الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود في بناء جامع سنكوري.
٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.	وفاة أسكيا داود بن أسكيا الحاج محمَّد بكاغ في السَّابع عشر من رجب.
٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.	تولِّي أسكيا الحاج بن أسكيا داود السَّلطنة.
٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.	حملة أسكيا الحاج على أهل وَكَد (واغَادو)، وقتله زَعيمها في شهر رجب.

٩٣٦-٩٣٧هـ/ ١٥٢٩م.	مقتل أسكيا موسى بن أسكيا الحاج، يوم الأربعاء الرَّابع والعشرين من شعبان في حروبٍ بينه وبين إخوته وبني أعمامه.
٩٣٦-٩٣٧هـ/ ١٥٢٩م.	تولِّي أسكيا محمد بنكن السُّلطة غرَّة رمضان.
٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م.	استشراء طاعون بصونغاي، عرف بطاعون «كِفِ»، وهلاك كثيرٍ من النَّاس فيها.
٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م.	وفاة الشَّيخ الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت، غرَّة ربيع الآخر بالطَّاعون المسمَّى «كِفِ».
٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م.	تولِّي اسكيا إسماعيل بن أسكيا الحاج السَّلطنة بعد عزله أسكيا محمد بنْكن.
٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م.	عزل أسكيا محمَّد بنكن عن السُّلطة بقرية منصور في الثَّاني من ذي القعدة.
٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م.	وفاة أسكيا الحاج محمد ليلة الفطر.
٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م.	وفاة أسكيا إسماعيل بن أسكيا الحاج محمَّد، وعمره سبعٌ وعشرون سنة.
٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م.	تولِّي أسكيا إسحاق السُّلطة، في الرَّابع أو السَّادس من شعبان.
٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م.	وفاة الشَّيخ الفقيه أحمد تُرفُ خطيب مدينة جيني، وتعيين القاضي الشَّيخ محمود بَغيُغ في قضاء جيني قسرًا.
٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م.	وفاة الشَّيخ الفقيه محمود بن عمر آقيت ليلة الجمعة السَّادس عشرة من رمضان، عن عمرٍ ناهز ثمانية وثمانين عامًا.

٩٩٩هـ/ ١٥٩١م.	دخول القائد المغربي جوْدَر مع جيشه مدينة تمبكتو غرَّة صفر.
١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م.	مجيء القائد منصور بن بك إلى تمبكتو بثلاثة آلاف مقاتل.
١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م.	وفاة الباشا محمود بن علي بن زرقون بمنطقة الجبل في هومبوري.
١٠٠٥هـ/ ١٥٩٧م.	وفاة القائد المغربي منصور بن بك بتمبكتو.
١٠٠٧هـ/ ١٥٩٩م.	عودة القائد المغربيِّ جَوْدَر إلى مُرَّاكُش بأمرٍ من السُّلطان أحمد الذَّهبي.
١٠٠٧هـ/ ١٥٩٩م.	تولِّي الباشا عمر الباشَويَّة بتمبكتو لمدَّة سنة وعدَّة أشهر.
١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م.	وفاة القاضي محمد بن القاضي عبد الرَّحمن في الرَّابع والعشرين من ذي القعدة.
١٦٢٧	وفاة العلامة أحمد بابا التمبكتي.
١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م.	مقتل علماء تمبكتو على يد الجيش المغربي، ونفي بعضهم إلى مراكش.

جدول (٢): أسماء الأساكي بتمبكتو

١ أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر توري،	(٨٩٨هـ-٩٣٤هـ/ ١٤٩٣-١٥٢٧م).
٢ أسكيا موسى بن أسكيا الحاج محمَّد	(٩٣٤هـ-٩٣٧هـ/ ١٥٢٨-١٥٣١م).
٣ أسكيا محمد بُنْكن بن كورمينا فاري عمر كُمْزَاغُ	(٩٣٧هـ-٩٤٣هـ/ ١٥٣١-١٥٣٧م).
٤ أسكيا إسماعيل بن أسكيا الحاج محمَّد،	(٩٤٣هـ-٩٤٦هـ/ ١٥٣٧-١٥٣٩م).
٥ أسكيا إسحاق بن أسكيا الحاج محمد،	(٩٤٦-٩٥٦هـ/ ١٥٣٩-١٥٤٩م).
٦ أسكيا داود بن أسكيا الحاج محمد،	(٩٥٦-٩٩٠هـ/ ١٥٤٩-١٥٨٢م).
٧ أسكيا (محمَّد) الحاج بن أسكيا داود،	(٩٩٠-٩٩٤هـ/ ١٥٨٢-١٥٨٥م).

٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.	وفاة الشَّيخ الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود في شهر رجب.
٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.	تعيين الشَّيخ عمر بن القاضي محمود قاضيًا بكاغ في محرم.
٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.	عزل أسكيا الحاج عن السُّلطة. عزله أخوه أسْكِيَ مُحمَّد بان بن أسكيا داود.
٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.	وفاة أسكيا مُحمَّد بان بتندبي في الثَّالث عشر من جمادى الأولى.
٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.	مقتل كَبَارا فَرْم عَلُو على يد بَلْمَع صادق إثر خلافٍ نشب بَيْنهُما في ربيع الآخر.
٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.	مقتل كَنفاري صالح بن أسكيا داود على يد شقيقه بَلمع صادق في الخامس والعشرين من ربيع الآخر.
٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.	معركة حاسمة بين أسكيا إسحاق الثَّاني وأخيه بلمع صادق، وفرار بلمع إلى بلاد الحجَر (هُمْبوري، بلاد دُغُونْ)، في الثَّالث عشر من جمادى الأولى.
٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.	تعيين أسكيا إسحاق الثَّاني أخاه أسكيا إسماعيل في منصب كنفاري.
٩٩٩هـ/ ١٥٩١م.	وصول الجيش المغربيّ إلى كاغ في الخامس من جمادى الأولى.
٩٩٩هـ/ ١٥٩١م.	المعركة الحاسمة بين الجيش المغربيّ وجيش صونغايْ بسُنْكِيَ قريبًا من تُنْدِبي في جمادى الأولى.
٩٩٩هـ/ ١٥٩١م.	عزل كتيبة من الجيش أسكيا إسحاق الثَّاني عن السُّلطة، ومبايعة محمَّد كاغ مكانه بعد هزيمة الجيش الصنغائي في وجه الجيش المغربي.

١٣ أسكيا بكر بن أسكيا محمد صادق بن أسكيا محمد بنكن بن بلمع (١١٢١-١١٢٥هـ/ ١٧٠٩-١٧١٣م).

١٤ أسكيا المختار بن شمس بن أسكيا إسماعيل بن أسكيا مُحمَّد بان (١١٣٠-١١٤٣هـ/ ١٧١٨-١٧٣٠م).

١٥ أسكيا الحاج بن أسكيا بكر بن محمد صادق بن أسكيا محمد بنكن (١١٤٢-١١٦١هـ/ ١٧٣٠-١٧٤٧م).

١٦ أسكيا محمود بن كنفاري عمار بن كنفاري عبد الرَّحمن بن بنكفرم كيشاع بن ألفا دُنكُ بن عمر كُمْزَاغُ (١١٦١-١١٦١هـ/ ١٧٤٨-١٧٤٨م).



٨ أسكيا محمَّد بان بن أسكيا داود، (٩٩٤-٩٩٦هـ/ ١٥٨٥-١٥٨٨م).
٩ أسكيا إسحاق (الثَّاني) بن أسكيا داود، (٩٩٦-٩٩٩هـ/ ١٥٨٨-١٥٩١م).
١٠ أسكيا محمد كاغ بن أسكيا داود، (٩٩٩-١٠٠٠هـ/ ١٥٩١-١٥٩٢م).

جدول (٣): الأساكي بتمبكتو (بعد الغزو المغربي)

١ أسكيا سليمان بن أسكيا داود (١٠٠٠-١٠١٣هـ/ ١٥٩٢-١٦٠٤م).
٢ أسكيا هارون بن الحاج بن أسكيا داود (١٠١٣-١٠١٦هـ/ ١٦٠٤-١٦٠٨م).
٣ أسكيا بكر كَنْبوع بن يعقوب بن أسكيا الحاج محمد (١٠١٦-١٠٢٧هـ/ ١٦٠٨-١٦١٨م).
٤ أسكيا الحاج بن بِنكفرم بُكَرْ كِيْشَاعْ بن ألفا دُنْكُ بن فرَن عمار كمزاع (١٠٢٧-١٠٣٠هـ/ ١٦١٨-١٦٢١م).
٥ أسكيا محمد بُنْكَنَ بن بلمع صادق بن أسكيا داود. (١٠٣٠-١٠٥١هـ/ ١٦٢١-١٦٤١م).
٦ أسكيا علي زُليل بن بنكفرم بكر كيشاع (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م).
٧ أسكيا محمد بنكن بن بلمع (مرَّة ثانية) (١٠٤٥-١٠٥٢هـ/ ١٦٣٥-١٦٤٢م).
٨ أسكيا الحاج بن أسكيا محمد بنكن بن بلمع صادق بن أسكيا داود (١٠٥٢-١٠٥٧هـ/ ١٦٤٢-١٦٤٧م).
٩ أسكيا داود بن أسكيا هارون بن أسكيا الحاج بن أسكيا داود (١٠٦٧-١٠٧٩هـ/ ١٦٥٧-١٦٦٨م).
١٠ أسكيا محمد الصادق بن أسكيا الحاج بن أسكيا محمد بنكن بن بلمع صادق، (١٠٧٩-١١١٤هـ/ ١٦٦٨-١٦٨٤م).
١٢ أسكيا عبد الرَّحمن بن كنفاري عمر بن أسكيا بكر كَنْبُوع بن يعقوب (١١١٧-١١٢١هـ/ ١٧٠٥-١٧٠٩م).

مسرد المناصب الإداريَّة والعسكريَّة

معظم الألقاب هنا مضافة إلى (فار، فَرْمَ، كُيْ، مُنْذ)، والأولى سابقة، والثَّلاثة الأخيرة لواحق بلغة صونغاي أو مادينغ، وتضاف هذه الكلمات - عادةً - إلى المدن أو المناطق، أو الوظائف؛ للإشارة إلى المسؤول الإداري أو العسكري عنها.

أوَّلاً: لقب «كُيْ» (Koy)

لقبٌ بلغة صونغاي، ويعني: حاكِم، أو مَلك؛ لذلك أشير به أحيانًا في كتاب الفتاش إلى مانسا موسى ملك مالي، فقيل: «مَلِكُيْ». ويظهر في إطلاقات هذا اللَّقب أنَّه منصبٌ عسكريٌّ وإداريٌّ، وأنَّ حامله بمثابة أمير أو وزير، أو قائد جيش. ومن المناصب المندرجة تحت هذا اللَّقب:

بَرَ كُي (Bara-koi)

حاكم ولاية بَارا، وهو منصبٌ سابقٌ على عهد أسكيا. ذكر ابن المختار أنَّه القائد الوحيد الَّذِي ساند أسكيا الحاج محمَّد في حربه ضدَّ شي أبي بكر بارُو. وقد كان يتمتَّع بمكانة خاصَّة عند أسكيا؛ إذ لم يكن في مملكته «من ينهاهُ عن أمرٍ ويَتبعه أحبَّ أم كَره إلاَّ بَرَكُي» [ص١١] أي أنَّه كان يتمتَّع بما يمكن أنْ يُطلَق عليه «حقّ النَّقض» لأحكام الأسكيا. وقد تعاقَب في هذا المنصب أناسٌ كثيرون ذكر ابن المختار عشرةً منهم منذ قيام دولة أسكيا حتى الغارة المغربيَّة. [ص٨١].

بَنَكُيْ (Bana-koi)

منصب يبدو أنَه كان عسكريًّا في ولاية بانا الشَّماليَّة، وهو منصبٌ سابقٌ على عهد أسكيا الحاج محمَّد؛ إذ ذكر ابن المختار أنَّ صاحبه انضمَّ إلى شي بارو في



شكل (A) : شجرة سلالة ملوك أسكيا

- الحاج محمد بن أبي بكر
  - موسى
  - إسماعيل
  - إسحاق(١)
  - داود
    - محمد الصادق
      - محمد بنكن
        - الحاج
          - محمد الصادق
            - بكر
              - الحاج
          - محمد
    - سليمان
    - إسحاق(٢)
    - الحاج محمد
      - هارون
        - داود
      - يعقوب
        - بكر كنبوع
          - عمر
            - عبد الرحمن
    - محمد كاغ
    - محمد بان
      - إسماعيل
        - شمس
          - المختار
    - نوح
- عمر كمزاغ بن أبي بكر
  - محمد بنكن
  - ألفع دنك
    - كيشاع
      - الحاج
      - علي زليل
      - عبد الرحمن
        - عمار
          - محمد

«دالِ»، ولم يكن هذا اللَّقب يُطلق إلاَّ عليه وعلى حاكم تمبكتو وحاكم جينِّي، وكان من قبلُ يطلق على صن علي. قيل معناه «تعالى» [ص٤٥].

هُك كُرَيْ كُي (Hu-kuray-koi)

هو كبير خدَم القصر الملكيِّ، أو قصور الأمراء، وكان هو صاحب سرِّ الأسكيا والمسؤول عن كثير من الرَّسميَّات الملكيَّة بمرتبة وزير، ومن أشهر الذين شغلوا هذا المنصب: عليّ فُلانْ الَّذِي خدم أسكيا الحاج محمد طيلة عهده (٩٠٣-٩٣٤هـ/ ١٤٩٧-١٥٢٧م)، وقد تعدَّت مهامُّ بعض الذين شغلوا هذا المنصب ونفوذهم إلى قيادة الحملات العسكريَّة، والإشراف على خزينة القصر.

هُمْبُر كُيْ (Hombori-koi)

هو حاكم منطقة هُومْبوري الواقعة في منطقة ثنيَّة نهر النِّيجر على حدود صونغاي مع مملكة موصِي (ياتِينْغَا)، وهو منصب إداريٌّ وعسكريٌّ، يعنى صاحبُه بحماية الحدود، والإشراف على شؤون الولاية.

هَيْكُيْ (Hi-koi)

هو أمير القوارب، ويُعنى صاحبُه بالأسطول البحريِّ الَّذِي كان يُمثِّل جزءًا مهمًّا في القوَّة العسكريَّة للإمبراطوريَّة، وهو منصبٌ قديمٌ منذ عهد سُن علي. كان صاحب هذا المنصب يعمل عن كثب - بطبيعة الحال- مع قبائل «صُورغُو/ سُرك» التي كانت تحترف الملاحة، وتتولَّى الإشراف على جميع السُّفن على نهر النِّيجر.

يُوبُ كُيْ (Yuba-koi)

أمير السُّوق، وهو منصبٌ منبثق عن منصب كَليسا فارْما، أو منصب أشَرَعْ منذ. والظَّاهر أنَّ مهمَّته كانت مراقبة الأسعار، وجمع الضَّرائب على البضائع.

حربه مع أسكيا الحاج محمَّد مع قوَّاد آخرين «كلُّ أميرٍ بحدَّته، له جيشٌ عرَمْرم، وكلُّهم مع شي بارو» [ص٥٤].

تَرَتُنْ كُيْ (Taraton-koi)

منصب كان قبل عهد أسْكيا الحاج محمد، والغالب أنَّه كان منصبًا عسكريًّا؛ إذ ذكر ابن المختار أنَّ صاحبه كان وزيرًا من وزراء شي بارُو (أبوبكر داعُ) على رأس جيش عَرَمْرَم [ص٥٤].

دِرْمَ كُيْ (Dirma-Koi)

حاكم منطقة دِرْما في الجزء الشَّماليِّ من نهر ديبو، وكان منصبًا إداريًّا وعسكريًّا في الوقت نفسه، ومن امتيازاته (الشَّكليَّة) أنَّه لم يكن يحقُّ لأحدٍ غيره دخول القصر الملكيِّ راكبًا.

غُيْمَ كُي (Goima-Koi)

يتبيَّن من تحليل كلمة «غُيْم» أنَّ هذا المنصب يعني: أمير الشَّواطئ أو الموانئ، [ص٩٦، ١٥٠]. كما أنَّ كلمة «غُيْم» تعني موضعًا جنوبيَّ مدينة غَاوْ عاصمة المملكة، وقد يكون هذا المنصب لقبًا لحاكم تِلْكَ المنطقة.

كُرَكُيْ (Kura-koi)

هو رئيس بلدة كُرَ الواقعة في جزيرة صغيرة بعرض نهر النِّيجر، ويبدو أنَّ مهامَّه لم تكن تتجاوز جمع الضَّرائب، والإشراف على حركة قوارب الصَّيد.

كُومَ كُيْ (Kuma-koi)

كان منصبًا رفيعًا مقرَّبًا إلى أسكيا، ويضفى على صاحبه اللَّقب التَّبجيلي

بنْكَ فرم (Benga-farma)

هو حاكم منطقة البحيرات في الشَّمال الشَّرقي من المملكة، وهو منصبٌ قديم منذ عهد سُن علي، وقد وصف السعدي هذا المنصب بقوله: «وتِلْكَ الرِّئاسة مقامٌ كبير في سلطنته، وصاحبه من أرباب الطَّبل» [ص٧٩]، ويعني الطَّبل هنا أنَّه كان يُضربُ له الطَّبلُ حين مقدمه بالعاصمة غاوْ، ويتلقَّاه الأمراء وحاشية القصر مُترجِّلين. بينما يظلُّ هو راكبًا، وممَّن تقلَّد هذا المنصب الأمير بالاَ بن أسكيا الحاج، وقد شغل قبل ذلك منصب أدِكِ فَرْمَ.

تَرَعْ فَرم (Tara? Farma)

منصبٌ لم يرد عند ابن المختار ما يشير إلى طبيعته، لكنْ يغلب أنَّه كان منصبًا إداريًّا استشاريًّا. ذكر هنا في «الفتاش» أنَّ ألْفَكِ بن عمر كُمْزَاغُ شغل هذا المنصب، وكان أثبتَ أولاد والده، وأوقرَهم مروءة [ص٨٠].

تُنْدِفَرْمَ (Tondi-farma)

حاكمٌ إداريٌّ بمنطقة هومْبُوري السُّفلى، أي منطقة الجبَليِّين المسمَّاة أيضًا بـ«بلَد الحجَر»، وهي منطقة قبائل دُغونْ. وتُنْدفرم منصبٌ قديم منذ عهد سُن علي. وبما أنَّ تُند مقاطعة بمنطقة همبوري، فمن الأرجح أنَّ منصب تندفَرم كان تحت إمْرَة هُمْبُرُكُيْ المباشرة. وقيل إنَّ سن علي مات بتِلْكَ المنطقة ببلدة يقال لها نُنَّ.

حارِ فَرْم (Hari-farma)

تترجَمُ هذه الكلمة حرفيًّا إلى «أمير المياه»، ويبدو أنَّه كان منصبًا منبثقًا عن منصب وزير السُّفن: هايْ كُويْ. ومهمَّته مراقبة حركة التِّجارة الملاحيَّة، وجمع ضرائبها وما إلى ذلك.

ثانيًا: لقب فارِ، فَرْمَ/ فارِنْ (Fari, Farma, Farin)

وهو بالصُّونغاي «فارنْ، فَرَنْ»، ويعني: الشُّجاع المحارب أو صاحب السُّلطة والغلبة، ويأتي هذا اللَّقب أحيانًا على صيغة المبالغة «فارْمَا، فارْبا/ فَرْمَ، فَرْبَ»، وصيغته بلغة مادينغ (فَعْمَ، فَارِنْبا (fa'ma, farin-ba، وهو لقبٌ عسكريٌّ يطلق على القواد، وعلى حكام الأقاليم. ومن المناصب المندرجة تحت هذا اللَّقب:

أَرْيَفَرم (Arya-farma)

منصبٌ إداريٌّ شغله ابنان لأسكيا داود هما: علي كُلم [ص١١٨]، وهارون [ص١٣٧] ويبدو أنَّه كان منصبًا رفيعًا طالما أنَّ أبناء أسْكيا هم الذين شغلوه. وأشار هوداس في ترجمته للفتاش [ص٢١٦] أنَّه يعني: المسؤول عن الفيضانات. لكنَّ هذا التَّفسير ليس قويًّا؛ لقيامه على معنى محتمل لكلمة «أرْيا» الصونغائيَّة، ولا نحسب أنَّ الفيضانات كانتْ بتلك الكثرة والأهميَّة حتى يُعيَّن لها مسؤولٌ، ولو كانتْ كذلك؛ لاستمرَّ هذا المنصب لفتراتٍ طويلة.

بابِلِ فرْم / فَعْمَ (Babili fa?ma)

يشير الجزء الأخير من هذا اللَّقب إلى أنَّه منصبٌ بمنطقة وَنغارا (المادينغ) من المملكة، وتعني (فَعْم): الرَّئيس والزَّعيم أو الملك. ولم ترد إشارة إلى طبيعة هذا المنصب، لكنْ وردتْ الإشارة إلى أنَّ أحد أبناء أسكيا الحاج محمَّد قد شغله. [ص٧٩].

بَنَفَرْم (Bana-farma)

كان هذا المنصب بمثابة وزارة الضَّرائب، من حيث تحديد أنصابها، وتعيين السِّلع المستحقَّة للضَّرائب. وتعني كلمة «بانَ» بالصُّونغاي: «قضاء الدَّين أو الأجور»، وهذا المنصب منبثقٌ عن منصب كليسافَرْم وزير الخزانة [ص٢١٦].

كَبَرَ فَرْم (Kabara-farma)

هو رئيسُ ميناء تمبكتو، ومن مهامه جمع الضَّرائب على السُّفن والقوارب، وكبَارا هي البلدة المشرفة على تمبكتو، تبعد عنه بثلاثة عشر كيلومتر، وكانت بمثابة بوَّابة للمدينة، وهي تختلف عن مدينة كَبارا الأخرى الواقعة بمنطقة ماسينا. ينظر هامش [ص٦٠].

كَتَلَ فرم (Katala-farma)

الظَّاهر أنَّ هذا المنصب كان عسكريًّا؛ إذ وجد في عهد سُن عليّ الَّذِي كان معنيًّا بالحروب والغارات، وقد شغل هذا المنصب آنذاك عمر كُمْزَاغُ شقيق أسكيا الحاج محمَّد، وعُرف بالإقدام في قيادة كتيبة من جيش سُن عليٍّ.

كُرَيْ فَرْم (Kuray-Farma)

هو منصب عسكريٌّ يعنى صاحبُه بتَكتيكات الحرب في الميدان. ذكر ابن المختار أنَّ الذي كان يشغله يوم قتال صونغاي مع الجيش المغربيِّ، كان من أشجع النَّاس، وأنَّه من الشُّجعان القلائل الذين ثبتوا في الميدان يومئذٍ على الرُّغم من الهزيمة. [ص١٤٨]

كِلِسِ فَرم (Kilisi-Farma)

أو: كَلِسَ فَرْم: قيل (كلس) كلمةٌ مالينكيَّة مقترضة من العربية (خالص)، وذهب هونْويك إلى أنَّه يعني: الذَّهب الخالص، ولكنَّه صرَّح بأنَّ طبيعة هذا المنصب غير محدَّدة، وقد شغله سليمان كِندَنْكَري بن أسكيا الحاج محمد.

لَنْتِنَ فرم (Lantina-farma)

منصبٌ يغلب أنَّه إداريٌّ، شغله أحد أبناء أسكيا داود اسمه بُكَر [ص١٠٥]،

حَصُلِ فَرْمَ (Hasuli Farma)

منصبٌ عسكريٌّ غير محدَّد المهام. يبدو أنَّه كان منصبًا ملحقًا بالقصر يُعنى صاحبُه بالعمليَّات الطَّارئة من ملاحقة الفارِّين وغيرها ممَّا يستوجب التَّدخُّل السَّريع. [ص١٣٧].

دَعَيْ فَرم (Da'ay-koi)

حاكم بلدة دَعَيْ، ولم يذكر ابن المختار طبيعة وظيفة هذا الحاكم، وإنَّما اكتفى بإضافته إلى أحد أبناء أسكيا داود، وهو سِنَ [ص٨١]، ولا يبعُد أن يكون مثل غيره من الفَرْمات.

ساتي فَرم (Sate-Farma)

أي أمير الغابات. انبثقت هذه الوزارة عن وزارة فارِ منذُو حين توسَّعت رقعة الإمبراطوريَّة جنوبًا وغربًا في المناطق التي عُرفت - فيما بعد - بسواحل غينيا.

شَعْ فَرْمَ (Sha?farma)

هو حاكم مَرسى على نهر النِّيجر قريبًا من بُحيرة دِيبُو، ولا يبعد أن يكون هذا المنصب منبثقًا عن منصب وزير المياه (حارِفَرْمَ)، وتتحدَّد مهامه بجمع الضَّرائب عن القوارب والصَّيادين في هذه المنطقة.

كارَ فَرم (Kara-Farma)

هو المسؤول عن تنفيذ العقوبات الجنائيَّة، وقد شغل هذا المنصب أحدُ أبناء أسْكيا اسمه حماد. [ص١١٨].

ثالثًا: لقب مُنْذ (Mondyo, Monzo)

يعني: حاكم، أمير، وهو لقبٌ صونغائي كان يطلق عادةً على الحكام الذين كانت السُّلطة المركزيَّة تعيِّنهم في المناطق الاستراتيجيَّة للإمبراطوريَّة، مثل: جيني، وتمبكتو، وتغازة، وماسينا، وهو منصب عسكريٌّ وإداريٌّ رفيع.

أَشَرَعْ مُنْذ (Ashara-koi)

وصف ابن المختار صاحب هذا المنصب بأنَّه «خَديم القاضي» [ص١٥٧]، ويبدو أنَّه كان بمثابة شرطيٍّ لتنفيذ الأحكام التي يُصدرها القاضي. والظَّاهر أنَّه كان يوجد أكثرُ من شخصٍ يشغل هذا المنصبَ في آنٍ واحدٍ طالما أنَّ القضاة كانوا في كلِّ بلدةٍ تستحقُّ أن يُعيَّن لها قاضٍ؛ لذلك نصَّ ابن المختار حين أشار إليه بقوله: «أشَرعْ منذ بمدينة جِنِّي» [ص٣٥]، وذكر آخر بمدينة تمبكتو [ص١٢٣].

بَرْبُوش مُنْذ (Barbushi-monzo)

هو الحاكم الإداريُّ المسؤول عن شؤون العرب البرابيش الذين كانوا يقطنون تمبكت، وكان يُختار من العرب أنفسهم.

تَصَرَ مُنْذ (Tasara-monzo)

منصبٌ إداريٌّ، يبدو أنَّه كان ملحقًا بمنصب حاكم تمبكتو، ولم يَرِدْ ذكرٌ لمهامِّه وطبيعة عمله.

تغَازَة مُنْذ (Taghaza-monzo)

حاكم تغازة، وهي المنطقة التي كان بها منجم الملح، وكانت منطقة مهمَّة في الإمبراطوريَّة من النَّاحية الاقتصاديَّة، والظَّاهر أنَّ مهمَّة هذا الحاكم كان إداريًّا

ولا يبعُد أن يكون منصبًا استشاريًّا على غرار المناصب الكثيرة التي كانت تُستحدثُ لأبناء أسْكيا الكثيرين؛ للحدِّ من تنافسهم على المناصب المركزيَّة.

وَرْكِيَ فَرمَ (Warkiya-farma)

من المناصب التي شغلها أحدُ أبناء أسكيا داود، وهو حماد [ص١١٨]، وهذا المنصب - في الغالب - منصبٌ إداريٌّ يبدو أنَّه لا يتعدَّى منصب المستشار الخاصِّ للأسكيا.

باغَن فارِ (baghana-fari)

حاكم ولاية باغَنَ، وهي ولاية شماليَّة افتتحها أسكيا الحاج محمَّد عام (٩٠٤هـ) في العام الرَّابع من ولايته. وممَّن تولَّى هذا المنصب عبد الرَّحمن بن عمر كُمْزَاغُ. [ص٨٠].

دَنْدِ فارِ (Dendi-Fari)

حاكم منطقة دندِ، وهو ثالث أهمِّ ثلاثة مناصب بالمملكة بعد منصب أسكيا (كورمينا فاري، وبلاما فاري). وبالإضافة إلى مهامه، فكان مستشارًا خاصًّا للأسكيا، وله الحقُّ في مواجهة الأسكيا برأيه دون خوفٍ، أحبَّ الأسكيا أم كره.

كُرْمِنَ فارِ (Kurmina-Fari)

يقال له عادةً: كَنْفاري، أي حاكم إقليم كورمينا وجميع الأقاليم الغربيَّة من إمبراطوريَّة صونغاي. كان هذا المنصب بمثابة ولاية العهد، أنشأه أسكيا الحاج محمد (عام٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) وعيَّن فيه شقيقه عمر كُمْزَاغُ، وكان مقرُّه مدينة تِنْدرمة التي يذكر ابن المختار أنَّه أسَّسها بنفسه. وتعني كنفاري حرفيًّا بلغة المالينكي: العنق، وتطلق على وليِّ العهد أو المقرَّب إلى الملك؛ للإشارة إلى علاقته بالملك الذي يمثِّل الرَّأس بالمملكة.

رابعًا: ألقابٌ متفرِّقة

أسكيا ألفَا (Askiya-Alfa)

هذا اللَّقب مضافٌ ومضافٌ إليه، ويعني: فقيه الأسكيا، أي مستشاره الشَّرعيُّ، وقد شغل هذا المنصب بُكَر لَنْبارُ، وطال به مكثه من عهد أسكيا داود حتى الغزو المغربي، وكانت تُسند إليه كتابة العهود والوثائق ذات الصِّبغة الدِّينيَّة.

بَلْمَع (Balm'a)

منصبٌ عسكريٌّ قديمٌ منذ عهد ملوك سُن/ شي. كان صاحبه قائدَ الجند بمنطقة كابارا [ص١٢٦]، وممَّن تولَّى هذا المنصب: بلْمَع صادق، وبلمع حامد، وبلمع محمد كاغ، أبناء أسكيا داود.

تُرجمان

من عادة ملوك أفريقيا عدم التَّحدث مباشرةً إلى الجماهير، ويقوم بمهمَّة الإبلاغ عنه من يمكن أن يطلق عليه (ترجمان)، حيث يذكر الملك مراده بإيجازٍ، فيقوم الترجمان بإبلاغ ذلك بطريقة خطابيَّة بليغة، وعادةً يقوم بهذا العمل عشائر جالي، وممَّن عُرف بذلك في بلاط عدد من الأساكي: التُّرجمان وَنْدع.

كِسرْدُنْكِ (Gesere-dunke)

لم يرد إيضاحٌ لمهامٍّ هذا المنصب، وكان من خصوصيَّات صاحبه أنَّه كان يحقُّ له مناداة أسكيا الحاج محمد باسمه الصَّريح في مجلسه، ممَّا يدلُّ على أنَّه كان منصبًا مهمًّا، والأظهر أنَّه كان إداريًّا، أو مجرَّد منصب فخريٍّ. وممَّن شغل هذا المنصب دكُ بن بُكر فَطَ، وكان مقرَّبًا لأسكيا داود.

وعسكريًّا أيضًا؛ بمسؤوليّته عن حماية الطَّريق التَّجاريِّ الموصل إلى المملحة، وجمع الضَّرائب من التُّجار على أحمال الملح.

تُمبكت مُنْذ (Timbuktu-monzo)

هو حاكم مدينة تمبكتو، وكان يتمتَّع بنفوذٍ كبير نظرًا لأهميَّة هذه المدينة وكونها بمثابة «مملكة في مملكة»، والظَّاهر أنَّ مهمَّته كانت عسكريَّة وإداريَّة. أمَّا الجوانب الدِّينيَّة فقد كان قاضي تمبكتو هو صاحب الأمر والنَّهي فيها [ص ١٨٠].

فارِمُنْذُ (Fari-Monzo)

أي «أمير الأرض» وكان منصبًا إداريًّا يعنى صاحبُه بالأراضي والممتلكات الملكيَّة، وكانت مهامه أشبه بمهامِّ وزير الزِّراعة في عنايته بمزارع الدَّولة الرَّسميَّة، وبجبايته الضَّرائب عن المحاصيل الزِّراعيَّة. ولأهميَّة هذا المنصب الإداريَّة والاقتصاديَّة، فإنَّ أصحابه كانوا يختارون من الأمراء أبناء أسْكيا فحسب؛ لذلك انتقل معظم أولئك من هذا المنصب إلى منصب الأسكِيَويَّة.

كُركَ - مُنْذُ (Kurka-monzo)

هو حاكم كُرْكَ بمنطقة تندرم مقرِّ كورْمينا فاري، وهو منصب عسكري.

كُيْرَ بَنْدَ- مُنْذُ (Koira Banda-monzo)

كان مسؤولاً عن ضواحي مدينة تمبكتو، وتعني (كُيْر): المحلَّة أو البلدة، و(بَنْد): خارج أو وراء، والتَّرجمة الحرفيَّة له هي: وزير ما خارج المدينة.

ماسينا مُنذ (Masina-monzo)

الحاكم الإداريُّ بمنطقة ماسينا التي كانت مملكة تابعة لإمبراطوريَّة صونغايْ.

١٢	أرْبِي	هم خَدَم أسكيا الخواص، وخدم أهل بيته، لم تكن عليهم غَلَّة. [ص٧٣].
١٣	(١٣-١٩) حَدَادَنْكِ	من الزَّناجية، وهبها أسكيا للفقيه صالح جَوَر، وهي ثلاث قبائل، لكن ذكِرَت أربعة أخرى. (فالَنْ، بِلَ كُكُ، كُرْكَعْ، سَرَيْ) [ص٧١]، (هنا سبع قبائل ١٣-١٩).
٢٠	تُثِيَم	عبيد الشُّرفاء المغاربة في مراكش.
٢١	فَرَنْطك	قبيلة من الزناجيَّة، تزاول صيد السَّمك. وهبها أسكيا الحاج للشريف الصِّقْلِي، مجموعها نحو (٢٧٠٠) نفس. [ص٥٧].
٢٢	بونِيُ بُكُ	عبيد من هذه البلدة التي ينسبون إليها، وهي قريبة من توتَلَ بتندرم.
٢٣	كِرُني بُلْنُغ	غنمها أسكيا من أهل كُسات.
٢٤	يَئِك كاجِل	عبيد من بُرغو جنوبي صونغاي.
٢٥	(قبائل متفرقة)	بَنْكَنَ [ص٣٢]، تُمبا [ص٣٢]، جَمْ كِرِيَ، حَرِدان [ص٣٢]،

(*) القبائل الأربع والعشرون جميعها من كفار بَمبَر. غنمهم شي مادُعو من ملوك مالي. وهي القبائل الرقيقة «أصالة» أو «عبيد السلطنة»، المسترقَّة قبل عصر أسكيا. أما ما دونها من القبائل المملوكة فهي التي استرقَّها أسكيا الحاج محمد في حروبه المختلفة.



جدول (٤): القبائل الأربع والعشرون المملوكة

م	القبيلة	إيضاحات
١	جِنْدِكَتَ	قبيلة تُعنى بالخيول. أبوهم حدَّاد اسمه بُكر. أمُّهم أمة مملوكة لوالدة شي محمد فارَ. [ص٥٨].
٢	جَمْ وَلِ	جَمْ وَلِ وسُرُبَنَى: أبوهما حدَّاد ماسِني، وهبهما أسكيا للفقيه محمد تل مع قبيلة زناجية أخرى. [ص٧١].
٣	جَمْ تِنِ	قبيلة حدَّادة، تزاول صناعة الأسلحة من رماح وسيوف وغيرها. وهي وقبيلة جَمْ وَلِ: أبوهما حدَّاد ماسِني، وهبهما أسكيا للفقيه محمد تل مع قبيلة زناجية أخرى. [ص٧١].
٤	كُمِ	من القبائل التي غنمها أسكيا من شي بارُ، وهم من كفار بمبَر.
٥	سُرُبَنَى	من القبائل التي غنمها أسكيا من شي بارُ، وهم من كفار بمبَر.
٦	جِرَكُرِ بُكَر	قبيلة مزارعة من كفار بَمْبَر، كان موطنهم نياني عاصمة مملكة مالي. ورثهم شي مادعو عن مملكة مالي حين غلب عليها، وأضافها إلى مماليكه. أبوهم: بِمَ تَاسو. [ص٥٥، ٥٦].
٧	نْكَرَتِبِ	قبيلة مزارعة من كفار بَمْبَر، هي وقبيلة جِرَكُرِ بُكَر، ونْكَرَتِب من أب واحد، هو: بِمَ تاسُو.
٨	كَسَمْبَرَ	قبيلة مزارعة من كفار بَمْبَر، هي وقبيلة جِرَكُرِ بُكَر، ونْكَرَتِب من أب واحد، هو: بِمَ تاسُو.
٩	شَمْساكُ	يقال لها أيضا: سَمَسيكُ. من القبائل التي غنمها أسكيا من شي بارُ.
١٠	سُرْكُ	هم خَدَم أسكيا الخواص، وخدم أهل بيته، لم تكن عليهم غَلَّة، هي مثل أربي. [ص٧٣].
١١	كُرُنْكُيْ	قبيلة متفرعة عن شمساك من جهة ابنته. [ص١٥].

الملحق الثاني: كشافات

أوَّلا : كشاف الأعلام

بُكَر جِعَنْ
بُكَر سَنْ (من أبناء أسكيا الحاج محمد).
بُكَر سينْ فِلِ (من أبناء أسكيا الحاج محمد).
بُكَر عليّ دِنْتُورُ
بُكَر كِرِنْ كِرِنْ (من أبناء أسكيا الحاج محمد).
بُكَر كورُ
بُكَر كوكِ
بُكَر لَنْبَار (الفقيه المستشار لأسكيا داود)
بُكَر لَنْبَار أسْكِيَا ألْفَعْ
بُكَرْ مَيْكَ
البكريُّ (أبو عبيدة)
بلقاسم
بلقاسم التُّواتي (من مشايخ تمبكتو المتصوفين).
بَلْمَع حامد
بَلْمَع صادق
بَلْمَع مُحَمَّد كُرَيْ
بَنَا بنت تَـيْ
بِنْتَ (من بنات أسكيا الحاج محمد، زوجة مَقْشَرَنْ كُيْ).
بِنْشِ كَرِ
بَنَفَرْمَ دَكُ كَمِ إجِ
بَنْكَنَ
بُنْكَنَ (أمُّ مُحَمَّد كوبَ)
بَنَكُيْ عليّ
بوبو
بَيْدَانْ
بيرَ
تَاتُ مَرْيَم
تَبَكَلِ
تُثِيَمَ
تَرَاسَ بن هارون (قيل هو جد وعكري، كان ملكا باليمن).
تَرَعْ فَرْمَ ألفَكِ
تُسْكُ
تِسِمَنْ
تُكِفِرِ سُومَ (من ملوك المادينغ).
تُمْبُو
تُمَنْ دَرْفَنَ

عبد الكريم المغيلي

عبد الكريم بن عبد الحفيظ

عبد الكريم فُوفَنَ (من فقهاء تمبكتو، Abdul Karim Fofana).

عبد اللَّطيف بن سليمان

عبد الله بن أسْكِيَ مُحَمَّد

عبد الله بن يوسف

عبد الله والي باهْ (شيخ بمنطقة كاي وجدت بحوزته نسخة من الفتاش).

عبد الله وُلْد كُنْكَيْ

عبد المطلب

عبد الملك

عبد الواسع المسراتي

عبد الوهَّاب بن عبد الله

عَبْدَلْ يَبَالِ

عثمان الكابري (من فقهاء مدينة كبارا المتصوفين).

عثمان دان فوديو (مؤسس دولة الخلافة بصكوتو، Uthman dan Fodio).

عثمان دَرَمِ

عثمان كِرِيَ

العرباض بن سارية

عل زُلَيْلَ (من أولاد كنفاري عمر كمزاغ).

عَلِ فُلَنْ (حاجب أسكيا الحاج محمد).

علِ كُسُل

عل كَنْدَانْكِيَ

عَلُوا واكِ

عَلُوسَمَ

علي بن أبي طالب

عليّ بن حميد

علي بن زياد القوطي (يعتقد بعض الباحثين أنه جد محمود كعت).

علي بن عبد القادر

عليٍّ بن عبد القادر

عليّ بن عبد الله

عليّ بن عبد الله بن عبد الجبَّار

علي بن مولاي أحمد بن عبد الرَّحْمَن

عليٌّ بن نَانْ

عَلِيّ تَكَرْيَا (معلم القرآن بتمبكتو).

عليّ كُسُل (من أبناء أسكيا الحاج محمد الكبار، شغل منصب كنفاري).

مُحَمَّد بُنْكَنَ كِرِيَ

مُحَمَّد بِنْبَعْتِ الحدَّاد

مُحَمَّد تُكَادُ بن مُور مُحَمَّد

مُحمَّد تُلِ (من الفقهاء السبعة، حج مع أسكيا الحاج محمد).

مُحَمَّد تِنِنْكُ

مُحَمَّد تَيْ

مُحَمَّد جَعِيتِ

مُحَمَّد حجي

مُحَمَّد حَيْكَ

مُحَمَّد دَنْدُمِيَ

مُحَمَّد سابُن

مُحَمَّد سُرْكُ

مُحَمَّد شُرْكُ إيجِ

مُحَمَّد صطفو (أمير كاتسينا).

مُحَمَّد قُمَ

مُحَمَّد كَاغُ (أسكيا: تولى بعد هزيمة أخيه إسحاق في وجه الجيش المغربي).

مُحَمَّد كُدِرَ

مُحَمَّد كِرُبَ

مُحَمَّد كُرَيْ بن علي كُوكِيا

مُحَمَّد كِنْبِ

مُحَمَّد كُورُ

مُحَمَّد كُوكِيَ (من ملوك صونغاي).

مُحَمَّد كُيْ إجِ

مُحَمَّد كُيْرَوْ

مُحَمَّد نانِ كونُ

مُحَمَّد نَضْ (زعيم الطوارق بتمبكتو).

مُحَمَّد هَوْكَارُ

مُحَمَّد وانْكَر بن عبد الله بن سَنْجُوَك الفُلاني

مُحَمَّد ولد بنش

مُحَمَّد وُلْد كُرْتَم (بن كرتم، فقيه إخباري).

محمود المؤذِّنُ

محمود بَغَيُغُ

محمود بُكَر

محمود بن أبي بكر بَغَيُغُ

محمود بن الحاج المتوكِّل كعت (محمود كعت).

محمود بن زرقون

محمود بن سحنون

محمود بن علي بن زرقون

محمود بن عمار

محمود بن عمر

محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقيت

مودبُ محمد الكابري
مُورْ الصَّادق
مور بُكَر بن صالح ونْكَرْبِ
مور جَيْبَ
مور عثمان سَاكِدِ
مُور كُنْبَ
مُورِ مَانَ باكُوَ
مور مُحَمَّد
مور مُحَمَّد الكابِرِي
مُورِ مُحَمَّد هَوْكَارُ
مورْ مَعْمَعْ بن مور مَعْمَكْ
مور مَعْمَكْ
مور هَوْكَارُ (من الفقهاء السبعة، قيل حج مع أسكيا الحاج محمد).
موسى بن أَلْفَا صَالِح جَوَرَ
موسى بن سَنُوسِي
موسى بن عبَّاس بن أحمد بن عليّ
موسى كمارا (مؤرخ فولاني، /Musa Moussa Kamara).
مَوْلايَ أبو فارس
مولاي أحمد
مولاي أحمد الذَّهبي (سلطان مراكش).
مولاي أحمد بن بابير الأرواني (فقيه مؤرخ بأروان).
مولاي إسماعيل
مولاي الصِّقلي
مولاي العَبَّاس
مولاي مُحَمَّد
مَيْنُنْ
مِيمَ فُنُ (من ملوك المادينغ الإثني عشر).
ميمون
نارَ
نَامُويْ
نانَ أَسْما
نانَ سَلَمْ (والدة شي محمد فار).
نانا حسن
نانا كَنْكُ (والدة مانسا موسى، قيل قتلها خطأ).
النحاس
نحيميا ليفتصيون (مؤرخ مستشرق، متخصص في تاريخ السودان الغربي، Nehemia Leftzion).

تُمْبا (قبيلة قيل وهبها أسكيا الحاج للفقيه صالح جوَر).

التَّوارق (الطوارق).

التُّوردي (ينظر: طرودي).

جاخانْخي (قبيلة في منطقة سنيغامبيا، قامت بنشر الإسلام).

الجَافْنَاوِين

جَافُنْكِ (قبيلة، .Jafunke)

جَاوَرَ

جِكِنك

جَمْ تِنِ

جَمْ تِينِ

جَمْ كِرِيَ

جَمْ كِرْيَا

جَمْ وَلِ

جِنْدِكَتَ

حَدَادَانْكِ

حَرِدانَ

الحروشي

دَانْدِ / دَنْد

الدُّغون (قبيلة، .dogon)

الدُّغون (قبائل بالمناطق الجبلية بجنوب شرق مالي الحديثة، .Dogon)

الرُّومان

الزَّغْرَانيُّون (عشيرة تنسب إلى الفولاني، ni).ǰni, ZoghorǰZughur

الزَّغْرَانيِّينَ

الزَّناجِيَّة

سُرُبَنى

سُرْكُ (قبيلة صونغائية، .Sorgo)

سَرَيْ

سُرْيَعْ

سُغُيْ (سنغي، صونغاي، ,Songhay Songhai).

سُلْطَان أيِرْ

سَمَسِيكُ

سَمْشَاكُ

سَنْ

سُنْغُيْ (صونغاي).

سَنْقَرِ (من عشائر الفولاني).

السُّودَانيُّون

سُوسَة

سُونة (فرقة من المقاتلين، .Sona)

سوننكي (قبيلة في صونغاي).

شَاوِش بَاش

الصَّنْهَاجَة (قبيلة، .Sanhaj)

* * * *

ثانيًا: كشاف القبائل والجماعات

ثالثًا: كشاف المدن والمواضع

* * * *

جَعْفُنُ (زفون، زعامة في القرن السادس عشر، Diafunu, Zafun).

الْجِفِ

جمهوريَّة مالي

جِنّ (جيني، Jenne, Dienne).

جِنَان المساكين (وقف أنشأه أسكيا داود للمساكين).

جِنْتَع

جِنْجَوْ

جُنْدَبُغُ

جُنْدَجِسِ

جِنِّي (جنّ: Dienne, Djenne, Jenne).

جَوْكَل

الحجاز

الحجَر (بلاد دغون، همبوري شرقي صونغاي).

حجر الصُّغرى

حَدَادَنْكِ أغمًا

حَرْكُنْسَ كَيْغُرُ

الحرَمَيْن

حمد الله (عاصمة الإمارة الإسلامية التي أسسها الشيخ لوبو).

خُنْدِبيرْ

الخرطوم

خُنْدَمْ

دَاغْ

داغَ

دَاكاجالا (العاصمة الأولى لمملكة مالي، Dakajala).

دَامَ

داهومي (مملكة بجنوبي صونغاي، في بنين الحالية، Dahomey).

دَغْ

دَغْنَكَغْ

دُكُرِ

دُمْبِ

دِنْتُورِ

دَنْدِ (دانْد: من مناطق صونغاي الجنوبية، Dendi).

دَنْدَكُرَ

سُنْكِيَ (موضع القتال بين صونغاي والجيش المغربي).
سنيغامبيا Senegambia
السُّودَان
السودان الغربي
سُورَ بَنْتَنْبَعَ
سُوكِرْ
سُومَ
سَيْ فُلاَيْرِ (سرفلابير).
سيراليون
سِيلَ
سِينِ
شَابُكُ
الشَّام
شِنْشِنْ
شِيطَيْ
صكوتو (عاصمة الإمارة الإسلامية التي أسسها الشيخ عثمان دان فوديو).
الصِّين
طائفَ
طرابلس
طُلَيْطلة
طوبا-كوتو (بلدة علمية روحية أسسها الشيخ سالم جابي، Tuba-Koto)
طَوْتَلَ (توتَل، أي بلد الله).
طَيْطَوَن
العِرَاق
عِسَفَي
غَدَامِسَ
غرب أفريقيا
غُوانْدو (بلدة بشمال نيجيريا الحديثة، Gwandu).
غُوبِرْ (عاصمة بشمال نيجيريا الحالية، كان يحكمها الهوسا، Gobir).
غُودو (موضع هاجر إليها الشيخ عثمان دان فوديو بجماعته، Gudu).
غينيا
فَاتِ
فارس
فاس

كُوكَ

كَوْكَوْ (كاغ، غاوْ).

كُوكِيَ (عاصمة صونغاي الأولى قبل كاغ).

كُوكِيا

كُوكِيَة

كُومَ

كومْبي صالح (قُنب، عاصمة إمبراطورية غانة).

كُومو

كُونَا

كُونَعَ

كونغو

كِوَيْ

كَيَّاكَ (زعامة قديمة ببلاد السودان).

كُيْبَ

كيبنو

كِيسُ

كَيْعَكَ (كياك، زعامة سوننكية، Kaniaga).

كُيْكِيَ (كُكي، كوكي، كوكية، Kukiya).

كُيِمَ

كَيَمَغَ (لقب ملوك غانية القديمة).

كَيْنَ

كَئِي

كَيِي

لابي (مدينة بغينيا كوناكري، Labe)

لُعْلُع (لولع، لولو).

لُنْفُ

لُولُعْ

ماسُعُ

ماسنة (منطقة بغينيا الحالية يسكنها الفولاني).

ماسِنَة (منطقة بمالي الحديثة، هي موطن الفولاني، Macina).

مالانْغالْ (بلدة بمنطقة ماسينا، ولد بها الشيخ أحمد لوبو، Malangal).

ماندي سيلا (طريق تجاري بمملكة مالي).

المحيط الأطلسي

* * * *

رابعًا: كشاف المصطلحات

بَنَكُيْ

تَرَتُنْكُيْ

تِلْظَ (لقب لسلطان أغاديس).

تَلَقَ بَرْبُوشِ

تُنْبُكْتُ كُيْ

تُنْبُكْتُ مُنْذُ

تَنْدِفَرْمَ

تُنْكَرَ (تنكامنين: لقب لملوك مادينغ).

تَنْبِضَ (تنغيلا: زعيم قبلي للفولاني، يوصف بالمتنبئ).

جِنّ كُيْ

جِنّكُيْ

الحجر الأَسْوَدِ

حَمْ

الخُلفَاء الاثني عَشَرَ

دالِ (لقب مبجل لصن علي).

الدَّرَامِي

دِرْمَ كُيْ

دِرْمَكُيْ

دَنْدِ فارِ (Dendi-fari).

دَنْدِفارِ

دُورِنْتَ (دولِنْتَ: لقب مبجل لصن علي).

دُولِنْتَ

دينيانكي (زعامة للفولاني).

سَعُ فَرْمَ

السِّلَوِي (سيلنكي: نسبة إلى عشيرة سيلا من السوننكيه).

سَنْ

سيلاتيغي (لقب لزعيم الفولاني، ومعناه: مرشد، Silatigui).

سِيلَكُيْ

الشَّاوِشُ

الشُّرَفَاءُ

شَعْ فَرْمَ

الشَّوَّاش

فَارِمُنْذُ

فَانِي (بلدة قريبة من غاوْ).

فَنْفَ (رئيس العبيد في المزرعة أو رئيس السفينة).

فوطَ كِنْكِ (لقب لزعيم فوتا).

قَنْدَبُور (لقب لقائد مغربي).

السَّبيل (طريقة من القتل الجماعي الفاحش عند الجيش المغربي).
شَجَرَة طِيشَة
صِنُون (وعاء للكيل في صونغاي).
صُنيَّات
طابَعَ (التبغ، tobacco, tabac).
طَرِينَهْ بَاجِيهْ
غُورو (كورُ: ثمرة الكولا، goro, guru, woro).
فاريتي (فاريتي: زيت يستخرج من شجرة شِي).
الفَنَافي (جمع فَنْف، وهم العبيد المزارعون).
الكُرُجِهْ
كُرْلي كَبِيس
كُورُ (غور، كورية: جوزة الكولا).
كورية
ما أَيْنَه! ما أَيْنَه!
مَعَ كَيْنَا (تعبير تلطف بمعنى: أُخَيَّ).

* * * *

خامسا: كشاف الألقاب والمناصب

الأساكي
أَسْكُعُ صُوبَ (لقب لملوك غانة).
أَشَرَعْ مُنْذُ
امْوِيني موتابا (لقب ملوك زيمبابوي الكبرى، معناه: ملك الذهب).
أَنْفَارَ قُمَ (القاضي العرفي بصونغاي).
بَابِلِ فَرْمَ فَعْمَ
باركي ملك
بَارَيْكُيْ
بارَيْكُيْ هُو كُرَيْكُيْ
بَاشِ فَرْمَ
البَاشُوطَات
باغَنَ فارِ
بَرَ كُيْ
البَرْبُوشِ مُنْذُ
بَلْمَع
بِنْكَفَرْمَ

سادسًا: كشاف الأدوات والآلات

أَنْكُرْجِ (سيف أسكيا، من شارات السلطنة بصونغاي).

بَنْدُ السَّلْطَنَة

دَبِ (نوع من القماش الفاخر).

صُنِيَّة

طَبْلُ السَّلْطَنَة (من شارات السلطنة بصونغاي).

فُتُرِفُ (آلة عزف في الحرب).

كاصُ (مغرفة تستخدم في الطبخ).

كاكَكِ (كَكَك: بوق عملاق ينفخ فيه عند الحرب).

كَبَتَنْدَ (طبل كان يضرب في المحافل الرسمية).

كَفِ (طاعون استشرت بصونغاي).

كَكَكِ (كاكاك: بوق عملاق للحرب).

ملف وِنْدِ (زي موحد فصله أسكيا مر بنكن لخدم بالقصر).

وَدْعِ (أصداف بحرية تستعمل نقدا).

* * * *

الفازازي، أبو زيد عبد الرحمن أبو سعيد يخلُفْتَن بن أحمد. ديوان الوسائل المتقبلة في مدح النبي ﷺ، (مصر: المطبعة الميمنية، ١٣٢٢هـ).

كربخال، مارمول. أفريقيا، ت: محمد حجي وآخرون، ١٩٨٤م).

المقري، أحمد بن محمد. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م).

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ١٣٠٠هـ).

ولد السالم، حماه الله. تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، للقاضي محمود كعت المتوفى سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣، وتكملته: «تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان» لابن المختار، (تحرير وتقديم)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، لبنان، ٢٠١٢م/ ١٤٣٣).



المصادر والمراجع

البغدادي، الحافظ. تاريخ بغداد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ).

البكري، أبو عبيدة. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب: المسالك والممالك، (بغداد: مكتبة المثنى، د.ت).

الزبيدي، أبو الفيض المرتضى محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق. تاج العروس من جواهر القاموس، (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ).

السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران. تاريخ السودان، ترجمة: هوداس و بنوة، (باريس: المدرسة الباريسية لتدريس الألسنة الشرقية، ١٩٨١م).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الأشباه والنظائر، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٥م).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م).

الشريسي، أبو العباس أحمد عبد المؤمن القيسي. شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (سيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

عثمان، عبد النعيم ضيفي. المختار من تاريخ الفتاش في أخبار الجيوش والبلدان وأكابر الناس» (تقديم ودراسة)، (القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م).

ابن فارس، أبو الحسن أحم.، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبوعمرو، (بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

- J., F., Ade Ajayi (ed). Africa in the nineteenth century until the 1880s, (UNESCO, Jordin Hill, Oxford : Heinemann ; Berkeley, Calif., U.S.A., 1989).

- John Llifee. The African Poors: A History, (Cambridge University Press, 1986).

- John O. Hunwick, Ousmane Kane; et al. Arabic literature of Africa. Vol. IV, Writings of Western Sudanic Africa, (Leiden ; New York : E.J. Brill, 2003).

- John O. Hunwick. Timbuktu and the Songhay Empire : Al-Sa'di's Ta'rikh al-sudan down to 1613, and other contemporary documents, (Leiden ; Boston : Brill, 2003).

- John, Desmond Clark (ed). The Cambridge history of Africa 1 : From the earliest times to c. 500, (Cambridge : Cambridge Univ. Press, 1982).

- John, E., Flint (ed). The Cambridge history of Africa (vol.5), From c.1790 to c.1870, (Cambridge : Cambridge Univ. Press, 1976).

- John, Llifee. The African Poors: A History, (Cambridge University Press, 1986), p46.

- John, Ralph Willis. In the path of Allah : the passion of al-Hajj ?Umar : an essay into the nature of charisma in Islam, (London, England ; Savage, Md. : F. Cass, 1989).

المراجع بلغات أخرى:

Books:

- Bruce S. Hall. A History of Race in Muslim West Africa 1600-1960, (Cambridge University Press, 2011).

- Clifford, Edmund Bosworth. The New Islamic dynasties: a chronological and genealogical manual

l'agroforesterie en zone ب - Daniel, Yves Alexandre. Initiation lienne: les arbres des champs du plateau central au Burkinaإsah Faso, Karthala, 2002)

- Dierk, Lange. Ancient Kingdoms of West Africa, (J.H. Roll Verlag, 2004).

- DuBois, William Edward Burghardt. The world and Africa : an inquiry into the part which Africa has played in world history, (New York International Publ., 1972).

- Elias, N., Saad. Social history of Timbuktu, (New York: Cambridge University Press, 1983).

- Ivor, Wilks. Asante in the nineteenth century : the structure and evolution of a political order, (London ; New York : Cambridge University Press, 1975).

- J. D. Fage; Roland Anthony Oliver; The Cambridge history of Africa, (Cambridge ; New York : Cambridge University Press, 1975-1986).

du Chercheur, (Traduction Francaise), par : Mahmoud Kati ben El-Hadj El-Motaouakkel Kati, (Paris: Ecole des Langues Orientales Vivantes, Ernest Leroux, 1913).

- Timothy, Insoll. The archaeology of Islam in sub-Saharan Africa, (Cambridge, U.K.; New York : Cambridge University Press, 2003).

- Walter, Lytle Pyle. Anomalies & Curiosities of Medicine, (Plaint Label Books, n.d).

Journal Articles:

- John O. Hunwick. "some notes on the term "zanj" and its Derivatives in a West African Chronicle", RBCAD, 4, (1968).

- John O. Hunwick. "West African Arabic Manuscript Colophons I: Askiya Muhammad Bani's Copy of the Risala of Ibn Abi Zayd", Sudanic Africa, Universitetet i Bergen. Centre for Middle Eastern and Islamic Studies.; Bergen, Norway.

- John O. Hunwick. Studies in Ta'rikh al-Fattash, III., Sudanic Africa, II, 2001, 111-114.

- Johnson, Marion. "The Economic Foundations of an Islamic Theocracy, The Case of Masina", Journal of African History, xvii, 4, 1976, p481-495.

- Levtzion, Nehemia. A A Seventeeth-Century Cronicle by ibn al-Mukhtar: A Critical Study of "Tarikh al-Fattash", Bulletin of

- John, Ralph Willis. Studies in West African Islamic history, (London : F. Cass, 1979).

- Kati, Koppana. Snake fat and knotted threads : an introduction to traditional Finnish healing magic, (Loughborough : Heart of Albion, 2003).

- Language, (New York: Columbia University Press, 1996).

- Larry, Stephen Milner. Hardness of Heart, Hardness of Life, The stain of Human Infantcide, (University Press of America, 1998), p161.

- Launay, Robert., Beyond the Stream: Islam in West African ،Town, (CA: California University Press, 1992).)

- Mark R Lipschutz; R Kent Rasmussen. Dictionary of African historical biography, (Berkeley : University of California Press, 1986).

- Mark R. Lipschutz, and R. Kent Rasmussen. Dictionary of African Historical Biography, (University of California Press).

- Niane, Djibril T., Joseph Ki, Zerbo. Africa from the Twelfth to the Sixteenth Century, (University of California Press, 1997).

- Niane, Djibril Tamsir. Histoire des Mandingues de l'Ouest : le royaume du Gabou, (Paris : Karthala : Association ARSAN, 1989).

- O. Houdas & M. Delafosse, Tarikh el-Fettach, ou Chronique

القسم الثاني : نصوص كتاب الفتاش

the School of Oriental and Africa Studies, University of London, Vol.34, No.(3), 1971, p571-593.

- Muhamed, Camara. "Benediction et Malediction in Fulani Culture", Indigenous Nations Journal, Vol.6, No.1, Spring 2008

- Paul E. Lovejoy. "Kola in the History of West Africa", Cahiers d'Etudes Africaines, Vol 20, (1980), pp97-134.

- Timothy, Insoll. "Timbuktu the less mysterious?". Researching Africa's past: new contributions from British archaeologists: proceedings of a meeting held at St. Hugh's College, Oxford, April 20th 2002. Chapter 11, pp. 81-88.



فهرس المحتويات

القسم الثَّالث: ملاحق وكشافات

